رؤية الجاحظ في عصري بني أمية وبني العباس
(٤١-٢٥٥هـ / ٦٦١-٨٦٨م)
دراسة تاريخية نقدية

Al Jahiz's Perspective of Umayyad and Abbasid Eras
A historical Critical Study

سليم بن محمد بن سعيد الهنائي

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة دكتوراه الفلسفة

في التاريخ

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

جامعة السلطان قابوس

سلطنة عمان

فبراير ٢٠١٦

لجنة الإشراف على الرسالة

اسم الطالب: **سليّم بن محمد بن سعيد الهنائي** الرقم الجامعي:١٦١٠٣

عنوان الرسالة: **رؤية الجاحظ في عصري بني أمية وبني العباس**
(٤١-٢٥٥هـ / ٦٦١-٨٦٨م)
دراسة تاريخية نقدية

لجنة الرسالة

١. المشرف الرئيس

الاسم: د. محمد عبد الله القدحات

الدرجة العلمية: استاذ مشارك

القســـم: التاريخ

الكلية: الآداب والعلوم الاجتماعية

التوقيــع: التاريخ: ١٧/٢/ ٢٠١٦م

٢. عضو لجنة الإشراف

الاسم: **د. خالد بن خلفان الوهيبي**

الدرجة العلمية: استاذ مساعد

القســـم: التاريخ

الكلية : الآداب والعلوم الاجتماعية

التوقيــع: التاريخ: ١٧/٢/ ٢٠١٦م

لجنة مناقشــة الرسالــة

١. رئيس اللجنة
الاسم: أ. د. عبد الرحمن صوفي عثمان
الدرجة العلمية: أستاذ
القســـم: علم الاجتماع والعمل الاجتماعي
الكلية / المؤسسة: كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
الجامعة: جامعة السلطان قابوس
التوقيــع: التاريخ: ٢٠١٦/٢/١٧م

٢. المشرف
الاسم: د. محمد عبد الله القدحات
الدرجة العلمية: استاذ مشارك
القســـم: التاريخ
الكلية: الآداب والعلوم الاجتماعية
الجامعة: جامعة السلطان قابوس
التوقيــع: التاريخ: ٢٠١٦/٢/١٧م

٣. الممتحن الداخلي
الاسم: أ.د. محمد بن معمر
الدرجة العلمية: أستاذ
القســـم: التاريخ
الكلية / المؤسسة: كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
الجامعة: جامعة السلطان قابوس
التوقيــع: التاريخ: ٢٠١٦/٢/١٧م

٤. الممتحن الخارجي
الاسم: أ. د. محمد بن ناصر آل ملحم
الدرجة العلمية: أستاذ
القســـم: التاريخ والجغرافيا
الكلية / المؤسسة: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الجامعة: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
التوقيــع: التاريخ: ٢٠١٦/٢/١٧م

٥. الممتحن الخارجي
الاسم: أ. د. يوسف أحمد بني ياسين
الدرجة العلمية: أستاذ
القســـم: العلوم الإنسانية
الكلية / المؤسسة: كلية الآداب والعلوم
الجامعة: جامعة قطر
التوقيــع: التاريخ: ٢٠١٦/٢/١٧م

الإهداء

إلى من كلل العرق جبينها ... وشققت الأيام يديها ،،، (أمي)

إلى من علمني أن الأعمال الكبيرة لا تتم إلا بالصبر والعزيمة والإصرار،،، (أبي)

إلى من ضحوا بوقتهم من أجلي،،، (زوجتي وأبنائي)

إلى الشموع التي تحترق لتضيء للآخرين،،، (اخواني وزملائي)

إلى كل من أضاء بعلمه عقل غيره ،،، (أساتذتي)

إلى كل من علمني حرفا ،،،

أهدي هذا البحث المتواضع راجياً من المولى عز وجل أن يجد القبول والنجاح،،،

الشكر والتقدير

الحمد لله ذي المن والفضل والإحسان، حمداً يليق بجلاله وعظمته. وصلى الله على خاتم الرسل، من لا نبي بعده، صلاةً تقضي لنا بها الحاجات، وترفعنا بها أعلى الدرجات.

فإنني أَدِينُ بعظيم الفضل والشكر والعرفان بعد الله سبحانه وتعالى في إنجاز هذا البحث وإخراجه بالصورة المرجوة؛ إلى المشرف على الرسالة: الدكتور محمد عبدالله القدحات الذي منحني الكثير من وقته، وجهده، وتوجيهاته، وإرشاداته، وآرائه القيمة. ومدَّ يد العون لي دون ضجر للسير قدماً بالدراسة نحو الأفضل سائلاً المولى القدير أن يجزيه عني خير الجزاء ويثيبه الأجر إن شاء الله.

وبكل إخلاص وتقدير وعرفان بالجميل أتقدم بالشكر إلى أساتذتي في قسم التاريخ الذين لم يألوا جهدا في توجيهي وإمدادي بما احتجت إليه طوال مدة بحثي، كما رعوني في دراستي منذ البكالوريوس والماجستير. كما أشكر كل من تفضل بتوجيهي في المراحل الأولى من البحث وكل من مد لي يد العون، ممن لم تسعفني الذاكرة بذكرهم، فجزاهم الله عني خير الجزاء.

وقبل الختام أتقدم بشكري الجزيل إلى أساتذتي الموقرين في لجنة المناقشة رئاسة وأعضاء لتفضلهم علي بقبول مناقشة هذه الرسالة، فهم أهل لسد خللها وتقويم معوجها وتهذيب نتوآتها والإبانة عن مواطن القصور فيها، سائلا الله الكريم أن يثيبهم عني خيرا.

وختاماً أسال الله العلي القدير أن يكون هذا العمل خالصاً لوجه، وأن يجعله علماً نافعاً، ويسهّل لي به طريقاً إلى الجنة.

ملخص البحث

رؤية الجاحظ في عصري بني أمية وبني العباس (٤١-٢٥٥هـ / ٦٦١-٨٦٨م) دراسة تاريخية نقدية

سليّم بن محمد بن سعيد الهنائي

تهدف الدراسة إلى البحث في تراث أبي عثمان الجاحظ التي فاقت الثمانين كتاباً ورسالة. اتبع الباحث في الدراسة المنهج التاريخي التحليلي ويتمثل ذلك في جمع الروايات التاريخية من كتابات الجاحظ ومقارنتها وتحليلها وصولا إلى تكوين صورة دقيقة للأحداث في تلك الفترة.

تنقسم الدراسة إلى مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة، وقد تناول التمهيد ملامح عصر الجاحظ السياسية والاجتماعية والفكرية. أما الفصل الأول فتناول سيرة الجاحظ ومنهجه في كتابة الرواية التاريخية: مولده، ونشأته، وثقافته، وشيوخه، وكذلك اتصاله بالسلطة العباسية، وأثر التيارات الفكرية في تكوينه الفكري الاعتزالي، كما عرض الفصل رؤيته التاريخية ومنهجه في تناول الجوانب التاريخية في مصنفاته الأدبية كالحيوان والبيان والتبيين والبخلاء والرسائل الأخرى.

أما الفصل الثاني فقد ركز على دراسة رؤية الجاحظ في عصر بني أمية، موضحا الموقف المناوئ للجاحظ تجاه بني أمية، وأحقية خلافتهم. كما عرض موقف الجاحظ من معاوية في نزاعه مع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) على قضية الخلافة، كذلك استعرض الفصل موقف الجاحظ من قضية توريث الخلافة في الدولة الأموية.

وجاء الفصل الثالث على غرار الفصل الذي سبقه في تناول رؤية الجاحظ في عصر العباسيين الأوائل وهو العصر الذي عاش الجاحظ جزءاً كبيراً منه، وكان خلال تلك الفترة قريباً من السلطة العباسية، وكتب دفاعاً عنها وعن رؤيتها للحكم وحقها في الخلافة. كما دافع عن قضية التوريث عند الخلفاء العباسيين.

وكان الفصل الرابع متمماً لما تم تناوله في الفصلين الثاني والثالث، فقد استعرض بالدراسة والتحليل موقف الجاحظ من الحركات السياسية والفرق الدينية التي ظهرت في الدولتين الأموية والعباسية، ويلاحظ أن الجاحظ في معالجته لهذه التيارات كان أشبه بالناطق باسم الدولة العباسية والمدافع عن مبادئها وسياستها. وقد عرض الفصل الأسباب التي جعلت الجاحظ يدافع عن الإسلام ضد الشعوبية والزندقة، وكذلك تصديه لحركات الشيعة والزندقة، أما بالنسبة للمعتزلة فقد عرض الفصل موقف الجاحظ المعتزلي من قضايا مختلفة ومن أهمها نظرة المعتزلة لقضية الخلافة (الإمامة).

Abstract

Al Jahiz's Perspective of Umayyad and Abbasid Eras
A historical Critical Study

BY: Sulaiyam bin Mohammad bin Said Al Hinai

This study aims to explore the literature of Abi Othman Al Jahiz, which exceeded eighty books and essays. The reviewer followed the analytic historical methodology, which is collecting the historical narrations from the books of Al Jahiz and comparing and analyzing them to formulate a precise image for the events of that period.

The review has an introduction, a preface, four chapters, and an epilogue. The preface presented the political, social and intellectual features of the era of Al Jahiz. The first chapter discussed the history of Al Jahiz and his methodology in the historical narration as well as the history of his birth, education, mentors, and his contact with the Abbasid authority and his methodology in presenting the historical aspects in his literature like *Al Haywana, Al Bayan, Al Bukhala'* and other essays.

The second chapter focused on Al Jahiz's Perspective of Umayyad era and highlighted the opposing stance of Al Jahiz to the Umayyad and their right in the Caliphate. It also mentioned the stand of Al Jahiz from Mua'awiya in his dispute with Ali bin Abi Talib on the issue of caliphate. It also presented the stance of Al Jahiz from the issue of bequeathing the caliphate in the Umayyad state.

The third chapter, like the second, discussed Al Jahiz Perspective of Abbasid era, which is the era Al Jahiz lived the best part of his life in. At that time, he was close to the Abbasid authorities and wrote in defense of them and their views of and entitlement to the caliphate and he defended the bequeathing of caliphate in the Abbasids.

The fourth chapter completed the second and third chapters and presented and analyzed the stance of Al Jahiz from the political movements and religious sects at the states of Umayyad and Abbasids. One can note that Al Jahiz was more like the spokesperson of the Abbasid state in his discussions and defense of their principles and politics. The chapter also discussed the reasons of his defense against the Shu'ubism and atheism and his opposing to Shia movements. As for the Mu'atazila, the chapter presented the stand of Al Jahiz, who was from Mu'atazila, from various issues, most important of which, the issue of Caliphate (Imamate).

قائمة المحتويات

الاختصارات:

١. د.ت: بدون تاريخ
٢. ب.د: بدون دار نشر (no pub)
٣. ب.م: بدون مكان النشر .
٤. ب.ط: بدون طبعة
٥. ت : تاريخ الوفاة
٦. ت.ح: تحقيق
٧. تر: ترجمة
٨. جـ: جزء
٩. ص: رقم الصفحة (p)
١٠. ط: الطبعة
١١. م : المجلد
١٢. م: ميلادي AM : ميلادي
١٣. هـ : هجري AH : هجري
١٤. Vol : رقم المجلد أو الجزء

المقدمة

يعد الجاحظ أبرز الأدباء والمفكرين المسلمين في القرنين الثاني والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين. وكانت مصنفاته التي تعبر عن خلاصة فكرة مثار اهتمام الباحثين فقد وجد الأديب في أعماله بغيته، فتناوله أديبا، والفلاسفة وجدوا في مصنفاته مبتغاهم وأهل الفكر درسوا فكره الاعتزالي وأثره في مسيرة الاعتزال.

وفي السنوات القليلة السالفة، التفت الباحثون والمشتغلون بالتاريخ إلى مصنفات الجاحظ يبحثون عن مادة تفيد دراسة الجوانب الحضارية في القرنين الثاني والثالث الهجريين. والذي يعد عصر ازدهار الحضارة الإسلامية.

وعلى الرغم من أنه لا يمكن نعت الجاحظ بالمؤرخ، لأنه لم يتناول الأحداث التاريخية هدفاً وغاية بل وسيلة، استخدم خلالها الرواية التاريخية لدعم وعرض فكره وآرائه آملاً من كل ذلك تأكيد رأيه في قضية يعتقدها؛ إلا أن ما حشده من روايات تاريخية تناولت كثيراً من أحداث التاريخ الإسلامي في القرنين الأول والثاني الهجريين بشكل عام، في الوقت نفسه، فإن آرائه ومواقفه السياسية في الكثير من القضايا، كقضية الخلافة في العصرين الأموي والعباسي، ومعالجاته كذلك لبعض القضايا السياسية والفكرية التي شهدها كل من العصرين الأموي والعباسي تجعل من كتابات الجاحظ مصدراً مهما في دراسة تطور مسألة الخلافة وما رافقها من ظهور الفرق والتيارات السياسية التي ناقشت قضية الخلافة.

تأتي هذه الدراسة والموسومة بـــ { رؤية الجاحظ في عصري بني أمية وبني العباس} لتتناول الروايات التاريخية التي تضمنتها مصنفات الجاحظ، والكشف عن رؤية الجاحظ التاريخية والسياسية، وخاصة رؤيته للدولتين الأموية والعباسية. إن هذه الرؤية لم نجدها مباشرة وواضحة في كتاب أو رسالة من رسائله بل جاءت عبر روايات مبثوثة في مختلف كتبه.

الهدف الثاني يتمثل في إبراز ما كتبه الجاحظ عن الأحداث التاريخية في دولة بني أمية والعصر العباسي الأول، وإذا سلمنا أنه لم يكن مؤرخا ولم يكن يكتب بهدف التأريخ، لكن ما كتبه وتفرد به في هذا الجانب يؤكد حقيقة أهمية مصنفاته والتي بعد دراستها وتحليلها تظهر أهميتها التاريخية. ومن الأمثلة التي نسوقها للتدليل على أهمية مصنفات الجاحظ عرضه للنزاع الذي دبَّ بين الإمام علي ومعاوية وموقفه من ذلك النزاع، وكذلك مناقشته لموضوع التوريث

الأسري في دولتي بني أمية وحتى العباسيين، وكذلك حديثه عن الحركات السياسية والدينية التي عاصرها.

وتمثل الهدف الثالث من الدراسة بعرض الدور الذي لعبه الجاحظ في إبراز الهوية الثقافية والسياسية العربية والإسلامية من خلال مصنفاته ورسائله، فقد لعب الجاحظ دوراً مهما في الدفاع عن اللغة العربية وعن العروبة التي غدا لها معنى ثقافي وفكري جديد. كما تصدى للحركات الفكرية التي تستهدف الإسلام واللغة العربية.

عاش الجاحظ ما يربو على تسعين عاما(١٦٠هـ - ٢٥٥ هـ / ٧٧٦- ٨٦٩ م) قضى مدة طويلة منها في ظل رعاية الدولة العباسية وقريباً من مجالس خلفائها، وقد أعطاه ذلك مكانة جعلته قادراً على الاطلاع على أسرار ووثائق لم يطلع عليها غيره، لذا يتفرد الجاحظ ببعض تلك الروايات التي تكون تصحيحا لحقائق تاريخية[١].

اتبع الباحث في إعداد الدراسة المنهج التحليلي والوصفي الذي قام على جمع الروايات التاريخية المبثوثة في مصنفات الجاحظ، ثم العمل على تحليل تلك الروايات، سواء كانت على شكل نصوص أم آراء حول موضوعات متنوعة، كما استخدم المنهج الوصفي في بعض الأجزاء من خلال الرجوع إلى مصنفات الجاحظ والمصادر الأخرى المعاصرة واللاحقة له. كذلك الرجوع إلى معاجم اللغة العربية عند الحاجة إليها للتعريف بمعاني المفردات والمصطلحات.

---

١ - أورد الجاحظ في رسائله مثل النابتة والعثمانية وفضل هاشم العديد من الروايات معددا ومفصلا وشارحا، وقد احتوت الدراسة على تلك الروايات في الفصل الثاني والثالث عند معالجة الجاحظ للتاريخ الأموي والعباسي وأيضا في تناوله لموضوع الحركات السياسية والدينية.

الدراسات السابقة

كان الجاحظ ومصنفاته مثار اهتمام القدماء والمحدثين، فتناوله البعض أديباً وناقدا، وآخر فيلسوفا[1]، أما الاهتمامات التاريخية للجاحظ، فلا توجد دراسة أكاديمية عالجت المادة التاريخية التي ضمنها الجاحظ مصنفاته؛ من حيث الاعتماد على النصوص التاريخية واستخراجها وتحليلها والتعمق في ما كتبه من روايات وأخبار.

وهنا نشير إلى الدراسات التي تناولت الجاحظ ومصنفاته، أو تناولت جانبا من الجوانب الحضارية والتاريخية:

١. محمد محمود الدروبي، آثار الجاحظ، دراسة توثيقية، رسالة ماجستير في اللغة العربية غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٤م.

هدفت الدراسة إلى إحصاء آثار الجاحظ، سواء المنسوب له أم المنحول، وكذلك تحليل العنوان الأصلي لكل أثر من مصنفات الجاحظ، إذ أن مسألة تباين عناوين كتب ورسائل الجاحظ قد أثارت الكثير من التساؤلات حول صحة نسبتها له.

كما سعت الدراسة إلى تتبع الفترة الزمنية التي كتب فيها الجاحظ كل أثر من آثاره، وهدف الباحث من ذلك إلى التعرف على الاتجاهات الفكرية التي تبناها الجاحظ أو التي عاصرها، كما هدفت إلى عرض الجهود التي بذلها الباحثون للعناية بتراث الجاحظ وحفظه؛ وأبرز الظواهر التوثيقية المتعلقة بآثار الجاحظ، كما عالجت تراث الجاحظ

---

١ - من الدراسات التي تناولت الجاحظ: إحسان عباس، ملامح يونانيّة في الأدب العربيّ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

- جليل أبو الحبّ، نُقول الجاحظ من أرسطو في كتاب الحيوان. الشؤون الثقافية العامة: بغداد ، ٢٠٠١م.

- شوقي ضيف، العصر العبّاسيّ الثاني، دار المعارف، الطّبعة الثّانية، القاهرة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربيّ، دار المعارف، الطّبعة العاشرة، القاهرة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- عيسى العاكوب، تأثير الحكم الفارسيّة في الأدب العربيّ، دار طلاس، الطّبعة الأولى، دمشق، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

- محمّد المصريّ، أثر الفكر اليونانيّ على الناقدين العربيين: الجاحظ وقُدامة بن جعفر، دار العدوي، الطّبعة الأُولى، عمّان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- مجيد عبد الحميد ناجي، الأثر الإغريقيّ في البلاغة العربيّة من الجاحظ إلى ابن المعتز، مطبعة النجف، النجف، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

المبتور الذي لا يتمتع بصفة النص الكامل، ورصدت الآثار المنسوبة للجاحظ، مستعينة بالأدلة العلمية التي تثبت النسبة المفتعلة لهذه الآثار وبراءة الجاحظ منها.

تكمن أهمية الدراسة في أنها أشارت إلى العدد الحقيقي لتراث الجاحظ، والذي بلغ واحدا وثمانين مصنفا، لكن مجموع ما نسب إليه بلغ مائتين وأربعين أثرا ذكرت عناوينها.

كما أثبتت الدراسة صحة نسب بعض الآثار للجاحظ والتي شكك فيها بعض المعاصرين، مثل كتاب التبصر بالتجارة وكتاب الحجاب وكتاب الحنين إلى الأوطان، كما نفت الدراسة نسبة بعض الآثار الأخرى معتمدة على الأدلة العلمية، وحقيقة إن المتعمق في تراث الجاحظ وأسلوبه وفكره يستطيع أن يفرق بين تراث الجاحظ وما هو منسوب إليه، فالأسلوب في الغالب لا يتغير إلا بوجود فاصل زمني طويل.

٢. إيمان عبد الرحمن هياجنة. الجاحظ مؤرخاً(١٦٠هـ - ٧٧٦م / ٢٥٥هـ - ٨٦٩م). رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، ١٩٩٦م.

احتوت الدراسة ترجمة للجاحظ وسيرته والعلماء الذين اتصل بهم، وترحاله بين البصرة وبغداد وسامراء، كما اشتملت على حياته ونشأته وطبيعة عصره، وأشهر تلاميذه ومؤلفاته، وأخيرا مرضه ووفاته، أما شيوخ الجاحظ فقد قدمتهم؛ كما تناولت الدراسة منهجية الجاحظ في كتابة التاريخ، حيث عرضت الباحثة أسباب تصنيف الجاحظ مؤرخاً.

ثم قامت الباحثة بجمع الروايات التاريخية من مصنفات الجاحظ، وقد بلغ مجموع الروايات التي ذكرتها الباحثة حوالي أربعمائة وخمسٌ وخمسون رواية موزعة بين العهد النبوي والراشدي، والدولة الأموية والعصر العباسي حتى وفاة الجاحظ، كما عالجت الباحثة أسلوب الجاحظ في إسناد رواياته، أما منهج الجاحظ في كتابة التاريخ فإنه يعتمد على عدم الاهتمام كثيرا بالسند في الرواية، وأشارت أن مصادر الجاحظ تعتمد على قربه من الشخصيات المقربة من بلاط الخلافة التي يستقي منها مادته كم أضافت أن الجاحظ عندما يذكر أي رواية تكون على لسان عدة أشخاص حتى يجعل القارئ على يقين من صحتها[١]. كما أوضحت الباحثة أن عقيدة الاعتزال أثرت عليه حيث جعلته أسلوبه ينطلق من روح الفكر الذي يحمله، كما اعتمد أسلوب الحوار من أجل إبعاد السأم والملل من نفس القارئ.

---

١ - أشار بلا أن الجاحظ لم يلجأ إلى الإسناد إلا نادرا. الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٤٣.

وعلى الرغم من أن الباحثة لم تحلل ولم تستعرض أهمية الروايات التي أوردتها لكن أهميتها تكمن أنها قاعدة للباحثين الذين يتناولون الجاحظ من الجانب التاريخي فيما بعد، إذ أن الروايات مصنفة ومرتبة زمنيا، حسب الأحداث وحسب الشخصيات.

٣. محجوب أحمد سليمان الزويري، الإمامة عند الجاحظ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٥م.

تقدم الدراسة قراءة تاريخية لتطور مسألة الإمامة منذ العهد الراشدي من خلال تراث الجاحظ، وتوضح مسألة إقرار الجاحظ مع بقية التيارات في عصره مثل المعتزلة والزيدية بشرعية الخلافة الراشدة، وتستعرض انتقاد الجاحظ لبني أمية، معتبراً خلافتهم خلافة غلبة وقهر، ويظهر الجاحظ مآخذ بني أمية قبل وبعد الإسلام. إلا أن الدراسة أشارت إلى أن الجاحظ لم ينتقد مسألة ولاية العهد عند الأمويين وإنما انتقد تولية العهد لمن لا يستحق الخلافة مثل يزيد بن معاوية، كما عرضت الدراسة أن الجاحظ برر مسألة ولاية العهد عند العباسيين بسبب حاجة الناس لها.

وتظهر الدراسة موقف الجاحظ من الخلافة العباسية التي أقر الجاحظ بشرعيتها بسبب قربهم من الرسول صلى الله عليه وسلم، كما عرضت الدراسة مبرر الجاحظ في الدعوة لبني العباس بالإمامة بسبب ما يعانونه من كد ونصب من العامة. واستعرضت الدراسة موقف الجاحظ من الإمامة مبررا الحاجة الشرعية وحاجة الناس المنسجمة مع طبائع البشر، كما استعرضت الدراسة واجبات الإمام من خلال رؤية الجاحظ وعلاقته بالدولة العباسية.

٤. جمال فؤاد العطار. الفكر السياسي عند الجاحظ مع الإشارة بوجه خاص إلى مسألة الخلافة "الإمامة"(THE POLITICAL THOUGHT OF AL-JÄHIZ WITH SPECIAL REFERENCE TO THE QUESTION OF KHILAFA "IMAMATE") ، رسالة دكتوراه في الفلسفة، جامعة أدنبرة، ١٩٩٦م.

عرضت الدراسة تطور مسألة الإمامة قبل العصر العباسي أي في فترة الخلفاء الراشدين وفي الفترة الأموية. كما عرضت تطور مسألة الخلافة قبل وفي عصر

الجاحظ، مثل النظرة السياسية للعباسيين، وأهمية لقب الخليفة العباسي. وقضية الإمامة خلال العصر العباسي.

بذل الجاحظ حسب ما يشير الباحث جهدا في سبيل إخراج معيار للشروط التي ينبغي أن تتوفر في الإمام، وقد سعى الجاحظ في أن يكون حيادياً في رأيه بعيدا عن تأثير الوسط البصري الذي عاش فيه، متوافقا مع ميوله العباسية ومع عدائه لبني أمية، ولكن بطبيعة الحال هذا العداء لم يكن خطأ مستمراً في حياة الجاحظ بل كان يخضع لأحوال الجاحظ ومدى قربه من السلطة الحاكمة.

كما أن للباحث رسالة أخرى بعنوان: آراء الجاحظ في مناقب الأمم. رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية في بيروت، ١٩٨٩م. احتوت الدراسة رأي الجاحظ في العرب وسائر الأمم المعتبرة[١]. مثل الهند وما تميزت به في الخط والحساب. كما احتوت رأي الجاحظ في الفرس والخراسانيين، كذلك الروم ومناقبهم، كما تناول الترك وأشاد بهم، كذلك تناولت الدراسة أهل الصين، وما خصوا به من الصناعات، واليونان وما نسب إليهم؛ كما شملت عرض أراء الجاحظ في الأمم غير المعتبرة[٢] مثل الصقالبة والسودان، وأخيرا أدرج الباحث مقاييس الجاحظ في الحكم على الأمم.

٥. وديعة طه النجم، "الجاحظ والحاضرة العباسية"، رسالة دكتوراه في الأدب، جامعة بغداد ١٩٦٥م.

تكمن أهمية الدراسة في مناقشة الباحثة لطريقة كتابة الجاحظ، فقد أشارت إلى أن الجاحظ لا يورد رأيا شخصيا في مؤلفاته، بل يورد آراءه بطريقة مبهمة يمكن أن يستشف القارئ ذلك من خلال العبارات التي تأخذ طابع التورية، إذ يبدو للقارئ أن الجاحظ محايد في رأيه لكنه في الحقيقة ليس كذلك، ويمكن إثبات ذلك في العديد من مؤلفاته ومواقفه.

أوضحت الباحثة أن الأسلوب المتبع عند الجاحظ هو الاستطراد إذ ذكرت طبيعة الخروج عند الجاحظ في المضمون الذي يعالجه والمضي فيه إلى أبعد الحدود، وهذا سهل مهمة انتخاب مؤلفات محددة للجاحظ، وعلى الرغم من أهمية الرسالة إلا أنها اقتصرت على سرد وعرض روايات الجاحظ دون أي معالجة، كما أن المنهج الذي ذكرته الباحثة للجاحظ

---

١ - يرى الباحث أن الأمم المعتبرة والتي عرضها من خلال أراء الجاحظ هم العرب والفرس والهند والروم والصين والترك واليونان، معتمدا على مناقب كل أمة وما تميزت به عن سائر الأمم. ص٣

٢ - غير المعتبرة هم السودان والزنج والسند والأحباش والنوبة والقبط. ص٣

حصرته فقط في ثلاثة مناحي، على الرغم أن منهج الجاحظ يتجاوز ذلك إلى مناحي أخرى لا تكتشف إلا بتتبع طريقته في الكتابة.

وهناك بعض الدراسات التي استفادت الدراسة منها والتي تناولت جانبا من جوانب فكر الجاحظ مثل:

شارل بلا "الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء " . ترجمة إبراهيم الكيلاني. ط ١، دار الفكر، دمشق: ١٩٨٥م. استهل الكاتب دراسته بالحديث عن تأسيس البصرة وموقعها بين الشرق و الغرب وفي المواصلات التجارية وغيرها، ثم سكانها من مختلف الأجناس والطبقات الاجتماعية التي استقرت بها، وفي الفصل الثاني عرض للجاحظ في البصرة ونشأته وأصله وتكوينه الديني والفكري، وفي الفصل الثالث تكلم عن الثقافات التي كانت تعج بها البصرة والشخصيات التي برزت فيها من رجال ونساء، واهتم بالذات في هذا بالوسط الديني السني وخصص الفصل الرابع للوسط الأدبي الذي توسع فيه توسعا تناول فيه لغة التخاطب والفساد الصوتي والدراسات اللغوية والنحوية

وكذلك دراسة عبد المجيد الجوزي **مكانة العقل في فلسفة الجاحظ**، ماجستير في الفلسفة، تخصص :فلسفة إسلامية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي جامعة الجزائر، كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، ٢٠٠٤م.

هدفت الدراسة إلى إبراز فكر الجاحظ الفلسفي، بهدف استنباط فكره الفلسفي من خلال الأغراض الأدبية والتي تعد نوعا من أساليب" التقية" لجأ إليه الجاحظ ليخفي أفكاره الاعتزالية ليكون في منأى عن الصراع السياسي الدائر في أواخر حياته، وقد ركز الباحث في دراسته على الجوانب الأدبية واللغوية والنقدية بهدف استنباط فكر فلسفي للجاحظ.

ودراسة زكيه بجه. **النقد التطبيقي عند الجاحظ (كتاب الحيوان نموذجاً).** دراسة تاريخية وصفية، رسالة ماجستير في النقد القديم، تخصص :التاريخ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الحاج خضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر: ٢٠٠٤م.

وقد هدفت الدراسة إلى عرض جوانب النقد التطبيقي عند الجاحظ، واستفاد البحث منها من خلال التعريفات والمقارنات التي أوردتها الباحثة حول موضوع الاعتزال

ونشأته، وموقف الجاحظ من الاعتزال. لكن يلاحظ على الدراسة الاعتماد على مراجع حديثة، خاصة في تناول جوانب علم الكلام ونشوء الاعتزال، وفي الحديث عن فرقة المعتزلة، ولم تعتمد على مصادر تاريخية قريبة من عهد الجاحظ.

إضافة إلى ما سبق، فهناك عدد من الدراسات - وإن كانت ليست رسائل جامعية- اعتمدت عليها الدراسة في بعض الجوانب وخاصة حياة الجاحظ وتراثه الفكري، إلا أننا نذكر منها:

دراسة **جميل جبر "الجاحظ ومجتمع عصره" دار صادر، بيروت، (ب.ت).** تستعرض الدراسة الحياة التي عاشها الجاحظ والتي كانت سببا في نبوغه الفكري، حيث إن وجود سوق المربد وكذلك دكاكين الوراقين وحلقات المسجديين والمناظرات الأدبية والمساجلات الشعرية سببٌ في نبوغ الجاحظ الفكري.

ودراسة جبر مهمة في ما يتعلق بالفرق التي أشرنا إليها، كما أن هناك خليطاً أخر من المجتمع يتكون من الأطباء وأصحاب المهن ذكرهم جبر ، كذلك أشار جبر إلى نقطة مهمة تتعلق بالأمويين واتباعهم، ونظرة الريبة والشك التي نظر فيها إليهم العباسيون وخشيتهم من رغبتهم في إعادة مجدهم، لذا كلفوا الجاحظ أن ينبري لهذه المهمة في الدفاع عن العباسيين ورفع شأنهم وتثبيتهم في السلطة وإيجاد مسوغ وحق مشروع في توليهم السلطة على عكس الأمويين.

واستعانت الدراسة بمصنف **حسن السندوبي "أدب الجاحظ " المطبعة الرحمانية: مصر، ١٩٣٥م.** تضمّنت الدراسة أصل الجاحظ ونسبه كما تناولت أساليب التعليم في ذلك العهد والأسلوب الذي تعلم به الجاحظ، ومصادر رزقه وكيف أثرت على ميوله نحو العلم، كما عرضت بداية علاقة الجاحظ بالسلطة العباسية وترأسه لديوان الرسائل.

تُعدّ دراسة السندوبي من أوائل الدراسات التي تناولت الجاحظ وآثاره، والتي فتحت المجال لدراسات عديدة أخرى في هذه المجال، حتى وإن كانت الدراسة تفتقر العمق في المعالجة إلا أنها تميزت بجمعها لآثار الجاحظ بغض النظر عن موضوع دقة العدد، وكذلك ساعدت في تكوين صورة للبيئة التي عاشها الجاحظ والمراحل التي مر بها حتى وصوله وقربه من السلطة العباسية.

التمهيد

ملامح عصر الجاحظ السياسية والاجتماعية والفكرية

أسهم انتصار الثورة العباسية في تغييرات جذرية في الجوانب السياسية والاجتماعية والفكرية، إذ اتسمت السياسة التي سار عليها الخلفاء العباسيون بالدفاع وليس الهجوم كما كان حال زمن الدولة الأموية، واستفتحوا عهدهم بأن أطلقوا على ثورتهم اسم "دولة"[١] "**فشغل ابن هبيرة بإصلاح العراق عن إمضائهم إلى خراسان، وكلّ ذلك من قوة أسباب الدعوة وإقامة الدولة، ثم قيّض الله أبا مسلم حتى انتهت به الغاية، وحصد من كان يرمقها ويطمع فيها**"[٢].

لقد قامت الخلافة العباسية على مبدأ الإسلام، ساعية إلى تحقيق العدالة للمستضعفين راغبة في كسب كل العناصر لها، منطلقة من مبدأ حق بني العباس من منظور أنهم (آل البيت) "**الحمد الله الذي اصطفى الإسلام لنفسه فكرّمه وشرّفه واختاره لنا، وأيّدنا به، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه، والقوّام به والذابّين عنه والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحقّ بها وأهلها، خصّنا برحم رسول الله صلى الله عليه وقرابته**"[٣] ومنددين بالأمويين الذين اغتصبوا الخلافة وكل من يوالي الأمويين أو يتقرب منهم "**وصار عبد الله بن علي إلى المسجد الجامع، فخطبهم خطبة مشهورة يذكر فيها بني أمية وجورهم وعداوتهم**"[٤]، كما عملوا على تقريب الموالي من خلال الأعطيات والهبات "**وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم**"[٥]. لكن إسهامهم السياسي محدود خاصة في بداية العصر العباسي[٦].

---

١ - كلمة دولة هنا لا تعني بالضرورة كيان سياسي مستقل، بل قد تعني دعوة أو حركة. انظر: مؤلف مجهول(القرن الثالث الهجري). أخبار العباس وولده(أخبار الدولة العباسية)، تحقيق عبد العزيز الدوري، ط٢، دار الطليعة، بيروت: ١٩٩٧م، ص ١١ (سيشار إليه فيما بعد: مجهول، أخبار العباس وولده).

٢ - مؤلف مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٢٥٢. انظر أيضا إلى ما ذكره المصدر: "ثم انّك تسير إلى قتال رجل داخل في طاعتك، ومظهرا الميل إليك من إقامة هذه الدولة العباسية" أخبار العباس وولده، ص ٢٩٩.

٣ - اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب(ت:٢٨٤هـ/٨٩٧م). تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت: ١٩٦٩م، جـ ٢، ص ٢٥١ (سيشار إليه فيما بعد: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي). الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٣٤٦. ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد(ت:٤٢١هـ / ١٠٣٠م). تجارب الأمم، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة: ١٩١٤م، جـ ٣، ص٣١٩ (سيشار إليه فيما بعد: ابن مسكويه، تجارب الأمم).

٤ - اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٥٤.

٥ - ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ٣، ص٣١٩.

٦ - "قال أبو حرة مولى خزاعة لما دعا لنفسه: ألهذا نصرناك إنما كنت تدعو إلى الرضى والشورى، أفلا صبرت وشاورت فنختارك ونبايعك وقال:

أبلغ أمية عني إن عرضت لها ... وابن الزبير وأبلغ ذلك العربا

أن الموالي أضحت وهي عاتبة ... على الخليفة تشكو الجوع والحربا". البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٦، ص٣٤١. فوزي، فاروق عمر. الجيش والسياسة في العصر الأموي ومطلع العصر العباسي(٤١-٣٣٤هـ / ٦٦١-٩٥٦م)، ط١، دار مجدلاوي، الأردن: ٢٠٠٥م، ص ١٦٨(سيشار إليه فيما بعد: فوزي، الجيش والسياسة).

كما أن الدولة العباسية بعد تحقيق ثورتها عملت على جذب الناس من خلال مبدأ عدم سفك الدماء[1]. فجابهت الدعوة العباسية في بداية نشأتها العديد من الأخطار المتمثلة في مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، الذي تم قتله بعد ملاحقته في صعيد مصر "سرح عبد الله بن علي احد رجاله إلى مروان فلحقه بقرية من قرى مصر يقال لها بوصير فقتل مروان في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة"[2]، كذلك تمكن أبو جعفر المنصور من التخلص من عمه عبد الله بن علي[3]، وقضى على أبي مسلم الخراساني[4]، كما قام بإخماد حركات العلويين في المدينة والتي كانت بقيادة محمد بن عبدالله وفي البصرة بقيادة إبراهيم بن عبدالله، كما تصدى لحركات الموالي والخوارج[5]. وإن يكن ساهم الموالي بدور في الثورة العباسية إلا أن دور العرب فيها كبير، ولذا فإن العرب لم يفقدوا نفوذهم خاصة في العصر العباسي الأول.

لقد كان للظروف السياسية التي مرت بها الدولة العباسية خاصة بعد وفاة المأمون سبب في اختيار المعتصم الذي تميز بشخصية عسكرية[6]، نابعا من الحكمة التي يتمتع به المأمون والتي رأى أن حال الدولة العباسية يحتم وجود رجل مثل المعتصم على رأس الخلافة. كما زاد في فترة المعتصم تجنيد الأتراك لما يتميز به الجندي التركي من البسالة والقدرة العسكرية كونه لا يرتبط برباط قبيلة ولا يدخل في حلف أو ولاء[7].

---

١ - عمل بنو العباس على هذا المبدأ بعد أن رأوا نفور الناس منهم، خاصة ما قام به أبو العباس السفاح من سفك دماء بني أمية وأتباعهم. انظر: المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص ١٧٢.

٢ - ابن خياط، أبي عمر خليفة بن خياط بن أبي هريرة(ت: ٢٤٠هـ / ٨٥٤م). تاريخ خليفة بن خياط، مراجعة مصطفى فواز وآخرون، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٥م، ص٤٠٤ (سيشار إليه فيما بعد: ابن خياط، تاريخ). انظر أيضا: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٩، ص٣٢٠. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص ٢٥٠. أما الطبري فيشير أن مروان مضى حتى قدم مصر ونزل منزلا يقال له بوصير فقتل بها. تاريخ، جـ ٤، ص ٢٥٣.

٣ - ابن خياط، تاريخ، ص ٤١٥. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٤٨٢.

٤ - الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داوْد(ت٢٨٢هـ / ٨٩٥م). الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مكتبة المثنى، بغداد: ١٩٩٧م، ص ٣٧٩- ٣٨٢ (سيشار إليه فيما بعد: الدينوري، الأخبار الطوال).

٥ - الطبري، تاريخ ، جـ ٤، ص ٣٩٥، ص ٤٥٤.

٦ - كان المعتصم شديد البدن والبأس، وذا شجاعة قلب، إن الحكمة التي أعنيها عند المأمون بتولية المعتصم من بعده، قد ظهرت جليا فيما قام به المعتصم في خلافته مثال ذلك: أسر بابك ، وقهره المحمرة من الخرمية ثم إخلاؤه الزط عن البطائح ثم هزيمة الأفشين لتوفيل ملك الروم، ثم فتحه عمورية. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي(ت٣٤٦هـ/٩٥٧م). التنبيه والإشراف، دار ومكتبة الهلال، بيروت:١٩٨١م، ص ١٢٨- ١٢٩ (سيشار إليه فيما بعد: المسعودي، التنبيه والإشراف).

٧ - ابن خياط، تاريخ ، ص ٤٧٥. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، ص ٦٧. فوزي، الجيش والسياسة، ص١٧٧.

ظلت تعاليم الإسلام تنتشر في البلاد المفتوحة، مما ساهم في دخول جماعات عديدة في الإسلام، الأمر الذي أدى إلى التمازج السياسي بين العرب وتلك الأجناس خاصة وأن الخلفاء العباسيين قد أكثروا من الموالي ويتضح ذلك من وصية المنصور لابنه المهدي "**إني قد جمعت لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلي وجمعت لك من الموالي ما لم يجمعه خليفة قبلي**"[١]. كما أدى اختيار بغداد عاصمةً في زيادة نفوذ الموالي في الدولة العباسية وخاصة العناصر الفارسية بسبب استخدام الخلفاء لهم في شؤون متعددة، فعملت على خدمة أغراضها السياسية، فالموالي أحسوا بشيء من الاحتقار في أوساط أشراف القبائل وبين العرب مما عملت على رفع منزلتها، كما ساهم تعدد السكان وامتزاجهم في ظهور ثقافات مختلفة ومتباينة، كل فئة تدعو إلى نفسها وتظهر محاسنها ومثالبها[٢].

ثم نقلت العاصمة من بغداد إلى سامراء بعد التصادم الذي حدث بين أهل بغداد المتمدنين والترك الجفاة في شوارع بغداد[٣]، ولم يقف دور بغداد عند هذا الحد بل كان لها دور في الفتنة التي وقعت بين الأمين والمأمون، كما أنها كانت السبب في جعل المأمون يغير سياسته ويعود من مرو إلى بغداد[٤].

لقد ترسخ في الدولة العباسية مبدأ الوراثة في الخلافة، فمبدأ سلطتهم حسب ما يرون مستمد من الله تعالى يقول المنصور: " **فقال أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده؛ وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه؛ فقد جعلني الله عليه قفلا، إن شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم**"[٥]. فقد انطلقت سياستهم من مبدأ ديني،

---

١ - الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٤٣. أمين، أحمد. ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: ٢٠٠٥م، جـ ١، ص١٦ (سيشار إليه فيما بعد: أمين، ضحى الإسلام).

٢ - جبر، جميل. الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد، دار صادر، بيروت: ب ت، ص٤١ (سيشار إليه فيما بعد: جبر، الجاحظ). أمين، ضحى الإسلام، جـ ١، ص١٦ ، ص ٣٩، ص ٧٥، ص١٦٠.

٣ - المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ١٢٩.

٤ - ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(ت: ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م). المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد الوهاب، مطبعة الأمانة، القاهرة: ١٩٨٥م، جـ ١١، ص ٦٥ (سيشار إليه فيما بعد: ابن الجوزي، المنتظم). فوزي، الجيش والسياسة، ص ١٧٨.

٥ - انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٢٦٨. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٣٣. ابن عبد ربه، أحمد بن محمد(ت: ٣٨٢ هـ / ٩٩٢م). العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحه، المكتبة العصرية، بيروت: ١٩٨٣م، جـ ٤، ص ١٨٦(سيشار إليه فيما بعد: ابن عبد ربه، العقد الفريد). ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن(ت: ٥٧١هـ / ١١٧٦م). تاريخ مدينة دمشق حماها الله و ذكر فضلها و تسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، تحقيق سكينة الشهابي، ط ١، دار الفكر العربي، دمشق: ١٩٨٢م، جـ٣٢، ص ٣١١(سيشار إليه فيما بعد: ابن عساكر، تاريخ دمشق).

لكن في جوهرها كانت منعزلة عن الناس ومستبدة[1]. كما عملت السلطة العباسية على ترسيخ نفسها سياسيا من خلال نصرة المظلومين، واستغلت ما من شأنه تقريب الناس منها مثل عدم إبقاء المقاتلة مرابطين على الحدود، كما عملوا على إيقاف الفتوحات.

لقد أدى التوسع والتعقد الذي ظهر في الدولة العباسية إلى ظهور تنظيمات جديدة فسحت المجال للظهور وازدياد نفوذها في المجتمع مثل العيارين والشطار والفتوة، كما ظهرت فئات مختلفة منهم العثمانية والشيعة والزنادقة والخوارج والمرجئة والدهريون والمعتزلة[2] والنصارى واليهود والروائدية[3]، يتناظرون فيما بينهم على مرأى من الخلفاء العباسيين منذ عهد الرشيد وحتى المأمون[4] "قال طاهر بن الحسين[5]: **حضرت عبد الله المأمون أنا وثمامة ومحمد بن أبي العباس وعلي بن الهيثم فتناظروا في التشيع فنصر محمد بن أبي العباس الإمامة ونصر علي بن الهيثم الزيدية وجرى الكلام بينهما إلى أن قال محمد لعلي يا نبطي ما أنت والكلام؟ قال: فقال المأمون -وكان متكئا فجلس- الشتم عي والبذاء لؤم إنا قد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات**"[6] في مثل هذه الحرية الفكرية التي سمحت بالجدل والكلام نشأ العديد من الكتاب والأدباء الذين أثروا الحضارة الإسلامية بفكرهم ومؤلفاتهم[7].

ودخلت عناصر جديدة من الموالي لتشارك في الإدارة، إذ تولوا الخاتم وأمر الضرائب والنظر في المظالم، ودور سك النقود، وغيرها من الوظائف " وعلى ديوان الخاتم أبو منصور **الكاتب من أهل خراسان**"[8] فكان على سبيل المثال استبداد البرامكة بالأمر دون الخليفة سببا في نكبتهم على يد هارون الرشيد الذي أسقطهم بعد تدبير وخطط بسبب التراكمات التي أخذها

---

١ - فوزي، الجيش والسياسة، ص ١٠٥، ١٠٦.

٢ - تم التعريف بهذه الفرق ومبادئها وتنظيماتها في الفصل الرابع

٣ - الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٩٥.

٤ - أشار جبري أن المأمون كان يكره في هذه المناظرات الشتم والبذاءة وإنما كان يهدف إلى اجتماع الناس إلى ما هو أرضى وأصلح للدين والناس. جبري، شفيق. الجاحظ معلم العقل والأدب، دار المعارف، مصر: ١٩٨٤م، ص ٣٣٨ (سيشار إليه فيما بعد: جبري، الجاحظ).

٥ - كان من أكبر أعوان المأمون، وسيره لمحاربة أخيه الأمين ببغداد ولما استقل المأمون بالأمر بعد قتل أخيه الأمين كتب إلى طاهر بن الحسين المذكور وهو مقيم ببغداد والمأمون مقيم بخراسان بأن يسلم إلى الحسن بن سهل جميع ما افتتحه من البلاد. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٥١٨-٥٢٠. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ١٠، ١٠٨.

٦ - الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ١٥٢.

٧ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٤. الزويري، الإمامة، ص ٤٦

٨ - ابن خياط، تاريخ، ص ٤٣٦.

عليهم، إذ أوضح الرشيد سبب نكبتهم بقوله :" فعل الله به، واستبد بالأمور دوني، وأمضاها على غير رأيي، وعمل بما أحبه دون محبّتي، فأمّن الحاضرون على رأيه، وزادوا في ذِكر المساوئ"[١].

لقد عملت الدولة العباسية على التوفيق بين العناصر السكانية رغبة في الاستقرار السياسي، يتضح ذلك من وصية المنصور ابنه المهدي بقوله: "أبا جعفر المنصور يقول للمهدي يا أبا عبد الله لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ولا تعمر البلاد بمثل العدل ولا تدوم نعمة السلطان وطاعته إلا بالمال ولا تقدم في الحياطة بمثل نقل الأخبار وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة وأعجز الناس من ظلم من هو دونه واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختباره"[٢].

يقودنا ذلك للحديث عن الأجناس التي ضمتها الدولة العباسية والأقليات التي نشأت تحت حمايتها مما أدى إلى اختلاط وتمازج هذه المجموعات السكانية مع الأمم الفاتحة والمفتوحة، وظهرت على أثر ذلك عادات سيئة أثرت على الأخلاق العربية، كما ساهم في ظهور التكتلات التي تتخذ الدين شعاراً لها مثل الشعوبية[٣].

لقد سمحت الدولة العباسية لجميع الفئات التي انضوت تحتها أن تشارك في مجالات الحياة العامة، فأصبح الولاء والكفاءة هما المعيار، لذا ظهر الموالي وأهل الذمة في الإدارة والتجارة ومجالات العلم والفكر، كل ذلك يمثل انسجاما مع تعاليم الإسلام الذي يدعو إلى التفاعل والاندماج بين فئات المجتمع وهذا ما حدث بين هذه الفئات التي تقلدت مناصب رفيعة في عهد الخفاء العباسيين[٤].

ساهم الاختلاط بين مكونات المجتمع في إطلاق الحريات الفكرية، فبعد أن كان الجدل في أمور الدين محرما زمن هارون الرشيد جاء المأمون الذي شجع على الجدال وأطلق العنان للأفكار[٥]؛ فساهم ميل المأمون نحو أهل العلم وأهل الكلام والفلاسفة والمفكرين أن يتخذ

---

١ - الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت: ٣٣١هـ / ٩٤٢م). الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، ط ٢، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة: ١٩٨٠م، ص ٢٢٦(سيشار إليه فيما بعد: الجهشياري، الوزراء والكتاب).

٢ - الطبري، تاريخ ، جـ ٤، ص ٥٢٣.

٣ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٧، ص ١٣١. أحمد أمين، ضحى الإسلام، جـ ١، ص ١٦.

٤ - انظر الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٤٥٤، ص ٤٧٤، جـ ٤، ص ٤٥٦. فوزي، فاروق عمر. مباحث في الحركة الشعوبية مفهومها ابعادها اهدافها، مطبعة المربد، بغداد: ١٩٨٦م، ص٣٧(سيشار إليه فيما بعد: فوزي، مباحث في الحركة الشعوبية). فوزي. فاروق عمر. دراسات في التاريخ الإسلامي، ط ١، مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن: ٢٠٠٦م، ص ٢٢٤ (سيشار إليه فيما بعد: فوزي، دراسات في التاريخ الإسلامي).

٥ - الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٢٤، ص ١٩. السندوبي، أدب الجاحظ، ص ٢١

الاعتزال مذهبا رسميا للدولة[1]، كما ظهرت الفرق والجماعات بأفكارها المندسة ونياتها المبيتة في طعن العرب وضرب الإسلام[2]. بعد أن كان العرب يجمعهم دين واحد ولغة واحدة أصبح الإنسان يحار من كثرة الفرق بين معتزلي وشيعي وزيدي ورافضي وبكرية وجبرية وفضلية ومرجئة وغيرها "**وأحيا العلم القديم ونقل إلى لسان العرب وأظهر علم النجوم والفلسفة**"[3].

لقد ساهم التمازج بين العرب والشعوب التي دخلت تحت لواء الإسلام أن صار هناك نوع من نظرات الاستعلاء من قبل تلك العناصر نحو العرب، وقد أدى ذلك إلى تنافس وإن كان مبطّناً ضد العرب، في محاولة لتقليل شأن العرب ودورهم في خدمة الإسلام، والتقليل من شأن اللغة العربية، وهذا ما أدى إلى ظهور حركة الشعوبية التي تعد من أخطر الأحداث التي ظهرت إضافة إلى حركة الزنادقة[4] والتي نادت بتفضيل العجم على العرب[5]، حيث دعت إلى إحياء التراث الفارسي وتفضيله على الإسلام، كما وصفت بالعنصرية المقيتة والعداوة الشديدة للعرب والإسلام[6]. أما الزندقة فشاعت بين أوساط الشعراء وكذلك بين طبقات الأدباء[7] بسبب الحرية التي أطلقها الخلفاء العباسيون[8]، كما ظهر في هذا العصر مذهب المعتزلة حيث نشطت

---

١ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر(ت: ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، جـ ٣، ص ١٠٢(سيشار إليه فيما بعد: المقريزي، المواعظ والاعتبار). بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩١. نوري، الجاحظ، ص ٣.

٢ - يرى بلا أن اعتزال عدد كبير من الناس الفتنة التي وقعت بين علي أو معاوية ولزموا الحياد أسموا أنفسهم الخوارج، وأضاف لعلهم هم الذين أوجدوا بعد أجيال حركة الاعتزال، كما أن بداية الاعتزال منذ أن اعتزل الناس الفتنة التي وقعت بين علي بن أبي طالب والسيدة عائشة، ومعها طلحة والزبير. الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٦٠.

٣ - المقدسي، المطهر بن طاهر(ت: ٣٥٥هـ/ ٩٦٥م). البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد: ب ت، جـ ٦، ص ١١٢ (سيشار إليه فيما بعد: المقدسي، البدء والتاريخ). انظر أيضا: ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١٠، ص ١٧٩. جبري، الجاحظ ، ص ٣٤٩

٤ - يرى بلا أن الهدف الأول من الشعوبية هو الوصول للحكم سواء كان بطرق مباشرة أم ملتوية، حيث لعب الدين دورا أساسيا معتمدا على نظام مذهبي في دعواها، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٥٦.

٥ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٨٥

٦ - العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله(ت: ٣٩٦هـ / ١٠٠٥م). الأوائل، تحقيق محمد السيد الوكيل، ط٢، دار البشير، المنصورة: ١٩٨٧م، ص ٢ (سيشار إليه فيما بعد: العسكري، الأوائل). المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ١٩٠-١٩١. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(ت: ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م). نهاية الأرب في فنون الأدب، ط١، دار الفكر، دمشق: ١٩٨٧م، جـ ٧، ص ٤٣٠(سيشار إليه فيما بعد: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب). هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ١٩.

٧ - المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٦، ص١٠٤. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٢٠

٨ - جبري، الجاحظ، ص ٣٤٥

بشكل كبير[1]. وقد اقتضى ظهور الشعوبية ومعها الزندقة إلى انبراء رجال المعتزلة للحد من سلطان الموالي المتزايد. إذ طغت مطالب الشعوبية وتعدت أمر الحكم إلى ضرب العرب في العقيدة، مما حدا بالخلفاء العباسيين إلى تجنيد شخصيات ذات مواهب عليا للوقوف في وجهها[2] **"وقد صنف متكلموا فرق الإسلام من المعتزلة كتباً في المقالات وغيرها في الرد على أصحاب التناسخ والخرمية وغيرهم من أهل الباطن"**[3].

كان للاستقرار السياسي دور في نقل العاصمة إلى بغداد بعد أن تطورت مؤسسات الدولة الإدارية، إذ توسعت بغداد وازدهرت أسواقها، كما انتعشت الزراعة، وبنيت بيمارستانات للمرضى، كما ظهرت مع الخليفة مسميات جديدة خاصة بالوزارة والإدارة فظهرت دواوين جديدة، مع تثبيت مركزية الإدارة، كما نشطت حركت الفتوح في عهد المهدي، واستمرت الحملات نحو بلاد الهند والأناضول وما وراء النهر[4].

إن الحركة الثقافية التي ظهرت في الدولة العباسية كانت امتدادا لحركة ثقافية بدأت منذ عهد الدولة الأموية، إذ بدأت العلوم الأجنبية تتسرب إلى العرب من منتصف أواخر القرن الأول الهجري فشارك بعض الموالي في هذه النقولات، أما العلوم الدينية من حديث وفقه وتفسير والتاريخ فقد قام بها العرب أنفسهم، فدور الموالي بدأ بعد أن عربت الدواوين، أي بعد تعريبهم ثقافة ولغة[5].

كان للخلفاء دور في ازدهار ونمو النشاط الفكري والأدبي والنقدي، فقد شجعت الدولة العلماء والأدباء من خلال توفير أسباب العطاء العلمي في مجالس العمل والأدب، إذ ازدهرت

---

١ - عاش رجال المعتزلة خاصة في فترة المأمون والمعتصم والواثق مقربين من السلطة، إذ أشار ابن الجوزي إلى أن المأمون لقي في الطريق ثمامة بن أشرس المعتزلي وهو سكران فلم يعتب عليه بل ضحك له كدليل عن مدى قرب هؤلاء من الخلفاء. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١٠، ص ٢٥٤. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢٩

٢ - لقد لعب رجال المعتزلة دورا في الوقوف في الحركات التي تحاول هدم الإسلام والعقيدة، وتحاول ضرب العرب في مصدر عزتهم وفخرهم مثل الكرم والشجاعة واهتمامهم بالأنساب، لذا انبرى الجاحظ في الدفاع عن العرب، وقد عرضنا ذلك في ثنايا البحث، خاصة في الحديث عن دوره في مجابهة الشعوبية. انظر أيضا: ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١٥، ص ١٠٠. بلاء الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٥٧، ص ٣١٢. الجوزي، عبد المجيد. مكانة العقل في فلسفة الجاحظ، رسالة ماجستير في الفلسفة غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر: ٢٠٠٤م، ص ١٦٣ (سيشار إليه فيما بعد: الجوزي، مكانة العقل).

٣ - المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ١٤٣.

٤ - المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٧٢. ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ض ٩. فوزي، الجيش والسياسة، ص ١٧١.

٥ - الدوري، عبد العزيز. مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: ٢٠٠٥م، ص ٨٨ (سيشار إليه فيما بعد: الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام).

حركة الترجمة والنقل من اللغات الأخرى، فكل الشعوب تتبادل الأفكار والعلم والثقافة والنظم، فقد كان لهارون الرشيد ومن بعده المأمون دور في ازدهار النشاط العلمي[1]، ولا تقوم حضارة من عقول أبنائها فقط بل إن التأثر والتأثير حاضران من خلال العلاقات بين الحضارات المختلفة، وهذا ما قامت به الحضارة الإسلامية عندما بدأت في عملية النقلة والترجمة من الحضارات الأخرى مثل اليونانية والفارسية والهندية خاصة في عهد هارون الرشيد والمأمون[2].

وعندما تولى المعتصم الخلافة لم يكن يهتم بالعلم والأدب والفكر مثل أخيه المأمون، وإن كان قد استمر في مذهب الاعتزال فلم يكن عن اقتناع بقدر ما كان تقليدا لمن سبقه، فقد كان اهتمام المعتصم منصبا على الناحية العسكرية وأمور الجيش والحرب، ولم يكن بقدر المأمون في أمور الجدال والمناظرة[3].

كما ظهر في منتصف القرن الثاني/ الثامن الميلادي ظاهرة تدوين العلوم الإسلامية تدويناً منظماً ومرتباً، فشهد العصر فنونا ثقافية جديدة، وأساليب شعرية مختلفة، واتجه الشعراء إلى البوادي، وأصبح الشعر والنثر يسايران الحياة الجديدة التي بدأت تأخذ صفة المدنية[4].

وتميزت الحواضر الإسلامية بالتسابق في المجال الفكري والمعرفي، ففي البصرة ظهرت القدرية ثم المعتزلة، كما ظهر اللغويون الذين يمثلون النزعة العقلية، وظهر النحاة، فتميزت البصرة بالجانب العقلي، وفيها ظهرت كتب اللغويين أمثال سيبويه، والعين للخليل اللّذين أثريا الجانب اللغوي. كما ظهر الكتاب أمثال عبد الحميد الكاتب وابن المقفع، فعبد الحميد يُعدُّ مؤسس علم الرسائل وابن المقفع مؤسس علم النثر. إذ أسهما في تطوير الجانب الثقافي والفكري[5]. كما تميزت بغداد في الفكر والحضارة والعمران[6]. ففيها كانت تعقد جلسات

---

١ - الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٤، ص ٢٩٤. فوزي، دراسات في التاريخ الإسلامي ، ص ٢٢٣

٢ - الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٤، ص ٢٩٤. جـ ١٦، ص ١٤٩. عقل، أحمد عبد القادر. صراع الحضارات وأثره في الشعر العربي في العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين: ٢٠٠٣م، ص ٤ (سيشار إليه فيما بعد: عقل، صراع الحضارات).

٣ - السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر(ت: ٩١١هـ /١٥٠٥م). تاريخ الخلفاء، تحقيق سعيد محمود عقيل، ط١، دار الجيل، بيروت: ٢٠٠٣م، ص ٢٩٦ (سيشار إليه فيما بعد: السيوطي، تاريخ الخلفاء). بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩١. فوزي، الجيش والسياسة، ص ١٧٦

٤ - عقل، صراع الحضارات، ص ١٣. أمين، ضحى الإسلام، جـ ١، ص ٢٥٣، ٢٩١.

٥ - الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٨، ص ٤٧٠-٤٧١. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٧٦، ص ٢٠٥

٦ - السندوبي، أدب الجاحظ، ص ٢٢

المناظرة في المساجد للحديث في مسائل فكرية وكلامية[1]. كما ظهرت الجماعات والفرق، مثل الزنادقة ومناظراتهم الفكرية[2]. فقد كانت الحياة في بغداد تعج بأجناس مختلفة، مما ساهم في خلق جو من الحرية الفكرية والتسامح، إذ عُرف هارون الرشيد بمروءته إلا أنه حرم الجدال في أمور الدين[3]، كما كان يكره الاعتزال والمعتزلة لطريقتهم الجدلية في الكلام[4]، وهدد بمعاقبة أهل الكلام[5]. حتى جاء ابنه المأمون فأطلق القول، وقرب رجال العلم والأدب والفن، وكان هو نفسه يحاجج الفقهاء في مجلسه ويسلم بآرائهم إذا اقتنع بها[6] " **وينبغي أن يكون بيننا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فيننا، على أنا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا، كما أن من بعدنا يجد من العبر أكثر مما وجدنا، فما ينتظر العالِم بإظهار ما عنده؟ وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه؟ وقد أمكن القول، وصلح الدهر، وخوى نجم التقية، وهبت ريح العلماء، وكسد العي والجهل، وقامت سوق البيان والعلم**"[7]. وقد ضمنت هذه الآلية للعلماء النقاش والجدال كما ساعد ذلك على المُحافظة على تراث المسلمين[8]. لقد ظهر علم الكلام بسبب ازدهار حركة الترجمة وخاصة عن اليونانية، ويعتمد علم الكلام على المنطق والجدل[9].

إن السياسية التي سار عليها الخلفاء العباسيّون ومنهم: هارون الرشيد والمأمون من تقريب للكتَّاب وعقد المناظرات بينهم أيا كان مذهبهم سببٌ في التوسع الثقافي والمعرفي[10]

---

١ - رمضان، صورة المجتمع العباسي، ص ٣٥٧.

٢ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٠٨.

٣ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص٤٦٢.

٤ - الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٨، ص ٩٧. أمين، ضحى الإسلام. جـ٣، ص ٧٥٠.

٥ - لفظة المتكلم تطلق على من يعرف علم الكلام، وهو أصول الدين، وإنما قيل له " علم الكلام " لأن أول خلاف وقع في الدين كان في كلام الله، عز وجل: أمخلوق هو أم غير مخلوق فتكلم الناس فيه، فسمي هذا النوع من العلم كلاما، اختص به وإن كانت العلوم جميعها تنشر بالكلام. السمعاني، المصدر السابق، جـ ٥، ص١٩٠. بدأ النزاع في مسألة الكلام بعد المائتين وتحديدا في خلافة المأمون. وإنما قيل لهم " أهل الكلام " لكثرة كلامهم واعتراض بعضهم على بعض". ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ٢٧١.

٦ - الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٧، ص ٩٢. جبري، الجاحظ، ص ٣٣٧.

٧ - الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص٤٣

٨ - نوري، الجاحظ، ص٤.

٩ - انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٣٥، ص ١٢٠. فوزي، دراسات في التاريخ الإسلامي، ص ٢٢٦.

١٠ - السندوبي، أدب الجاحظ، ص ٩

ويعتبر من الأمور التي ساعدت الجاحظ على تكوينه المعرفي من خلال الحلقات التي يناظر فيها الخلفاء الكتاب أو حتى الشعوبيين كما فعل المأمون في مناظرته لعلان الوراق[١].

لقد بدأت الحياة الفكرية عند المسلمين منذ فترة مبكرة، لكنها مرت بمراحل حتى وصلت إلى مرحلة النضج في عهد الدولة العباسية، فكان التأليف لا يقتصر على جانب أو مجال محدد بل شمل كافة مجالات العلوم العقلية والنقلية، خاصة وأن الدولة الإسلامية كانت في احتكاك مع الحضارات المجاورة مثل اليونانية والفارسية، إذ نشطت عمليات الترجمة وبلغت أوج ازدهارها في عهد الخليفة المأمون[٢].

وأسهمت الحرية الفكرية التي سادت عهد المأمون في الاطلاع على الثقافة اليونانية والنقل منها، وفي الغالب كان النقل يعتريه الخطأ والتشويش، وقد عيب كثيراً على النقلة والمترجمين بسبب ضعف الترجمة إذ أدى ذلك إلى الإساءة إلى الثقافة العربية قبل اليونانية. كما أن عدم انتخاب ما يترجم في وسط مجتمع مختلف ومتباين الخصائص والميول أدى إلى ظهور أفكار غريبة على المجتمع في مسائل العبادة والعقيدة خاصة وأن الحضارة اليونانية تجسد الإله وهو شيء غريب بالنسبة للمجتمع في ذلك العصر وخطير في نفس الوقت[٣].

١- علان الوراق الشعوبي، أصله من الفرس وكان علامة بالأنساب والمثالب والمنافرات منقطعا إلى البرامكة، ونسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة وعمل كتاب الميدان في المثالب الذي نال فيه من العرب ابتدأ ببني هاشم ثم قبيلة بعد قبيلة على الترتيب إلى آخر قبائل اليمن على ترتيب كتاب ابن الكلبي، وكتاب فضائل كنانة. انظر: الحموي، معجم الأدباء، جـ ٤، ص١٩١. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٦، ص٣٦١ .

٢ - الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٤، ص ٢٩٤. جـ ١٦، ص ١٤٩. فوزي، دراسات في التاريخ الإسلامي، ص ٢٢٤.

٣ - السندوبي، أدب الجاحظ، ص٢١

الفصل الأول: سيرة الجاحظ ومنهجه في كتابة الرواية التاريخية

أولاً: حياته

- مولده ونسبه
- شيوخه وأثرهم في اتجاهاته الفكرية
- الجاحظ وثقافته الموسوعية
- الاعتزال وأثره في تكوين الجاحظ الثقافي
- علاقته بالسلطة العباسية
- مؤلفاته
- مرضه ووفاته

ثانياً: منهج الجاحظ ودوره في الكتابة التاريخية

مولده نشأته

إن شخصية الجاحظ كانت مثار اهتمام الكثير من الباحثين، وخاصة الباحثين الأكاديميين، وقد تناولت العديد من الدراسات تفاصيل حياة الجاحظ[1]، وبالتالي ستستعرض هذه الدراسة المحطات الرئيسية والمهمة من حياته. هو عمرو بن بحر بن محبوب[2] الكناني بالولاء الليثي[3] البصري المكنى بأبي عثمان، وأشتهر بلقب الجاحظ[4]، وهو مولى أبي القلمس عمرو بن قلع الكناني[5].

وعلى الرغم أنه مولى إلا أن انتماؤه إلى العروبة واضحٌ في كتاباته خاصةً ما يتعلق برده على الشعوبية وتفنيد حججهم وادعاءاتهم[6]. وإن يكن الجاحظ من الموالي فإن فكره وميوله عربية خالصة، وقد حدث بعد الفتوحات الإسلامية وازهار الحضارة الإسلامية أن دخلت جماعات كثيرة في إطار الدولة العباسية مما أدى إلى تغيير معيار العروبة ، فأصبحت الثقافة والفكر والولاء هي المعيار وليس الأصل كما كان زمن الدولة الأموية[7].

---

١ - لقد تمت الإشارة في مقدمة الدراسة إلى العديد من الدراسات التي تناولت حياة الجاحظ، ولذا لا داعي لإعادة ذكرها هنا.

٢ - كان محبوب جد الجاحظ أسود وكان جمالا لعمرو بن قلع. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ١٤، ص١٢٤. السمعاني، الأنساب، جـ ١، ص ٥١٤.

٣ - هذه النسبة إلى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانه بن خزيمة. وكنانة قبيلة عربية الأصل، ترجع إلى مُضر، ولذلك نُعِت الجاحظ أيضاً بالكناني. ابن السائب الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب(ت:٢٠٤هـ/ ٨١٩م). جمهرة النسب، تحقيق ناجي حسن، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة:٢٠١٠م، ص٣ (سيشار إليه فيما بعد: الكلبي، جمهرة النسب). ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص٤٧٠.

٤ - قيل له "الجاحظ" لأن عينيه كانتا جاحظتين، والجحوظ: النتوء، وكان يقال له أيضاً " الحدقي " لذلك. السمعاني، الأنساب، جـ ٦، ص٦. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جزء ٣، ص٤٧٠، ذهب ابن بسام الشنتريني إلى أبعد من ذلك عندما ذكر أن جحوظ عيني الجاحظ أقعده عن التماس العزة والمودة من الخلفاء والسلاطين كما فعل ابن الزيات وإبراهيم بن العباس. انظر: ابن بسام ، الذخيرة، جـ ١، ص٢٤٣.

٥ - عمرو بن قلع الكناني ثم الفقمي وهو أحد النساة. المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران(ت: ٣٨٤هـ / ٩٩٤م). نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء (اختصار أبي المحاسن اليغموري)، تحقيق رودولف زلهايم، بفيسبادن، ألمانيا ، ١٩٦٤م، ص٨٥ (سيشار إليه فيما بعد: المرزباني، نور القبس). ابن عساكر، تاريخ دمشق، ص٣٥٦.

٦- ورد ذلك في معظم كتبه وخاصة منها البيان والتبيين، والحيوان، وكثير من رسائله، وكذلك كتاب البخلاء الذي احتوى على الغمز واللمز بالفرس الذين كانوا أكثر الأقوام شعوبية في حينه. عزت، فلسفة الأخلاق، ص٣. أما السندوبي فقد رفض أن يكون الجاحظ ذا أصل غير عربي وحاول جمع البراهين لإثبات رأيه. السندوبي، أدب الجاحظ، ص ١١.

٧ - فوزي، مباحث في الحركة الشعوبية، ص٣٧.

ولد الجاحظ في البصرة التي كانت محط أنظار العلماء والفقهاء والأدباء[1]. فقد ازداد نمو البصرة وتطورها على الرغم من بناء بغداد لتكون عاصمة للدولة العباسية عام ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م[2] فظلت البصرة تتمتع بمكانتها الثقافية حتى صارت تمثل باب بغداد الكبير والمنفذ الرئيس لإقليم العراق. وعلى هذا الأساس ذكرها الجاحظ بقوله: " **إن العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق**"[3]. كما أطلق عليها اليعقوبي " **مدينة الدنيا** "[4]. فالبصرة مدينة الجاحظ ومسقط رأسه، ولد ونشأ فيها وحتى عندما رحل عنها إلى بغداد وسامراء كان شديد التعلق بها والحنين إليها وإذا سنحت له الفرصة عاد إليها مما يعني علو منزلتها في نفسه، فقد كان لها الفضل في نشأته وتعليمه وفي ما وصل لها من مكانة أدبية إذ تلقى علومه الأولى فيها[5].

شيوخه وأثرهم في اتجاهاته الفكرية

كانت العراق في فترة حياة الجاحظ قبلة العلماء والأدباء[6]، مما هيأ له فرصة الالتقاء بالكثير من علماء ذلك العصر ممن كانوا يسكنونها أو يفدون إليها من الشيوخ والأئمة في شتى الفنون، وقبلها كان الجاحظ يأتي مِربد البصرة فيأخذ اللغة مشافهة[7]، ولم يكتف الجاحظ بالثقافة

---

١ - حسن، زاجيه عبد الرزاق. البصرة في حياة الجاحظ، مجلة كلية الآداب، العدد ٢٥، جامعة البصرة، العراق: ٢٠١٢م، ص ١٧٩ (سيشار إليه فيما بعد: زاجيه، البصرة في حياة الجاحظ).

٢ - سار المنصور يطلب موضعاً يتخذه بلداً، فبات ليلة، فطاب له المبيت، وأقام يوماً فلم ير إلا ما يجب، فقال: ها هنا ابنوا فإنه طيب، وتأتيه مادة الفرات ودجلة والأنهار، فخط بغداد، ووضع أول لبنة بيده فقال: بسم الله، وبالله، والحمد لله، ابنوا على بركة الله، وذلك بعد أن بعث رجالاً لهم فضل يتطلبان موضعاً، ثم وقع لاختيار على هذه البقعة، وسأل راهباً هناك عن أمر الأرض وصحتها وقال: هل تجدون في كتبكم أنه يبنى ها هنا مدينة قال: نعم يبنيها مقلاص، قال: فأنا كنت أدعى بذلك لما بنى مدينة الرافقة قال له راهب: إن إنساناً يبني هنا مدينة يقال له مقلاص، قال: أنا هو. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٩، ص ٣٣.

٣ - وردت هذه العبارة عند الجاحظ في رسالتين: الجد والهزل، جـ ٤، ص ١٣٩. ورسالة الأوطان والبلدان، ص ١١٧. انظر أيضاً: الثعالبي، عبدالملك بن محمد إسماعيل(ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧).ثمار القلوب في المضاف و المنسوب، دار المعارف، القاهرة: ١٩٨٥م ، ص١٢٧(سيشار إليه فيما بعد: الثعالبي، ثمار القلوب).

٤ - اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب(ت:٢٨٤هـ/٨٩٧م).البلدان، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٨٨م، ص٦٣(سيشار إليه فيما بعد: اليعقوبي، البلدان).

٥ - تناول الجاحظ البصرة كثيرا في مؤلفاته بحيث لا نجد رسالة مهما كان الموضوع الذي تعالجه إلا وذكر البصرة وهذا يدل على مدى تعلق الجاحظ بالبصرة، كذلك أفرد فصلا في رسالته الحنين إلى الأوطان تحدث فيه عن البصرة وفضلها وفضل أهلها. انظر: الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، جـ ٤، ص ١٣٩.

٦ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ١، ص٤.

٧ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص ٥٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ١١، ص ٥٢٧. بلاء، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص١٩. كحالة، عمر رضا(ت: ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م). معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت:١٩٥٧م، جـ ٨، ص٧ (سيشار إليه فيما بعد: كحالة، معجم المؤلفين).

والمعارف العربية بل تعرف كذلك إلى الثقافة اليونانية فكثيرا ما ناقش حُنين بن إسحاق[1] وسلمويه[2]، وقرأ لابن المقفع[3] فاطلع على الثقافة الفارسية.

أما شيوخه فإن معظم علماء البصرة الذين عاصرهم قد حضر حلقاتهم، فشخص مولع بالعلم لن يدخر جهدا في النهل من هذا المعين المتاح. ولكن مترجميه اقتصروا على العلماء الأجِلاء المشهورين الذين تتلمذ عليهم مباشرة [4] . وأهم هؤلاء العلماء:

في اللغة والأدب والشعر والرواية والأنساب: فقد أخذ عن أبي عبيدة معمر بن المثنى التميمي[5] روى عنه الأشعار والأخبار واللغة والطبيعيات، فقال عنه " **ليس في الأرض أعلم بجميع العلوم منه**"[6] ، والأصمعي[7] أخذ عنه الأخبار والنوادر والمعارف الطبيعية عن الحيوانات[8]، وأبو زيد بن أوس الأنصاري[9] اشتهر بغريب اللغة والنوادر، وذكر الجاحظ في

١ - أبو زيد العبادي النصراني الشقي حنين بن إسحاق علامة وقته في الطب. وكان بارعا في لغة اليونان. شيخ الطب بالعراق. كان بصيراً باللغة اليونانية فعرب كتباً عديدة في الطبيعي والرياضيات. وله مصنفات مشهورة في الطب والمسائل وغيرها. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٩، ص ١٢٨.

٢ - سلموية بن بنان، طبيب المعتصم الذي اختاره وأكرمه إكراماً كثيراً. وكانت التواقيع ترِد إلى الدواوين وغيرها بخط سلمويه وتواقيع الأمراء والقواد وغيرهم في حضرة المعتصم بخطه، وولى أخاه إبراهيم بن بنان خزائن الأموال وخاتمه مع خاتم المعتصم. وكان سلمويه نصرانياً حسن الاعتقاد في دينه، كثير الخير، محمود السيرة، الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٥، ص ٩٨.

٣ - ابن المقفع عبد الله بن المقفع الكاتب المشهور بالبلاغة، صاحب الرسائل البديعة، وهو من أهل فارس، وكان مجوسياً فأسلم على يد عيسى بن علي عم السفاح والمنصور الخليفتين الأولين من خلفاء بني العباس، ثم كتب له واختص به. وكان ابن المقفع مع فضله يتهم بالزندقة، فحكى الجاحظ أن ابن المقفع ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد كانوا يتهمون في دينهم، ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص١٥١.. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٩، ص ٩٨.

٤- ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص ٤٧١. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص١١٧. ذكر السندوبي أسماء شيوخه لكن لم يفصل في العلوم التي أخذها عنهم، أدب الجاحظ، ص ٢٦.

٥ - أبو عبيدة مولى بني سلامة من بني تيم بن مرة ولد سنة اثنتي عشرة ومائة ومات سنة ثمان ومائتين، بلغ ثلاثا وتسعين سنة، ولد في سنة عشر ومئة، في الليلة التي توفي فيها الحسن البصري. كان متوسعاً في علم اللسان، وأيام الناس.. ابن النديم، الفهرست، ص٧٦ . المرزباني، نور القبس، ص٤٠.

٦ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٨٠

٧ - أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمعكان الأصمعي من أهل البصرة، كان من أئمة أهل اللغة سلك البراري والبوادي وصحب الأعراب وأخذ الأدب من معدنه، السمعاني، الأنساب، جـ ١، ص١٧٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٣، ص ١٧٠.

٨ - القيرواني، العمدة، جـ ٢، ص ٢٣٣. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢٨

٩ - سعيد بن أوس الأنصاري من صلبية الخزرج قال أبو العباس المبرد كان أبو زيد عالما بالنحو. ابن النديم، الفهرست، ص٧٧

كتبه الموضوعات ذاتها التي ذكرها الأنصاري، كما روى له أخبارا عن الحيوان ومعارف أخرى[١].

ومحمد بن زياد بن الأعرابي[٢]، كان له حلقة يحضرها خلق كثير ومنهم الجاحظ، ، استفاد منه في الشعر واللغة[٣]، وخلف الأحمر[٤] كان الجاحظ معجباً به **"وقد جلست إلى أبي عبيدة، والأصمعي، ويحيى بن نجيم، وأبي مالك عمرو ابن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين، فما رأيت أحدا منهم قصد إلى شعر في النسيب فأنشده. وكان خلف يجمع ذلك كله"**[٥].

وأبو عمرو الشيباني[٦] ويبدو أن الجاحظ قد استفاد منه خاصة في كتاب الحيوان على الرغم من أنه لم يكن راضيا عن بغض أحكامه في الشعر، إذ يقول الجاحظ: **"ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعارا من أفواه جلسائه، ليدخلها في باب التحفظ والتذاكر. وربما خيل إلي أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبدا أن يقولوا شعرا جيدا، لمكان أعراقهم من أولئك الآباء"**[٧]. وأبو الحسن الأخفش[٨] الذي أخذ النحو عن سيبويه ويُعدُّ من كبار شيوخ الجاحظ فقد أخذ عنه الكثير من

---

١ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ٣، ص ٣٦٤. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٧٨-٣٧٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٩، ص ٤٩٤. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٣١

٢ - ابن الأعرابي محمد بن زياد بن الأعرابي مولى العباس بن محمد كان عجباً في معرفة اللغة والأنساب وكان أحول، المرزباني، نور القبس، ص١١٢. الصفدي، الوافي بالوفيات جـ ١، ص١٣١.

٣ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص ١٤٣- ١٤٨. وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ٣٠٦-٣٠٧.

٤ - اللغوي الشاعر، يكنى أبا محرز، مولى بلال بن أبي بردة. تعبد في أواخر عمره. حمل عنه ديوانه أبو نواس، ورثاه بقصيدة. ولخلف القصيدة السائرة التي نحلها تأبط شراً:(إن بالشعب الذي دون سلع .... لقتيل دمه ما يطل). الحموي، معجم الأدباء، جـ ٣، ص ٣٦٤. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ١١، ص١٠٨. انظر أيضاً: الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٤، ص٣٧٤.

٥ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٥٩.

٦ - أبو عمر إسحاق بن مرار الشيباني مولى وليس من بني شيبان ولكنه كان مؤدباً لأولاد بعضهم، فنسب إليهم كاليزيدي. هو راوية أهل بغداد، واسعُ العلم باللغة والشعر، له كتبٌ منها " النوادر " ومنها " كتاب الحروف " الذي لقبه بالجيم. المرزباني، نور القبس، ص١٠٢. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٣، ص١٧٢.

٧ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٦٠.

٨ سعيد بن مسعدة المجاشعي(٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م) كان أبو الحسن الأخفش الأوسط أجعل لا تنطبق شفتاه على أسنه. قرأ النحو على سيبويه وكان أسن منه، ولمْ يأخذ عن الخليل. وكان معتزلي من غلمان أبي شمر. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ٥، ص٨٢.. كحالة، معجم المؤلفين، جـ٤، ص٢٣١.

الروايات وبخاصة في كتاب النحو[1]، وعلي بن محمد المدائني[2] روى له الكثير من الأخبار في كتبه، إذ ذكره في كتاب البيان أكثر من سبعين مرة[3]،

والهيثم بن عدي[4] أخذ منه الأخبار والأنساب والشعر، وروى له العديد من الروايات في البيان والبرصان والبخلاء[5]، وهشام بن محمد الكلبي[6] اتصل به الجاحظ واستفاد منه في مواضيع الخيل والجن والطيور، كما أخذ منه علم الأنساب وأخبار العرب ومناقبها ووقائعها[7].

كما أخذ الجاحظ علوم الفقه والحديث[8] عن أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي[9]، ويزيد بن هارون[10]، أخذ عنه الفقه.

---

١ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤١

٢ - أبو الحسن علي بن محمد المدائني السمري(١٣٥ - ٢٢٥ هـ/٧٥٢ - ٨٤٠ م)، وهو صاحب التصانيف الكثيرة. السمعاني، الأنساب، جـ٣، ص٢٩٧. كحالة، معجم المؤلفين، جـ ٧، ص٢١١.

٣ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٣٥

٤ - أبو عبد الرحمن الهيثم بن عدي الطائي الكوفي، ولد قبل سنة ١٣٠هـ. من أهل الكوفة ولد ونشأ وبها ثم انتقل إلى بغداد. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري(ت: ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م). المعارف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ١٩٩٢م، ص ٥٣٨ (سيشار إليه فيما بعد: ابن قتيبة، المعارف). ابن النديم، الفهرست، ص ١١٢. البغدادي، تاريخ بغداد، جـ١٤، ص٥٠

٥ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٣٦

٦ - من أهل الكوفة قدم بغداد وحث بها، وكان علما بالنسب وأخبار العرب وايامها ومثالبها ووقائعها، وله كتاب الجمهرة في النسب. ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٣٦. ابن النديم، الفهرست، ص١٠٨.

٧ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٦

٨ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١١٨

٩ - يعقوب بن إبراهيم بن حبيب القاضي، سكن ببغداد، وولاه الهادي موسى بن المهدي القضاء بها، ثم هارون الرشيد من بعده، وهو أول من دعي بقاضي القضاة في الإسلام. السمعاني، الأنساب، جـ ٤، ص٤٣٢. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ١٢، ص٤٩٧.

١٠ - يزيد بن هارون بن زاذان بن ثابت(١١٨ - ٢٠٦ هـ / ٧٣٦ - ٨٢١ م) مولى بني سليم يكنى أبا خالد توفي بواسط سنة ست ومائتين وله من الكتب كتاب الفرائض، ابن النديم، الفهرست، ص٢٨٠. كحالة، معجم المؤلفين، جـ١٣، ص٢٣٨.

أما في علم الكلام فيعد أبو الهذيل العلاف[1] من أشهر من أخذ عنه[2]، وأبي إسحاق إبراهيم بن سيار البلخي المعروف بالنظام المتكلم المشهور[3] كان أستاذ وصاحب الجاحظ وأورد ذكره أكثر من مائة مرة، وأثبت أراءه في مسائل عدة مثل الأعراض والجواهر[4].

بالإضافة إلى ثمامة بن الأشرس[5] الذي يُعدُّ من أجلّ المتكلمين من المعتزلة قضى حياته في العلم والأدب، كما أنه حمل المأمون على جعل الاعتزال مذهب الدولة الرسمي وحرصه على إعلان البراءة من معاوية[6]، فكان من كبار شيوخ الجاحظ.

إن الجاحظ أحيانا لا يذكر فعلا من أخذ عنهم بأسمائهم، ويكتفي بقوله :زعم ناس " وذلك عندما يورد الجاحظ رواية يشك في صحتها[7]، ولذلك يصدرها في مغلب الأحيان بلفظ" زعم " أو" زعموا ." أما صعوبة الحصول على مصادره في الرواية فيعود بالدرجة الأولى إلى نبذه التقليد والاتباع، وأنه لم يكن يأخذ عن أحد، بل كان يصدر في تفسير الروايات وتحليلها عن نزعة عقلية استمدها من مناهج المتكلمين[8]. ومن ثم يتبدّى أن ثقافة الجاحظ جاءت متنوعة وعميقة فلم يعتمد فيها على الكتب وحدها بل تتلمذ على يد جمهرة من العلماء الأفذاذ في عصرهم، كما أنه لم يقتصر على أهل فن أو علم بعينه بل استقى ثقافته من تخصصات متنوعة حتى برز في علوم شتى.

---

١ - أبو الهذيل العلاف محمد بن محمد(١٣٥ - ٢٣٥ هـ/ ٧٥٣ - ٨٥٠ م)، من أئمة المعتزلة. أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل تلميذ واصل بن عطاء الغزال. وجاوز التسعين، وتوفي في سنة سبع وعشرين ومئتين، الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ١٠، ص٥٤٢.

٢ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٥٠

٣ - إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام (ت ٢٣١ هـ/٨٤٥ م) كان متكلما شاعراً أديبا، وكان يتعنف أبا نواس، وله فيه عدة مقطعات. طالع كلام الفلاسفة فخلطه بكلام المعتزلة، وتكلم في القدر. ابن النديم، الفهرست، ص٢١١. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ١٦، ص٤٧٠. كحالة، معجم المؤلفين، جـ ١، ص٣٧.

٤ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٣

٥ - ثمامة بن أشرس النميري(ت ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م) أحد المعتزلة البصريين، ورد بغداد واتصل بهارون الرشيد وغيره من الخلفاء، ويعد من كبار المعتزلة، وأحد الفصحاء البلغاء المقدمين. كان له اتصال بالرشيد، ثم بالمأمون. من تلاميذه الجاحظ. وأراد المأمون أن يستوزره فاستعفاه، وأتباعه يسمون(الثمامية) نسبة إليه، قال عنه الجاحظ: " ما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي بلغ من حسن الإفهام، مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج، مع السلامة من التكليف، ما كان بلغه". السمعاني، الأنساب، جـ ١، ص٥١٤.

٦ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١. الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧

٧ - عزت، فلسفة الأخلاق، ص ٢٦.

٨ - الجوزي، مكانة العقل، ص ٨٢.

وعند الانتقال للحديث عمن أخذ عنه فيعد يموت بن المزرع من أشهر من أخذ عن الجاحظ وذلك لصلة القربى بينهما، أخذ عنه الأخبار والنوادر والأشعار والنحو والحديث[١]، وكذلك أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله المعروف بالفراء الديلمي الكوفي[٢]، ومحمد بن يزيد المبرد[٣]، روى عن الجاحظ[٤] في كتابه الكامل في الأدب كما روى عنه الأخبار والنوادر[٥]، وأبو العيناء محمد بن القاسم[٦] صاحب نوادر وشعر وأدب، كان من المقربين للجاحظ فروى عنه واقتبس منه العلم، وكانت بينهم صداقة ومودة[٧]، وأبو بكر بن أبي دؤاد[٨]، وميمون بن هارون[٩]، وأبو حيان التوحيدي الذي ألف كتاباً في تقريض الجاحظ[١٠]، ومحمد بن عبد الله بن أبي الدلهاث[١١].

---

١ - ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ ٤٥، ص ٤٣٣. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٩٥. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً ، ص ٥٦

٢ - أبو زكريا الديلمي المعروف بالفراء له مصنفات مشهورة في النحو واللغة ومعاني القرآن مات بطريق مكة سنة سبع ومئتين. الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب(ت: ٧٢٩هـ / ١٤١٥م). البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق محمد المصري، ط ١، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت: ١٩٨٦م، ص٨٠ (سيشار إليه فيما بعد: الفيروزأبادي، البلغة).

٣ - المبرد محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الازدي، أبو العباس(٢١٠ - ٢٨٦ هـ/ ٨٢٦ - ٨٩٩ م)، إمام العربية ببغداد في زمنه، وواحد من أئمة الأدب والأخبار. مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. من كتبه الكامل. الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص ٣٨٠. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ٣١٣.

٤ - دخل الجاحظ على المازلي وعنده المبرد - وهو غلام - فأخفى شخصه في جب عن الجاحظ، وجلسا يتحدثان فعطس المبرد من مكمنه، فقال الجاحظ: من هذا المبرد منا؟ فسمي بذلك. العسكري، الأوائل، جـ ٧، ص ١١٩.

٥ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٥٦

٦ - أبو العيناء الهاشمي، مولى أبي جعفر المنصور البصري الإخباري اللغوي الضرير. ولد بالأهواز ونشأ بالبصرة وكان أحد الموصوفين بالذكاء والحفظ وسرعة الجواب توفي في جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وولد سنة إحدى وتسعين ومائة. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٢١، ص٢٨٧.

٧ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٥٢.

٨ - أبو بكر بن أبي دؤاد الإيادي كان ثقة كثير الحديث، عارفا بالفقه على مذهب الشافعي، سكن بغداد إلى حين وفاته. السمعاني، الأنساب، جـ ٢، ص ٥٠٠.

٩ - ميمون بن هارون بن مخلد بن أبان(ت ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م) كاتب، صاحب أخبار وآداب وأشعار. من أهل بغداد. أخذ عن الجاحظ ومعاصريه، وأخذ عنه جعفر بن قدامة وآخرون. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ١٣، ص ٢١٠.

١٠ - كتاب تقريظ الجاحظ، ضاع ولم يعد له أثر إلا ما نقل عنه ياقوت الحموي. فكثيراً ما يستشهد به في كتابه إرشاد الأريب بعبارة "قرأت بخط أبي حيان التوحيدي في كتابه الذي ألفه في تقريظ عمرو بن بحر ". انظر: معجم الأدباء، جـ ١، ص، ٢٥٩، ٢٧٤، ٨٧٨ وغيرها.

١١ - كان حسن النظر في علل النحو، وكان يؤدب ولد سعيد بن قتيبة الباهلي، وكان من أعيان أصحاب الفراء، وأخذ عنه ثعلب. الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص ٨٣

الجاحظ وثقافته الموسوعية

إن التراث الذي خلَّفه الجاحظ ينم عن ثقافة متنوعة في شتى الميادين، فلم يكن الجاحظ ذا اختصاص واحد بل تعددٍ ليكتب في كل فروع المعرفة[1]، وقد لاحت ملامح هذه الثقافة في فترة مبكرة من حياته، ويكفينا أن نشير إلى ما وصل إليه من مكانةٍ جنى ثمارها بفضل هذه العبقرية، بل يرى البعض أنه لم يضع كل علمه في كتبه، ولاسيما في البلاغة، ضناً به على غير أهله[2].

كما تتمثل ثقافته في قوة حجته في النقاش والْجدل، وقدرته النقدية وفنونه الكلامية[3]، ومنهجه وأسلوبه. وكان لتقدم النهضة العلمية وازدياد حركة التأليف والترجمة ما أتاح له الإقبال على قراءة الكتب المترجمة، فهيأت له أسباب الإلمام بالفلسفة اليونانية أكثر مما هيئ لأستاذه النظام[4]، ولذلك تجده قد تغلغل في علم الكلام ومزجه بكثير من آراء الفلاسفة اليونانيين[5].

انفرد الجاحظ بمقاله وافقه عليها كثير من مريديه وتلامذته الذين أطلق عليهم الجاحظية[6]. لقد أحاط الجاحظ بثقافات عصره، فبحث في كل العلوم والفنون. حيث كان يروي

---

١ ـ المرجع نفسه، ص١٩

٢ ـ ابن بسام، الذخيرة، جـ ١، ص١٩٨ .

٣ ـ الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٥٣

٤ ـ انظر ترجمة النظام، ص ٣٦ .

٥ ـ تعليل تسمية علم الكلام بأن أبوابه عنونت أولا بالكلام في كذا، " فليس علم الكلام وحده دون سائر العلوم هو الذي اختص بهذا النحو من التبويب، فكذلك غالبية العلوم في ذلك العصر خاصة علوم الدين، كعلم الفقه، وعلم الحديث وغيرها تبدأ أبوابها معنونة بعبارة الكلام في كذا. بجة، زكية. النقد التطبيقي عند الجاحظ (كتاب الحيوان نموذجاً) دراسة تاريخية وصفية، رسالة ماجستير، جامعة الحاج خضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر: ٢٠٠٤م، ص ٢١ (سيشار إليه فيما بعد: بجة، النقد التطبيقي).

٦ ـ الجاحظية: بفتح الجيم بعدها الالف وكسر الحاء المهملة وفي آخرها الظاء المعجمة، هذه النسبة إلى فرقة من المعتزلة يقال لهم الجاحظية وهم أصحاب أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ البصري صاحب التصانيف الحسنة، وكان من أهل البصرة، وأحد شيوخ المعتزلة، وانفرد عن المعتزلة بمسائل واستقل باتجاهه بمجموعةٍ من الآراء والمواقف الخاصة، وتمثل ذلك بنظريته في المعرفة التي قادته إلى آرائه الخاصة في الله والنبوة والإمامة.
منها قوله: إن المعارف كلها ضرورية طباع، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد. وليس للعبد كسب سوى الإرادة، وتحصل أفعاله منه طباعا ، وأيضا أنه أنكر أصل الإرادة وكونها جنسا من الأعراض فقال: إذا انتفى السهو عن الفاعل، وكان عالما بما يفعله فهو المريد على التحقيق. وأما الإرادة المتعلقة بفعل الغير فهي ميل النفس إليه، وزاد على ذلك بإثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة، وأثبت لها أفعالا مخصوصة بها، وقال باستحالة عدم الجواهر؛ فالأعراض تتبدل، والجواهر لا يجوز أن تفنى. ومن ذلك أيضاً "قوله في أن أهل النار لا يخلدُون فيها عذاباً، بل يصيرون إلى طبيعة النار. وكان يقول: النار تجذب أهلها إلى نفسها من دون أن يدخل أحدٌ فيها"، وهذا ما سيبني عليه الفلاسفة اللاحقون ما سمي مشكلة حشر الأرواح لا الأجساد التي كفرهم بها الإمام الغزالي في كتابه التهافت. " كفر الغزالي الفلاسفة في ثلاث قضايا كبرى هي

الأدب وينقده نقد البصير، وينقل آراء الفلاسفة ويزنها بميزان العقل. فما استساغ عقله قبله وإلا نقده وفنده وبرهن على خطئه وفساده[1]. وللجاحظ موقف جريء في معارضة رافضي التيار العقلي، يتجلى موقفه هذا في رسالته "صناعة الكلام "التي يشيد فيها بعلم الكلام و فوائده، ردا على المحدثين بزعامة" أحمد بن حنبل"، الذين استصغروا شأن علم الكلام وحرموه[2]. فلا غرابة أن يورد الجاحظ ما فعله المعتصم في أحمد بن حنبل بشيء من التصغير والتبسيط، وفي كل الأحوال فإن نزعة الجاحظ ضد أحمد بن حنبل لم تكن لشخصه فقط وإنما لكل تيار السنة الذي يمثلهم أحمد بن حنبل[3]. كما هاجم الجاحظ المحدثين واتهمهم بحرفية النصوص وظاهر معانيها[4].

وعلى الرغم من أهمية الكتاب في الثقافة والمعرفة، إلا أن الجاحظ أدرك أن هذه المعرفة تبقى مشوشة، ولذا فإن العلم لا بد أن يؤخذ في البداية عن أيدي أصحابه من العلماء والمعلمين، كما أشار أن التعليم لا يقوم على الحفظ بل أيضا من المهم إعمال العقل والتفكر " **ولا ينبغي أن يقوم التعليم على التلقين والحفظ بل يجب أن ينمي القدرة على الاستنباط والتفكير لدى الناشئة"**[5].

لم يكتف الجاحظ بنهم العلم من بطون الكتب " **فالعلماء الذين اتسعوا في علم العرب، حتى صاروا إذا أخبروا عنهم بخبر كانوا الثقات فيما بيننا وبينهم**"[6]، إذ العلم الحق لا يؤخذ إلا عن معلم،

الخلق من عدم وعلم الله بالجزئيات وحشر الأرواح لا الأجساد" . السمعاني، الأنساب، جـ ٦، ص ٦. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ١، ص ٧٥. خفاجي، محمد عبد المنعم. أبو عثمان الجاحظ، دار الكتاب اللبناني، بيروت: ١٩٨٢م، ص ١٨٥ (سيشار إليه فيما بعد: خفاجي، الجاحظ).

١ - كثيرا ما يورد الجاحظ في ثنايا مؤلفاته النقاط التي خالف فيها من سبقوه أو عاصروه، فكان يستخدم كلمة زعم أو يزعم كإشارة عن عدم موافقته لما ورد، ثم يبدأ في تفنيد تلك الفكرة بالحجج والبراهين، وهذا ما نلمسه كثيراً في كتاب الحيوان. انظر مثلا قوله: "وقد زعم ناس أنّ حكم شعر الرأس خلاف حكم أشفار العينين" جـ١، ص ٧٦. "وقد زعم البصريّون أن حديجا الخصيّ، خادم المثنّى بن زهير" جـ١، ص ٧٩. " وقد زعم ناس من أهل سليمان بن عليّ ومواليهم، أنّ ولد داود بن جعفر الخطيب المعتزليّ، إنّما ولد له بعد أن نزعت بيضته اليسرى، لأمر كان عرض له" جـ ١، ص٨٢.

٢ - انظر الجاحظ، رسالة الجد والهزل، جـ ٤، ص ٢٤٧ وما يليها. كان موقف الجاحظ من أحمد بن حنبل الموسوم بالشدة منسجما مع نزعته الاعتزالية وكذلك مع قربه من السلطة العباسية. الزويري، الإمامة، ص٤٧.

٣ - الزويري، الإمامة، ص ٤٦

٤ - النجم، الجاحظ، ص٦

٥ - الجاحظ، رسالة المعلمين، ص ٢٠١.

٦ - الجاحظ، الحيوان، جـ٤، ص ١٣٨

فتتلمذ على أيدي العديد من العلماء[1] وأثرى فكره من خلال اتصاله بهم، وبالرغم من أنه لم يتفق أحيانا مع بعضهم أو لم يقتنع بأفكارهم إلا أنه لم ينكر فضلهم عليه.

أسهم تردد الجاحظ على حلقات العلم في اتجاهه الموسوعي في التصنيف[2]، وقد رأى الجاحظ أن يجمع بين الثقافات المختلفة " **لم يكتف بالتردد على أوساطٍ معينةٍ بغية التعمق في مادة اختارها بل لازم كل المجامع، وحضر جميع الدروس، واشترك في مناقشات العلماء المسجديين[3]، وأطال الوقوف في المربد ليستمع إلى كلام الأعراب، ونضيف إلى جانب هذا التكوين، الذي لم يعد لـه طابع مدرسي محدود، المحادثات التي جرت بينه وبين معاصريه وأساتذته في مختلف المواضيع** "[4].

الاعتزال وأثره في تكوين الجاحظ الثقافي

شكل الاعتزال نقطة فاصلة في التوجه العقلي نحو التفكير، أي تحكيم العقل في كل شيء[5] ومن ضمنها الدين[6]؛ وكان أثره ممتداً لكل الأمصار والأجناس[7]، وامتد أثره سنوات طويلة حتى بعد أن منع من قبل السلطة العباسية زمن الخليفة العباسي المتوكل عام ٢٣٢هـ / ٨٤٦م[8] الذي قام بتقريب أهل السنة وإبعاد المعتزلة[9]. ويعد الاعتزال من مظاهر العقلانية في الفكر الإسلامي، فنشأته تدل على أصالته[10].

---

١ - تم تفصيل ذلك في الجزء الخاص بأساتذة الجاحظ.

٢- بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص١١٣. عزت، فلسفة الأخلاق، ص ١٩

٣ - طائفة من العلماء وأرباب النحو واللغة كانت تجتمع في مسجد البصرة. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص١٩.

٤- بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص١٩.

٥ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٢، ص١٢١. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢٧

٦ - جبر، الجاحظ، ص ٢٢.

٧ - بجة، النقد التطبيقي، ص ١٣

٨ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ١٥

٩ - ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١١، ص ٢٠٦. الزويري، الإمامة، ص ٣٦. انظر تعريف المعتزلة: الشذر: ألفاظ الحضارة العباسية، ص ٢٠٢.

١٠ - الجوزي، مكانة العقل، ص ٤٧.

وقد ظهرت كلمة الاعتزال منذ فترة مبكرة في تاريخ الإسلام، وذلك بعد الوقائع التي حدثت بين المسلمين ومن ضمنها موقعة الجمل وصفين[١]؛ اللتين تعدان نقطة البدء للتطور السياسي والديني لاحقا لقسم كبير من المسلمين[٢]، فمن ترك القتال ولم ينضم إلى فئة معينة صار كأنه اعتزل الناس[٣] " **ثم قال عثمان بن حنيف لعمران بن حصين: أشر علي، فقال اعتزل**"[٤]، كما شاع بين الباحثين والدارسين أن بداية ظهور مصطلح الاعتزال بعد اعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري بعد الخلاف بينهم حول مرتكب الكبيرة[٥].

ويرجع تاريخ ظهور الاعتزال بين عام ١٠٠-١١٠هـ / ٧١٨- ٧٢٨م أي أواخر القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني الهجري[٦]، حيث كان للمعتزلة دور في صد هجمات أعداء الإسلام[٧]؛ أما منشأ الاعتزال فقد يكون إما في البصرة أو الشام بحكم تجاورهما وبحكم التأثر والتأثير بينهما[٨]. وتقوم المعتزلة على أصول خمسة[٩] تتمثل في[١٠]: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١١].

ويعد علم الكلام قرين مذهب الاعتزال وملازمه، حيث تصب فيه أفكار المعتزلة[١٢]، كما تعد مسألة كلام الله أو خلق القرآن من أشهر المسائل التي ثار حولها الخلاف بين المتكلمين

---

١ - أحمد أمين، فجر الإسلام، جـ ١، ص ٢٩٠

٢ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٦٠

٣ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٦٠. أحمد أمين، فجر الإسلام، جـ ٣، ص ٧٣٤

٤ - ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٢٥٩.

٥ - السندوبي، أدب الجاحظ، ص ٩٤، ص ٩٧. بجة، النقد التطبيقي، ص ١٥

٦ - السندوبي، أدب الجاحظ، ص ٩٣. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٢١. بجة، النقد التطبيقي، ص ١٨.

٧ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٢١.

٨ - يرجّح بلا أن نشأة الاعتزال في البصرة لكونها موطنا للمذاهب العقلية. انظر: بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٧٦. بجة، النقد التطبيقي، ص ١٩

٩ - لم تشر هياجنه إلى المنزلة بين المنزلتين في حديثها عن أصول المعتزلة والتي تعد أصلا رئيساً فيها، الجاحظ مؤرخاً، ص٢٠. انظر أيضا: الجوزي، مكانة العقل، ص ١٦٣.

١٠ - تم التفصيل في الأصول التي تقوم عليها المعتزلة في الفصل الرابع.

١١ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٤٤٤. ابن المرتضى، أحمد بن يحيى المهدي لدين الله(ت: ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦م). طبقات المعتزلة، تحقيق سوسنة ديفلد، دار مكتبة الحياة، بيروت: ١٩٦١م، ص٩ (سيشار إليه فيما بعد: ابن المرتضى، طبقات المعتزلة).

١٢ - بجة، النقد التطبيقي، ص ١٩

زمن المأمون، فقد احتدم الصراع بين المعتزلة وأحمد بن حنبل حول مسألة خلق القرآن[1]، وهي المسألة التي أدت إلى سجن أحمد بن حنبل حتى عفا عنه الخليفة المتوكل الذي ضرب المعتزلة[2] وأوقف مذهبها[3] " **ولما أفضت الخلافة إلى المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق والمأمون وأمر الناس بالتسليم والتقليد، وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السلف والجماعة**"[4]؛ ويرى بلا أن إفراط المعتزلة في التعصب لمذهبهم واتصالاتهم السياسية المفضوحة لم يتيحا لهم النجاح المستمر[5].

أما نشأة علم الكلام فترجع إلى ظهور الفرق الإسلامية من معتزلة وخوارج ومرجئة وشيعة، مما أدى إلى اختلافات فكرية بينها، ثم تطور الاختلاف الفكري ليأخذ بعداً سياسيا في شكل صراع فكري حول الإمامة وغيرها من المسائل[6].

بدأ الجاحظ علاقته بالمعتزلة بعد أن اتصل بأبي الهذيل العلاف في البصرة في نهاية القرن الثاني الهجري[7]؛ أي قبل رحيله عنها[8]؛ ويرى بلا أن الجاحظ اعتنق المذهب مباشرة بعد بداية اتصاله برجال المعتزلة، وذلك من خلال الدور الذي لعبته المعتزلة بشكل عام والجاحظ بشكل خاص في محاربة الإلحاد والتأثيرات الفارسية المتمثلة في الشعوبية والزندقة والمانوية وغيرها[9]. ويعد حسب مؤرخي الفرق من الطبقة السابعة من طبقات المعتزلة[10]. كما اتصل الجاحظ بمويس بن عمران[11] الذي كان معينا له عندما تبرمت والدة الجاحظ من عمل ابنها

---

١ - المرجع نفسه، ص ٢٢

٢ - قام المتوكل بالعديد من الإجراءات من ذلك أنه استقدم المحدثين إلى سامراء مثل إسحاق بن أبي إسرائيل وكان من كبار المحدثين استحضره المتوكل إليه ليسمع كلامه وينتفع برؤيته، الذهبي، العبر في خبر من عبر، ص ٨٤. كذلك ما فعله بقاضي مصر " بعث المتوكل إلي نائب مصر أن يحلق لحية قاضي القضاة بمصر أبي بكر محمد بن أبي الليث، وأن يضربه " الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٧، ص٢٢.

٣ - جبر، الجاحظ، ص ٢٢

٤ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص ٧٥

٥ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٢١

٦ - بجة، النقد التطبيقي، ص ٢٣

٧ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١١٨. الزويري، الإمامة، ص ٢٦. الجوزي، مكانة العقل، ص ٤٩.

٨ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١١٩

٩ - المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ١٤٣. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ص ١٢٢

١٠ - تم التصنيف على أساس المرحلة الزمنية التي ظهر فيها الجاحظ، الجوزي، مكانة العقل، ص ١٦٣

١١ - أشار بلا أن علاقة الجاحظ بمويس تتسم بالاحترام ممزوجة بعرفان الجميل، لكنه أشار إلى عدم تيقنه من تأثير مويس على تكوين الجاحظ العقلي، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٠٣

فأعانه بمال[1]؛ فكان صديقا له يجالسه حيث أن دار موسى بن عمران يجتمع بها المولعون بالكلام[2].

لقد تبلور فكر الجاحظ المعتزلي منذ أن كان في البصرة بعد جلوسه في حلقات المسجديين وكبار رجالات المتكلمين والعقلاء، لكنه تبلور واتضح بعد أن تبنت الدولة العباسية مذهب الاعتزال معتقدا فكريا رسميا عام ٢١٨هـ/ ٨٢٣م[3].

مذهب الجاحظ هو مذهب الفلاسفة في نفي الصفات. وفي إثبات القدر خيره وشره من العبد. "**ومذهب الجاحظ هو بعينه مذهب الفلاسفة. إلا أن الميل منه ومن أصحابه إلى الطبيعيين منهم أكثر منه إلى الإلهيين**"[4]. وتنسب إلى الجاحظ الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة[5]، التي انفردت عن المعتزلة في مبادئ خاصة بها[6]، ومن مبادئ المعتزلة الاعتماد على العقل كليا في الاستدلال لعقائدهم وكان من آثار اعتمادهم على العقل في معرفة حقائق الأشياء وإدراك العقائد، أنهم كانوا يحكمون بحسن الأشياء وقبحها عقلاً فقالوا: " **المعارف كلها معقولة بالفعل، واجبة بنظر العقل، وشكر المنعم واجب قبل ورود السمع أي قبل إرسال الرسل، والحسن والقبيح صفتان ذاتيتان للحسن والقبيح**"[7]. كما تزعم أن المعارف ضرورية الطباع وليس شيء منها من أفعال العباد[8]. كما يؤكد الجاحظ أن المعارف ضرورية حتى تستقيم أفعال العباد[9].

---

١ - جبر، الجاحظ، ص٨. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١١٠.

٢ - الزويري، الإمامة، ص ٢٧

٣ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩١. نوري، الجاحظ، ص ٣

٤ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ١، ص٧٦.

٥ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٤٧١.

٦ - انظر هامش الجاحظية ص ٦٩.

٧ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ١، ص٧٥

٨ - السمعاني، الأنساب، جـ ٦، ص٦

٩ - جبر، الجاحظ، ص ٢٢. الزويري، الإمامة، ص ٤١

يُعد الجاحظ أشهر رجال المعتزلة[1] وذلك بإجماع مؤرخي الفرق أمثال أبي الحسن الأشعري[2]، وابن المرتضى[3]، والشهرستاني[4]، والمسعودي[5]، وابن خلدون[6]، كما أن ج. دي بور مؤرخِ الفلسفة الإسلامية ذكر أن الجاحظ "**أعظم رجل أخرجته لنا مدرسة النظام** "[7].

كما يعد النظام أشهر رجال المعتزلة ومن أبرز من تأثر بهم الجاحظ[8]، حيث يصفه المسعودي بقوله: " **وكان غلام إبراهيم بن سيار النظام، وعنه أخذ، ومنه تعلم**"[9]، كما أن الخطيب البغدادي يؤكد على العلاقة الوثيقة بينهما بكونه أستاذه[10]، حيث كان الجاحظ يجّل النظام ويقدره[11]. كما أن تأثير مذهب الجاحظ الاعتزالي ظهر في علاقته بثمامة بن أشرس، الذي كان له حظوة في الدولة العباسية في خلافة المأمون[12]، وذلك من خلال تأثير ثمامة على المأمون ودفعه لاعتناق مذهب الاعتزال الذي أدى إلى ترسيخ المذهب ومن ثم أقرته الدولة مذهباً رسميا لها بداية من عام ٢١٨هـ / ٨٢٣م[13].

---

١ - المعتزلة فرقة إسلامية تنتسب إلى واصل بن عطاء الغزال، تميزت بتقديم العقل على النقل، وبالأصول الخمسة التي تعد قاسما مشتركا بين جميع فرقها، من أسمائها القدرية والوعيدية والعدلية، سموا معتزلة لاعتزال مؤسسها مجلس الحسن البصري بعد خلافه معه حول حكم الفاسق. البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٩٥-٩٦. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ١، ص ٤٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٥، ص٤٦٤.

٢ - الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة(ت: ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م). مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق نعيم زرزور، ط١، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٥م، جـ ١، ص٤٥، جـ ٢، ص٢٥٧ (سيشار إليه فيما بعد: الأشعري، مقالات الإسلاميين).

٣ - ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، ص٦٨

٤ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص٧٥.

٥ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص١٢٣

٦ - ابن خلدون، المقدمة، ص٣٤١

٧ - دي بوير، ت ج. تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة علي محمد عبدالهادي، ط ٥، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: ١٩٨٠م، ص١١٢ (سيشار إليه فيما بعد: دي بوير، تاريخ الفلسفة).

٨ - الزويري، الإمامة، ص ٢٨. الجوزي، مكانة العقل، ص ٥٠.

٩ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص ١٢٣.

١٠ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ١٢، ص ٢١٣.

١١ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١١٨. الزويري، الإمامة، ص ٢٨

١٢ - الزويري، الإمامة، ص ٢٩. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١

١٣ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩١. نوري، الجاحظ، ص ٣.

كان دور ثمامة يتمثل في ايصال كتب الجاحظ للسلطة العباسية وتقريبه منهم، ونشير هنا إلى كتاب الإمامة الذي قدمه الجاحظ إلى المأمون عندما كان في مرو[1] فأعجب بما احتواه وأثنى عليه مما جعله يقرب الجاحظ ليغدو أشد المنافحين والمكافحين عن السلطة العباسية ويغدو الجاحظ في مكانةٍ عليةٍ لدى السلطة[2]، أما المذهب الاعتزالي فقد شق طريقه منذ ذلك التاريخ حتى أصبح رسميا في أواخر خلافة المأمون[3]، خاصة وأن المأمون بدأ يأخذ موقفا يتماشى مع نزعته الاعتزالية والتي تتمثل في البراءة من معاوية والترضي من علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م [4]. كما استمر نفوذ المعتزلة واستمرت مكانة الجاحظ مقربا من السلطة[5]؛ ولعل دفاع الجاحظ عن المعتصم في موقفه من أحمد بن حنبل دليل على مكانة الجاحظ لدى السلطة وعلى قوة مذهب الاعتزال في تلك الفترة[6]" **على أنه لم ير سيفاً مشهوراً، ولا ضرب ضرباً كثيراً، ولا ضرب إلا ثلاثين سوطاً مقطوعة الثمار، مشعثة الأطراف، حتى أفصح بالإقرار مراراً. ولا كان في مجلس ضيق، ولا كانت حالته حال مؤيسة، ولا كان مثقلاً بالحديد، ولا خلع قلبه بشدة الوعيد. ولقد كان ينازع بألين الكلام، ويجيب بأغلظ الجواب، ويرزنون ويخف، ويحلمون ويطيش**"[7]. إذ أن المعتصم جمع المعتزلة لمناظرة أحمد بن حنبل والتي أدت إلى ضربه بالسياط بأمر من القاضي ابن أبي دؤاد[8].

أصبحت رؤية الجاحظ الاعتزالية تماثل رؤية الخلافة إذ وجه اهتمامه إلى القضايا التي تهم الخلافة في المقام الأول[9]، كما وأن الجاحظ نفسه يعد من رؤوس المعتزلة[10] لذا انفرد

---

١ - جبر، الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد، ص٩. الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٧٨.

٢ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ١٥

٣ - جبر، الجاحظ، ص ٢٢

٤ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١ . الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٥ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦،ص. ٧٢. نوري، الجاحظ، ص، ٢، ص ١٤

٦ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١

٧ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص٢٩٥.

٨ - القزويني، زكريا محمود محمود(ت:٦٨٢هـ/١٢٨٣م). آثار البلاد وأخبار العباد، ط١، دار بيروت، بيروت: ١٩٨٤م، ص١٢٨ (سيشار إليه فيما بعد: القزويني، آثار البلاد).

٩ - الزويري، الإمامة، ص ٣٢

١٠ - جبر، الجاحظ، ص ٨. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢٠

بفرقة أطلق عليها اسم الجاحظية[1]. ويشير السندوبي أن الاثار التي تركها الجاحظ لا تعطي وصفا لآرائه في الاعتزال، بل تستنتج ذلك مما كتب عنه من الرواة والمؤرخين[2]، وهذا صحيح إذا علمنا أن الكثير من تراث الجاحظ والمعتزلة ضاع في القرن الرابع الهجري إذ أتلف الكثير من تراثهم وخاصة التي تنادي بمذهب الاعتزال.

كما دافع الجاحظ عن مذهبه وعن رجال المعتزلة، مشيداً بدورهم في الوقوف في وجه التيارات والحركات التي تريد أن تنقص من قدر الإسلام والعرب[3] بقوله: " **ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوامّ من جميع النّحل. فإن لم أقل، ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلكت العوامّ من المعتزلة، فإني أقول: إنه قد أنهج لهم سبلا، وفتق لهم أمورا، واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة، وشملتهم بها النعمة**"[4].

للجاحظ رسائل في الاعتزال نذكر منها كتاب "خلق القرآن" و "صناعة الكلام" و "رسالة في نفي التشبيه" و "كتاب النابتة"، كما أن من كتبه في علم الكلام كتاب "الرد على النصارى" وأخرى في الاعتزال وعلم الكلام لكنها مفقودة مثل كتاب " فضيلة المعتزلة" و " كتاب في الوعد والوعيد" وغيرها من الكتب التي أدرجناها ضمن ملحق الرسالة. وتعد كتب الجاحظ دليلاً على سعة اطلاعه وتبحره في علم الكلام[5] ومعرفته بالفرق الكلامية مثل الجهمية والمشبهة والخوارج والشيعة والمعتزلة وغيرها[6]. ويرى الجاحظ أن علم الكلام هو العلم الذي يجمع بين الدين والفلسفة[7] بقوله: " **إنّي وجدت فضيلة الكلام باهرة، ومنقبة المنطق ظاهرة، في خلال كثيرة، وخصال معروفة. منها: أنّك لا تؤدّي شكر الله ولا تقدر على إظهاره إلّا بالكلام. ومنها: أنّك لا تستطيع العبارة عن حاجاتك والإبانة عن مآربك إلّا باللّسان. وهذان في العاجل والآجل مع أشياء كثيرة لو ينحوها الإنسان لوجدها في المعقول موجودة، وفي المحصول معلومة وعند الحقائق مشتهرة، وفي التّدبير ظاهرة**"[8]، ويشير جميل جبر أن كتاب الحيوان يحتوي على معظم آراء الجاحظ في المعتزلة[9].

---

١ ـ لقد بسطنا القول حول هذه الفرقة منشأها وأتباعها في محور ثقافة الجاحظ، انظر أيضا: السندوبي، أدب الجاحظ، ص١٠٤. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١. مردم، خليل. الجاحظ، مكتبة عرفة، دمشق: ١٩٣٠م، ص١٠ (سيشار إليه فيما بعد: مردم، الجاحظ).

٢ ـ السندوبي، أدب الجاحظ، ص ١٠٥.

٣ ـ هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١

٤ ـ الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٣٦٠

٥ ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص ١٨٠. أبو الفداء، المختصر، جـ ١، ص ١٧٦.

٦ ـ الجوزي، مكانة العقل، ص ١٥٦. مردم، الجاحظ، ص ١٢

٧ ـ الجوزي، مكانة العقل، ص ١٥٧

٨ ـ الجاحظ، رسالة تفضيل النطق على الصمت، ص ٣٠١

٩ ـ جبر، الجاحظ، ص ١٤

كما يعد علم الكلام عند الجاحظ فلسفة هدفها البحث في الأسباب والعلل[1]. ونستدل مما سبق أن الجاحظ كان يولي علم الكلام أهمية كبيرة.

علاقته بالسلطة العباسية

بدأت العلاقة بين الجاحظ والسلطة العباسية عندما قرأ اليزيدي[2] على المأمون رسالة الجاحظ في الإمامة عام ١٩٨هـ / ٨١٣م[3] فأعجب بها وقال عنها: **"قد كان بعض من يرتضى عقله ويصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة، فقلنا له: قد تربى الصفة على العيان، فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصفة"**[4] مما استدعاه إلى مرو وصارت له حظوة عند السلطة[5]. لم يمكث الجاحظ في مرو طويلا بل عاد إلى البصرة وظل بها حتى عزم على الرحيل إلى بغداد عام ٢٠٤هـ/ ٨١٩م[6] حين قدم المأمون إليها[7].

---

١ - الجوزي، مكانة العقل، ص ١٦٩

٢ - يحيى بن المبارك بن المغيرة اليزيدي، سمي باليزيدي لصحبته يزيد بن منصور خال المهدي، اتصل بالرشيد فجعله مؤدبا للمأمون وكان يتهم بالميل إلى الاعتزال، مات بخراسان سنة ٢٠٢هـ / ٨١٧م. ابن النديم، الفهرست، جـ ١، ص ٧٢. الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص٤٤٠. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص١٨٣. الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٧٨.

٣ - ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي(ت ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م). لسان الميزان، ط١، دار الفكر، بيروت: ١٩٨٨م، جـ ٤، ص ٣٥٥ (سيشار إليه فيما بعد: ابن حجر، لسان الميزان). الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٧٨. الزويري، الإمامة، ص٢٩. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١

٤ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٤٤.

٥ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص١٨٠. أبو الفداء، المختصر، جـ ١، ص١٦٧. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٦٧.

٦ - ذكر الطبري أن المأمون توجه إلى بغداد في سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧م " وفي هذه السنة شخص المأمون من مرو يريد العراق" حيث ذكرها في أحداث سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م . تاريخ الطبري، جـ ٥، ص ١٣١ وما يليها، كما أشار إلى وصوله بغداد الذي كان في سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م، جـ ٥، ص ١٥٠. وكذلك المسعودي في مروج الذهب يقول "وكان دخول المأمون بغداد سنة أربع ومائتين"، جـ ٢، ص ٤٨. كذلك ابن خلكان في وفيات الأعيان يذكر "قال الجاحظ: دخلت بغداد في سنة أربع ومائتين، حين قدم إليها المأمون" جـ ٦، ص ١٨٠. كما أن أبا الفداء يذكر أن انتقال المأمون إلى بغداد كان في عام ٢٠٤هـ/ ٨١٩م إذ ينقل النص السابق عن الجاحظ، المختصر، جـ ١، ص ١٧٦.

إما شارل بلا في كتابه الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، فقد ذكر أن دخول الخليفة المأمون بغداد كان في سنة ٢١٠هـ/ ٨٢٥م ، ص ٣٨٧. كما أشارت هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص١٥ والجوزي، مكانة العقل، ص ٣٦٦ أن انتقال الجاحظ إلى بغداد كان في عام ٢٠٠هـ/٨١٥م وهذا غير صحيح لأن المأمون حتى عام ٢٠٠هـ/ ٨١٥م كان ما يزال في مرو. لكن الصحيح أن المأمون خرج من مرو عام ٢٠٢هـ/٨١٧م ووصل بغداد سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م.

٧ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص ٨٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص٤٧٠. الحموي، تقي الدين أبو بكر بن محمد بن حجة(ت:٨٣٧هـ / ١٤٣٣م). ثمرات الأوراق، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، المكتبة العصرية، مصر: ٢٠٠٥م، ص٣٠ (سيشار إليه فيما بعد: الحموي، ثمرات الأوراق).

يعد انتقال الجاحظ إلى بغداد مرحلة بدأت فيها علاقته تتوثق بالخليفة والسلطة[1]، إذ ظل في بغداد طوال خلافة المأمون، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل متواصلا مع مسقط رأسه البصرة في زيارات بين الحين والآخر. أما في خلافة المعتصم فقد انتقل إلى سامراء[2] وهناك نشأت صداقة بينه وبين محمد بن عبد الملك الزيات[3]، وكان ملازما له، ومنحرفا عن أحمد بن أبي دؤاد[4] للعداوة التي كانت بين الرجلين إذ كان ابن الزيات يبغض أحمد بن أبي دؤاد للمنافسة التي كانت بينهما فالأول وزير المعتصم والثاني قاضيه حتى أن الواثق أمر أن لا يرى أحد ابن الزيات إلا قام له فكان ابن أبي دؤاد إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلي[5]، فقام ابن الزيات بهجاء ابن أبي دؤاد بقصيدة من تسعين بيتاً زادت على أثرها الخصومة بينهما، واستمرت العداوة حتى تولى الخلافة المتوكل[6]، فقبض على محمد بن الزيات[7]، وهرب الجاحظ، فقيل له لم هربت؟ فقال: خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور، يريد ما صُنِع بمحمد، وإدخاله تنور حديد فيه مسامير كان هو صنعه ليعذب الناس فيه، فعُذِب هو فيه – يعني محمد بن الزيات-

---

١ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص١٨٠. أبو الفداء، المختصر، جـ ١، ص١٦٧. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٦٧. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ١٥.

٢ - لا يوجد تاريخ محدد حول انتقال الجاحظ إلى سامراء ولا عودته منها. فلم يشر الجاحظ إلى ذلك ولا من ترجم له من اللاحقين.

٣ - محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ابن الزيات (١٧٣ - ٢٣٣ هـ / ٧٨٩ - ٨٤٧ م)، وزر لثلاثة خلفاء من بني العباس وهم: المعتصم والواثق والمتوكل. من بلغاء الكتاب والشعراء. نبغ فتقدم حتى بلغ رتبة الوزارة. وعوّل عليه المعتصم في مهام دولته. وكذلك ابنه الواثق. ولما مرض الواثق عمل ابن الزيات على تولية ابنه وحرمان المتوكل، فلم يفلح. وولي المتوكل فنكبه، وعذبه إلى أن مات ببغداد. وكان من العقلاء الدهاة، وفي سيرته قوة وحزم. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٥،ص ٢١٤. المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ١٢٩-١٣١. مروج الذهب، جـ ٢، ص٧٥. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٥، ص١٠١.

٤ - أحمد بن أبي دواد بن جرير بن مالك الإيادي(١٦٠ - ٢٤٠ هـ / ٧٧٧ - ٨٥٤ م)، كان شاعرا مجيداً، وفصيحا بليغاً، تولى الوزارة بعد قتل ابن الزيات زمن الخليفة المأمون، كان أحد القضاة المشهورين من المعتزلة، قدم به أبوه، وهو حدث، من قنسرين(بين حلب ومعرة النعمان) إلى دمشق، فنشأ فيها ونبغ، ومنها رحل إلى العراق. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٧، ص٤٢.

٥ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٨٥.

٦ - ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٠، ص٣٥٥.

٧ - كان المتوكل يبغض ابن الزيات لأمور منها أن أخاه الواثق غضب على المتوكل في بعض الأوقات وكان ابن الزيات يزيده غضبا عليه، فبقي ذلك في نفسه، ثم كان الذي استرضى الواثق عليه أحمد بن أبي دؤاد فحظي بذلك عنده في أيام ملكه، ومنها أن ابن الزيات كان قد أشار بخلافة محمد بن الواثق بعد أبيه، ولف عليه الناس، وجعفر المتوكل في جنب دار الخلافة لم يلتفت إليه ولم يتم الأمر إلا لجعفر المتوكل على الله، رغم أنف ابن الزيات.

فأخذ جميع ما في داره من الاموال واللآلئ والجواهر والحواصل والجواري والأثاث، وبعث المتوكل في الحال أيضا إلى حواصله بسامراء وضياعه وما فيها فاحتاط عليها، وأمر به أن يعذب ومنعوه من الكلام، وجعلوا يساهرونه كلما أراد الرقاد نخس بالحديد، ثم وضعه بعد ذلك كله في تنور من خشب فيه مسامير قائمة في أسفله فأقيم عليها ووكل به من يمنعه من القعود والرقاد، فمكث كذلك أياما حتى مات. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٥، ص ٢٩٤، ٢٩٥. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٠، ص ٣٤٢

حتى مات[1]. جيء بالجاحظ بعد مقتل ابن الزيات إلى أحمد بن أبي دؤاد الذي استلم الوزارة، فقال له: " **والله ما علمتك إلا متناسيا للنعمة، كفورا للصنيعة، معددا للمساوئ، ومنا فُتني باستصلاحي لك، ولكن الأيام لا تصلح منك لفساد طويتك ورداءة داخليتك، وسوء اختيارك...**"[2] لكن الجاحظ المعروف بالحجة في العذر وبجزالة اللفظ وتوقد الذاكرة والكلمة، كان يتمكن من تخليص نفسه ، وذلك بحسن انتقاء ألفاظه، حيث قربه أحمد بن أبي دؤاد مثلما كان مقربا زمن ابن الزيات[3]. ويستنتج من ذلك أن ابن أبي دؤاد أحس في الجاحظ أنه قرينه ويشبهه في كثير من الخصائص، كما أنه في حاجة إليه للدفاع عن السلطة العباسية ضد المناوئين لها.

تولى الجاحظ ديوان الرسائل زمن الخليفة العباسي المأمون[4](١٩٨- ٢١٨هـ / ٧٨٦-٧٣٣م) [5] ، وذلك بعد أن وضع رسالته في "استحقاق الإمامة"[6] والتي كانت بين عام ٢٠٠-٢٠٣هـ / ٨١٥-٨١٨م، لكنه لم يمكث في الديوان سوى ثلاثة أيام وقال كلمته المشهورة: "

---

١ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص ٢٤٨

٢ - ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي(ت: ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م). إعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشتر، ط١، مجمع اللغة العربية، دمشق: ١٩٦١م، ص٢٢ (سيشار إليه فيما بعد: ابن الآبار، إعتاب الكتاب).

٣ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٥٦

٤ - أشار نوري أن الجاحظ تقلد الديوان نيابة عن إبراهيم بن العباس الصولي بناءً على إشارات وردت عند الحموي، لكن ما ورد عند الحموي أن الصولي تولى الأهواز زمن المأمون عندما كان ابن الزيات على رأس الوزارة، حيث حدثت بينهما منازعات بسبب موقف ابن الزيات من الصولي، كما أن تولي الصولي لديوان الرسائل كان زمن الخلفاء الواثق والمعتصم والمتوكل ولم يتولَّ الديوان زمن المأمون. نوري، الجاحظ، ص٢. كما ذكر شارل بلا ذلك، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٨٨، فالحموي يذكر أن الجاحظ تولى ديوان الرسائل زمن المأمون ولم يشر إلى الصولي في فترة خلافة المأمون. انظر الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٧٠-٨٦.

كذلك نجد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد جـ ٣، ص ١٧٦، أن الجاحظ تولى ديوان الرسائل زمن الصولي، وفي سير أعلام النبلاء كان الجاحظ ينوب في ديوان الرسائل عن إبراهيم بن العباس الصولي، جـ ١١، ص ٥٢٧. أما في مسالك الأبصار، جـ ٧، ص ٣٥٤، فذكر أن الجاحظ خدم في ديوان الرسائل زمن الخليفة العباسي المأمون لمدة ثلاثة أيام. ونستنتج من هذا أن الجاحظ تولى ديوان الرسائل زمن المأمون لمدة ثلاثة أيام لكن استعفى فأعفي، أما في فترة أبراهيم بن العباس الصولي فكان الجاحظ يتولى الديوان نيابة عنه ولمدة قصيرة عندما يغيب الصولي لأي عارض.

٥ - الصولي إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول، أبو إسحاق(١٧٦ - ٢٤٣ هـ / ٧٩٢ - ٨٥٧ م): كاتب العراق في عصره. أصله من خراسان، ونشأ إبراهيم في بغداد فتأدب وقربه الخلفاء فكان كاتبا للمعتصم والواثق والمتوكل. وتنقل في الاعمال والدواوين إلى أن مات متقلدا ديوان الضياع والنفقات بسامراء. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٧٠- ٧٣.

٦ - وضع الرسالة في حوالي عام ٢٠٠هـ / ٨١٥م عندما قدم على المأمون في مرو، وقد طلب المأمون من وزيره أبو الهذيل الغلاف قراءة الكتاب فأعجب بما يحتويه، مما جعل الجاحظ منذ ذلك العهد ينال حظوة وقربا من السلطة. الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٧٨.

ظواهر نظيفة، وبواطن سخيفة"[1]. وذكر الجاحظ عاثة[2] الكتاب فقال: "أخلاق حلوة، وشمائل وثياب نظيفة، وتظرف أهل الفهم، ووقار أهل العلم، فإذا صلوا بنار الامتحان كانوا كالزبد يذهب جفاء، وكنبات الربيع في الصيف يعروه هيف الرياح، ولا يستندون إلى وثيقة، ولا يدينون بحقيقة، أخفر الخلق لأماناتهم، وأشراهم بالثمن البخس لعهودهم. فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون"[3] ثم أنه استعفى فأعفي[4]. حين رأى الجاحظ هؤلاء الكتاب في ديوان المأمون وقد صقلوا ثيابهم وصففوا عمائمهم فوصفهم بقوله: "يتباهون بمهنتهم ويتنافسون بالظهور بمظهر الأسياد"، ولذا كان الجاحظ يُطلق عليهم لقب(الطواويس)[5]؛ وسبب ذلك لما فيهم من العجب والكبرياء[6]. فكان سهل بن هارون[7] يقول: " إذا ثبت الجاحظ في هَذا الديوان أفل نجم الكتاب "[8]. وقد ترك الجاحظ العمل في الديوان بسبب ما به من زيف ونفاق بعد أن عرف حقيقة كتاب الدواوين فوصفهم بأنهم أصحاب ظواهر نظيفة وبواطن سخيفة فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون[9]، إلا أنه بقي للخليفة مخلصاً وفياً، فأيسرت حاله بعد بؤس.

وثّق الجاحظ صلاته برجالات الدولة الآخرين، لا سيما الوزراء منهم، فأهداهم كتبه ورسائله ومصنفاته، فأجزلوا له العطاء بدورهم وأفاضوا عليه[10]. وكان لهم الدور الأكبر في نشر كتبه التي تحتوي على أفكاره" أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب الزرع

---

١ - الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت(ت: ٤٦٣هـ / ١٠٧١م). تقييد العلم، تحقيق يوسف العش، ط ٢، دار إحياء السنة النبوية، القاهرة: ١٩٧٤م، ص١٤٥(سيشار إليه فيما بعد: الخطيب البغدادي، تقييد العلم). العمري، مسالك الأبصار، جـ ٧، ص ٣٥٤. كان هؤلاء الكتاب كما يشير بلا مدينون بمراكزهم إلى أصلهم الأعجمي أكثر من كفاءاتهم، كما كانت تنقصهم الثقافة العربية. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١١٣.

٢ - العيث: أفسد وأخذ بغير رفق. وأصل العيث: الفساد. لسان العرب، جـ ٢، ص ١٧٠.

٣ - الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، ص٦١١.

٤ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٥٦

٥ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٢، ص ٣٧٩.

٦ - الثعالبي، عبدالملك بن محمد إسماعيل(ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧). تحسين القبيح وتقبيح الحسن، تحقيق شاكر العاشور، دمشق: ٢٠١٢م، ص١١(سيشار إليه فيما بعد: الثعالبي، تحسين القبيح).

٧ - سهل بن هارون بن راهيون الدستميساني، أبو عمر؛ انتقل إلى البصرة واتصل بخدمة المأمون وتولى خزانة الحكمة له، وكان حكيماً فصيحاً شاعراً، وله مصنفات كثيرة، مثل كتاب ثعلة وعفرة على مثال كليلة ودمنة، الحموي، معجم الأدباء، جـ ٣، ص ٥٠٣. الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر(ت: ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م). فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، ط ١، دار صادر، بيروت: ١٩٧٣م، جـ٢، ص٨٤ (سيشار إليه فيما بعد: الكتبي، فوات الوفيات).

٨ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٥٧

٩ - جبر، الجاحظ، ص ٥٢

١٠ - الحموي، معجم الأدباء، جـ٦، ص ٧٦.

والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار"[1]. وهذا ما ساعد الجاحظ أن تيسر حاله، فقد كانت الهبات التي يحصل عليها من الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة عاملا في رخاء حياة الجاحظ . إذ أن الهبات التي يحصل عليها كانت في مقابل مؤلفاته التي كتبها بوحي من السلطة العباسية[2].

وفي بغداد أصبح يتردد على بلاط المأمون[3] وهذه مرحلة التوافق التام بين المعتزلة والسلطة العباسية[4]، واستمرت صلة الجاحظ بالسلطة ففي عهد المعتصم استمر نفوذ المعتزلة ودافع الجاحظ عن المعتصم حول تعرضه لأحمد بن حنبل[5]؛ كما استمرت علاقته بالسلطة حتى خلافة المتوكل[6]. غير أن المتوكل لم يكن راغباً في تقريب الجاحظ، بسبب انتمائه للمعتزلة خاصة أن المتوكل اتبع سياسة سنية تعتمد الكتاب والسنة كما أنه حارب المعتزلة وشدد عليهم[7]. ثم أبطل القول بخلق القرآن[8]. وكادت أن تشمل هذه الإجراءات الجاحظ، لولا إجادته في تخليص نفسه[9]. وعلى الرغم أن الجاحظ بقي محسوبا على السلطة العباسية زمن المتوكل إلا أنه بقي مخلصا لعقيدته الدينية[10]. ويرى أحد الباحثين المحدثين أن ارتباط الجاحظ بالسلطة جعله يفكر وينظر وفق رؤيتها فلم يعد هناك حاجة للحديث عن عقائد المعتزلة بل وجه اهتمامه إلى القضايا التي تهم الخلافة[11]. ومن أهمها شرعية الخلافة التي يؤكد الجاحظ أنها مستمدة

---

١ - المصدر نفسه، ص ٥٧

٢ - النجم، الجاحظ، ص ٧

٣ - الأصفهاني، أبو الفرج (ت: ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م). الأغاني، تحقيق يوس البقاعي، ط ١، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت: ٢٠٠٠م، جـ ٢، ص ١١٦ (سيشار إليه فيما بعد: الأصفهاني، الأغاني). الزويري، الإمامة، ص ٣٤

٤ - الزويري، الإمامة، ص ٣٤

٥ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١

٦ - اشار بلا أن علاقة الجاحظ بالمتوكل كانت أوثق منها مع غيره من الخلفاء وهذا لا يتناسب والسياق التاريخي خاصة إذا علمنا المنزلة والحظوة التي بلغها الجاحظ في خلافة المأمون. الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٨٩.

٧ - الحموي، معجم الأدباء، جـ٦، ص ٧٤.

٨- الطبري، تاريخ، جـ ٩،ص. ١٩٠. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١١، ص ٢٥١.

٩- الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص ٥٨ ـ ٥٩.

١٠ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩٤

١١ - الزويري، الإمامة، ص ٤١

للعباسيين من قرابتهم للرسول صلى الله عليه وسلم؛ كما أن شرفهم متصل قبل الإسلام وبعده[١].

يعود سبب تحول المتوكل[٢] ضد المعتزلة أنه رأى سخط الرأي العام على المعتزلة وما سببوه من مشكلات بسبب مسألة خلق القرآن. وكان ذلك في وقت بدأ فيه عصر نفوذ الجند الأتراك، وهم حديثو عهد بالإسلام لا يشغلون أنفسهم بقضايا الفكر ولا يطيقون صبراً على الخلافات الدينية والمنازعات المذهبية. لذلك شعر الخليفة المتوكل بضرورة توطيد نفوذه السياسي والديني، فأعلن سنة (٢٣٣هـ/٨٤٧م) إبطال القول بخلق القرآن[٣]، وهدد من آثار هذه المسألة "وأبطل الامتحانات والمحاكمات، ونصر المحدثين"[٤].

يرى بلا أن المتوكل لم يكن بنفس قوة المأمون الذي كان يستطيع الوقوف في وجه المحدثين والمخالفين وأعطى قدرا من الحرية في إظهار الآراء والمواقف[٥]، فكان المأمون يعقد جلسات للمناظرة[٦] كما أنه هو كان يناظر فقد تمكن بعد أن نادى بالاعتزال أن يقاوم خصومه[٧]، فكان المأمون يهدف من تلك الحرية في الاطلاع على ما يجري في المجالس والاطلاع على مواقف المعارضين له[٨]. أما من جاء بعده من الخلفاء كالمعتصم والواثق فقد ظل الاعتزال قائما لكن لم يكن بنفس أوجّه زمن المأمون، لذا جابهوا المناوئين بقوة السيف أكثر منه بالحجة[٩] فمن خالف المعتصم كان يلقى التعذيب والضرب[١٠].

---

١ - المرجع نفسه، ص (ط).

٢ - تم تفصيل ذلك في الفصل الثالث.

٣ - الطبري، تاريخ، جـ ٩،ص. ١٩٠.

٤ - في عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في امتحان القضاة والمحدثين وأمر بإشخاص جماعة منهم إليه إلى الرقة وكان ذلك أول كتاب كتب في ذلك. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٥، ص١٨٦. أمين، ضحى الإسلام. جـ ٤، ص ٨ . بدوي، عبد المجيد. التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في الشرق الإسلامي من القرن الخامس حتى سقوط بغداد، دار الوفاء، القاهرة: ١٩٨٨م، ص ٨٣ (سيشار إليه فيما بعد: بدوي التاريخ السياسي).

٥ - الزويري، الإمامة، ص ٣٤. الجوزي، مكانة العقل، ص ٣٦٣.

٦ - بجة، النقد التطبيقي، ص ١٨

٧ - كان المأمون يرى أن مجالس المناظرة تساعد على إزالة أساب الخلاف بين العلماء. حسن، إبراهيم حسن. الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط ٧، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة: ١٩٦٤م، ص١٥٩ (سيشار إليه فيما بعد: حسن، الإسلام السياسي).

٨ - الزويري، الإمامة، ص ٣٤

٩ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩١.

١٠ - جبري، الجاحظ، ص ٣٣٨.

لم تكن إجراءات المتوكل ضد المعتزلة فحسب بل شملت الشيعة وأهل الذمة " وفى هذه السنة أمر المتوكّل بأخذ النصارى وأهل الذمّة بلبس العسلىّ[1] نهى أن يظهروا في أعيادهم صليبا وأن يشمعوا في الطريق، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلّا يشبه قبورهم قبور المسلمين"[2] . كما أن رسالة الجاحظ " الرد على النصارى" قد تكون إلى حد كبير كتبها بأمر من المتوكل[3]، الذي وصلت إجراءاته أيضا ضد الشيعة "وفيها امر المتوكّل بهدم قبر الحسين عليه السلام وما حوله من المنازل والدور وأن يبذر ويمنع الناس من إتيانه"[4]. ويستخلص أن كتب الجاحظ مثل العثمانية أو الكتب المفقودة له والتي ذكر منها المسعودي "مسائل العثمانية"[5] والحموي " الرد على العثمانية"[6] كانت موجهة ضد الشيعة وبخاصة الرافضة[7]؛ التي كانت تعارض خلافة بني العباس وهذا يتماشى مع رغبة خلفاء بني العباس في قيام الجاحظ بالدعاية السياسية لهم من خلال ضرب خصومهم انطلاقا من فكر ديني معتزلي.

وبسبب قرب الجاحظ من العباسيين أصبح عليه الدفاع عنهم وتبرير وجودهم في السلطة[8] خاصة في الفترة التي أعقبت قتل الأمين إذ أحس المأمون بالحاجة إلى تبرير موقفه[9]. فأصبح اللسان المدافع عن العقيدة الإسلامية وفي نفس الوقت مدافعا عن السلطة العباسية[10].

---

١ - لباس خشن من الرقاع، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ ٦، ص ٢٨٤.

٢ - "وفي هذه السنة أمر المتوكل بأخذ النصارى وأهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وبتصيير كرتين على مؤخر السروج وبتصيير زرين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالف لونهما لون الثوب الظاهر الذي عليه وان تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره والاخرى منهما خلف ظهره وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربعة أصابع ولونهما عسليا ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون العسلي ومن خرج من.نسائهم فبرزت فلا تبرز إلا في إزار عسلي وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزنانير وبمنعهم لبس المناطق وأمر بهدم بيعهم المحدثة وبأخذ العشر من منازلهم" الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٣٠٤.

انظر: العسكري، الأوائل، ص ٨٤. مسكويه، تجارب الأمم، جـ ٤، ص ٢٩٧.

"أخذ المتوكل أهل الذمة بلبس رقعتين عسليتين على الأقبية والدراريع، وكان ذلك في المحرم، وأن تصنع النساء مقانعهن عسليات، ثم أمر في صفر بأن يقتصروا في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين" ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١١، ص ٢٦٥.

٣ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٢٥.

٤ - مسكويه، تجارب الأمم، جـ ٤، ص ٢٩٩. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١١، ص ٢٣٧

٥ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٤٥١.

٦ - أشار له الحموي في معجم الأدباء، جـ ٥، ص ١٩٨.

٧ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٦٧

٨ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩٤. نوري، الجاحظ، ص ٢.

٩ - النجم، الجاحظ، ص ١٢٥

١٠ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢٠

وربما قاده ذلك أيضا إلى الإسهام في الدعاية الإعلامية لهم وصياغة مقولاتها والمشاركة في توجيهها[1]. فقد كلفته السلطة مرات عديدة وضع الكتب والرسائل في موضوعات أرادتها أن تذاع وتنتشر بين جمهور الناس[2]. فكان دفاعه من خلال كتبه ورسائله، مما نال حظوة لدى الخلفاء وبدأ يتردد عليهم ويجتمع بهم في أروقة الخلافة للتناظر والتباحث[3].

أضف إلى ما سبق أن الجاحظ جادل فرقاً ومِللاً مختلفة مستخدماً العقل في إثبات حق العباسيين في الخلافة[4] بسبب صلته بهم ومخالطته لهم[5]؛ تأكيدا لميوله السياسية التي كانت تتأثر بين الفينة والأخرى بمراحل التحول السياسي والفكري التي شهدها وعايشها الجاحظ نفسه. حتى أن الجاحظ إذا ما ناظر فرقة فإنه يرمي كل ثقله الفكري وبكل أدواته البلاغية والمنطقية، حتى يكاد يوهم قارئه بأنه هو مبتدع هذه العقيدة أو الفكرة وليس غيره، وهو أمر عكس في الوقت نفسه سعة ما امتلكه الجاحظ من أخبار ومرويات ومعلومات وأفكار تصلح لتوظيفها لأية أغراض سياسية في كل وقت وحين، مع قدرة كبيرة على المحاجة المنطقية تسلح بها في معظم كتاباته[6].

عمد المتوكل إلى إحداث انقلاب في النواحي السياسية وما اتصل بها من جوانب فكرية أو دينية[7]. من ذلك إظهار الخصومة للعلويين[8]، والتشدد إزاء أهل الذمة[9]. وقد أسهم الجاحظ في هذه السياسة بالترويج لها وتدعيمها في رسالتيه: "العثمانية" و"الرد على النصارى".

شملت إجراءات المتوكل إبعاد كافة المعتزلة عن المواقع الدينية وعن مواقع السلطة[10]، والتي سلم منها الجاحظ. إذ عد الجاحظ سياسة المتوكل الخاصة بإبطال القول بخلق القرآن، بأنها نقت الدين من شوائبه، وأنها المثلى في هذا الباب؛ فأثنى عليها ، مع أن واحدة من أهم

---

١ - الحاجري، طه محمد. الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، القاهرة: ١٩٦٢م، ص ٢٧٨ (سيشار إليه فيما بعد: الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره).

٢ - نوري، الجاحظ، ص ٢

٣ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ١٥

٤ - المرجع نفسه، ص ٢١

٥ - أبو الفداء، المختصر، جـ ١، ص ١٧٩.

٦ - نوري، الجاحظ، ص ٣

٧ - المرجع نفسه، ص١٤

٨- الطبري، تاريخ، جـ ٩، ص ١٨٥. - نوري، الجاحظ، ص ١٤

٩- الطبري، تاريخ، جـ ٩، ص ١٧١ وما بعدها. - نوري، الجاحظ، ص ١٤

١٠- الطبري، تاريخ، جـ ٩، ص١٧٩. نوري، الجاحظ، ص ١٤

مقولات المعتزلة في أصل التوحيد هي القول بخلق القرآن ونفي قدمه، وأن للجاحظ نفسه رسالة في خلق القرآن، أشار فيها إلى أن القرآن مخلوق، وأن خلقه على الحقيقة لا على المجاز[١]. فامتدح سياسة المتوكل في هذا الجانب، ومعنى ذلك وقوع الجاحظ في تناقض مع آرائه، ولم يكن موقفه هذا من قبيل التراجع الفكري، لأنه لم يعارض أفكاره السابقة بمقولات جديدة، تؤشر قبوله بفكرة قدم القرآن ونفي خلقه، بل كان موقفه هذا من قبيل المحاباة للسلطة والسير مع التيار[٢].

مؤلفاته[٣]

يعد كتاب الحيوان من أهم مصنفات الجاحظ، وقد كتبه أهدى الكتاب إلى ابن الزيات وأعطاه مقابله خمسة آلاف دينار، هذا مع العلم أن ابن الزيات قتل عام ٢٣٣هـ / ٨٤٧م[٤] مما يعني أن الجاحظ قد فرغ من كتابه قبل تلك السنة، لكن الإشارات التي ترد داخل الكتاب توحي أن الجاحظ قد أكمل باقي أجزاء الكتاب بعد ذلك التاريخ، وأنه لم يهدِ ابن الزيات كافة أجزاء الكتاب، خاصة وأنه تناول في كتابه الخليفة المتوكل (٢٣٢هـ - ٢٤٧ / ٨٤٦-٨٦١م) مما يعني أنه فرغ من الكتاب بأجزائه السبعة حوالي عام ٢٤٧هـ / ٨٦١م[٥]؛ وتفسير ذلك أن الجاحظ بدأ في الكتاب منذ فترة مبكرة من حياته، لكن لم يكمله إلا في أواخر حياته مبرراً اضطراب بعض فصوله بسبب حالة المرض التي أقعدته عن الحركة، حيث قال: " **وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أولى ذلك العلة الشديدة، والثانية طول الكتاب**"[٦]. خاصة أن الجاحظ في

١- الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، جـ٣، ص٢٨٩ . نوري، الجاحظ، ص ١٥

٢ - نوري، الجاحظ، ص ١٥

٣ - تناولت العديد من الدراسات مصنفات الجاحظ، ومن أشهرها دراسة الدروبي (آثار الجاحظ) كما سبق ذلك العديد من المحاولات لإحصاء آثار الجاحظ من ذلك ما قام به شارل بلا، والسندوبي وجبر وعلي ملحم، لذا نرى أنه لا داعي للخوض في تلك التفاصيل وإنما نشير بإيجاز لمصنفات الجاحظ من خلال أبرز ما أحتوى عليه كل مصنف.

٤ - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت: ٣١٠هـ/ ٩٢٢م). تاريخ الطبري، مراجعة وتقديم نواف الجراح، دار صادر، بيروت: ٢٠٠٣م، جـ ٥، ص ٢٩٥(سيشار إليه فيما بعد: الطبري، تاريخ).

٥ - الدروبي، آثار الجاحظ، ص ٩٠- ٩١

٦ - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت٢٥٥هـ/ ٨٦٩م). الحيوان، تحقيق يحيى الشامي، دار ومكتبة الهلال، بيروت: ٢٠١٠م، جـ ٤، ص ١٤٦ .(سيشار إليه فيما بعد: الجاحظ، الحيوان).

هذا الكتاب يعمد إلى التجريب في حالة أنه شك بأمر ما، وكم من نظرية فَنَّدها بعد أن قام بتجربتها بنفسه[1]، لكن حالة المرض التي أصابته في أواخر حياته أقعدته عن ذلك.

احتوى الكتاب على مواقف الجاحظ السياسية من الدولة الأموية والعباسية ومن الفرق، كذلك ضمنه الجاحظ موقفه الفكري الاعتزالي، لقد جمع في كتابه الحيوان بين دقة العالم وانطلاقة الأديب وعقلانية المعتزلة، حيث ضمنه مختلف المعارف والروايات السائدة في عصره وما سبقه، وأبدى فيها آرائه، وقدمه بلغة أدبية، بعيدة عن جفاء اللغة العلمية، وبألفاظ جميلة مناسبة، وبأسلوب سهل مبسّط.

الكتاب الثاني البيان والتبيين واعتمدت الدراسة عليه في مناحي مختلفة ومن أهمها موضوع الفرق الإسلامية خاصة في حديثه عن الشعوبية، فكان الجاحظ بين الفينة والأخرى يتكلم عنها في كتابه، حتى أنه خصص أجزاء من الفصل الثاني والثالث لمناقشة الحركة الشعوبية. في الوقت نفسه فإن الجاحظ سعى في الرد على الشعوبية من خلال الرفع من شأن اللغة العربية والوقوف في وجه التيارات التي تسعى إلى التنقيص من شأنها ومن شأن العرب. واحتوى الكتاب على روايات تاريخية سواء للعصر الأموي أم العباسي، حتى وإن جاءت الروايات ناقصة لكن الملاحظات التي تأتي في سياق الكلام بعدها تعطي صورة عن الحال في تلك الفترة.

كذلك من كتبه البخلاء الذي أحتوى على التصوير الحسي للواقع في الجياه العامة والخاصة، وقد كثر في الكتاب الروايات والقصص التي تعكس حال طبقة من المجتمع.

أما رسائل الجاحظ فتجاوزت الخمسين رسالة، ومن أهم الرسائل التي اعتمدت عليها الدراسة والتي تضمنت في ثناياها نصوصاً تاريخية تتعلق بموضوع الدراسة.

أ. رسالة النابتة

ومحورها الأساسي ذم بني أمية، أرسلها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد[1]. والملاحظ أن هذه الرسالة لم تأخذ منحى رسائل الجاحظ الأخرى التي تتسم بعبارات تفيض بالأدب والحكمة والبيان. أما تاريخ كتابتها فيقع في حوالي سنة ٢٢٣هـ / ٨٣٧م[2].

---

١ - احتوى الكتاب على الكثير من التجارب التي أثبت الجاحظ بطلانها، ومثال ذلك في نفيه نظرية طول عمر البغال على الذكور، الجاحظ، الحيوان، جـ ٥، ص ١١٥. كذلك نفيه نظرية أن البلبل لا يستقر بل دائم الطيران، جـ ٥، ص١٢٤. وسقي الخمر للإبل، جـ ٢، ص ٥٥.

ب. رسالة فضل هاشم على عبد شمس

وضع الجاحظ هذه الرسالة في أول خلافة الواثق[3](٢١٧- ٢٣٢هـ/ ٨٣٢-٨٤٦)[4]، ونال فيها من الأمويين؛ حيث كانت من رسائل المفاخرة التي دأب الجاحظ على اعتمادها في موضوعات عديدة أخرى[5]، ويعتمد في أسلوب المفاخرة[6] على الحجج المتقابلة، عرض في هذه الرسالة حجج الأمويين ودعواهم. سعى الجاحظ في هذه الرسالة إلى الظهور بمظهر الحياد إلا أنه سرعان ما أظهر تأييده للعباسيين من خلال نسفه لحجج الأمويين لصالح بني العباس[7]. لذا جاء عموم موقفه من الأمويين في إطار تسويغ استيلاء العباسيين على السلطة، الأمر الذي استوجب أن يلقي باللائمة على الأمويين في هذه الرسالة.

ت. رسالة الحكمين، وتصويب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في حكمه

كتب الجاحظ الرسالة في الفترة الواقعة بين عام ٢٢٧هـ - ٢٣٢هـ / ٨٤١-٨٤٦م[8] تناول فيها الخلاف الذي نشب بين الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ومعاوية بن أبي سفيان حول الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان - رضي الله عنه-، وقد حرص الجاحظ خلال استعراضه للخلاف على إبراز دور معاوية واستغلاله حادثة مقتل عثمان - رضي الله عنه -[9]،

---

١ - تولى القضاء بعد أن فلج والده في أول خلافة المتوكل، واستمر قاضيا حتى عزله المتوكل سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٨٣-٩١.

٢ - الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٢٥

٣- الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٦٣.

٤ - الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٧٣، ص ٢٩٢.

٥- مع أنه استنكر أسلوب المفاخرة بقوله: "وليس أدعى إلى الفساد ولا أجلب للشر من المفاخرة". السندوبي، حسن. تحقيق بعض رسائل الجاحظ، المطبعة الرحمانية، مصر: ١٩٣١م، ص ٣٠٠(سيشار إليه فيما بعد: السندوبي، رسائل الجاحظ).

٦ - ومن رسائل الجاحظ والتي كتبها أيضا في المفاخرة: رسالة مفاخرة الجواري والغلمان ورسالة مفاخرة السودان على البيضان.

٧- هذا الأسلوب انتهجه الجاحظ في أغلب صفحات الرسالة، انظر مثلا: ص ٤١٧، ٤٢٣.

٨ - الدروبي، آثار الجاحظ، ص ٨٢

٩- نورد مثالاً على ذلك: "أخذ النعمان بن بشير أصابع نائلة امرأة عثمان التي قطعت وقميص عثمان الذي قتل فيه وهرب به فلحق بالشام، فكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه الأصابع، فإذا رأى ذلك أهل الشام

والذي بلغ ذروته في معركة صفين وما آلت إليه من التحكيم، ثم ما تبع ذلك من الانقسام والفرقة بين المسلمين "ثم ما زالت الفتن متصلة، والحروب مترادفة، كحرب الجمل[1]، وكوقائع صفين، وكيوم النهروان"[2].

ث. رسالة العباسية

نشر السندوبي الرسالة مقتضبة في حوالي خمس صفحات وتبعه في ذلك الحاجري وعبد السلام هارون وعلي أبو ملحم، ولا بد أن جزءاً منها مفقود[3]، فالجاحظ في تناوله قضية الإرث لا يمكن أن يكتب رسالة بهذا الإيجاز خاصة وأن الفترة التي كتب فيها الرسالة تحتاج إلى تدعيم موقف العباسيين في قضية الخلافة في وجه الحركات التي ترى أن لا حق لهم فيها[4]، كما أن العبارات المستخدمة في الرسالة توحي بأن الجاحظ عازم على تفصيلها مثل عادته في ثنايا الرسالة بدليل أنه بدأ في رسالته بموضوع ميراث الأنبياء وما قام به أبو بكر - رضي الله عنه - في منع فاطمة ميراثها من والدها، فموضوع الميراث يعد منطلقا للجاحظ للحديث عن موضوع الإمامة وحق العم في الميراث وهذا لا يتأتى في صفحات موجزة على غير عادته في باقي رسائله[5].

ازدادوا غيظاً وجداً في أمرهم، ثم رفعه، فإذا أحس منهم بفتور يقول له عمرو بن العاص: حرك لها حوارها تحن، فيعلقها". ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٢، ص٢٣.

١- وقعت بعد خروج عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير على خلافة علي – رضي الله عنهم - . انظر: الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص٦ - ٢٦.

٢- الجاحظ، رسالة في النابتة، ص٢٤٠.

٣ - في دراسة الدروبي أشار أن الرسالة نشرت من قبل السندوبي كما أعاد طه الحاجري نشرها مرة أخرى، كما أن الدروبي أكد أن الرسالة مقتضبة وذلك في دراسته المعنونة بآثار الجاحظ، لكن الدروبي اكتشف في عام ٢٠٠٢ م النسخة المخطوطة كاملة من الرسالة في برلين تحت رقم ٥٠٣٢، وبالتالي ظهر أن الرسالة عالجت قضية أخرى إضافة إلى مسألة الميراث، هذه القضية تتعلق بالعباسيين والثناء عليهم وذكر مناقبهم. انظر الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٦١. الدروبي، تحليل رسالة العباسية، الصفحات الأولى.

٤ - من تلك التيارات الإمامية والنابتة، والشيعة، انظر: نوري، موفق سالم. الجاحظ بين الدعاية السياسية للسلطة ومعتقده الاعتزالي (دراسة نقدية)، مجلة التاريخ العربي، العدد ١٩، الموصل: ٢٠٠١م، ص٦(سيشار إليه فيما بعد: نوري، الجاحظ). هياجنة، إيمان عبد الرحمن. الجاحظ مؤرخاً(١٦٠هـ - ٧٧٦م / ٢٥٥هـ - ٨٦٩م)، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية: ١٩٩٦م، ص ٢١ (سيشار إليه فيما بعد: هياجنه، الجاحظ مؤرخاً). الزويري، محجوب أحمد سليمان. الإمامة عند الجاحظ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان: ١٩٩٥م، ص (ط)، ص٣٢ (سيشار إليه فيما بعد: الزويري، الإمامة).

٥ - انظر: الجاحظ، رسالة العباسية، ص ٤٦٥- ٤٧٠.

ج. رسالة في مناقب خلفاء بني العباس

تتكون الرسالة من حوالي خمس عشرة صفحة، أما عن تاريخ كتابتها فإنه بسبب عدم وجود إشارات تاريخية لسنة كتابتها كما هو الحال عند باقي آثار الجاحظ فإنه من خلال الإشارات التي وردت في الرسالة مثل قضية خلق القرآن، واستنباحة الزط، وفتح عمورية والقضاء على ثورة بابك الخرمي وغيرها، فإنه يقدّر تاريخ كتابتها بعد خلافة المعتصم أي بعد سنة ٢٢٧هـ/ ٨٤١م، فربما وجهها إلى الخليفة الواثق متقربا منه، ظلت الرسالة مفقودة حتى عام ٢٠٠٣م عندما تمكن محمد محمود الدروبي من العثور عليها ضمن النسخة الخطية من الرسالة في مكتبة برلين تحت رقم ٥٠٣٢.[١]

ح. رسالة العثمانية

وضعها الجاحظ بعد "العباسية" بحدود عام ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦م[٢] في أول عهد المتوكل، عندما تحولت الدولة إلى موقف مناوئ ومناهض للعلويين[٣]. نجد في الرسالة خصومة شديدة للشيعة، وتفنيداً لآرائهم في العديد من مسائل الإمامة[٤]، ومقدماً في الوقت نفسه كماً كبيراً من الحجج والآراء التي أكدت أفضلية أبي بكر- رضي الله عنه - وأحقيته في الخلاقة[٥]، وهو الذي كان قد انتقد الكثير من سياسته في رسالته السابقة "العباسية" فجاء هذا التحول انسياقاً وراء تقلبات مواقف السلطة الحاكمة ومتطلباتها.

مرضه ووفاته

توفي الجاحظ في البصرة[٦] في شهر محرم سنة (٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م)[٧] وقد جاوز التسعين. فبعد أن أصيب بمرض الفالج عاد إلى مسقط رأسه يقضي بقية حياته ويتفرغ للكتابة،

---

١ - الدروبي، محمد محمود. رسالة جديدة للجاحظ في مناقب خلفاء بني العباس، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، حولية رقم ٢٣، قسم اللغة العربية، جامعة آل البيت، الأردن: ٢٠٠٣م، ص ١٣(سيشار إليه فيما بعد: الدروبي، رسالة مناقب بني العباس).

٢ - الدروبي، أثار الجاحظ، ص ١٠٣

٣- الحاجري، رسائل الجاحظ، ص ١٨٧.

٤- الجاحظ، العثمانية، ص ١٢٩، ١٤٤.

٥- المصدر نفسه، ص ١٤٠.

٦ - الطبري، تاريخ، جـ ١١، ص ٦٩.

٧ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص١٢٣. ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني(ت: ٦٣٠هـ/ ١١٦٠م). الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت: ١٩٨٢م، جـ ٣، ص٢٧٤ (سيشار إليه فيما بعد: ابن الأثير، الكامل في التاريخ).

إذ أنه أتم كتبه الحيوان والبيان والبخلاء وبعض رسائله وهو مفلوج في البصرة[1]، وصف يموت بن المزرع حال الجاحظ قبيل وفاته بقوله: "دخل إليه ناس وهو عليل، فسألوه عن حاله فقال:

عليل من مكانين من الإفلاس والدين"[2]

"أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب"[3]

ثانياً: منهج الجاحظ ودوره في الكتابة التاريخية

لقد برع الجاحظ في الكتابة إذ تعد كتبه موسوعية تضمنت جوانب مختلفة ومتنوعة، كما تفرد بمنهج سار عليه الكثير من الكتاب الذين اقتفوا أثره ومنهجه في الكتابة. كما عمل الجاحظ على تكوين رؤيةً خاصة به، لمختلف هذه المعارف والآداب والعلوم[4].

إن المنهج الذي سار عليه الجاحظ في كتاباته ومن خلال مصنفاته يتمثل في تعدد المصادر التي يعتمد عليها ويأتي القرآن الكريم[5] في المرتبة الأولى، فمنه يستوحي أفكاره

---

١ - أشار بلا أن حادثة موت الجاحظ بسقوط الكتب عليه ذكرت من قبل بعض المؤرخين المتأخرين دون أن يحدد أسمائهم، وكأنه يلمح إلى الشك في صحة تلك الرواية. انظر: بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص٣٧٩.

أما الدروبي فذكر أن وفاة الجاحظ كانت بعد أن ظل يغالب مرض الفالج والنقرس سنينا من عمره، ولم تكن وفاته بسبب وقوع كتب عليه، إذ أن المصادر المعاصرة للجاحظ سواء في القرن الثالث أم الرابع الهجري مثل مؤلفات ابن قتيبه، والمبرد، ويموت بن المزرع لم تشر إلى هذه الحادثة وإنما جاء ذكر الحادثة في مصادر متأخرة في القرن الثامن الهجري مثل مختصر أبو الفداء وابن الوردي وابن العماد الحنبلي. الدروبي، ضوء على مرض الجاحظ ووفاته. مجلة المنارة، المجلد ١٠، العدد ٣، جامعة آل البيت، الأردن: ٢٠٠٤م، ص٣٧٩-٣٨١ (سيشار إليه فيما بعد: الدروبي، مرض الجاحظ). كما ناقشت هياجنه، الجاحظ مؤرخاً حالة الجاحظ بعد إصابته بالمرض، وذكرت أن عددا من الناس منهم الكتاب والأدباء قاموا بزيارته ووصفوا حالته، الجاحظ مؤرخا، ص ٧٥.

٢ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص١٢٣

٣ - الحموي، معجم الأدباء، جـ٦، ٧٩. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص٤٧٣. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١١، ص ٢٤.

٤- عزت، فلسفة الأخلاق، ص٢٠.

٥- يوهم العنوان الخاص بكتاب الحيوان أنه مقصور على الحيوان، إلا أن الكتاب يتضمن علوما ومعارف أكبر من العنوان، فقد أطنب المؤلف في ذكر آي القرآن الكريم، يقول في ذلك " "حجة على الملحد، وتبيان للموحد، قائم بالحلال المنزل، والحرام المفصل، وفاصل بين الحق والباطل، وحاكم يرجع إليه العالم والجاهل، وإمام تقام به الفروض والنوافل، وسراج لا يخبو ضياؤه، ومصباح لا يخزن ذكاؤه". الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ٢٢٥. كما أشار الجاحظ إلى الصم في القرآن الكريم، الحيوان جـ٤، ص٧١٠. علي. محمد كرد، أمراء البيان، ط ٢، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة: ١٩٤٨م، جـ ٢، ص ٣(سيشار إليه فيما بعد: علي، أمراء البيان).

ويقتبس تعابيره فهو المحرك الأول لفكر الجاحظ، ثم يأتي بعد ذلك الحديث النبوي الذي استعان به في تراثه كما أفرد له رسالة حجج النبوة[1]، والتوراة[2] والإنجيل: **"ولم استدل على ذكره في التوراة والإنجيل والزبور"**[3].

كما تمثل منهجه في الاطلاع على كافة كتب المعرفة على اختلاف أنواعها وموضوعاتها، وجمع منها مجاميع ، كما استعان في كتاباته بعلوم اليونان، وأدب فارس وحكمة الهند، والتراث العربي قبل الإسلام، بالإضافة إلى ذلك مشاهداته وملاحظاته الخاصة وحضوره حلقات المناظرة والمساجلات الشعرية؛ ثم اكترائه دكاكين الوراقين والمبيت فيها وقراءة كل ما يقع تحت يده من شتى العلوم والفنون وحضوره الحلقات المسجدية للوعاظ والصوفية والأدباء والرواة والمناظرات والمساجلات الشعرية[4]، كما اعتمد على المقربين من السلطة للتعرف إلى ما يدور من خفايا ورسم صورة عن الأوضاع السياسية السائد في تلك الفترة[5].

لقد استفاد الجاحظ من كتابات أرسطو في الجوانب العلمية والمعرفية[6]، وهذا ما أدى أن أن يتبع الجاحظ منهجا يتميز بالعقل والمنطق، إذ صرح نقله عن أرسطو في أكثر من ستين موضعاً من كتاب "الحيوان"[7]، كما تعمد في كثير من الروايات نقلها كما هي حتى يحافظ عليها كما رويت عن أصحابها[8]. ومن المؤكد أنه ترك مواضع أخرى لمح لها تلميحاً، أو تعمد إغفالها

١- في كتاب الحيوان ذكر الجاحظ أكثر من خمسين حديثا نبوياً، انظر مثلا: الحيوان، جـ ١، ص ١٦، ٧٤، ٨٥، ١١٣. كذلك في البيان والتبيين استشهد بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في مواضع مختلفة انظر مثلا: جـ ١، ص ٣٧، ٣٨، ٦٥، ٧٣.

٢ - الجاحظ، الحيوان جـ ١، صـ٥٩؛ جـ ٤صـ ٢٩٢، ٣٥٦، ٣٥٨، ٤٧٣. الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، صـ٥٣، جـ ٣، صـ ١٣٩، الجاحظ، رسالة في النابتة، ص٢٤٩.. الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، ص٢٧٠، صـ ٣٠٦، صـ ٣١٤، ص ٣٢٩.

٣- الجاحظ، رسالة في النابتة، ص٢٤٩. الجاحظ، رسالة في الحنين إلى الأوطان، صـ ٣٠٧، صـ٣٢٨، صـ٣٣٠، الجاحظ، الحيوان، جـ ١، صـ ٥٥، جـ ٤، ص ٤٦. الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، صـ ١٣٩.

٤ - جبري، الجاحظ، ص ٣٤٢

٥ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٧٥

٦- كريم، سامح. الحيوان بين أرسطو والجاحظ، مجلة العربي، العدد٥٣٦، الكويت، ٢٠٠٣م، ص٦٣ (سيشار إليه فيما بعد: كريم، الحيوان). الدروبي، موقف الجاحظ، ص ٥١

٧- انظر مثلا: الجاحظ، الحيوان، جـ ٣، ص ٢٥٢.جـ ٥، ص١١٥. جـ ٧، ص ١٧١، ص ١٨٢. انظر أيضا: الدروبي، موقف الجاحظ، ص ٥٤

٨ - مردم، الجاحظ، ص ١٨

"إن كنت سبعاً فاذهب مع السّباع، وعليك بالبراري والغياض، وإن كنت بهيمة فاسكت عنّا سكوت البهائم ولا تنكر قولي وحياتي عنه بقول ملحون"[1].

يتصف منهج الجاحظ بأنه لا يعير الإسناد أهمية[2]، ولعل السبب في ذلك تعدد المصادر التي يستقَي منها الجاحظ مادته، كما أنه صرح بأن ليس كل الروايات بحاجة إلى الإسناد، فها هو يتندر حول مسألة الإسناد بقوله: **"كانت العنزة التي تحمل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلّم- وربما جعلوها قبلة- أشهر وأذكر من أن يحتاج في تثبيتها إلى ذكر الإسناد"**[3]، فقد كان يذكر سنده في مرات ويتجاهله في مرات أخرى[4]. لأن مسألة التوثيق في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي لم تكن مما يشغل أهمية عند الأدباء والكتاب[5]. فكلمة قال التي كثيرا ما يذكرها أوحت له بأنها تغني كسند لرواياته مثل قوله **"قال ابن مناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن وأكثرها له موافقة"**[6].

فيعمد إلى الاختصار في الرواية[7]. أما تنوع الإسناد الذي يذكره وتعدده حتى ضمن الرواية الواحدة فمرجعه تعدد المصادر التي يستقي منها مادته بغض النظر إن كانت مشافهة أو سماعاً[8]. الذي يعتبره من أصول التحقق من الرواية[9].

كما يتفرد منهج الجاحظ في الكتابة التاريخية بصور مختلفة ومتباينة، مثل البلاغة والإيجاز أو التقليل من الألفاظ، والإطالة الإطناب[10]، وبين لحن العامة وفصاحة الخاصة،

---

١ - الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ١٨٦.

٢ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٧٢

٣ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٦٥

٤ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٩٦، ١٩٨

٥- الدروبي، محمد محمود. التهم الموجهة إلى الجاحظ، مجلة عالم الفكر، المجلد٣٥، الكويت: ٢٠٠٧م، ص٢٤٥-٢٤٦.(سيشار إليه فيما بعد: الدروبي: التهم الموجهة). انظر: الدروبي، موقف الجاحظ، ص ٥٤

٦ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٤٠. انظر البيان والتبيين: جـ ١، ص ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣٢. الحيوان، جـ ١، ص ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٩.

٧ - أشارت هياجنه أن حذف السند من رواية الجاحظ هدف منها تقليل حجم الرواية حتى يبعد الملل عن القارئ. الجاحظ مؤرخاً، ص ٧٤.

٨ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٧٣

٩ - الجوزي، مكان العقل، ص٢٧٥

١٠- انظر مثلا: الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص: ٤٧، ٨٧، ١٣٤. رسالة الحنين إلى الأوطان، جـ ٣، ص١٢٥، ١٣٨، ١٤٧، وهذا الأسلوب منتشر في مؤلفاته. مردم، الجاحظ، ص ٢٠

والتوفر على الموضوع الواحد والاستطراد[١]، والاستنباط والاستشهاد، والقياس المنطقي والانطباع الذاتي، والرصانة الجهمة والسخرية التهكمية، والرواية والمعاينة الذي يمتلئ تراثه بها[٢]، والسرد والحكاية، والتجريد والتصوير الحسي[٣]. كما يتميز منهجه بتعدد مصادره الشفوية للراوية الواحدة[٤] إذ حظ على ضرورة التثبت من الرواية، فإذا شك في صحتها فإنه يبحث لها عن عدة رواة وفي كل ذلك يكون الشك حاضرا في الرواية. كذلك تميز منهجه بدقة وقوة الملاحظة التي نمت وسط المجتمع الذي يعيش فيه ويعج بالمتناقضات والاختلافات[٥].

وتكثر في منهجه الحجج الظاهرة والأدلة المترادفة مثال ذلك أنه يقابل الرواية بالرواية، كما يؤكد إلى أهمية إعمال الفكر في الرواية لأن ذلك من مقتضيات الحياة، وهذا من أسس علم الكلام عند المعتزلة **" ثم جعل تعالى وعز، هاتين الحكمتين بإزاء عيون الناظرين، وتجاه أسماع المعتبرين، ثم حث على التفكير"**[٦]. كما تتميز الروايات التي يوردها بقوة التمثيل، حتى يشعرك أنه أحد الحضور في تلك الواقعة[٧]، مثل روايات عديدة ذكره في هذا السياق ونخص بالذكر روايته عن أحمد بن حنبل في مجلس المعتصم[٨]. كما يتضح أسلوبه من خلال هذه الرواية في التهوين والتقليل فهو متكمن من أسلوب التضخيم والتهوين في الروايات التي يسوقها[٩].

أما منهج روايات الجاحظ فإنها لا تأخذ نسقا واحدا من حيث الطول والقصر اعتمادا على الموضوع الذي يعالجه، فقد يحتم الأمر أن يطول كما في وقوفه ضد الشعوبية[١٠]، أو

١- قلما يستطيع الجاحظ الابتعاد عن الاستطراد خاصة في كتاب الحيوان والبيان والتبيين. انظر: الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص٧٦، ٩٨، جـ ٧، ص٩.

٢ - الجوزي، مكان العقل، ص ٢٧٢. حموده، عبد الوهاب. أسلوب الجاحظ، مجلة نور الأدب، العدد ٦، لبنان: ١٩٩٥م، ص ٦٦(سيشار إليه فيما بعد: حموده، أسلوب الجاحظ).

٣- أغلب كتاب الحيوان يقوم على التصوير الحسي، من خلال تصوير المشاهد للقارئ وكأن ما يقرأه يشاهده أمامه. الجوزي، مكانة العقل، ص ٢٧١ . مردم، الجاحظ، ص ٢٠

٤ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٧٤

٥ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣١٤

٦- كثيراً ما تتردد كلمة التفكير في كتبه، فهو يحض على ضرورة إعمال العقل والتفكير، ولا يستبعد أن يكون ذلك منطلقا من نزعته نحو التفكير، وردت كلمة التفكير عنده أكثر من ثلاثين مرة. الجاحظ، الحيوان، جـ ٦، ص ٣٦٧

٧ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٧٦

٨ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٩٢

٩ - مردم، الجاحظ، ص ١٧

١٠ - تناولها في معظم مؤلفاته وخاصة البيان والتبيين، انظر الفصل الرابع من الدراسة محور الشعوبية.

يقصر مثل حديثه في الدعابة والعادات[1]. كما تتميز بالاختلاف والتباين؛ فقد احتوت روايات الجاحظ على الأشعار والخطب والمصطلحات الخاصة بالنظم العربية الإسلامية وغيرها[2].

أنتهج الجاحظ أسلوبا خاصا في تحري الدقة وفي نقل الروايات بسبب انتمائه إلى فرقة المعتزلة التي تحكم العقل في كل شأن[3] بقوله: " **وإنما سمي العقل عقلاً وحجراً قال تعالى - " هل في ذلك قسمٌ لذي حجر " - لأنه يزم اللسان ويخطمه ويشكله ويربثه ويقيد الفضل ويعقله عن أن يمضي فرطاً في سبيل الجهل والخطأ والمضرة كما يعقل البعير ويحجر على اليتيم**"[4]. فكان لا يقبل الروايات كمسلمات بل أنه كان يخضعها للعقل فيحلل ويعلل رواياته مثل كتاب القضية بين علي ومعاوية[5]، ويعمد إلى التحري والتدقيق بنفسه إذا أتيح له ذلك؛ ولم يقتصر تحريه على الجانب الأدبي بل شمل أيضا الجانب العلمي، وخير مثال على ذلك أن أحدهم ذكر نوعاً من العشب يقتل الأفعى برائحته إذا ألقيته عليها فاستحضر الجاحظ ذلك العشب، وألقاه على الأفعى وتبين له أن ما سمعه كان كذبا[6]: " **وكان الذي حداني على ذلك ما رأيت الله قسم لك من الفهم والعقل وركب فيك من الطبع الكريم. وقد أجمعت الحكماء أن العقل المطبوع والكرم الغريزي لا يبلغان غاية الكمال إلا بمعاونة العقل المكتسب**"[7]. لقد استفاد الجاحظ من الثقافات المعاصرة في ذلك الوقت ، بما يتفق مع منطقهِ وفكرهِ.

كما يقوم منهجه في رواياته على الحوار بين الشخصيات بهدف شد القارئ لها وتوجيهه فكريا أو سياسيا حسب ما يرى الجاحظ، وامتلأت كتب الجاحظ بهذا الأسلوب[8] ومن أمثلة ذلك الحوار بين معاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن الزبير "**ذكر معاوية لابن الزبير بيعة يزيد، فقال ابن الزبير: إني أناديك ولا أناجيك، إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تقدم، وتفكر قبل أن تندم، فإن**

---

١ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٠، ٨٢. الطاهري، علي. الجاحظ والاستطراد، مجلة اللغة العربية وآدابها، العدد ١٤، المجلد ١، كلية الآداب، جامعة الكوفة: ٢٠١٢م، ص ٣٥٨ (سيشار إليه فيما بعد: الطاهري، الجاحظ والاستطراد).

٢ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٧٥، ٧٦

٣ - الجوزي، مكان العقل، ص٢٧٧

٤- الجاحظ، رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ص ٨٨

٥ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٣

٦- الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص٨٦

٧- الجاحظ، رسالة المعاش والمعاد، ص٥٧.

٨ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٨

النظر قبل التقدم، والتفكر قبل التندم» . فضحك معاوية ثم قال: تعلمت أبا بكر السّجاعة عند الكبر، إن في دون ما سجعت به على أخيك ما يكفيك. ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير"[1].

يعد الاستطراد[2] سمة غالبة على منهج الجاحظ، فما يبدأ غرضاً إلا تجاوزه إلى آخر ببيت شعر أو حديث أو آية أو غير ذلك مما يستشهد به[3]، ويقف عنده فيخرجه عن موضوعه إلى أغراض مختلفة حتى يتيه القارئ ثم يرجع به إلى الحديث الذي خرج عنه بعد أن ينسيه إياه[4]. فالثقافة الغزيرة والمعرفة الواسعة الوفيرة تجعله يدلف من موضوع إلى آخر وهو على بصيرة.

فالجاحظ لا يصبر على موضوع واحد، فإذا تكلم في شيء خرج منه إلى أخر، ومزج العلم بالأدب[5]. وأعترف بنفسه باستطراده دفعاً لسأمة القارئ وبعثاً إلى مواصلة القراءة، كما يقول:**" وعلى أني قد عزمت- والله الموفق- أني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه، بنوادر من ضروب الشعر، وضروب الأحاَديث، ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل؛ فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة، إذا طال ذلك عليها. وما ذلك إلا في طريق الراحة، التي إذا طالت أورثت الغفلة.وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة، كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح، وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيرا "[6].**

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص٢٤٨، جـ ٢، ص ٦٠، ص ٦٢، ص٦٤.

٢ - الاستطراد أن يأخذ المتكلم في معنى وقبل أن يتمه يأخذ في معنى أخر، ويسميه ابن المعتز حسن الخروج، أو الخروج من معنى إلى آخر. أبو العباس، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي (ت: ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م). البديع في البديع، ط١، دار الجيل، بيروت: ١٩٩٠م، ص٣٦ (سيشار إليه فيما بعد: أبو العباس، البديع).

والاستطراد في اللغة مصدر " استطرد الفارس لقرنه" إذا طرد فرسه بين يديه يوهمه الفرار. لسان العرب، جـ٨، ص١٣٩.

الاستطراد في الاصطلاح أن يكون الكاتب في غرض من أغراض الكلام من غزل أو مدح أو وصف أو غير ذلك فيخرج منه إلى غرض آخر. ابن معصوم، علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسني الحسيني(ت: ١١١٩هـ / ١٧٠٧م). أنوار الربيع في أنوار البديع، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف: ١٩٨٦م، ص٦٧ (سيشار إليه فيما بعد: ابن معصوم، أنوار الربيع).

٣- حموده، أسلوب الجاحظ، ص٣٦.

٤- البستاني، بطرس. أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار الجيل: بيروت: ١٩٩٧م، جـ٢، ص٢٧٩. (سيشار إليه فيما بعد: البستاني، أدباء العرب).

٥- الطاهري، الجاحظ والاستطراد ، ص ٣٥٨. أمين، ضحى الإسلام. جـ١، ص ٢٩٦.

٦- الجاحظ، الحيوان، جـ٢،ص ٢٥٨.

وقد يطول استطراده إلى عدة صفحات، وقد يقصر إلى بضعة أسطر، حيث دأب الجاحظ أن يرسل نفسه على سجيتها، فهو لا يتقيد بنظام محكم، ولا يلتزم نهجاً مستقيماً يحذوه، فهو دائماً ينتقل من باب إلى باب ومن أثر إلى أثر[1].

ويذهب الاستطراد بالجاحظ يميناً وشمالاً، فيتكلم في كل شيء " **ومتى خرج من آي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية، ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب؛ ولعله أن يكون أثقل، والملال إليه أسرع، حتى يفضي به إلى مزح وفكاهة"**[2] . كما ساهم الاستطراد في قدرة المتلاعبين بتفكيك تراث الجاحظ، وذلك بوضع عنوان وخاتمة جديدة له مما يوهم القارئ أنه عمل مستقل للجاحظ[3].

وهذا دأب الجاحظ في كتبه وهو الاستطراد وعدم الاقتصار على موضوع واحد[4]، لكن رسائله تختلف، لأن الرسائل بطبيعتها معينة لموضوع محدد لا تسمح لعادة الاستطراد أن تدخلها وتشتت عناصرها، فكل رسالة وحدة قائمة بذاتها[5]، وهذه معينة في حالة البحث عن الروايات التاريخية التي من الممكن أن يجد الباحث فيها ضالته، ولا يتكلف في تتبع استطراد الجاحظ[6].

ويمكن أن نستشف غاية أكبر لدى الجاحظ من مجرد الاستطراد، فكان يرمي من وراء ذلك إلى بث مفردات كانت محظورة في العصر العباسي، وكل من يقول بها يتهم بالزندقة[7]. حيث إن ظروف المرحلة الزمنية التي كان بها الجاحظ تتطلب هذا النوع من الكتابة[8].

---

١ - الطاهري، الجاحظ والاستطراد، ص ٣٥٩- ٣٦٠

٢- الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ٦٠

٣ - النجم، الجاحظ، ص ٩

٤ - المرجع نفسه، ص ١٥

٥- السندوبي، حسن. مقدمة رسائل الجاحظ الكلامية، المطبعة الرحمانية، القاهرة: ١٩٢٣م، ص٧ (سيشار إليه فيما بعد: السندوبي، مقدمة رسائل الجاحظ). الطاهري، الجاحظ والاستطراد، ص ٣٦٠

٦ - ترى وديعة النجم أن الجاحظ حتى في رسائله يقوم بالاستطراد لكن استطراده في رسائله لا يقارن بالكتب، إذ يكون استطرادا بسيطا في الغالب. الجاحظ، ص ١٦

٧- حمزة، يوسف. التعمية الأسلوبية في كتاب الحيوان للجاحظ، مجلة البعث، العدد ٢٨، دمشق: ١٩٨٢م، ص٢٤ (سيشار إليه فيما بعد: حمزة، التعمية الأسلوبية).

٨ - الطاهري، الجاحظ والاستطراد، ص ٣٦٢

ومن أمثلة استطراده حديثه عن تهذيب الأخلاق وترويض الأنفس حيث استغرق عدة صفحات من كتابه (تهذيب الأخلاق)، فيعرض الموضوع على النحو التالي: "وتكون الأخلاق إما مذمومة أو محمودة. فأما الأخلاق المذمومة فإنها موجودة في كثير من الناس كالبخل، والجبن والظلم، والتشرر، فإن هذه العادات غالبة على أكثر الناس، مالكة لهم، بل قلما يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه، ويسلم من جميع العيوب، ولكنهم يتفاضلون في ذلك[1]. وكذلك في الأخلاق المحمودة، قد يختلف الناس ويتفاضلون، إلا أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جدا. فأما المجبولون على الأخلاق السيئة فاكثر الناس، لأن الغالب على طبيعة الإنسان الشر. وينبه الجاحظ إلى أن هناك فروقا فردية بين الناس في قابليتهم لتعديل أخلاقهم المكروهة، وفي النواتج المتوقعة من تعديل أخلاقهم، فيذكر: (فالأخلاق المكروهة في طباع الناس، إلا أن فيهم من يتظاهر بها، وينقاد لها. وهم شرار الناس. وفيهم من ينبه بجودة الفكر، وقوة التمييز على قبحها فيأنف منها، ويتصنع لاجتنابها، وذلك يكون عن طبع كريم، ونفس شريفة"[2]. حيث يستغرق في استطراده ما يقرب من خمسين صفحة حتى يعود إلى الرواية التي يتناولها.

كما أثرت عقديته الاعتزالية على منهجه من ناحية التحليل والتعليل[3]، من خلال التنقيب عن علة الرواية وما بها من علل تضعفها[4]، وهذا ملاحظ في تقليب الروايات حتى يصل إلى حكم عليها بالقبول أو الرفض. وفي بعض الأحيان يشك برواية الخبر من خلال تحفظه عليه فهو لا ينكرها لكن يضع حولها تحفظات تؤكد شكوكه[5]؛ "عامّيًا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التّكذيب والتّصديق، أو الشّكّ، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبّت في هذه الأجناس قطّ. وإمّا أن يلقوا راوية شعر، أو صاحب خبر، فالرّاوية كلّما كان الأعرابيّ أكذب في شعره كان أطرف عنده، وصارت روايته أغلب"[6].

منهج الجاحظ في التصنيف يحبب القراء في المطالعة ويغريهم بالاستطلاع، ولم تكن تلك الطريقة مألوفة بل ابتكرها، فنسبت إليه وعرف بها في كتاباته وتصانيفه، وتقوم على إثارة الحس في القارئ بحسن اختيار المواضيع وخاصة تلك التي لم يتطرق لها من قبل، كما أن سهولة العبارة والألفاظ[7]؛ والترادف والاستطراد لأدني مناسبة، والخروج من الجد إلى الهزل

---

١ - الجاحظ، تهذيب الأخلاق، دار الصحابة للتراث، طنطا: ١٩٨٩م، ص٩ (سيشار إليه فيما بعد: الجاحظ، تهذيب الأخلاق).

٢ - المصدر نفسه، ص١٢.

٣ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٣

٤ - الجوزي، مكان العقل، ص٢٨١

٥ - عطية، عبد الرحمن. الشك المنهجي عند الجاحظ من خلال كتاب الحيوان، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ٤، جامعة قطر: ١٩٩٢م، ص ١٥٦ (سيشار إليه فيما بعد: عطية، الشك المنهجي).

٦ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٦، ص ٤٤٦.

٧ - السندوبي، أدب الجاحظ، ص ٢٠٢. مردم، الجاحظ، ص ١٦

ومن العلم إلى الأدب والفكاهة، مما يذهب بسأمة القارئ ويكسبه قوة ونشاطاً، ثم التغلغل في البحث حتى يصل إلى الغاية التي يريدها والنتيجة التي قصد إليها[1]. هدف الجاحظ من هذا المنهج أن يظل موضع اهتمام القارئ عن طريق إبعاد السأم والضجر من نفسه، بواسطة الخروج من الجد إلى الهزل، حتى وإن كانت الأفكار غير متسلسلة وأيضا مع كثرة الاستطرادات[2].

إن البدايات التي يمكن أن نصف فيها إشارات الجاحظ في الجانب التاريخي تتمثل فيما رواه من اختلاف الناس حول الرواية الواحدة " **وإنما نزلت لك حالات الناس، وخبرتك عن طبائعهم، وفسرت لك عللهم لتعلم أن العدد الكثير لا يتفقون على تخرص الخبر الواحد في المعنى الواحد في الزمن الواحد، على غير التشاعر، فيكون باطلاً. وسأوجدك موضع اختلافهم واتفاقهم، وأنه لم يخالف بينهم في بعض الوجوه إلا إرهاصاً لمصلحتهم، ولتصح أخبارهم**"[3] مما يعني منهجا محددا سار عليه الجاحظ، إذ أن الرواة في الغالب لا يتفقون كما أشار الجاحظ على رواية واحدة، كما أن المصلحة الشخصية أو مصلحة العشيرة والقبيلة تقف سببا في عدم الاتفاق، كما تلعب الأهواء الشخصية دورا في تغيير الرواية[4]، إن اتفاق الرواة كما يرى الجاحظ مدعاة في كثير من الأحيان للخصام، كما وأن عدم اتفاقهم لا يعني في أي حال رفض الرواية وإنما ينبغي عليه أن يضيف عليها المعايير والأسس لقبولها أو رفضها "**ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وأنه لا يعرف مصادر الراي من لم يشهد موارده**"[5]

وتميز منهج الجاحظ في الكتابة التاريخية بأنه لا ينتقي طبقة معينة بل ينتقل من واحدة إلى أخرى معددا أوصافها ووجوه اختلافها، فينتقل من الطبقة الشعبية إلى الارستقراطية. هذا الانتقال وهذا الوصف شمل روايات متعددة في المجالات التاريخية والاجتماعية وحتى الأدبية[6].

---

١ - حموده، أسلوب الجاحظ، ص ٥٦.

٢ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص٤. مردم، الجاحظ، ص ١٦. الطاهري، الجاحظ والاستطراد، ص ٣٦١

٣ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٤٨.

٤ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٩

٥ - الجاحظ، رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ص ٩١

٦ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣١٣

إن الدارس لمنهج الجاحظ يجده متشعباً متداخلاً فهو مزيج من أسلوب طرح الموضوع والتراكيب والعبارات[1]، وكذلك التنويع في الألفاظ، وقد أوضح أبو حيان التوحيدي[2] الطريقة التي اتبعها الجاحظ في كتاباته لقوله: " **وأبو عثمان الجاحظ، فإنك لا تجد مثله، وإن رأيت ما رأيت رجلاً أسبق في ميدان البيان منه، ولا أبعد شوطاً، ولا أمد[3] نفساً، ولا أقوى منه، إذا جاء بيانه خجل وجه البليغ المشهور، وكل لسان المصنفر الصبور، وانتفخ سحر العارم[4] الجسور، ومتى رأيت ديباجة كلامه رأيت حوكاً[5] كثير الوشي[6]، قليل الصنعة، بعيد التكلف، مليح العطل[7]، لـه سلاسةٌ كسلاسة الماء، ورقةٌ كرقة الهواء، وحلاوةٌ كحلاوة الناطل[8]، وعزة كعزة كليب وائل، فسبحان من سخر لـه البيان وعلمه، وسلم في يده قصب الرهان وقدمه، مع الاتساع العجيب، والاستعارة الصائبة، والكتابة الثابتة، والتصريح المغني، والتعريف المنبي، والمعنى الجيد، واللفظ المفخم، والطلاوة الظاهرة، والحلاوة الحاضرة، إن جد لم يسبق، وإن هزل لم يلحق، وإن قال لم يعارض، وإن سكت لم يعرض له**" [9].

فالجاحظ لم يكن مؤرخا ولم يكن يعنيه التاريخ بقدر ما تعنيه معالجة الحدث الذي يتناوله بعيدا عن الميول والأهواء[10]، وفي كل الأحوال فقد جمع روايات عديدة كانت متداولة في البصرة عن الفرق والخطب والأقوام والجماعات ضمن تراثه[11]، كما ذكر الكثيرين من رواته ممن سمع منهم حتى بصورة مقتضبة. كان الجاحظ يعرض فكرته على القارئ دون أن يشعره بالضجر أو بالملل بل ينقله تدريجياً من حدث إلى أخر ومن رواية إلى أخرى يخرج من

---

١ ـ عزت، فلسفة الأخلاق، ص ٣٠. مردم، الجاحظ، ص ١٦

٢ ـ أبو حيان: علي بن محمد بن العباس التوحيدي،(ت:٤٠٠ هـ/١٠١٠م) وكان متفننا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة، وكان جاحظيا يسلك في تصانيفه مسلكه ويشتهي أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء. الحموي، معجم الأدباء، جـ٥، ص٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ١٤، ص٢٤٧.

٣ ـ أمد: الغاية كالمدى؛ أي منتهى عمرك، والأمد منتهى الأجل. لسان العرب، جـ ٣، ص٧٤

٤ ـ السحر: البيان في فطنة، لسان العرب، جـ ٤، ص ٣٤٨ والعرام: الشدة والقوة والشراسة، لسان العرب، جـ ١٢، ص ٣٩٥.

٥ ـ حوك: حاك الثوب، والشاعر يحوك الشعر حوكا: ينسجه ويلائم بين أجزائه، لسان العرب، جـ ١٠، ص٤١٨.

٦ ـ الوشي من الثياب يكون من كل لون، كناية عن التنويع في أساليب الكتابة والبلاغة. لسان العرب، جـ ١٥، ص ٣٩٢.

٧ ـ عطل: عطلت المرأة إذا لم يكن عليها حلي ولم تلبس الزينة على رقبتها، لسان العرب، جـ ١١، ص ٤٥٤.

٨ ـ ما على طعم العنب من القشر وإذا انقعت الزبيب فأول ما يرفع من عصارته هو السلاف، فإذا صب عليه الماء ثانية فهو النطل، لسان العرب، جـ ١١، ص ٦٦٦.

٩- التوحيدي، البصائر والذخائر، جـ١، ص ٢٣١ ـ٢٣٢.

١٠ ـ الجوزي، مكان العقل، ص ٢٨٥

١١ ـ بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٩٨.

جد إلى هزل ومن شعر إلى طرفة حتى يشد القارئ له، ولا بد أن يراعي طبيعة من يخاطبه في رسائله وكتبه وهو ما نقله الحموي عن الجاحظ بقوله: " **وقال الجاحظ: ينبغي للكاتب أن يكون رقيق حواشي اللسان، عذب ينابع البيان، إذا حاور سدد سهم الصواب إلى غرض المعنى، لا يكلم العامة بكلام الخاصة، ولا الخاصة بكلام العامة"**[١].

لقد أشار الجاحظ إلى أهمية الحرص على جذب انتباه المتلقي والحرص على عدم السآمة أو الملل الذي قد يصيبه من طول الدرس " **ونقصد من ذلك إلى القصار دون الطوال، ليكون ذلك أخفّ على القارئ، وأبعد من السآمة والملل"**[٢]، كما يطالب بالبعد عن التكلف **"وحذّره التكلّف واستكراه العبارة"**[٣]، ويدعو لمراعاة الفروق بين المتعلمين[٤] فلا ينبغي مخاطبة الخاصة بكلام العامة ولا العامة بكلام الخاصة **"فكذلك العامة، لا تعرف قصد القادة ولا تدبير الخاصة، ولا تروي معها، وليس يخرجها ذلك من عزمها، وما أبرمت من تدبيرها"**[٥].

وعلى الرغم من أن الجاحظ لم يكتب كتاباً مستقلاً في التاريخ، إلا أن المتمعن في رواياته يلاحظ طريقة تحليل الروايات بمنهج المؤرخ الذي يشك ويعترض ويقارن بين الروايات، من ذلك قوله وهو يتحدث عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) **"ولكنا نظرنا في التاريخ فعرفنا عمره وابن كم كان يوم توفي، وعرفنا موضع اختلافهم واجتماعهم، فأخذنا أوسطه إذ كان أعدل ما فيه، وأسقطنا قول من كثر وقلل، ثم ألقينا منه سنيه إلى عام إسلامه، فوجدنا ذلك يوجب أنه كان ابن سبع"**[٦] وانظر له أيضا وهو يتحدث عن الرواية ووجوب تمحيصها " **وهذه التاريخات والأعمار معروفة، لا يستطيع أحد جهلها، والخلاف عليها؛ لأن الذين نقلوا التاريخ لم يعتمدوا تفضيل بعض على بعض"**[٧].

---

١ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٦٢

٢ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٤٣. انظر: الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ٣١. جـ ٣، ص ٣. رسالة في الجد والهزل، ص ٢٥٣.

٣ - الجاحظ، رسالة المعلمين، ص ٢٠٦.

٤ - مردم، الجاحظ، ص ٢٣

٥ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٣٧. يقول الجاحظ في موضع أخر "والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث" الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٤١. انظر أيضا: جـ ١، ص١٢٩.

٦ - الجاحظ، رسالة العثمانية ص ١٩.

٧ - الجاحظ، العثمانية، ص ١٩.

إن الجاحظ لا يقبل الرواية حتى يحللها فإما أن يثبتها ويقبلها أو ينفيها، فقد انتقد ما ورد أن عائشة أم المؤمنين خرجت على بغلتها لتصلح بين حيين، فلقيها ابن عتيق[1] وسألها عن سبب خروجها فقالت له: "**أصلح بين هذين الحيين، فقال: والله ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل، فكيف إذا قيل: يوم البغل! فضحكت وانصرفت**"[2]. إن هذا الخبر برأي الجاحظ مصنوع لأنه أضيف إلى ابن عتيق وجُعِلَ نادرة ليشيع بين الناس، ولأن عائشة عرفت بطاعة الناس لها باعتراف علي نفسه فهي ليست بحاجة إلى أن تركب وتخرج من بيتها لتذهب إلى حيين وتصلح بينهما ويكفي أن ترسل إليهما فيجيئان إليها وتحكم بينهما[3]. ولم يعرف أن حربا نشبت بين حيين من قريش، وتدخلت عائشة لإصلاح البين ودفع الشر[4].

وعندما تعرض عليه رواية لا يقبلها عقله فإنه يعطي عددا من الأدلة التاريخية مفسرا وموضحا الأمر من كافة جوانبه[5]. وأهم جانب في السند التاريخي ومدى صدقه وأمانته " **لا يخلو الحديث من أن يكون مرضيّ الإسناد. صحيح المخرج، أو يكون مسخوط الإسناد، فاسد المخرج. فإن كان مسخوطا. فقد بطلت المسألة، وإن كان مرضيّا، فقد علمنا أنّه ليس في الحديث أنّه قُبِل**"[6].

كما يرفض الأخبار التي تتصف بالخوارق والعجائب لأنها تخالف منهجه العقلي[7] "**البحر كثير العجائب، وأهله أصحاب زوائد، فأفسدوا بقليل الكذب كثير الصدق، وأدخلوا ما لا يكون في باب ما قد يكاد يكون، فجعلوا تصديق الناس لهم في غرائب الأحاديث سلّما إلى ادعاء المحال**"[8] وإن كان في أحيان أخرى لم ينقدها بل قبلها كما في حديثه عن منارة مسجد أنطاكية "**أني رأيت الثلث الأعلى من منارة مسجد أنطاكية أظهر جدّة من الثلثين الأسفلين، فقلت لهم: ما بال هذا الثلث الأعلى أجدّ وأطرى؟ قالوا: لأنّ تنّينا ترفّع من بحرنا هذا، فكان لا يمرّ بشيء إلّا أهلكه، فمرّ على المدينة في الهواء، محاذيا**

---

١ - محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضي الله عنه معروف بالظرافة والدعابة والمزاح. انظر: ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٦، ص ٨٨. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ١٧.

٢ - الجاحظ، البغال، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٧م. ص ٢٦.(سيشار إليه فيما بعد: الجاحظ، البغال). هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٤

٣ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٥

٤ - أدت معركة الجمل إلى حالة من الحرج لأهل البصرة، فهم موزعون بين الطاعة للخليفة الشرعي وواجب الولاء للسيدة عائشة وبين إرادة الحفاظ على وحدة الإسلام وبين إرادة تجنيب المدينة النتائج الوخيمة الناشئة عن اتخاذ موف واضح في الخلاف وبين التضامن الإسلامي وروح القبيلة، هذا عدا عن الأمزجة الشخصية والعاطفية والخلافات على مستوى الأفراد. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٥٩.

٥ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٥

٦ - الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ١٠٨.

٧ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٧

٨ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٧٨

لرأس هذه المنارة، وكان أعلى ممّا هي عليه، فضربه بذنبه ضربة، حذفت من الجميع أكثر من هذا المقدار، فأعادوه بعد ذلك، ولذلك اختلف في المنظر"[1]. وكذلك النظر إلى الراوي إذا كان متهما بالهوى والعصبية. وقد يصف الرواية بالجهل وقلة الحيلة ثم يناقش الرواية ويحللها[2]. فيقبل الروايات في حال أنها سايرت العقل والفطرة.

إن إيراد الجاحظ لبعض الروايات التاريخية التي لا يقبلها بهدف نقدها وعرض ما تحتويه من السقط والخطأ كما يحمل وزرها على من نقلها " هذه الرسالة التي كتبناها من الرواة منسوبة إلى من سميناها في صدرها. فإن كانت صحيحةً فقد أدينا منها حق الرواية، والذين كتبوها أولى بما قد تقلدوا من الحجة منها. وإن كانت منحولة فمن قبل الطفيليين"[3].

اعتمد الجاحظ على مبدأ الشك في قبول الروايات، عارضا أهميته في تراثه[4]، ومن ذلك قوله: " واعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه. ثم اعلم أن الشك في طبقاتٍ عند جميعهم، ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف" [5]. فالشك هو التوقف قبل تقبل أو رفض أي رواية[6].

وقد طبق الجاحظ منهج الشك – كذلك- على العديد من الروايات التي نقلها عن الفرس والهنود، وكثيراً ما طالعنا بشكوكه التي تدور حول "الزعم" الذي دمغ به كثيراً من آراء أرسطو[7]، من مثل قوله: "زعم /تزعم الفرس...."[8] و"زعم المجوس...."[9]، و" زعم زرادشت...."[10]، و" تزعم الهند...."[11] و"زعم الهندي صاحب كتاب الباه"[12]، تكشف العبارات عن موقف الشك الذي

١ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٣٣٤.

٢ - عطبة، الشك المنهجي، ص ١٥١

٣ - الجاحظ، رسالة القيان، جـ ٢، ص ١٨١.

٤ - عزت، فلسفة الأخلاق، ص ٢٤

٥- الجاحظ، الحيوان، جـ ٦، ص٣٥.

٦ - الجوزي، مكانة العقل، ص٢٧٨

٧ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص٥٧. الجرزي، مكانة العقل، ص ٢٧١

٨- الجاحظ، الحيوان، جـ١، ص١٥٢، جـ ٤، ص١٥٥.

٩- المصدر نفسه، جـ١، ص١٩٠، جـ٤، ص٩٥.

١٠- المصدر نفسه، جـ ٣، ص٢٩٨، جـ٤، ص٢٩٦.

١١- المصدر نفسه، جـ٤، ص٣١٩، جـ٧، ص٢١٠، ٢٢٠.

١٢- المصدر نفسه، جـ ٧، ص٢٢٦.

أشار له الجاحظ ونبه عليه[1] حين قال: "**فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة، لتعرف مواضع اليقين والحالات الموجبة له**"[2] والمنحى النقدي عند الجاحظ يتمثل في نزعته إلى الشك بحيث لا يسلم بأي أمر أو خبر إلا بعد أن يمحصه ويختبر مدى صحته، وهو القائل: "**أجعل الشك طريقا إلى اليقين**"[3]. فيرى الجاحظ أن درجات العلم ثلاثة هي الشك فالظن فالعلم. أول العلم بالأمور الشك فإذا ظهرت بعض الأدلة زال الشك وحل مكانة الظن، فإذا قويت الأدلة زال الظن وحل العلم اليقيني. وقد ردد الجاحظ هذه المراتب في عدة أماكن من كتبه مثل الحيوان وبعض الرسائل[4].

أكد الجاحظ أن الكثير من مصادر التاريخ ورواياته أتت من مصادر غير موثوقة سواء كانت للتاريخ للعرب أم الحضارات الأخرى، فوقف الجاحظ معتذراً عما أصاب التراث المنقول إلى العربية من مشوهات أفضت إلى اختلاله واستغلاقه[5]، حتى جاءت كتبه "**مختلفةً منقوصةً مظلومةً متغيرةً**"[6]. مؤكداً على تحري الدقة في نقل الروايات بتدعيمها بالأخبار والحقائق المقنعة[7].

حصل الجاحظ على ثقافة يونانية ساعدته على تبلور منهج الشك في وقت مبكر؛ كما يرجع إلى تكوينه العقلي[8] وإلى تأثره بمذهب الاعتزال، حيث استخدم الشك في قبول الرواية أو رفضها، ويتدرج الشك عند الجاحظ في طبقات بين القوة والضعف[9] " **اعلم أن الشك طبقات عند جميعهم**"[10]؛ كان الجاحظ يؤمن بأهمية الشك الذي يؤدي إلى اليقين عن طريق إعمال العقل، فهو يسأل أرباب الحرف ليتأكد من معلومات الكتب.

كما أن من منهج الجاحظ معارضة الروايات بما قد تحويه من مغالطات وتأويلات ويبرر سبب ذلك "**وليس الاعتراض من صفة اللّجاج، وقد يكون الاعتراض محمودا ومذموما ولا يكون**

---

١ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص٥٧. عطبة، الشك المنهجي، ص ١٤٨

٢- الجاحظ، الحيوان، جـ ٦، ص٣٥.

٣ - الجاحظ، البغال، مقدمة التحقيق، ص ١٠.

٤ - الجوزي، مكان العقل، ص٢٧٩. انظر: الجاحظ، رسالة المعاش والمعاد، ص ٩٦.

٥ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص ٥٤

٦- الجاحظ، الحيوان، جـ١، ص ٨٠.

٧ - الجوزي، مكان العقل، ص٢٨٣

٨ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٠٩. عطبة، الشك المنهجي، ص ١٤٣.

٩ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص٥٧. عطبة، الشك المنهجي، ص ١٤٥

١٠- الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٥٣

اللّجاج إلّا مذموما"[1]، ومن أمثلة اعتراضاته على كلام الفرس[2]: "**على أن هذه الأحاديث من أحاديث الفرس، وهم أصحاب نفجٍ وتزيدٍ، ولا سيما في كل شيءٍ مما يدخل في باب العصبية، ويزيد في أقدار الأكاسرة**"[3]، وهذا مثال بسيط على الكثير من الأدلة التي ساقها الجاحظ في هذا المضمار في اعتراضاته على الثقافات الأخرى[4].

لعب الجاحظ دورا في نقد ما شاب الروايات من خرافات، بأسلوب قائم على إزالة الأوهام[5]، فهو معتزلي يميل إلى استخدام العقل في كل أموره[6]. إذ إن الجاحظ نفسه يقول: "**ومما لا أكتبه لك من الأخبار العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كل وقاح أخبار...**"[7] ولذلك ما أكثر ما كان يستفتح الأخبار المغلوطة أو الأسطورية بقوله زعم فلان، وزعموا[8]، ثم يعقب بتحليله ونقده "**بعقلٍ راجحٍ، ونظرٍ صائبٍ، وأسلوبٍ سهلٍ عذبٍ متنوعٍ دقيقٍ فكهٍ، يتتبع المعنى ويقلبه على وجوهه المختلفة، ولا يزال يولده حتى لا يترك فيه قولاً لقائل**"[9]. يورد الجاحظ الخبر ثم يعقب عليه مبينا ما فيه من صحة أو خطأ متبعا في ذلك مناهج النقد الدقيقة. مثال ذلك خبر ابن عتيق الذي سبق الإشارة إليه الذي يرى أن الرواة عاجزون عن البرهان على صحته لتعذرهم ذلك[10]، إن هذا الخبر برأي الجاحظ مصنوع، وقد أورد الجاحظ أسباب وضعه بأسلوب نقدي ممنهج[11]. كما طال نقده حتى الصحابة والمحدثون والمفسرون وجماعة المعتزلة والأدباء والشعراء والمترجمون وغيرهم من فئات المجتمع[12].

---

١ - البرصان والعرجان ص ٣١

٢ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص٦٣

٣- الجاحظ، الحيوان، جـ ٧، ص١٨٩.

٤ - انظر مثلا: الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ١٩٠، جـ ٦، ص ٤٨٨، جـ ٧، ص٧٧١. رسالة فخر هاشم، ص ٤٣١.

٥ - النجم، وديعه طه. الجاحظ والنقد الأدبي، حوليات كلية الآداب، الحولية العاشرة، جامعة الكويت: ١٩٨٨م، ص٥٤ (سيشار إليه فيما بعد: النجم، الجاحظ والنقد الأدبي). عزت، فلسفة الأخلاق، ص٢٦

٦ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٣

٧- الجاحظ، الحيوان، ج٧، ص٤٩، والنص في الأصل هو: «ومما لا أكتبه لك من الأجناس العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كل وقاح أخبار...".

٨- محمد، أمراء البيان، ص ٣٦٥ ـ٣٦٦ . الجوزي، مكان العقل، ص ٢٧١

٩- العوا، عادل. المذاهب الفلسفية، مطبعة ابن حيان، دمشق: ١٩٦٤م، ص١٧٢ (سيشار إليه فيما بعد: العوا، المذاهب الفلسفية).

١٠ - عطية، الشك المنهجي، ص ١٥٤

١١ - الجاحظ، البغال، مقدمة التحقيق، ص ١٠

١٢ - الجوزي، مكان العقل، ص٢٨٤

وانتقد الجاحظ تقلب الرواة، فقد صور هذا التقلب في الأذواق لدى الرواة أنفسهم فقال:"وقد أدركت رواة المسجديين والمربديين: ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب ونسيب الأعراب والأرجاز الأعرابية القصار وأشعار اليهود والأشعار المصنفة، فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة. ثم استبردوا ذلك كله، ووقعوا على قصار الأحاديث والقصائد والفقر والنتف من كل شيء. ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب فصار زهدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب، ثم رأيتهم منذ سنيات وما يروي عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر أو فتياني متغزل "[1].

كما انتقد الجاحظ قلة عناية الأعاجم بحفظ وتخليد تواريخهم[2]، يقول: "فأما الأمم البائدة من العجم، مثل كنعان ويونان وأشباه ذلك، فكثيرٌ، ولكن العجم ليس لها عناية بحفظ شأن الأموات ولا الأحياء"[3]. ويؤكد في موضعٍ آخر أن تقييد المآثر "لم يكن من عادة العجم"[4]، ويعني أن العجم لم تساير العرب في تسجيل مآثرها بالشعر الذي يخلدها[5] "يبقى بقاء الدهر، ويلوح ما لاح نجمٌ، وينشد به ما أهل بالحج، وما هبت الصبا، وما كان للزيت عاصرٌ"[6]. فلم يجد في ما ترجم في زمانهم شعراً يخلد مآثرهم، إذ أن النماذج الملحمية التي تخلد المآثر والبطولات اليونانية نقلت في زمان متأخر[7].

ومما سبق يتضح أن الجاحظ لم يكن مؤرخاً ولكنه قدم مادة تاريخية قلما نجدها في كتب التاريخ الأخرى[8]. وأغنى كتبه بمادة تاريخية سجلها عن الأحداث في عصره أو العصور التي سبقته "سجل في العديد من كتبه ورسائله ملاحظات ذكية وقيمة عن أحداث عصره أو تلك التي سبقت عصره. وهذه الملاحظات فيها دلالات تاريخية ذات أهمية كبيرة بالنسبة للمؤرخ المتمعن"[9] إذ كتب

---

١ - الجاحظ، البيان والتبين، جـ٣، ص٣٢٣.

٢ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص٦٨

٣- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص١٨٨.

٤- الجاحظ، رسالة في مناقب الترك، ص ٤٨٢.

٥ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص٦٩

٦- الجاحظ، رسالة في مناقب الترك، ص ٤٨٢.

٧ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص ٦٩.

٨ - أشارت هياجنة في رسالتها أن الجاحظ كان متساهلا في إسناده، فبلغ مجموع السند عنده حوالي ٢٤٩ من مجمل الروايات التي جمعتها والتي تبلغ ٤٥٥ والسبب ليس تساهلاً من الجاحظ بقدر ما هو طبيعة العصر الذي لم يكن قد ظهر هذا النوع من النهج في السند، وكذلك لم تكن هناك حاجة، إضافة إلى أن الجاحظ لم يكن مؤرخاً بمعنى الكلمة الصحيح حتى نطالبه بموضوع السند. انظر: هياجنة، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٠.

٩- فوزي، فاروق عمر. الجاحظ مؤرخا(ملاحظات نقدية حول معالجة الجاحظ للتاريخين الأموي والعباسي)، مجلة كلية الآداب، العدد ٢٩، جامعة بغداد: ١٩٨٠م، ص٤٢٢ (سيشار إليه فيما بعد: فوزي، الجاحظ مؤرخا).

الجاحظ على سبيل المثال لا للحصر في الألوهية والخلق والنبوة، والإنسان ومشكلاته الاجتماعية والأخلاقية والجمالية والدينية والنفسية وغيرها وأضفى عليها من شخصيته وأسلوبه رونقاً وألقاً خاصًّا، ووصل إلى نتائج لم يسبقه إليها أحد، كما أن استنتاجاته طبعها بأسلوبه وطريقته ومنهجه، أما الروايات التاريخية التي كتبها فهي مادة لا يمكن للمؤرخ إلا الوقوف عليها لما لها من أهمية.

تضمنت رسائل الجاحظ مواضيع عديدة، نذكر منها المواضيع العقائدية، والدينية، والسياسية والتاريخية والاجتماعية، والعادات والتصرفات، والمناقب والمثالب، والجماعات (العرب، والموالي، والعجم)[1]. كذلك تناول فيها شرح قضية انتشار العناصر التركية في عهد المعتصم، وانتشار القيان وغيرها من فئات المجتمع[2].

من يقرأ الجاحظ قراءة متجزئة وغير تاريخية، يرى فيه كاتباً متقلباً في أفكاره السياسية. فربما اكتشف أنه رافضي مرة[3] " **إذا المرجي سرك أن تراه ... يموت بدائه من قبل موته...فجدد عنده ذكرى علي ... وصل على النبي وأهل بيته**"[4]، وربما استنتج في أخرى أنه أموي[5] "**قالوا: ومما نفخر به وليس لبني هاشم مثله أن منا رجلاِ ولي أربعين سنة منها عشرون سنة خليفة، وهو معاوية بن أبي سفيان. ولنا أربعة أخوة خلفاء: الوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك. وليس لكم إلا ثلاثة: محمد وعبد الله وأبو إسحق، أولاد هارون** "[6]، وقد يرسخ للقارئ أنه عباسي الميل " **وذلك أنا لا نعرف في جميع مملكة العرب وفي جميع مملكة العجم وفي جميع الأقاليم السبعة ملكاً واحداً ملكه من نصاب واحد وفي مغرس رسالة إلا من بني هاشم فإن ملكهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم والعم وارث والعم أب**"[7]. فالجاحظ في تناوله لأي جماعة أو فرقة أو طائفة فإنه يتبناها

---

١ - النجم، الجاحظ، ص ١٠٣

٢- عبد الغني، جلال. الجاحظ، دار الأمين، جامعة حيفا: ١٩٨٦م، ص ٤ (سيشار إليه فيما بعد: عبد الغني، الجاحظ).

٣ - نوري، الجاحظ، ص ٢

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٢٨

٥ - نوري، الجاحظ، ص ٢

٦- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٣

٧- الجاحظ، رسالة في الأوطان والبلدان، ص ١٠٧

ويتبنى أفكارها[1]، بهدف تحري الصدق والأمانة فيما ينقل حتى لا يعاب عليه، كما يهدف إلى إفهام الناس أنه مثلما يستطيع أن يعلو من قدر تلك الفرقة أيضا يستطيع أن يهدمها[2].

يرى الجاحظ أن الرواية التاريخية تكون غاية في الأهمية وما من سبيل لحفظها أفضل من التدوين[3] وفي ذلك يقول: "**الكتب أبلغ في تقييد المآثر من البناء والشعر**"[4]، فهو يعتبر أن الروايات وما بها من ماده تاريخية وما تحويه من التراث الفكري أقدر على البقاء والصمود من التراث المادي الذي يتعرض بسبب انقلاب الدول وتبدل الممالك إلى العبث والتدمير والهدم من المتسلطين الجدد الذين لا يألون وسعاً في سبيل طمس ما يقدرون على طمسه من المعالم الحضارية التي تشهد للدول التي انقلبوا عليها[5].

وكتابات أبي عثمان بتنوعها تعد مصادر تاريخية خاصة لتاريخ الفرق والحركات والثورات التي ظهرت وعاصرها، فقد كتب عن الترك بوصفهم ظاهرةً من ظواهر عصره برسالة سماها: " مناقب الترك"، يبين فيها مناقبهم وما يفتخرون به، ولكنه لم يبالغ في مدحهم وتقريظهم خوفاً من تسيدهم، بل ذهب أبعد من ذلك عندما أبان أنهم غير أهل حضارة فقال: " **الترك أصحاب عمد وسكان فياف وأرباب مواش، وهم أعراب العجم كما أن هذيلا أكراد العرب. فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات، والطب والفلاحة والهندسة؛ ولا غرس ولا بنيان، ولا شق أنهار، ولا جباية غلات، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل، ومقارعة الأبطال** "[6]. وكان يهدف من ذلك إلى أن يعيش الجميع في سلم، خاصة بعد الدعوات التي بدأت تظهر والتي تقوم على تفضيل طائفة على الأخرى. ولم يكن حديث الجاحظ عن الترك حبا لهم كما فهم بعض الكتاب وإنما بقصد إزالة الشحنات من قبل الناس ضد الترك. ولم يكن أيضا يسعى من وراء ذلك إلى التكسب من قبل الخليفة المعتصم الذي كانت أمة تركية.

كما تناول الشعوبية للدفاع عن العروبة والإسلام والذود عن حياضهما بكل ما أوتي من ملكاتٍ ومواهب إبداعيةٍ، وبراعة في النقاش والجدال، وهو وإن لم يفرد كتاباً خاصا بالمضمون والعنوان لهذا الغرض فإننا نجد ذلك في جل كتبه، فيخصص الجزء الثالث من

١- فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٢١

٢ - كتابجي، زكريا. الترك في مؤلفات الجاحظ، دار الثقافة، بيروت: ١٩٧٢م، ص ٨٩ (سيشار إليه فيما بعد: كتابجي).

٣ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص ٤٥

٤- الجاحظ، الحيوان، جـ١، ص٧٥.

٥- الدروبي، موقف الجاحظ، ص ٤٧

٦- الجاحظ، رسالة في مناقب الترك، ص٤٧٣

كتاب البيان والتبيين في الرد على مزاعم الشعوبية" وقد طعنت الشعوبية على أخذ العرب في خطبها المخصرة والقناة والقضيب، والاتكاء والاعتماد على القوس، والخد في الأرض، والإشارة بالقضيب... "[١]، كما تناولها أيضا في كتاب الحيوان " فإن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه "[٢]، ورسالة النابتة "ثم قرنوا بذلك العصبية التي هلك بها عالمٌ بعد عالم، والحمية التي لا تبقي ديناً إلا أفسدته، ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية، وما قد صار إليه الموالي من الفخر على العجم والعرب "[٣]، ورسالة فضل السودان على البيضان " وقد قال الرسول: بعثت إلى الأحمر والأسود ومعنى ذلك أنه بعث إلى السودان"[٤]، ورسالة الترك وعامة جند الخلافة.

وعالج الجاحظ موضوعات متعددة في كتاباته حسب ظروف المجتمع، فكتب رسائل سياسية ذات ميل تاريخي مثل رسالة المعاش والمعاد التي وجهها إلى أحد أولي الأمر، وهو قاضي القضاة محمد بن أحمد بن أبي دؤاد الذي أشرف على الولاة والقضاة في الدولة العباسية بعد والده[٥].

دعم الجاحظ فرضياته في موضوع الإمامة في رسالتيه العثمانية والحكمين باستدلالات تاريخية، بحيث يدفعهم للإقرار بفضله وتقديمه "والإمام يفرض نفسه على الناس بسيرته وأعماله ومواقفه وأقواله، بحيث يدفعهم للإقرار بفضله وتقديمه على نحو ما قدم عمرو بن عبيد عند المعتزلة، ومرداس بن أدية عند الخوارج "[٦]. ولا يفرضها بنسب ولا بالدعوة إلى نفسه، فيعرف الناس فضله ويقدمونه على من سواه. وفي هذه الرسائل يظهر تأثر الجاحظ بالصراعات السياسية والفكرية في عصره. فجاءت رسالته العباسية لإثبات حق العباسيين بالسلطة، تجاه معارضيهم الذين عبّر عن آرائهم ودحضها في رسائله: الحكمين والعثمانية والنابتة[٧].

وتناول الجاحظ بمنظور تاريخي الصراع القبلي المتمثل في المنافسة القديمة بين بطنين من بطون قريش على الحكم هما عبد شمس وهاشم. وتكمن أهمية ما أورده الجاحظ من هذا

١- الجاحظ، البيان والتبيين جـ ١، ص ٣٠٤

٢- الجاحظ، الحيوان، جـ ٧، ص٦١٠

٣- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٢.

٤- لاحظ النعرة الشعوبية في تفسير قول النبي ص "بعثت إلى الأحمر والأسود". إن السود هم أصحاب الدعوة بنظر هؤلاء وهم المتقدمون على العرب. الجاحظ، رسالة فخر السودان على البيضان؛ ص ٥٤٨

٥ - الدروبي، سمير محمود ومحمد محمود. رسالة جديدة للجاحظ في مدح آل دؤاد، المجلد الثاني عشر، العدد ٢، مؤتة للدراسات والبحوث، جامعة آل البيت: ١٩٩٧م، ص ٢٠٤ (سيشار إليه فيما بعد: الدروبي، رسالة في مدح آل دؤاد).

٦- الجاحظ، العثمانية، ص ٤٠٤

٧- الجاحظ، رسالة العباسية، ص ٤٧٣. تم مناقشة الرسائل الثلاث في المقدمة.

الصراع في الروايات والأحداث المصاحبة له، ومن هذه الروايات " أن أشرف خصال قريش في الجاهلية: اللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابة، وهذه الخصال مقسومة في الجاهلية لبني هاشم وعبد الدار وعبد العزى دون بني عبد شمس"[١] إضافة إلى ذلك فإن مادة الجاحظ التاريخية في هذه الرسالة كثيرة ومتعددة، ومن ذلك أيضا " وكان النبي صلى الله عليه وسلم طرد معاوية بن المغيرة هذا من المدينة وأجله ثلاثا فحيره الله ولم يزل يتردد في ضلاله حتى بعث في أثره عليا وعمارا فقتلاه "[٢]

وقد اهتم الجاحظ بتاريخ العرب وأمجادهم ولم ينسى فضلهم على باقي الأمم، فقد أرخ لهم فيرى أنهم أفخر الأمم، وأرفعها وأحفظها لأيامها، وينسب ذلك إلى طبيعة بلادهم، إذ "كانوا سكان فيافٍ وتربية العراء، لا يعرفون العمق ولا اللثق، ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن ولا التخم، أذهان حداد، ونفوس منكرة، فحين حملوا حدهم ووجهوا قولهم لقول الشعر وبلاغة المنطق، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام، بعد قيافة الأثر وحفظ النسب، والاهتداء بالنجوم، والاستدلال بالآفاق، وتعرف الأنواء، والبصر بالخيل وآلة الحرب، والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس، وإحكام شأن المثالب والمناقب، بلغوا في ذلك الغاية، وحازوا كل أمنية. وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر، وهممهم أرفع من جميع الأمم وأفخر، ولأيامهم أحفظ وأذكر"[٣].

وتناول الجاحظ في كتاباته السودان وأعني بهم أصحاب البشرة السوداء، ولا علاقة لاسم الرسالة ببشرة الجاحظ، فقد ألف الجاحظ رسائل أخرى مثل رسالة مفاخر قحطان وأيضا مفاخر عدنان[٤]، فقد يكون الدافع في كتابة رسالة السودان سياسياً[٥]، أما جواد علي فيذكر سبب تأليف الجاحظ لهذه الرسالة " أن نزاعًا كان قد دب بين السودان والعرب في الإسلام؛ بسبب النظرة السلبية التي أخذ الفاتحون ينظرون بها إليهم، فصاروا يترفعون عنهم ولا يخالطونهم، وهذا أغاظهم، وحملهم على نبش الماضي، والإتيان بالأخبار وبالأشعار عن دور الحبش في جزيرة العرب قبل الإسلام"[٦]، ويشير الجاحظ إلى المناطق الواسعة التي سيطر عليها السودان من جزيرة العرب قبل الإسلام "بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة"[٧]. أما عن مفاخرهم فذكر الجاحظ "والناس مجمعون على أنه

١- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص٤٠٩

٢- الجاحظ، رسالة فضل هشام، ص٤١٠

٣- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٨١

٤ - الدروبي، أثار الجاحظ، ص ١٠٣-١٠٤

٥ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٩٦

٦- علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط ٢، جامعة بغداد، بغداد: ١٩٩٣م، مجـ ٧، ص٣١١- ٣١٢ (سيشار إليه فيما بعد: علي، المفصل في تاريخ العرب).

٧- الجاحظ، رسالة مفاخر السودان على البيضان، ص ٥٢٩

ليس في الأرض أمة السخاء فيها أعم، وعليها أغلب من الزنج. وهاتان الخلتان لم توجدا قط إلا في كريم. وهي أطبع الخلق على الرقص الموقع الموزون، والضرب بالطبل على الإيقاع الموزون، من غير تأديب ولا تعليم.وليس في الأرض أحسن حلوقا منهم. وليس في الأرض لغة أخف على اللسان من لغتهم، ولا في الأرض قوم أذرب ألسنة، ولا أقل تمطيطا منهم"[١]

أما الموالي فقد تناولهم الجاحظ في رسالته مناقب الترك بقوله: " **الموالي أقرب إلى العرب في كثير من المعاني؛ لأنهم عرب في المدعى، وفي العاقلة، وفي الوارثة. وهذا تأويل لقوله: مولى القوم منهم، ومولى القوم من أنفسهم. والولاء لحمة كلحمة النسب"**[٢]. وتبرز أهمية هذه الروايات تاريخيا في نقاط متعددة من أهمها التعرف إلى العلاقة التي كانت سائدة بين العرب والموالي، ونظرة العرب إليهم، وكذلك أنواع الموالي الذين ظهروا في فترة الدولة العباسية فترة حياة الجاحظ، ولعل روايات الجاحظ التاريخية تنبع منها الحس التاريخي أكثر منها رواية عابرة من ذلك مثلاً **"ويتذاكرون إكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة مولاه، حين عقد له يوم مؤتة على جلة بني هاشم، وجعله أمير كل بلدة يطؤها"**[٣].

كما تطرق في رواياته إلى الخوارج[٤] ووصفهم بالمروق، ونبه الدولة في مواضع متعددة إلى خطرهم **"على أنا لا نعرف لبعض ما قال وجها، لأنك لا تعرف فقيها من أهل الجماعة لا يستحل قتال الخوارج "**[٥]. لكنه يظهر إعجابه بشعرائهم ونقل الكثير من أخبارهم. كما تكلم عن خطبائهم[٦]، وعن علمائهم ونسائهم[٧] **"وقال الحجاج لامرأة من الخوارج: والله لأعدنكم عدا، ولأحصدنكم حصدا. قالت: أنت تحصد، والله يزرع، فانظر أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق"**[٨]

١- الجاحظ، رسالة مفاخر السودان على البيضان، ص ٥٣٩.

٢- الجاحظ، رسالة في مناقب الترك، ص ٤٨٨.

٣- المصدر نفسه، ص ٤٨٤.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٥١٢. فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٢٢.

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٨٨.

٦- المصدر نفسه، جـ ١، ص ٢٧٦.

٧- المصدر نفسه، جـ ١، ص ٢٩١.

٨- المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٢١٦.

كما تحدث عن النظام الاداري في عهد الدولة الساسانية والدولة العباسية، وأبدى إعجابه بنظام البريد الذي استخدم للربط بين أراضي الدولة العباسية، فقال: **"وكانت البرد منظمة إلى كسرى، من أقصى بلاد اليمن إلى بابه، أيام وهرز، وأيام قتل مسروق عظيم الحبشة"**[١].

تناول الجاحظ المانوية[٢] والتي عرفت(بالزندقة) حيث نشرت كتب المانوية بأوراق صقيلة وإخراج بديع لكي تجتذب الناس إلى قراءتها [٣]، ويعلق الجاحظ على هذه الكتب بقوله **" ليس في كتبهم مثل سائر، ولا خبر طريف، ولا صنعة أدب، ولا حكمة غريبة، ولا فلسفة، ولا مسألة كلامية، ولا تعريف صناعة، ولا استخراج آلة، ولا تعليم فلاحة، ولا تدبير حرب، ولا مقارعة عن دين، ولا مناضلة عن نحلة، وجل ما فيها ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت...."**[٤]. والمعروف عن المانوية أنها أخطر حركة تعرضت للإسلام وهددته وحاولت هدم المجتمع العربي الإسلامي من الداخل ولذلك فإنها والشعوبية صنوان مترابطان.

وأخيراً إذا جاز لنا اعتبار الجاحظ مؤرخاً فإننا نشير أنه في أحيانٍ عديدة تغلب عليه ميوله فتأتي رواياته مهزوزة في معالجة الأحداث بداع من ميوله السياسية، وهذا ما حدث عندما عالج التاريخ الأموي، بسبب موقف العباسيين من الأمويين، الأمر الذي أجبر الجاحظ أن يتوافق ميوله مع ميول العباسيين [٥].

١- الجاحظ، البغال، ص٦٦.

٢- المانية: ويقال: المنانية؛ والمنائية؛ والمانوية، هم الزنادقة أصحاب ماني بن فاتك الذي كان يقول: " إن مبدأ العالم من كونين أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما في صراع مستمر لا ينتهي إلا بانتهاء الدنيا". ابن النديم. الفهرست، ص٤٠٢. وما يليها، المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ١٠٨.

٣- فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٢٨

٤- الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص٣٤

٥- فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٢٧

الفصل الثاني: رؤية الجاحظ في عصر بني أمية

أولاً: الأمويون ووصولهم للسلطة

ثانياً: التوريث الأسري (التسلسل التاريخي للدولة الأموية ٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠م)

ثالثا: صورة الخلفاء الأمويين وسياستهم

أولاً: الأمويون ووصولهم للسلطة

إن التمعن في كتابات الجاحظ عن الدولة الأموية، يلمس صورتين متناقضتين. الأولى سلبية شن فيها حملة شعواء تجاه بني أمية وتاريخهم وطريقة وصولهم للسلطة. أما الصورة الثانية فجاءت مغايرة للأولى تجده فيها يمدحهم ويثني على منجزاتهم، وهنا يقع القارئ في حيرة من أمره تجاه هذين الموقفين المتناقضين. فمن أجل إزالة اللبس وكشف الحقيقة لا بد من التتبع الزمني لهذه المواقف، وأثر الأوضاع السياسية والفكرية في هذا التغيير في موقف الجاحظ تجاه بني أمية، وأيضا الوقوف على أهداف الجاحظ المبطنة والخافية وراء ذلك.

يلاحظ الباحث أن الموقف السلبي الذي وقفه الجاحظ تجاه بني أمية يرتبط بصلته ببني العباس. ويمكن تحديد ذلك بعام ١٩٨هـ / ٨١٣م عندما حدث اتصال بين الجاحظ والمأمون في مرو وبالتالي بدأ الاتصال الفعلي والعملي بالسلطة العباسية[١]، هذا الاتصال يعد المنطلق الذي أخذ فيه الجاحظ موقفا مناوئا ومعارضا للدولة الأموية وأدى به إلى دخوله معترك السياسة[٢]، وقد بلغت حدة المعترك السياسي أن قامت الدولة العباسية بإعلان البراءة من معاوية[٣]، فكان على الجاحظ الذي صار قريبا من السلطة العباسية أن تتماشى مواقفه مع مواقفها، ومن جهة أخرى فإن هذه المرحلة تتسم بالتوافق التام بين المعتزلة والعباسيين. مما حدا بالجاحظ أن يكتب في القضايا التي أثيرت في فترة الخلفاء (المأمون، والمعتصم، والواثق) وخاصة تلك القضايا التي تتمثل في الإمامة، والبراءة من معاوية ومعاداة الأمويين، وتقريب العلويين، والقول بخلق القرآن[٤].

فحديث الجاحظ عن بني أمية خلال تلك الفترة يتسم بالتنقيص والتشنيع، ويلاحظ الباحث أن أسلوب الكتابة عنهم تتصف عباراته بالارتباك. وهو شيء غير معهود في كتاباته[٥]. ويعد كتاب الإمامة الذي أهداه الجاحظ إلى الخليفة المأمون عند زيارته له في مرو بداية

---

١ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص١٨٠. أبو الفداء، المختصر، جـ ١، ص١٦٧. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٦٧.

٢ - الزويري، الإمامة، ص ٣٠

٣ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١. الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧

٤ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص١٨٠. أبو الفداء، المختصر، جـ ١، ص١٦٧. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٦٧. الزويري، الإمامة، ص ٣٤، ص ٣٩.

٥ - فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٢٧

الموقف العدائي للأمويين[1]. فكانت الدولة العباسية بحاجة إلى مسوغ ومبرر لتوليهم الخلافة والوقوف في وجه التيارات التي ترى أنهم استولوا على الخلافة، وبالتالي كان الجاحظ أحد حملة لواء الدفاع عن العباسيين، وقد استمر موقفه هذا طوال عهد المأمون وكذلك المعتصم الذي سار على خطى سلفه وأيضا في عهد الخليفة الواثق[2].

إن تبدل موقف الجاحظ تجاه بني أمية المتمثل في ترك ذمهم، يعود إلى خلافة المتوكل سنة ٢٣٢هـ / ٨٤٦م الذي قام بسلسلة من الإجراءات كان من أهمها تقريب أهل السنة وترك مذهب الاعتزال[3]، وبالتالي عدم الدخول في مناظرات ومجادلات دينية وسياسية فيما يخص العلاقة ببني أمية[4]. وتمثل هذا الجانب في أن كتابات الجاحظ بدأت تأخذ صفة القبول والرضى، كما أطرى على بني أمية ومدح خلفاءهم وبلاغتهم وشجاعتهم[5].

إن مرحلة عدم التوافق بين الجاحظ وبين الخليفة المتوكل[6]، والتي تمخض عنها أن ترك بلاط الخلافة[7]، ساهمت في عودته إلى البصرة بعد إصابته بالفالج. وبالتالي تحرره من التبعات السياسية والدينية. كل ذلك أدى به إلى أن يكتب عن بني أمية متجردا من الأهواء والنزعات والميول الشخصية والعامة[8].

---

١ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص١٨٠. أبو الفداء، جـ ١، ص١٦٧. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٦٧.

٢ - نوري، الجاحظ، ص ٦. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١. الزويري، الإمامة، مقدمة الرسالة ص (ط)، ص٣٢

٣ - ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١١، ص ٢٠٦. الزويري، ألإمامة، ص، ٢، ص ٣٦. انظر تعريف المعتزلة: الشذر، الفاظ الحضارة العباسية، ص ٢٠٢.

٤ - انظر الفصل الأول: الجاحظ وثقافته الموسوعية

٥ - تم التفصيل في الفصل الثالث حول أسباب تحول المتوكل.

٦ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦،ص. ٧٢. نوري، الجاحظ، ص ١٤

٧ - الطبري، تاريخ، جـ ٩، ص١٧٩. نوري، الجاحظ، ص ١٤

٨ - الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص٣٧٩. الدروبي، مرض الجاحظ، ص ٣٧٩-٣٨١. هياجنه، الجاحظ مؤرخا، ص ٧٥. - الزويري، الإمامة، ص ٢٠.

فبدأ منهجه متحررا، خاليا من الإشادة بالمعتزلة، إذ خلت عباراته من المنهج الكلامي، وهو منهج يعتمد على تقليب النص والمعنى[1]، وجعل العقل مقدما على النص[2]، وسبب ذلك أنه لم يعد ينطلق من منطلقات سياسية بسبب إبعاد الدولة له، ولا منطلق معتزلي ديني بسبب الإجراءات التي اتخذها المتوكل ضدهم مما جعل مذهب المعتزلة ينزوي منذ تولي المتوكل الخلافة[3].

والملاحظة الجديرة بالاعتبار أن مدح الجاحظ لبني أمية والثناء عليهم ورد في كتاب البيان والتبيين الذي فرغ منه بعد عام ٢٣٥هـ / ٨٤٩م[4]. أي في الفترة التي لم تعد الدولة العباسية تناصب الأمويين العداء، فعلى الرغم من أن الكتاب لغوي وبلاغي وبياني، إلا أنه تناول موضوعات أخرى مثل الفرق والجماعات، كما اتصف بمعالجة قضايا سياسية ومن ضمنها بعض الجوانب التي تتعلق بالأمويين وما اتصفوا به من الصفات مما جعلهم مادة أساسية في الكتاب[5].

أما الرسائل فتخلو من الثناء، ولكنها على العكس من ذلك تحتوى على التنقيص والتقليل، ويعود ذلك إلى الظرف السياسي الذي كتبت فيه، فأغلبها كتب في الفترة التي كانت السلطة العباسية مناوئة ومناهضة للأمويين، وهي الفترة الممتدة بين تولي المأمون الخلافة وحتى خلافة المتوكل[6]، كما أنها كتبت لأهداف سياسية محددة، تتعلق بشكل عام حول تأييد خلافة العباسيين ومناصبة بني أمية العداء. أما الرسائل التي كتبها الجاحظ بعد تولي المتوكل الخلافة فقد كانت لأغراض وأهداف أخرى بعيدة عن قضية بني أمية فلم تتضمن روايات تتناول خلافتهم.

---

١ - مثال ذلك: أن الجاحظ يرفض فكرة النص التي تدعيها الشيعة الرافضة حول إمامة علي، إذ يرى أنه لا نص في القرآن أو الحديث يشير إلى إمامة أحد دون بقية المسلمين. الزويري، الإمامة، ص ٦ . انظر: الفصل الأول: منهج الجاحظ في الكتابة.

٢ - سرحان، هيثم. الحِجاج عند الجاحظ. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد١١٥، جامعة الكويت، الكويت: ٢٠١١م، ص ٥ (سيشار إليه فيما بعد: سرحان، الحِجاج عند الجاحظ). الزويري، الإمامة، ص ٥٧

٣ - الحموي، معجم الأدباء، جـ٦، ص ٧٤. الزويري، الإمامة، ص ٣٦.

٤ - انظر: مقدمة الدراسة: كتاب البيان والتبيين. الدروبي، آثار الجاحظ، ص ٧٤

٥ - راجع مقدمة الدراسة: كتاب البيان والتبيين

٦ - إن موقف الجاحظ المعارض لبني أمية يتمثل في ثلاث رسائل هي: الحكمين، والنابتة، وفضل هاشم على عبد شمس، وهذه الرسائل كتبت قبل عام ٢٣٢هـ / ٨٤٦م. انظر على التوالي: الدروبي، آثار الجاحظ، ص٨٢، ص ١٢٥، ص ١٦٣.

مما سبق يتضح للباحث أن منهج الجاحظ في الكتابة كان يعتمد على الحالة السياسية وانعكاسها على حياته، فعلى الرغم من تأكيده على صفة الحياد التي ينبغي على الكاتب الالتزام بها إلا أن ذلك لم يظهر بشكل خاص في موقفه من بني أمية **"واعلم أن واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلا، ولأهل النظر مألفا، حتى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل الذي يبلغ لنفسه، حتى لو لم يقرأ القارئ من كتابه إلا مقالة خصمه لخيل له أنه الذي اجتباه لنفسه، واختاره لدينه"**[1] ويقول في رسالة الحكمين: **"ولسنا ممن يميل في شق عن شق ويتعصب لبعض على بعض ومن يبخس حق الدون، فكأنك به قد تبخس حق من فوقه حتى تصير إلى أئمته المهتدين وخلفائه الراشدين؛ لست عمريا دون أن أكون علويا ولا علويا دون أن أكون عثمانيا، اللهم إلا بما أخص به العترة بسبب القرابة، وأما في غير ذلك فليس شأني إلا محبة الجميع والتوفير على الكل ودفع الظلامة عن الكبير والضعيف على قدر ما شاهدنا عليه من الحالات"**[2]. فمال الجاحظ في كتاباته نحو العباسيين وتنقص من الدولة الأموية ومن خلفائها.

وعند العودة للحديث عن موقف الجاحظ السلبي في تناوله لتاريخ بني أمية، سنجد واضحاً من خلال ما كتبه من رسائل تعبّر بوضوح عن رغبة كانت تبديها السلطة العباسية. فقد كتب العديد من الرسائل ومن ضمنها رسالة الحكمين في قضية الخلاف بين علي ومعاوية لأهداف سياسية تصب في خدمة الدولة العباسية، والمتمثلة في محاولة كسب تأييد الناس لشرعية خلافتهم والتشنيع على الأمويين[3]، وتسويغ حق العباسيين في الخلافة[4]، إذ تمثل هذه الفترة حرجا سياسيا بالنسبة للدولة العباسية، فظهرت أصوات تعلن أن العباسيين استولوا على الخلافة من مستحقيها العلويين[5].

١- الجاحظ، العثمانية، ص ٢٥٤

٢- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٦٩

٣ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١ . الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٤ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١. الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧

٥ - تعود مسألة الخصام حول الخلافة منذ عهد الخليفة أبو جعفر المنصور الذي تبادل الرسل مع محمد النفس الزكية حول اغتصاب العباسيين للخلافة. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٣، ص ٩٥-٩٨. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣٨٥. ابن خلدون، عبد الرحمن(ت: ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م). تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط ١، دار الكتاب العلمية، بيروت: ١٩٩٢م، جـ ١، ص ١٦(سيشار إليه فيما بعد: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون). ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت: ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م). الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت: ١٩٩٧م، ص٣٥-٣٦ (سيشار إليه فيما بعد: ابن الطقطقي، الفخري).

قام الخلفاء العباسيون إثر ذلك بتقريب العلويين مظهرين الود والعطف عليهم، مثل ما قام به المأمون من الميل نحو العلويين[1] والإحسان إليهم "أما رأيت المأمون ورفقه بهم، وعفوه عنهم، وميله إليهم"[2]، كما أن السلطة العباسية وظفت الأدباء والشعراء من أجل ذلك[3]. فكان إعلان المأمون تفضيل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بمثابة تصريح عام لانتقاد الأمويين، وفي نفس الوقت إبراز مزايا آل البيت والعباسيين[4].

كما أن معالجات الجاحظ لمسألة وصول بني أمية للخلافة تعبر كذلك عن موقف المعتزلة المعادي للأمويين[5]. فتحدث الجاحظ في رسالة الحكمين عن كيفية وصول الأمويين للخلافة، وأكد على دور الحكمين في إيصال معاوية للخلافة "**زعمت أن كُتّاب القضية**[6] **في الحكمين يثبت للخوارج**[7] **حجتهم وأن لفظه يمتنع فيه التوجيه والتورية**"[8] وحجة الخوارج أن لا حكم إلا لله[9] والتي من أجلها فارقوا علي واعتزلوه[10]، فقصد الجاحظ التعريض بالأمويين في مسألة رفع

---

١ - قام المأمون في سنة ٢٠١هـ / ٨١٦م عندما كان في خراسان بتعيين علي بن موسى الرضا ولي عهده، فلم علم أهل بغداد بذلك، قاموا بعزله وتنصيب إبراهيم المهدي خليفة. مما اضطر المأمون إلى التوجه إلى بغداد، والتخلي عن لبس الخضرة والعودة إلى السواد. ابن خياط، تاريخ، ص٤٧١. اليعقوبي، تاريخ، ص ٢٩٣-٢٩٦. ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ٤، ص ١٣٤-١٤١. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١٠، ص٩٤، ص١٠٧.

٢ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٣، ص ٢١١. جـ ٣، ص ١٨٤. جـ ٤، ص ٧.

٣ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص٣٩١ . الدروبي، آثار الجاحظ، ص ٨٢. الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٤ - الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٥، ص ١٧٧، ص١٧٨!. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص٣٩١ . هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧ الزويري، الإمامة، ص ٨، ص ٣٨ .

٥ - الدروبي آثار الجاحظ، ص ٨٢. الزويري، الإمامة، ص ٣٨.

٦- كتاب القضية هو نص الاتفاق على التحكيم بين علي ومعاوية. عالج الجاحظ النص وحلله فوجده مزورا لفظا ومعنى أو شكلا ومضمونا. انظر: الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٣٩

٧- لفظ الخوارج أطلق على من خرج عن علي بن أبي طالب وصحبه؛ لأنه قبل بالتحكيم ، وكان شعارهم: "لا حكم إلا لله"، ويسمون أيضًا بالحرورية نسبة إلى قرية في الكوفة تسمى "حروراء" خرجوا إليها، وقد حاربهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في الوقعة الشهيرة بوقعة "النهروان" وهزمهم، وقتل منهم كثيرًا،، حتى دبروا له مكيدة قتله على يد عبد الرحمن بن ملجم. وقد حارب الخوارج الدولة الأموية في حروب متواصلة؛ بحجة أنها مغتصبة الخلافة بزعمهم، ولكنها استطاعت أن تنهك قواهم، غير أنها لم تستطع استئصالهم. ابن العربي، محمد بن علي(٥٤٣هـ / ١١٤٨م). العواصم من القواصم، تحقيق عمر طالبي، ط ١، دار الثقافة، الدوحة: ١٩٩٢م، ص ١٧١ (سيشار إليه فيما بعد: ابن العربي، العواصم). ابن الطقطقي، الفخري، ص٩٩.

٨- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧١

٩ - عندما وقع التحكيم ورجع علي من صفين رجعوا مباينين له فلما انتهوا إلى النهر أقاموا به فدخل الكوفة ونزلوا بحروراء فبعث إليهم عبدالله بن عباس فرجع ولم يصنع شيئا فخرج إليهم علي فكلمهم حتى وقع الرضا بينه وبينهم فدخلوا الكوفة فأتاه رجل فقال إن الناس قد تحدثوا عنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس في صلاة الظهر فذكر أمرهم فعابه فوثبوا من نواحي المسجد يقولون لا حكم إلا لله. الطبري، تاريخ الطبري، جـ٣، ص ١١٤.

١٠ - البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص ١٤٣.

المصاحف. أما أمر التحكيم[1] فيرى الجاحظ أنه كان صعباً وشاقاً أن يحكم بين طائفتين اقتتلا هذا القتال الشديد فترة كبيرة، ووافق علي على التحكيم بعد أن رأى إصرار العوام في هذه القضية[2]. والتقى أبو موسى الأشعري[3]، وعمرو بن العاص وبدءا يفكران في كيفية إيجاد حلٍ لهذه المعضلة التي ألمت بالمسلمين، فاتفقا ابتداءً على كتابة كتابٍ مبدئي يضعا فيه أسس التحكيم[4].

يُفند الجاحظ ما جاء في كتاب التحكيم بقوله: " **وأنا أقول- حفظك الله- أن كتاب القضية كتاب مدخول**[5] "[6] فرمى الجاحظ هذه التهمة على الكتاب حتى ينفي صحة الكتاب، ويعلل سبب الشك فيه " **فإن كان كتاب القضية إنما دعا الحكمين إلى هذا الجنس من النظر، فليس لمعاوية فيه درك، ولا متعلق ولا طمع، وإن كان على غير هذا الوجه فخبرني ما هو وما شكله وأي صورة هو**"[7]. فالرواية كما يقول الجاحظ تخلو من الفصاحة ويشيع فيها اللحن مما يدل على أنها من كلام المولدين، والشهود كذلك مشكوك في نسبهم وفي أسمائهم. ثم أن رواية الجاحظ تنفي كون معاوية كان طامعا في الخلافة وقد خرج من الشام إلى صفين لقتال علي، مما يدل على ضعف الرواية[8].

ويرى الجاحظ أن الدهاء الذي كان عليه معاوية ما كان ليخفى على علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) المعروف بفطنته، لكن تبرير ما حدث يكمن في "**إن الرجل الذي يحارب ولا يستعمل إلا ما يحل له أقل مذاهب في وجوه الحيل والتدبير من الرجل الذي يستعمل ما يحل وما لا يحل**"[9].

---

١ - بعد التحكيم تباغض القوم جميعا وأقبلوا يتبرأ الأخ من أخيه، والابن من أبيه، وأمر علي بالرحيل، لعلمه باختلاف الكلمة، وتفاوت الرأي، وعدم النظام لأمورهم، وما لحقه من الخلاف منهم، وكثر التحكيم في جيش أهل العراق، ولحق معاوية بدمشق من أرض الشام، وفرق عساكره فلحق كل جند منهم ببلده. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٣٣٢.

٢ - قيل لعلي: إن الأشتر لم يرض بالصحيفة، ولم ير إلا قتال القوم. فقال: ولا أنا والله رضيت ولكن لن يصلح الرجوع بعد الكتاب. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٣٣٦.

٣ - قال أبو موسى الأشعري إن الفتن لم تزل في بني إسرائيل حتى بعثوا الحكمين يحكمان بحكم لا يرضى به من اتبعهما وإن هذه الأمة لا تزال بها الفتن ترفعها وتخفضها حتى يبعثوا حكمين يحكمان بما لا يرضى به من اتبعهما، فقال له سويد بن غفلة: إياك - إن أدركت ذلك الزمان أن تكون أحد الحكمين، قال: أنا؟ قال: نعم أنت، قال: فكان يخلع قميصه ويقول: لا جعل الله لي إذا في السماء مصعدا، ولا في الأرض مقعدا، فلقيه سويد بن غفلة بعد ذلك فقال: يا أبا موسى، أتذكر مقالتك؟ قال: سل ربك العافية. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص٣٣٠.

٤ - العسكري، الأوائل، ص١١٤. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٢، ص٢٦٣. جـ ٦، ص ٢٤١.

٥ - ما داخل الإنسان من فساد في عقل أو جسم. لسان العرب، جـ ١١، ص ٢٤١.

٦- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٢

٧- المصدر نفسه، ص ٣٧٤

٨ - رسالة الحكمين، ص ٣٧٢ . انظر: الجاحظ، مقدمة الرسائل السياسية، ص ٢٩.

٩- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٦.

فصور معاوية بصورة المراوغ والمخادع ولم يكن بتلك الصورة هو، فلم يفهم العوام تدبير علي عندما أحكم معاوية عليه " **فلمّا أبصرت العوام- حفظك الله- بوادر معاوية في المكايد ومثابرة غوايته في الخدع وكثرة ما اتفق له وتهيأ على يده، ولم يروا مثل ذلك من عليّ، ظنّوا بقصور رأيهم وقلّة عقولهم أنّ ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان عند عليّ**"[1]. ويعلل الجاحظ بأن الكذاب ليس لكذبه غاية ولا لما يولد ويصنع نهاية والصدوق إنما يحدث عن شيء معروف ومعنى محدود[2]. فجعل معاوية على هيئة المخادع صاحب المكر وهو مما لم يعهد عنه.

إن الجاحظ الذي يعارض الأمويين في مسألة الخلافة، ويرى أنهم لا يستحقونها، لأن شروط الخلافة لا تنطبق عليهم. عرض العديد من الروايات التاريخية في مسألة وصولهم للخلافة، مؤكدا وقبل كل شيء أنه لا يريد أن يبخس بني أمية وعلى رأسهم معاوية خصاله كونه من كتاب الوحي وتولية عمر- رضي الله عنه- إياه أرباع الشام[3]، وتثبيت عثمان - رضي الله عنه - له ولاية الشام[4]، وتزكيته في حسن تدبيره الأمور من العقل والحلم والدهاء والفهم والحزم والبيان، وليؤكد ذلك أورد قدر معاوية في بني أمية " **هند بنت عتبة**[5]، **حين أتاها نعي يزيد بن أبي سفيان، فقال لها بعض المعزين: إنا لنرجو أن يكون معاوية خلف من يزيد، فقالت هند: ومثل معاوية لا يكون خلفا من أحد، فو الله إن لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمي به فيها، لخرج من أي أعراضها**

١ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٦٦. الزويري، الإمامة، ص ٧٦

٢ - الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٦. انظر: الجاحظ، مقدمة الرسائل السياسية ، ص ٣١.

٣ - هذا رد الجاحظ حول مسألة التحكيم، وفيها يشير أن عمر لم يجمع له أرباع الشامات. فقد كانت الشام مقسمة إلى أربعة أرباع، وجرت العادة منذ عهد أبي بكر الصديق أن يولى كل والي ربعاً من أرباع الشام. مثل ما قام به أبو بكر الذي ولى يزيد بن أبي سفيان ربعاً واحدا من أرباع الشام. الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٣٤. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت: ٢٨٥هـ / ٨٩٨م). الكامل في اللغة، تعليق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٨م، جـ ١، ص ٢٦ (سيشار إليه فيما بعد: المبرد، الكامل في اللغة). ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ ٦٥، ص ٢٤٩.

وقد كان الشام مقسما إلى أربعة أرباع: دمشق وحمص والأردن وفلسطين، وقد أشار الطبري إلى مروان بن الحكم الذي جعل أهل كل ربع يختارون واليهم "نهض معاوية بن يزيد بن الحصين ورؤوس أهل حمص فأمرهم أن يختاروا لولاية أجنادهم". الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٢٨٠.

٤ - البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٢٠٩.

٥ - هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف(ت: ١٤ هـ/ ٦٣٥ م) وقفت في وقعة أحد ومعها بعض النسوة، يمثلن بقتلى المسلمين، ثم كانت ممن أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دماءهم، يوم فتح مكة، وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، فجاءته مع بعض النسوة في الابطح، فأعلنت إسلامها، ورحب بها. وأخذ البيعة عليهن. انظر: اليعقوبي، تاريخ، ص ١٢٢، ١٩٤. الطبري، تاريخ، جـ ٢، ص ٥٩، ٦٤، ٧٠. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٤، ص ٤٦٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ١، ص ١٦٥.

شاء"[1]. فقد كان شأن معاوية عند بني أمية كبير قبل أن يتولى الخلافة إذ أنه أحد كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى القبائل يدعوهم فيها إلى الإسلام[2].

سار معاوية مع التيار الذي يوصله للخلافة أما مسألة نصرة معاوية لعثمان بن عفان - رضي الله عنه - فالجاحظ نفى قول معاوية الذي يزعم فيه أنه ينصر عثمان - رضي الله عنه - . واليعقوبي أكد ذلك بقوله: " **فكتب إلى معاوية يسأل تعجيل القدوم عليه، فتوجه إليه في اثني عشر ألفاً، ثم قال :كونوا بمكانكم في أوائل الشام، حتى آتي أمير المؤمنين لأعرف صحة أمره، فأتى عثمان، فسأله عن المدة، فقال :قد قدمت لأعرف رأيك وأعود إليهم فأجيئكم بهم .قال :لا والله، ولكنك أردت أن أقتل فتقول :أنا ولي الثأر[3] .ارجع، فجئني بالناس فرجع، فلم يعد إليه حتى قتل**"[4]. وإن كان اليعقوبي تفرد بهذه الرواية إلا أن ما ورد عند البلاذري يشير إلى أن معاوية وعد عثمان - رضي الله عنه - بالنصرة لكنه لم ينصره حتى قتل[5]. ونجد في الروايات نوع من التضارب بين رغبة في نصرته وأخرى أنه لم ينصره، خاصة إذا علمنا أن حصار منزل عثمان لم يتجاوز الأسبوعين، وتجهيز جيش في بلاد الشام وخروجه نحو المدينة يستغرق ما لا يقل عن الشهرين.

يرى الجاحظ أن معاوية استغل موقف سعد بن أبي وقاص[6] وعبد الله بن عمر بن الخطاب- رضي الله عنهم- الناهي عن القتال لصالحه[7]." **وأن أولى الناس بمقام الإمام من انتدب للطلب بدمه وبذل في ذلك نفسه لأخذ الحق منه لولده وولي دمه، فلما فرغ من ذلك وهمهم وثبتت عندهم أن**

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٦٨

٢- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٢١٢.

٣ - تمسك معاوية بحقة في المطالبة بدم عثمان ونشر قميصه على منبر جامع دمشق، الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ٤. العش، يوسف. الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها، ط٢، دار الفكر، دمشق: ١٩٨٥م، ص ١٠١ (سيشار إليه فيما بعد: العش، الدولة الأموية).

٤- اليعقوبي، تاريخ، ص ٢٧١.

٥ - أرسل يزيد بن معاوية إلى عبد الله بن العباس يثني عليه لعدم مبايعته ابن الزبير، فرد عليه عبد الله بن العباس برسالة طويلة ومما جاء فيها تشنيعه على والده الذي تربص به وأبطأ عنه بنصره وحبس من قبله عنه حين استصرخه واستغاث به ثم بعث الرجال إليه معذرا حين علم أنهم لا يدركونه حتى يهلك. كما وردت رواية أخرى أن محمد بن أبي بكر دخل على عثمان يعاتبه فيما نفعه معاوية بعد حصاره وبعد أن وعده معاوية بالنصرة ولم ينصره. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥، ص٣٠٦، ٥٨١، ٥٨٥.

٦ - كتب معاوية إلى سعد بن أبي وقاص: إن أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش، الذين أثبتوا حقه، واختاروه على غيره، وقد نصره طلحة والزبير، وهما شريكاك في الأمر ونظيراك في الإسلام، وخفت لذلك أم المؤمنين، ولا تكرهن ما رضوا، ولا تردن ما قبلوا! فكتب إليه سعد: أما بعد، فإن عمر لم يدخل في الشورى إلا من تحل له الخلافة، فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه، غير أن علياً قد كان فيه ما فينا، ولم يكن فينا ما فيه، وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما كان خيراً لهما، والله يغفر لأم المؤمنين. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ١٨١

٧ - في سنة ثمان وثلاثين قاتل علي أهل النهروان، وقعد عن بيعته جماعة عثمانية لم يروا إلا الخروج عن الأمر: منهم سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٣١٤.

من دان بدين سعد وذهب مذهب ابن عمر[١] ممن لا يرى قتال الفئة الباغية ويقول: كن عبد الله المقتول"[٢]. فمعاوية المطالب بدم عثمان - رضي الله عنه - هو الأحق بالخلافة حسب ما يرى الأمويين، وهذه الشرعية التي انطلق منها معاوية في تبرير موقفه من علي. كما أنه لم يخرج لقتال ولم يبدأ حرباً فهو المقدم على غيره من الناس ويعني أنه مقدم على علي في الخلافة لقعوده عن الحرب[٣]. لكن اعتراض الجاحظ عليه لاعتماده البطش والقوة في الوصول للخلافة، وأنه فرق كلمة المسلمين، بسبب الاعتراض على خلافة علي وتفريق المسلمين بعد أن أمر أصحابه برفع المصاحف مطالبا بأن يكون القرآن الكريم هو الحكم[٤].

والجاحظ لا يبدي تعجبا من موقف معاوية المطالب بدم عثمان - رضي الله عنه -[٥] فقد سبقه طلحة والزبير إلى المطالبة بدمه "**كيف تتعجب من معاوية وجنده وكيف لا يطالب معاوية عليّا بدم عثمان بأهل الشام إذ كان طلحة والزّبير يطالبان عليّا بدمه، وأصحاب طلحة والزبير يوم الجمل هم فتحوا هذا الباب لأصحاب معاوية يوم صفين**"[٦]. وقد أقحم الجاحظ طلحة والزبير في الحديث بهدف تفنيد حجة معاوية. كما يرى الجاحظ أن عليا كان حريصا على حقن دماء المسلمين، لكنه لم يستوعب موقف سعد الذي سعى لجعل الخلافة في عبدالله بن عمر بن الخطاب[٧].

---

١ - لم يرغب عبد الله بن عمر منذ وقعة الجمل الخروج مع علي، بعد أن رأى الانقسام الحاصل بين المسلمين، وأثر اعتزال الحرب فقد كان كما يصفه الدينوري رجلاً قد وقذته العبادة. كما لقي ابن الزبير وطلحة وهما خارجان إلى البصرة فرد عليهم إني امرؤ من أهل المدينة فإن يجتمعوا على النهوض أنهض وإن يجتمعوا على القعود أقعد فتركاه، مما عين اعتزاله الفتنة. انظر: التميمي، سيف بن عمر(ت:٢٠٠هـ / ٨١٥م). الفتنة ووقعة الجمل، تحقيق أحمد راتب عرموش، ط ٧، دار النفائس، بيروت: ١٩٩٣م، ص١١٨ (سيشار إليه فيما بعد: التميمي، الفتنة) .الدينوري، الأخبار الطوال، ص٢٢٦. العش، الدولة الأموية، ص ٨٦

٢- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٤٦.

٣ - عندما اجتمع الحكمان، قال عمرو بن العاص لأبي موسى ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوما، قال: أشهد، قال: ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه، فقال: بلى، فقرأ عليه الآية "ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا". الطبري، جـ ٣، ص١١١، العش، الدولة الأموية، ص ١٠٥.

٤ - اجتمع أهل العراق وأهل الشام وأتوا بكاتب، وقالوا: اكتب هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين. فقال معاوية بئس الرجل انا إن أقررت بأنه أمير المؤمنين ثم أقاتله. قال عمرو بل اكتب اسمه واسم ابيه. فقال الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين، لا تمح اسم إمرة المؤمنين، فإني اخاف ان محوتها لم ترجع إليك ابدا، ولا تجبهم إلى ذلك. فقال علي: الله اكبر، سنه بسنه، اما والله لقد جرى على يدي نظير هذا يعنى القضية يوم الحديبية، وامتناع قريش ان يكتب محمد رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للكاتب، اكتب محمد بن عبد الله. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٩٤. العش، الدولة الأموية، ص ١٠٨. الزويري، الإمامة، ص ٨.

٥ - رد معاوية على رسالة علي بكتاب خال من الكتابة، في إشارة إلى رغبة معاوية في الثأر من قتلة عثمان، وعدم إجابته مبعوث علي بن أبي طالب. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٢١٢. العش، الدولة الأموية، ص ٨٥.

٦ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٩.

٧ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٤٦- ٣٧٤. كما أشار الدينوري أن أبا موسى هو الذي كان هواه في الخلافة نحو عبد الله بن عمرو بن الخطاب، مما يعني أن هوى سعد توافق مع هوى أبي موسى في صرف

ويقول في نفس الموضع :" **مما تهيأ له من الأسباب واتفق له من العلل ما كان ظاهرا من رأي سعد وابن عمر في تحريم البسط والأمر بالكف والنهي عن حمل السلاح والإمكان من الحربة: فاجتمع له السبب الذي به يوهم موضع دم عثمان** "[1]. لما اجتمع الرأي من طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة – رضي الله عنهم أجمعين- ومن بمكة من المسلمين على السير إلى البصرة والانتصار من قتلة عثمان - رضي الله عنه - خرج الزبير وطلحة حتى لقيا ابن عمر ودعواه إلى الخروج فقال: "**إني امرؤ من أهل المدينة فإن يجتمعوا على النهوض أنهض وإن يجتمعوا على القعود اقعد فتركاه ورجعا**"[2] وهذا ما استغله معاوية في تحريض الناس على الكف عن مساعدة علي في الحرب.

حلل الجاحظ أسباب نجاح معاوية في مسعاه للوصول إلى الحكم، وفي الوقت نفسه خسران علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فحددها بطبيعة تكوين أتباع كل منهما ومناصريه. فقد استفاد معاوية من تماسك جنده وتضعضع جند علي، إذ واجه علي مأزقاً حينما حارب في معركة الجمل التي خلقت اضطرابا في عقول كبار المسلمين[3]، وكذلك في معركة صفين، إذ اشترطت عليه القبائل المحاربة أن لا تحارب إلا رجال قبيلتها الذين يكونون ضده، وهكذا فعلت بقية القبائل وذلك للعصبية القبلية؛ فهم لا يستطيعون رؤية قبيلة غريبة تفتك بإخوانهم من قبيلتهم، وهم ينادون بشعار العصبية، شعار القبيلة. أما هم فإن قاتلوا إخوانهم من قبيلتهم، فإن قتالهم هذا يختلف عن قتال الإخوة حين يقتتلون قتالًا قد يكون أشد ضراوة من قتال الغرباء، لا يلتفت فيه إلى وجود دم واحد بين المتقاتلين، وإلى أنهم من بيت أب وأم، يحتم عليهم التكتل والتعصب، إذ لا غريب هنا أمامهم في هذا القتال[4].

الخلافة عن علي وجعلها في عبد الله بن عمرو بن الخطاب. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٩٨. الزويري، الإمامة، ص٩

١- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٤٧

٢ - التميمي، الفتنة، ص٩١. ابن أعثم الكوفي، أبي محمد أحمد (ت: ٣١٤هـ / ٩٢٦م). الفتوح، تحقيق علي شيري، ط١، دار الأضواء، لبنان: ١٩٩١م، جـ ٢، ص٤٥١ (سيشار إليه فيما بعد: ابن أعثم الكوفي، الفتوح). وما يليها. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص١٣.

٣ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٥٩

٤ - سأل علي بن أبي طالب عن القبائل من أهل الشام، فعرف مواقفهم، فقال للأزد: اكفونا الأزد، وقال لخثعم: اكفونا خثعم، وأمر كل قبيلة أن تكفيه أختها من الشام، إلا أن تكون قبيلة ليس منها أحدٌ فيصرفها إلى قبيلة أخرى ليس بالعراق منهم أحد. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٦٥. النويري، نهاية الأرب في فنون العرب، جـ٥، ص ٣٥٣.

وقد علل الجاحظ تضعضع جند علي لأنهم من النزارية[١] أصحاب الأحقاد والعداوات القبلية الجاهلية **"ثم اتفق أن جنده يمانية إلا القليل، وجند علي نزارية إلا القليل"**[٢] أما الشق الآخر من أتباع علي فهم من أهل العراق **"أصحاب الخواطر والنظر والتأويل والقياس، ومع هذه الصفة يكون الاختلاف إذ كانوا عربا وأعرابا وعهدهم بالجاهلية قريب وتعظيم الرؤساء فيهم غير قديم"**[٣] وعلى عكس هؤلاء كان جند الشام **"في قلة الخواطر والتنقير وفي قلة الفطنة والتفتيش على خلاف ذلك؛ وكانوا ملوكا وأجناد ملوك أو قرابين ملوك، لا يعرفون إلا طاعة الملوك والكبراء واتباع الرؤساء"**[٤]. فغالبية جند معاوية من اليمانية الذين عاش في كنفهم منذ توليه ولاية الشام في عهد عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- [٥]، حيث يشير الجاحظ أن أهل الشام عاشوا قبل الإسلام في ظل سيادة الملك والحاكم الذي له السمع والطاعة، حيث كانوا متحضرين ألفوا الحكم وطرائق الروم[٦]. أما جند علي فعهدهم بالإسلام قريب، وطاعة الخليفة فيهم شيء حديث[٧].

أوضح الجاحظ الدور الذي لعبه عمرو بن العاص في حرب صفين من خلال تشجيع جند الشام على الصبر حيث كان المحفز البارز لهم للثبات أمام جيش علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- **" وقال عمرو بن العاص لأهل الشام يوم صفين: أقيموا صفوفكم مثل قص الشارب، وأعيروا جماجمكم[٨] ساعة من النهار، فقد بلغ الحق مقطعه، وإنما هو ظالم أو مظلوم"**[٩].

١- النزارية المنحدرة على رأي النسابين من نزار بن معد. وهو والد أربعة أولاد، هم: ربيعة، ومضر، وأنمار، وإياد، وهم أجداد قبائل كثيرة في الوقت نفسه. وقد انتشرت هذه القبائل في أواسط بلاد العرب وشماليها، وقد نعتت مضر بـ "الحمراء"، فقيل: "مضر الحمراء"، ونعتت إياد بـ"الشمطاء"، و"البلقاء"، وقيل لربيعة "الفرس"، ولأنمار "الحمار". ويقال للنزاريين: "نزارية" و"بنو نزار" و"أبناء نزار". الطبري، تاريخ، جـ ٢، ص ١٩٠. السمعاني، الأنساب، جـ١، ص٣٠. السهيلي. عبد الرحمن بن عبد الله(ت: ٥٨١هـ / ١١٨٥م). روض الأنف، جـ ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٩١م، ص٨ (سيشار إليه فيما بعد: السهيلي، روض الأنف). الزبيدي، محمد مرتضى(ت: ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م). تاج العروس من جواهر القاموس، جـ ٣، دار صادر، بيروت: ٢٠١١م، ص٥٦٣ (سيشار إليه فيما بعد: الزبيدي، تاج العروس).

٢ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٤٧

٣ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٤٧

٤- المصدر نفسه، ص٣٤٧

٥ - المبرد، الكامل في اللغة، جـ ١، ص ٢٦. ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ ٦٥، ص ٢٤٩. انظر: العش، الدولة الأموية، ص ١٠١.

٦ - العش، الدولة الأموية، ص ١٠٩.

٧ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٤٧.

٨- أي جودوا ولا تبخلوا بأنفسكم عن القتل. لسان العرب، جـ ١٢، ص ١١٠

٩- هذه الخطبة صدرت أيضا من معاوية بن أبي سفيان في أهل الشام وأصلها " قام معاوية في أهل الشام خطيبا فقال أيها الناس أعيرونا جماجمكم". الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ١٩٦. انظر: ابن مزاحم، نصر بن مزاحم المنقري(ت: ٢١٢هـ / ٨٢٧ م). وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت:

إذ استفاد معاوية بن أبي سفيان من حكمة عمرو بن العاص في أن يقلب الأمر على علي[1]. أورد الجاحظ رد عبدالله بن عباس على عمرو بن العاص لتحقيق الهدف الذي يرمي إليه من عدم أحقية بني أمية بالخلافة في إشارة إلى ميوله العباسية[2]، مؤكدا على حق بني العباس بالخلافة، وهذا العامل هو السبب في إيراد الجاحظ لهذا الموقف " **يا عمرو، إنك بعت دينك من معاوية فأعطيته ما في يدك، ومنّاك ما في يد غيره، فكان الذي أخذ منك فوق الذي أعطاك، وكان الذي أخذت منه دون ما أعطيته، وكل راض بما أخذ وأعطى، فلما صارت مصر في يدك تتبعك فيها بالعزل والتنقص**"[3]. فالجاحظ كثيرا ما يورد موقف عبدالله بن العباس من عمرو بن العاص ومن معاوية ومن مسألة التحكيم، فهو يعلم منزلة ابن عباس في الأمة، قاصدا إرضاء السلطة العباسية وإقناع عامة الناس بسلامة موقف ابن عباس من علي، كما يهدف إلى استمالة العلويين للسلطة العباسية[4].

١٩٩٠م، ص ٢٣٧ (سيشار إليه فيما بعد: ابن مزاحم، وقعة صفين). الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص٦٨. صفوت، أحمد زكي. جمهرة خطب العرب، دار الحداثة، بيروت: ١٩٨٥م، جـ ١، ص٣٣٩ (سيشار إليه فيما بعد: صفوت، جمهرة خطب العرب).

١ - أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس بن سليم (٢١ ق هـ - ٤٤ هـ / ٦٠٢ - ٦٦٥ م) من بني الأشعر، من قحطان: صحابي، أحد الحكمين اللذين رضي بهما علي ومعاوية بعد حرب صفين. ولد في زبيد(باليمن) وقدم مكة عند ظهور الإسلام، فأسلم، وهاجر إلى أرض الحبشة. ثم استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على زبيد وعدن. وولاه عمر بن الخطاب البصرة سنة ١٧ هـ، فافتتح أصبهان والأهواز. ولما ولي عثمان أقره عليها. ثم عزله، فانتقل إلى الكوفة، فطلب أهلها من عثمان توليته عليهم، فولاه، فأقام بها إلى أن قتل عثمان، فأقره علي. ثم كانت وقعة الجمل وأرسل علي يدعو أهل الكوفة لينصروه، فأمرهم أبو موسى بالقعود في الفتنة، فعزله علي، فأقام إلى أن كان التحكيم وخدعه عمرو بن العاص، فارتد أبو موسى إلى الكوفة، فتوفي فيها. انظر: مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٣٦، ٢٥٥. الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٩٩-٢٠١. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٢، ص ٣٨٠ وما يليها. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٥، ص ٤٥٣.

٢ - قال عبد الله بن العباس لعمرو بن العاص إنه مال بك إلى معاوية الهوى وبعته دينك بالثمن اليسير...، وابتدأها معاوية بالبغي فانتهى منها إلى السرف، وليس أهل الشام فيها كأهل العراق. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٣٠٧.

٣- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٠٦

٤ - كتب معاوية إلى عبد الله بن عباس: أما بعد فإنكم معشر بني هاشم لستم إلى أحد بالمساءة أسرع منكم إلى أنصار عثمان، فإن يك ذلك لسلطان بني أمية فقد وليها بنو تيم وعدي فأظهرتم الطاعة، وقد وقع من الأمر ما ترى مما كان من وقعة البصرة، فلما قرأ ابن عباس كتابه ضحك ثم قال: حتى متى يخطب إلي معاوية عقلي وأجمجم له عما في نفسي. ثم كتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله بن عباس إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد، فقد أتاني كتابك، فأما ما ذكرت من سرعتنا إلى أنصار عثمان بسلطان بني أمية فقد أدركت حاجتك بعثمان، لقد استنصرك فلم تنصره حتى صرت إلى ما صرت إليه، وبيني وبينك في ذلك ابن عمك الوليد بن عقبة وما كتب به إليك ، وأما طلحة والزبير فإنهما طلبا الملك ونكثا البيعة، فقاتلناهما على النكث، وقاتلناك على البغي" البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ١٠٥-١٠٦.

كما يشير الجاحظ إلى حادثة رفع المصاحف[1] ويعدها خدعة ومكيدة أدت إلى تقسيم جيش علي " **فانظر بعد ذلك هل بقي له إلا رفع المصاحف وهي من خدعه، ثم انظر هل خدع بها إلا من عصى عليا ومال عن رأيه وخالف إذنه. فإن زعمت أنه نال ما أراد من الاختلاف فقد صدقت، وليس في هذا اختلفنا ولا عن غرارة أصحاب علي وعجلتهم وتسرعهم وتنازعهم دفعنا**"[2]. ويهدف الجاحظ من ذلك إلى إيضاح أن معاوية لم يلتزم بالكتاب والسنة، وإنما خدعه ليستولي على الخلافة[3] وهذا مما لم يعهد عن معاوية الذي كان كاتبا للنبي صلى الله عليه وسلم.

ويؤيد الطبري ما ذكره الجاحظ من انطلاء حيلة معاوية على الناس[4]. لكن علي فهمها، وإنما قبل بالتحكيم تلافيا للشقاق أن يدب في صفوف عسكره بسبب رفع المصاحف[5]. وقد حاول علي أن يظهر غدر معاوية "**ويحكم إنها خدعة ومكيدة، وإنها بعد دليل على الفشل وعلى انقطاع القوة؛ فانتهزوا هذه الفرصة فقد دلكم بها على موضع العورة، وليس بينكم وبين الظفر إلا صبر ساعة**"[6]. ومن جهة أخرى يؤكد الجاحظ أن عليا أشد الناس قلبا وأكثرهم للأقران قتلا "**إن ادّعيتم الجبن على أشد الناس قلبا وأشرا وأكثرهم للأقران قتلا وأيمنهم نقيبة وأشدّهم بصيرة**"[7] ولأنه كان يدرك خدعة معاوية وعمرو وقد حذر اتباعه في خطبه منها ودعاهم إلى مواصلة القتال[8].

يحلل الجاحظ موقف أبي موسى الأشعري، ويشير أنه حاول صرف الخلافة إلى عبدالله بن عمر لعلاقة الود التي كان يحفظها لوالده "**قد عرفنا حال أبي موسى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبي بكر ومنزله من عمر بن الخطاب ومكانة من عثمان بن عفان في كثرة فتوحه وصحة**

---

١ - قال معاوية مخاطبا عمرو بن العاص: هلم مخبأك فقد هلكنا، وتذكر ولاية مصر، فقال عمرو: أيها الناس، من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه، فكثر في الجيش رفع المصاحف، ورفع في عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٣٣٠.

٢- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٦٦

٣ - الزويري، الإمامة، ص ٧٥.

٤- قال علي بن أبي طالب: إن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم إنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهنا ومكيدة. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١٠١. ابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص٥٤

٥ - مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٤٠ -٤١.

٦- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٥١

٧ - المصدر نفسه، ص٣٦٠

٨ - عندما رفع أهل الشام المصاحف قال علي لأصحابه: هذه مكيدة ووهن، وأنهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف لم يأتوني، ثم سألوني التحكيم، أفعلمتم أنه كان منكم أحد أكره لذلك منّي؟ قالوا : نعم، قال: فهل علمتم أنكم استكرهتموني على ذلك حتى أجبتكم إليه، فاشترطت أنّ حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله ، فمتى خالفاه فأنا وأنتم من ذلك براء، وأنتم تعلمون أنّ حكم الله لا يعدوني، قالوا: اللّهمّ نعم. مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٤٠.

تدبيره"[1]. إن أبا موسى وعمرًا اتفقا على أن يعهدا بأمر الخلافة إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان الصحابة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ. مع العلم أن عبد الله بن عمر ما كان ليرضى بنكث البيعة، وهذا ما أكده الجاحظ "**وإياه عنى ابن عمر حين قيل له: هلا بايعت أخاك ابن الزبير؟ فقال: إن أخي وضع يده في عقبة ودعا إلى البيعة. إني لا أنزع يدي من جماعة وأضعها في فرقة**"[2]

فكان عبد الله بن عمر لا يرى طلبها ولا الدفع عنها إلا بتركها والاعتزال عن أمرها[3]. وعلى الرغم أن علياً لم يقبل أبا موسى الأشعري حَكَما من طرفه[4] إلا أن إصرار الناس عليه لم يجعل له مفراً من القبول[5] " **كان ما امتحن به علي واشتدت البلوى على أصحابه فيه وعلى أصحاب النبي وعلى من معه من أجناده ومن خاصة أهله، أن صار الحكم الموازي لعمرو بن العاص أبا موسى الأشعري، فكان من خدعه له ومن غدر عمرو به ما قد علمتم** "[6]. ورواية الجاحظ التي يشير فيها أن أبا موسى خدع علي لم توجد في مصادر التاريخ الأخرى، بل جاء بها الجاحظ باستنتاج عقلي لا يمس لمجريات الأحداث بصله.

ومن جانب أخر أشارت رواية الجاحظ أن عمرو بن العاص خدع أبا موسى الأشعري بعد أن اتفقا على خلع علي ومعاوية، وقدمه في الكلام حتى يخدعه[7]، فكان كلام أبي موسى الأشعري "**نخلع علياً ومعاوية ويولي الناس أمرهم من أحبوا، وإني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا**

١- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٥١. الزويري، الإمامة، ص ٧٧

٢- الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ١٥٩

٣ - قال عمرو بن العاص مخاطبا أبا موسى الأشعري: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لرجل له ضرس يأكل به ويطعم. فرد عليه: ويحك إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد أن تقارعت بالسيوف وتناكزت بالرماح فلا تردنهم إلى مثل ذلك. فكانت هذه المقدمات التي خدع بها عمرو بن العاص أبا موسى. الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٤٦. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٣٥٠.

٤ - لأن أبا موسى لم يقبل بخلافة علي إلا بعد التردد، كما أنه لم ينظم إليه في القتال بل تنحى جانباً، ومما قاله علي في ذلك: فإنه ليس لي بثقة قد فارقني وخذل الناس عني ثم هرب مني حتى آمنته بعد أشهر. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص١٠٢. العش، الدولة الأموية، ص ١٠٩.

٥- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١٠٣. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٧٥. العش، الدولة الأموية، ص ١٠٩.

٦- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٥١

٧ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص٣٣٢.

أمركم وولوا عليكم من رأيتموه أهلاً. ثم تنحى "[1]. فخلع أبو موسى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقام عمرو بن العاص وثبت معاوية في الخلافة[2]

والطبري يرى من خلال الحوار الذي دار بين أبي موسى الأشعري وعبدالله بن عباس أن مكيدة تعرض لها أبو موسى الأشعري من قبل عمرو بن العاص " **قال ابن عباس قبح الله رأي أبي موسى حذرته وأمرته بالرأي فما عقل فكان أبو موسى يقول حذرني ابن عباس غدرة الفاسق ولكني اطمأننت إليه وظننت أنه لن يؤثر شيئا على نصيحة الأمة** "[3]. إذ خدع أبو موسى من قبل عمرو بن العاص على الرغم من تحذير ابن عباس، فدب الخلاف بين المسلمين من جديد[4]. ومن جهة أخرى يشير الجاحظ إلى دور شيعة علي في ما حدث من اضطراب في صفوف جيش علي بعد أن خذله أصحابه في مرحلة حرجة[5].

ومن مجمل ما سبق لاحظنا التحليل الذي قام به الجاحظ في إثبات قيام معاوية وعمرو بن العاص بخداع علي بن أبي طالب – رضي الله عنه - . وفي معرض حديثه عن خلافة معاوية يؤكد أن الشورى هي السبيل لاختيار الإمام[6]، وهي السيرة التي سار عليها الخليفة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - قبل وفاته " **فهل خالف ذلك الرأي من عمر أحد؟ ولقد اتفقوا عليه بعد موته كما اتفقوا عليه قبل موته؛ ولقد خالف بعضهم أبا بكر في استخلاف عمر وما خالف أحد عمر في وضع الأمر في الستة، ولم يقل أحد من الستة: فينا واحد لم يكن ينبغي أن يكون معنا، أو في الناس واحد كان ينبغي أن يكون معنا** "[7]. كما يرفض أن يكون للعامة دور لأنها لا تعي شروط وواجبات وأهمية

١- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١١٣. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٨٠.

٢ - أخذ عمرو بن العاص يقدم أبا موسى في الصلاة والكلام ويعظمه ويوقره بقوله: أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلي ولك سنك وفضلك فإذا تكلم أبو موسى تكلم عمرو بعده حتى عوده ذلك. وقال أبو موسى لعمرو: ما رأيك؟ قال رأيي أن نخلع هذان الرجلان ونجعل الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم وينقطع الحرب. قال أبو موسى: نعم ما رأيت. قال عمرو: فتقدم. فقال أبو موسى: لم نر شيئا أصلح من خلع هذين الرجلين ثم تستقبل الأمة أمورها، إني قد خلعت عليا ومعاوية. وأقبل عمرو فقال: إن هذا قد قال: ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلعه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص٣٥٠. العسكري، الأوائل، ص ١١٤.

٣- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١١٣. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٨٠.

٤- لما قدّم عمرو بن العاص أبا موسى إلى المنبر رآه عبد الله بن عباس فقال له :قدمه قبلك .فقال :لا، قد اتفقنا على أمر، فصعد المنبر، فخلع علياً، ثم صعد عمرو بن العاص فقال :قد ثبت معاوية كما ثبت خاتمي هذا في يدي . اليعقوبي، تاريخ، ص ٢٨٠.

٥ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٧- ٣٧٨. الزويري، الإمامة، ص ٩

٦ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٨٧. الزويري، الإمامة، ص٥٦

٧- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٩٠

الإمامة، كما أن العامة نفسها مالت إلى معاوية بسبب استنكارها مقتل عثمان - رضي الله عنه- ، فهي لا تعي ولا تدرك مجريات الأمور[1].

يشير الجاحظ إلى الفِرق التي أيدت معاوية وتثبت حقه في الخلافة[2] وهي: السفيانية نسبة إلى أبي سفيان والد معاوية **"وكان مما احتجوا به في استحقاق اسم الخلافة واستيجاب الإمامة أنه قال: هذا موضع وضعني به عمر بن الخطاب، ولم يعزلني مذ ولاني وقد كان لا يكاد يدع أميرا إلا استبدل به وإلا غضب عليه لبعض ما يكون منه"**[3] لقد ذهبوا إلى أن الخلافة شورى كما ارتأى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - عندما اختار ستة رجال وأمرهم باختيار الخليفة بعده منهم، ولم يبق منهم سوى أربعة وكلهم لا يصلحون للخلافة. والسفيانية تنكر أن يكون معاوية قاسطا أو جائرا، ولو كان كذلك لما أطاعه الناس وحاربوا معه وضحوا بنفوسهم وأموالهم من أجله[4]. والجاحظ يعترف بأن حجج السفيانية ألقاها إليه ابن حسان[5] مفسرة مستوفاة لكي لا يعتب عليه أحد **"قد كتبت إليك، يا ابن حسان[6]، ورسمت لك ما ألقيت إلي من جمل دعواهم مفسرا ومن حججهم مبينا"**[7]. أي أن هذه الحِجج لم تكن سوى مناقشات كلامية جدلية[8].

كذلك جماعة عرفت بالمروانية نسبة إلى مروان بن الحكم المؤسس الثاني للخلافة الأموية[9] **"وزعمت أنك سمعت رجالا من السفيانية ممن يرى رأي المروانية.... ذكروا حججا في تثبيت الخلافة لمعاوية وأن نسبه إليها أقرب من نسب الزبير وطلحة"**[10].

---

١ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٧٨. الزويري، الإمامة، المقدمة ص (جـ).

٢ - EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JÄHIZ ,p٢١٠

٣- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٨٥

٤ - الجاحظ، هامش رسالة الحكمين، ص ٤٠٤

٥- ابن بحدل حسان بن مالك بن بحدل بن أنيف(ت: ٦٥ هـ / ٦٨٥ م) أمير بادية الشام. كان من القادة في جيش معاوية يوم صفين. ثم آزر مروان في حربه مع الضحاك بن قيس. وهزم الزبيرية وقتل الضحاك بن قيس الفهري في يوم مرج راهط وكانت ابنته ميسون بنت حسان أم يزيد بن معاوية. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص٣٧٩-٣٨٢. الحموي، معجم البلدان، جـ ١، ص١٤٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٣، ص ٥٣٧.

٦- يشير الجاحظ إلى ابن حسان ولا يورد تفصيل عنه لكن يبدو من خلال سياق الكلام أنه يميل إلى العثمانية ويكره الشيعة ومن المحتمل أن يكون عبدالرحمن ابن حسان بن ثابت الانصاري المدني حدث عن أبويه، وزيد بن ثابت. ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وعاش نيفا وتسعين سنة. وتوفي سنة أربع ومئة . انظر: رسالة الحكمين، ص ٤٠٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٥، ص ٦٤.

٧- الجاحظ، رسالة الحكمين، ٣٩٢

٨ - الزويري، الإمامة، ص ٨٠

٩- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٣

١٠- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٨٣

ومن الجماعات التي أيدت خلافة معاوية الغيلانية[1] نسبة إلى غيلان بن مسلم الدمشقي(١٠٥هـ / ٧٢٣م)[2] " **وبعض من ينحل مذهب الغيلانية**"[3].

كذلك اليزيدية أصحاب يزيد بن أنيسة[4] "**أصحاب يزيد بن أنيسة الذي قال بتولي المحكمة الأولى قبل الأزارقة** "[5]، **فهؤلاء كلهم يحتجون بأحقية معاوية ويؤيدون خلافته**[6].

مما سبق يُلاحظ أن الجاحظ تناول وصول بني أمية للسلطة منذ موقعة صفين إذ يعتبرها المنطلق التي مكنت الأمويين من الوصول للسلطة، كذلك أشار الجاحظ من خلال الأحداث التي ساقها بأن وصول معاوية إلى الحكم كان بقوة السيف والحيلة والغدر وليس باختيار المسلمين. ففي حديثه عن معاوية يشير أنه برأي اتباعه أولى بالخلافة من بقية الشورى لأنه أبرأهم ساحة من العيوب التي رموا بها ولأنه أولى من انتدب لحسم الخلاف وتسلم مقاليد الملك وتفريج الكرب عن الناس، ولأن عمر -رضي الله عنه- ولاه وعثمان -رضي الله عنه- زكاه، ولأنه أولى الناس بالمطالبة بدم عثمان - رضي الله عنه -[7].

ويتضح أن موقف الجاحظ من بني أمية ووصولهم للسلطة يعكس رأي المعتزلة، الذي هو أحد كبار مفكريها "**ولم انصب نفسي- حفظك الله- لاحتجاج له إلّا بما يلزمني من الاحتجاج من لا يرى إكفاره من السلف، وإيّاهم أردت وعنهم دافعت؛ وعلى أنّي على كلّ حال أكره الزيادة والنقصان، والعدل أولى بنا وهو مذهب إخواننا ومشايخنا وسلفنا من المعتزلة في فرق ما بين الإكفار والتفسيق، وفي فرق ما بين التفسيق والتأثيم، ولسنا ممّن يميل في شقّ عن شقّ ويتعصّب لبعض على بعض ومن يبخس حقّ الدون**"[8]. فكانت معالجته لوصول بني أمية للخلافة تتماشى وموقف السلطة العباسية الداعي إلى الرضى

---

١ - ترى الغيلانية في الامامة إنها تصلح في غير قريش، وكل من كان قائما بالكتاب والسنة فهو مستحق لها، ولا تثبت إلا بإجماع الامة. ابن النديم، الفهرست، ص ١٤٩. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١٣٩ .

٢- ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه، كان غيلان يقول بالقدر خيره وشره من العبد، وفي الإمامة إنها تصلح في غير قريش، وكل من كان قائما بالكتاب والسنة فهو مستحق لها، ولا تثبت إلا بإجماع الامة. وله رسائل في نحو ألفي ورقة.، ابن النديم، الفهرست، ص١٤٩. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١٤٣.

٣- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٨٣

٤ - إمام اليزيدية، الذي تولى المحكمة الأولى وتبرأ مما بعدها. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص١٣٦.

٥- الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١٣٦.

٦- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٨٣

٧ - مقدمة تحقيق رسالة الحكمين، ص ٣٢.

٨ - المصدر نفسه، ص ٣٦٩.

من العلويين والتقرب إليهم، بعد أن أعلن المأمون البراءة من معاوية والترضي على علي بن أبي طالب - رضي الله عنه-[1].

ثانياً: التوريث الأسري (التسلسل التاريخي للدولة الأموية (٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠م)

تناول الجاحظ موضوع توريث الخلافة والمبايعة لولي العهد في الدولة الأموية من باب التنقيص عليهم وعرض سوء اختيار ولي العهد، فالروايات التي احتوت عليها مصنفات الجاحظ يمكن الخروج منها باستدلالات حول رأيه في قضية التوريث عند بني أمية، والجدير بالذكر أن الجاحظ تواجهه إشكالية في تناوله لموضوع ولاية العهد(التوريث)، لأنها قضية مهمة وشائكة للسلطة العباسية، خاصة بعد الآراء التي بدأت تظهر والتي تنادي أن العباسيين مغتصبون للخلافة كما هو حال بني أمية، وأن الخلافة من حق العلويين لكن العباسيين حولوها لهم، مستغلين الدعاية التي بثوها بين الناس لتحقيق مأربهم[2].

ظهر نظام التوريث في العصر الأموي. وأول من اتبعه معاوية بن أبي سفيان مقلدا بذلك النظم الفارسية والبيزنطية. فقام معاوية قبل وفاته بأخذ البيعة لابنه يزيد[3] سنة ٥٦هـ / ٦٧٦م **"لما مات زياد دعا معاوية بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد إن حدث به حدث الموت فيزيد ولي عهده فاستوثق له الناس على البيعة ليزيد "**[4] .

---

١ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١ . الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٢ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٣، ص ١٤٨. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص٣٩١ . الدروبي آثار الجاحظ، ص ٨٢. الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٣- يرى ابن خلدون أن هدف معاوية في مبايعة ابنه يزيد هو مصلحة الأمة، كذلك اتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية، إذ أن بني أمية يومئذ، لا يرضون سواهم أن يتولى الخلافة. كما شعر معاوية أن التنافس على الحكم قد فرق كلمة المسلمين فعهد بالخلافة إلى ابنه يزيد وقد استعمل في مبايعته اساليب الترغيب والترهيب وكل ما أوتي من حنكة سياسية، وبذلك قضى معاوية على نظام الشورى الذي كان زمن الخلفاء الراشدين. ابن خلدون، المقدمة، ص١٠٩.

٤- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٢٤٨

تشير الروايات أن معاوية لم يكن صاحب فكرة التوريث[1]، بل إن بعض المقربين منه أمثال المغيرة بن شعبة الثقفي أشار عليه بتولية يزيد من بعده، ولم ينفذ معاوية هذه المشورة إلا عام ٥٦هـ / ٦٧٦م[2]. وإن كان معاوية استهوته مسألة توريث الخلافة لابنه يزيد[3].

وقد أوضح الجاحظ حجة معاوية من بيعته ليزيد والتي تتمثل في مصلحة المسلمين **"فلا ضلّلته لأنه بايع ابنه، وما باس بيعة الابن إذا كان لذلك مستحقًا "**[4]، يتضح من رواية الجاحظ نوع من التقريع بالأمويين الذي يؤيدون بيعة يزيد على ما به من العيوب والمساوئ، وهو ما أشار له فوزي بقوله **"برر معاوية بن أبي سفيان قرار البيعة لابنه يزيد، وتوريث الخلافة له بتحاشي الفتنة واختلاف الأمة"**[5]. وبذلك تحولت الخلافة لتصبح ملكاً عضودا[6] **"والعام الذي تخلت فيه الإمامة ملكا كسرويا، والخلافة غصبا وقيصريا، ولم يعد ذلك أجمع الضلال والفسق"**[7].

قام معاوية بأخذ البيعة ليزيد، فبدأ بالمدينة لما تمثله من ثقل ديني إذ بها قبر النبي صلى الله عليه وسلم والتي هاجر إليها بعد إخراجه من مكة فصارت مكرمة عند المسلمين، كما أن بها الصحابة والتابعين[8]، فكان معاوية على دراية بموقف الناس تجاه البيعة لابنه، فأراد بذلك أن يضمن انتقالها إليه من بعده **"وقام الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، خطيبا بالمدينة، وكان واليها، ينعي**

---

١ - استشار معاوية زياد بن أبيه في تولية يزيد العهد حتى يوهم الناس أنه سار على مبدأ الشورى، فأشار عليه بالتوريث ثم وافق بعد أن استشار سادات القبائل في الكوفة والبصرة الذي كان والياً عليهما من عام ٥٠هـ / ٦٧٣م. لقد جعل معاوية الخلافة وراثية حين استخلف ابنه، وهذا خلاف ما قام به علي بن أبي طالب عندما سُئل عن الحسن وبيعته أجاب لا آمركم ولا أنهاكم وأنتم بأموركم أبصر.

انظر: ابن خياط، تاريخ، ص١٢٨. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١٥٧. المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص٤٢٥. ابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص٣٩١. العش، الدولة الأموية، ص ١٢٠. فوزي، فاروق عمر. الخلافة الأموية، ط ١، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان: ٢٠٠٥م، ص٧٨ (سيشار إليه فيما بعد: فوزي، الخلافة الأموية). السيد، محمود. تاريخ الدولة الأموية، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة: ٢٠٠٢م، ص ٣٧ (سيشار إليه فيما بعد: السيد، تاريخ الدولة الأموية).

٢- منسوب لابن قتيبة، عبدالله بن مسلم(ت: ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م). الإمامة والسياسة، ط ٣، دار الكتب العلمية، بيروت: ٢٠٠٩م، جـ ٣، ص١٣٤ (سيشار إليه فيما بعد: منسوب لابن قتيبة، الإمامة والسياسية). الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص٢٤٧. ابن الأثير، الكامل، جـ ٣، ص ٥٠١. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٠١.

٣- الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ٢٤٧-٢٤٨. باحشوان، خلود. نظام ولاية العهد في الدولة الأموية (٤١ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م)، تقديم فاروق عمر فوزي، ط ١، دار مجدلاوي، الأردن: ٢٠١٣م، ص ٣٤ (سيشار إليه فيما بعد: باحشوان، نظام ولاية العهد).

٤- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٠

٥- فوزي، فاروق عمر. تاريخ الدولة الأموية (دراسة حولية حسب عهود الخلفاء ٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠م)، دار مجدلاوي، الأردن: ٢٠١٣م، ص ٣٩ (سيشار إليه فيما بعد: فوزي، تاريخ الدولة الأموية).

٦ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ ١، ص ٢٤٤

٧ - الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٣.

٨ - وردت العديد من الأحاديث الصحيحة في فضل المدينة. انظر: مقدمة ابن خلدون، ص ٢٠٠.

معاوية ويدعو إلى بيعة يزيد، فلما رأى روح بن زنباع[1] إبطاءهم قال: أيها الناس، إنا لا ندعوكم إلى لخم وجذام وكلب، ولكنا ندعوكم إلى قريش ومن جعل الله له هذا الأمر واختصه به، وهو يزيد بن معاوية، ونحن أبناء الطعن والطاعون، وفضالات الموت، وعندنا إن أجبتم وأطعتم من المعونة والعائدة ما شئتم فبايع الناس"[2] فكان الهدف من البيعة ضمان انتقال الخلافة بعد معاوية لابنه يزيد، وكذلك أخذ العهود والمواثيق بعدم النكث فيها بعد توكيد الأيمان. وأيا كانت بيعة المسلمين بالرضى أو بالجبر فإنها تأخذ عليهم وتكون حجة عليهم بعد ذلك[3].

يعترض الجاحظ على مسألة توريث العهد خاصة إذا كان ولي العهد لا يستحق الخلافة مثل يزيد، لكنه لا يعارض المبدأ نظراً لقيام بني العباس بتولية العهد[4]، ففي هذا الجانب يرد على السفيانية التي لا تحكم على معاوية بالضلال بسبب مبايعته ابنه يزيد بولاية العهد **"ولكني عتبت عليك في قولك: وضللته أيضا لبيعته لابنه، فإن قلت: وضللته أيضا بالمبايعة ليزيد لأنه كان صاحب كذا وكذا ويقول كذا، لكان صوابا ولكان قولا عدلا ولكان مصفى مهذبا، وأجود العبارات ما كانت الدلالة فيها غير مستنكرة ويكون اللفظ للمعنى طبقا فاضلا ولا ناقصا، وأما أن تقول كلمة مرسلة الوجوه مطلقة ضللته لأنه بايع ابنه، وما باس بيعة الابن إذا كان لذلك مستحقا؟ ما الابن إلا كالأخ وما الأخ إلا كابن العم؛ وما علمك؟ لعل عليا قد بايع الحسن ولعل الحسن قد بايع الحسين؟ "**[5].

كما يعترض الجاحظ على بيعة الناس ليزيد بالخلافة، فإن الأعمال التي قام بها معاوية وما قام به يزيد تجعل شروط الإمامة بعيدة عنه:" **وليس قتل حُجْر بن عدي**[6]**، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر**[7]**، وبيعته يزيد الخليع ..... من جنْس جحْد الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة،**

---

١ - روح بن زنباع بن روح بن سلامة، روى عن أبيه وعن آخرين. وكان مع مروان في مرج راهط. كما ساهم في تقديم الحجاج عند عبد الملك بن مروان. توفي سنة أربع وثمانين. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص٣٠-٣١. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٤، ص٢٥١. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٤، ص ٩٠.

٢- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٣٠٩

٣ - ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١٥- ١١٧

٤ - انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٢٧٦. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٤٩١. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٨، ص ٢٢٩. الزويري، الإمامة، ص ٨١

٥- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٧٠

٦- حجر بن عدي بن معاوية الكندي، المعروف بحجر الخير، عندما تولى المغيرة بن شعبة ولاية الكوفة أعرض عن قتل حجر على الرغم من معارضته لعن علي على المنابر، وعندما تولى الكوفة زياد بن أبيه جمع حجر وأصحابه وأرسلهم إلى معاوية الذي أمر بقتلهم قبل أن يصلوا دمشق. أحدثت جريمة قتل حجر وأصحابه ضجة واستنكاراً في العالم الإسلامي، وممن استنكر ذلك الحسين بن علي. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٣. المسعودي، مروج الذهب، جـ ٣، ص ١٨٨.

٧ - تولى عمرو بن العاص مصر عشر سنين، منها لعمر بن الخطاب أربع سنين، ولعثمان بن عفان أربع سنين إلا شهرين، ولمعاوية سنتين وثلاثة أشهر، وتوفي وله ثمان وتسعون سنة . اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص١٩٧.

والسنن المنصوبة"[1] لكنه في المقابل لا يذكر حسنات معاوية وجهوده في خدمة الإسلام، ويرى أن يزيداً لا يستحق الخلافة، فقد أطلق عليه يزيد الخليع، لما كان يأتيه من أفعال، فكيف لمثله أن يكون خليفة[2].

أورد الجاحظ رواية تصف الطريقة التي تمت بها مبايعة يزيد، إذ يشير أن معاوية أجبر الناس على مبايعة ابنه يزيد بقوة السيف " **ولما اجتمع الناس، وقامت الخطباء لبيعة يزيد، وأظهر قوم الكراهة قام رجل من عذرة يقال له يزيد بن المقنع[3]، فاخترط من سيفه شبرا ثم قال: أمير المؤمنين هذا- وأشار بيده إلى معاوية- فإن مات فهذا- وأشار بيده إلى يزيد- فمن أبى فهذا- وأشار بيده إلى سيفه. فقال له معاوية: أنت سيد الخطباء**"[4]. وإعجاب معاوية بخطبته نابع من السياسة التي سيسير عليها معاوية في مبايعة ابنه، كما ترسم ملامح الطريق التي سيتبعها يزيد بعد ذلك في مواجهة معارضي خلافته.

أشار الجاحظ أن معاوية عمل قبل وفاته على تهيئة الظروف لابنه يزيد، مقرباً من يظن في نفسه العداوة لابنه يزيد، حيث قام معاوية بخطب ود عبد الله بن الزبير ليجس ما في نفسه قبل وفاته " **ذكر معاوية لابن الزبير بيعة يزيد، فقال ابن الزبير: إني أناديك ولا أناجيك، إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تقدم، وتفكر قبل أن تندم، فإن النظر قبل التقدم، والتفكر قبل التندم. فضحك معاوية ثم قال: تعلمت أبا بكر السجاعة عند الكبر، إن في دون ما سجعت به على أخيك ما يكفيك. ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير**"[5]. كان معاوية يعلم في قرارة نفسه أن عبد الله بن الزبير سيعارض بيعة يزيد وسيخرج عليه، لذا حاول استمالته إلى صفه، لكن ذلك لم يتم له.

سعى عبد الله بن الزبير في أن يثني معاوية عن أخذ البيعة لابنه يزيد، لأنه كان يعلم يقيناً أن الناس إذا بايعت يزيد بن معاوية ذهبت الخلافة عنه وأصبح أمر طلبها شاقاً، ولم يكن

قال عمرو بن العاص: أرى والله أمر هذه البلاد الكثير خراجها والكثير عددها وعدد أهلها أهمك أمرها فدعوتنا إذا لتسألنا عن رأينا في ذلك فإن كنت لذلك دعوتنا وله جمعتنا فاعزم وأقدم ونعم الرأي رأيت ففي افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك وذل أهل الخلاف عليك قال له معاوية مجيبا أهمك يا بن العاص ما أهمك وذلك لأن عمرو بن العاص كان صالح معاوية حين بايعه على قتال علي بن أبي طالب على أن له مصر. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ١٢٨.

١- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٣.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

٣- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ ٢، ص ١٤٢، القلقشندي، أحمد بن علي(ت:٨٢١هـ/١٤١٨م). صبح الأعشى في صناعة الانشا، شرح وتعليق محمد حسن شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٧م، جـ ٥، ص ٤١٩ (سيشار إليه فيما بعد: القلقشندي، صبح الأعشى).

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٤٧.

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٤٧

بمقدور ابن الزبير أن يصرح بذلك علناً أمام معاوية، بل اكتفى بالتعريض " **وقال ابن الزبير لمعاوية حين أراد أن يبايع لابنه يزيد: تقدم ابنك على من هو خير منه؟ قال: كأنك تريد نفسك؟ إن بيته بمكة فوق بيتك! قال ابن الزبير: إن الله رفع بالإسلام بيوتا، فبيتي مما رفع! قال معاوية: صدقت، وبيت حاطب بن أبي بلتعة**[1]"[2].

عندما حضرت معاوية الوفاة كان يزيد غائباً، فترك له كتاباً يؤكد فيه على وصيته له بالخلافة[3]، أوردها الجاحظ برواية الهيثم بن عدي[4] " **لما حضرت معاوية الوفاة ويزيد غائب دعا معاوية مسلم بن عقبة المري والضحاك بن قيس الفهري فقال أبلغا عني يزيد وقولا له: انظر إلى أهل الحجاز فهم أصلك وعترتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد منهم عنك فتعهده. وانظر إلى أهل العراق، فإن سألوك عزل عامل في كل يوم فاعزله عنهم، فإن عزل عامل في كل يوم أهون عليك من سل مائة ألف سيف ثم لا تدري علام أنت عليه منهم. ثم انظر إلى أهل الشام فاجعلهم الشعار**[5] **دون الدثار**[6]**..."**[7] كان يزيد يأخذ مأخذ الأحداث، فأحس معاوية بذلك، فأحب أن يعظه في رفق. ونلاحظ دهاء معاوية بن أبي سفيان في الوصية وعلمه بما ستؤول له الأمور بعد وفاته.

أخذ يزيد البيعة[8] بالقوة خاصة ممن لم يبايعه في عهد والده معاوية "**وقتل عبد الله بن زمعة بن الأسود**[9]**، ضرب عنقه مسرف بن عقبة صبرا، قال له: بايع لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية على**

١- يعرّض معاوية بحاطب الذي حالف الزبير بن العوام في المدينة لكنه أرسل كتابا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله من فتح مكة، وأعطى الكتاب لأمرائه لتوصيله إلى قريش. الطبري، تاريخ، جـ ٢، ص١٥٥

٢- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٣٠٥

٣- يورد البلاذري نص الوصية ولكنه لا يذكر فيها أن يزيد كان غائباً. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٥، ص١٠٨.

٤- أبو عبد الرحمن الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن كان راوية أخباري، نقل من كلام العرب وعلومها وأشعارها واختص بمجالسة المنصور والمهدي والهادي والرشيد وروى عنهم. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٦، ص١٠٧.

٥- الشعار: ما يلبس أسفل الثياب. لسان العرب، جـ ٤، ص٢٧٦

٦- الدثار: الثياب فوق الشعار. لسان العرب، جـ ٤، ص٢٧٦

٧- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٦٠

٨- تولى يزيد بن معاوية الخلافة بعد أن ورثها عن أبيه الذي أرسى له دعائم دولته، وضمن له ولاء قبائل الأمصار. ولم يحد عن هذه القاعدة إذ قام بأخذ البيعة لابنه معاوية الثاني الذي كان عمره آنذاك ثمانية عشر عاماً. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ٣٨٠.

٩- التبس الأمر على الجاحظ لأن عبد الله بن زمعة قتل مع الخليفة عثمان بن عفان أثناء الحصار، أما الذي قتله يزيد بن معاوية فهو ابنه يزيد عبد الله بن زمعة في موقعة الحرة. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٣، ص٢٨٨. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص.٣٥٧. ابن حزم، ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري(ت: ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م). جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة: ١٩٦٢م، جـ ١، ص ٥٣ (سيشار إليه فيما بعد: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب).

أنك عبد قن له؟ قال: بل أبايعه على أني أخوه وابن عمه. فضرب عنقه "[1] وتدل هذه الرواية على النهج الذي سار عليه يزيد في أخذ البيعة من الناس.

لم يكن معاوية الثاني (ت ٦٤هـ / ٦٨٣م) طامعاً في الخلافة بل منصرفاً عنها، إذ تنازل عن الخلافة بعد مضي شهرين[2] بسبب زهده فيها واعتلال صحته[3] "معاوية بن يزيد بن معاوية، وهو الذي قيل له في مرضه الذي مات فيه: لو أقمت للناس ولي عهد؟ قال: ومن جعل لي هذا العهد في أعناق الناس! والله لولا خوف الفتنة لما أقمت عليها طرفة عين! والله لا أذهب بمرارتها وتذهبون بحلاوتها"[4]، تعد الرواية تأكيدا على ما يشير إليه الجاحظ أن الأمويين قد استولوا على الخلافة، وإيراد الرواية بلسان معاوية بن يزيد تأكيد على أن خلافتهم كانت قسرية سارت بإجبار الناس. فوجد في اعتراف معاوية بن يزيد ما يقوى حجته في هذا الجانب[5].

ترك معاوية الثاني الأمر شورى بين المسلمين لاختيار خليفة لهم من بعده[6] " فلم تفلح أولاده وصارت الخلافة إلى مروان بن الحكم بن العاص بن أمية، فتوارثها بنو مروان حتى انقضت دولتهم بقيام بني العباس"[7].

وكان موقف معاوية الثاني مثار إعجاب الجاحظ حتى عده من النساك لزهده في الخلافة وتركه إياها عندما لم يَرَ نفسه أهلاً لحملها" ومن أكثر نساك الملوك منا؟. منا معاوية بن يزيد بن معاوية"[8]. كانت خلافة معاوية بن يزيد أربعين يوماً إلى أن مات[9]، وقيل: شهرين، وقيل

١- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٣٠

٢- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٣٦٣. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ١٢٩. خريسات، محمد عبد القادر. الدولة الأموية من النهوض إلى السقوط (٤١-١٣٢هـ)، مؤسسة حمادة، الأردن: ٢٠٠٥م، ص١٦٢.(سيشار إليه فيما بعد: خريسات، الدولة الأموية).

٣- ابن خياط، تاريخ، ص ٢٥٥. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ٣٥٦. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٦، ص ٣٢. فوزي، تاريخ الدولة الأموية، ص ٤٦.

٤- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٠

٥ - استخلف يزيد ابنه معاوية فاقر عمال أبيه ولم يول أحدا ولم يزل مريضا حتى توفي. كانت خلافته أربعين يوماً، وقيل: بل أربعة أشهر، وكان له مذهب جميل، فخطب الناس، فقال: أيها الناس فإنا بلينا بكم وبليتم بنا فما نجهل كراهتكم لنا وطعنكم علينا، ألا وإن جدي معاوية ابن أبي سفيان نازع الأمر من كان أولى به منه في القرابة برسول الله، وأحق في الإسلام، سابق المسلمين، وأباح الحرمة وحرق الكعبة، وما أنا المتقلد أموركم، فشأنكم أمركم. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٢١٠. ابن خياط، تاريخ، ص ٢٥٥. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ٣٦٤، ص ٣٧٩. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٦، ص ١٦.

٦- مجهول(منسوب لابن قتيبة)، الإمامة والسياسية، جـ ٢، ص ١٨٩.

٧- المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ٢، ص٣٧٩.

٨- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٠

٩- ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ٢٨٦

غير ذلك[1]، وكان يكنى بأبي يزيد، وكني حين ولي الخلافة بأبي ليلى، وكانت هذه الكنية للمستضعف من العرب، وفيه يقول الشاعر:

إني أرى فِتْنةً هاجتْ مَراجِلُها والملكُ بعد أبي ليْلى لمن غلبا[2]

انتقلت الخلافة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني بعد مؤتمر الجابية[3] الذي كانت فيه الأهواء مختلفة، حتى أن مروان بن الحكم الذي تولى الخلافة بعد مؤتمر الجابية كان على وشك مبايعة ابن الزبير[4]، لولا أن عدل عن موقفه بعد تدخل عبيد الله بن زياد الذي خرج من العراق بعد طرد أهلها له حيث أشار عليه أن يبايعه بالخلافة[5].

ويرى الجاحظ أن مروان بن الحكم لا يستحق الخلافة، فقد كان من ضمن عوامل الفتنة التي حدثت زمن الخليفة عثمان بن عفان[6] - رضي الله عنه - " **ثم كتب لعثمان بن عفان رضي الله عنه مروان بن الحكم، فخانه في خاتمه**[7]**، وأشعل الرعية حربا عليه في ملكه** "[1]. ما فعله مروان بن

---

١ - ابن خياط، تاريخ ، ص ٢٥٥. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٢١٠. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٣٦٤، ٣٧٩. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٦، ص ١٦.

٢- المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ١١٢.

٣- الجابية بكسر الباء قرية من أعمال دمشق ، بها تل يسمى تل الجابية. انظر: القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٦٩. . صفي الدين، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت: ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م). مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت: ١٩٩١م، جـ ١، ص ٣٠٤ (سيشار إليه فيما بعد: صفي الدين، مراصد الاطلاع).

عقد الكلبيون مؤتمرهم في الجابية وتشاوروا في أمر البيعة والخلافة، حيث رجحت كفة مروان. كانت أهم قرارات مؤتمر الجابية، عدم مبايعة ابن الزبير، واستبعاد خالد بن يزيد من الخلافة لأنه غلام والعرب لا تحب مبايعة الأطفال، ومبايعة مروان بن الحكم. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٦، ص ٢٦٣، ابن خياط، تاريخ، ص ٢٥٣. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص٣٨٠.

٤- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٣٧٨

٥- دعا عبيد الله بمولى له فقال: إن أمير المؤمنين يزيد قد هلك، فما الرأي عندك؟ فرد عليه: إن الناس إن ملكوا أنفسهم لم يولوا عليهم أحدا من ولد زياد، وإنما ملكتم الناس بمعاوية، ثم بيزيد، وقد هلكا، وإنك قد وترت الناس، ولست آمن أن يثبوا بك، والرأي لك أن تستجير هذا الحى من الأزد. عندما قدم عبيد الله بن زياد من العراق قال لمروان: أنت كبير قريش وسيدها، فقام معه بنو أمية ومواليهم، فبايعوه بالجابية. الدينوري، الأخبار الطوال. ص ٢٨٥.الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ٣٧٨. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٦، ص ٢٧. للمزيد حول الموضوع انظر: ابن خياط، تاريخ ابن خياط، ص ٢٥٩. اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص٢٩١، ص ٣٠٥. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٦، ص ٢٦٣. ابن الاثير، الكامل، جـ ٤، ص١٤٣.

٦ - سميت بالفتنة لما فتنت به الناس، ولما امتحنت به دينهم وأخلاقهم وثباتهم على المبدأ والعقيدة. العش، الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها، ص ٣٢.

٧ - أشار العديد من المؤرخين بناءً على هذه الرواية التي وردت عند الجاحظ، أن مروان هو الذي خان عثمان وكتب إلى والي مصر يأمره بقتل الوفد. ومن رواية عثمان يظهر نفيه أن يكون الخاتم خاتمه، مما يعني أن

الحكم في الإساءة إلى كبار الصحابة من نفي أبي ذر الغفاري، وضرب عمار، وضرب ابن مسعود ولسع علي بالكلام، حيث كان يتصرف بدون أمر عثمان - رضي الله عنه -. حتى خشي الناس أن باستطاعة مروان في أي وقت قتل أي صحابي متى شاء، وقد أشار بعض المؤرخين بأن مروان خان عثمان - رضي الله عنه - وأنه صاحب ذلك الكتاب المشؤوم الذي أفقد الناس الثقة بعثمان - رضي الله عنه -[٢].

كانت بيعة مروان بن الحكم في الجابية في ذي القعدة من سنة ٦٤هـ / ٦٨٣م[٣]. ويشير الجاحظ إلى سنة خلافته بعبارة مقتضبة "**مر مروان بن الحكم في العام الذي بويع** "[٤] وبتوليه الخلافة عمل على القضاء على مناوئة عبدالله بن الزبير[٥]. وفي الجانب الأخر بدأ يعد العدة لمبايعة ابنيه عبد الملك وعبد العزيز بالخلافة مستبعداً عمرو بن سعيد الأشدق وخالد بن يزيد بعد أن وعدهم في مؤتمر الجابية[٦] بالخلافة من بعده[٧] " **في هذه السنة أمر مروان بن الحكم بالبيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز**" [٨]. ويرى الجاحظ أن خالد بن يزيد زهد في الخلافة بسبب حلمه

هناك تزويراً لخاتمه، فمروان ليس بحاجة في أن يزور الخاتم. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥، ص٥٥٥. العش، الدولة الأموية، ص ٤٦.

١- الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، جـ٢، ص ٦٠٦

٢- ظل مروان عند الخليفة عثمان، فنقم الناس ذلك على عثمان، وكانوا يرون أن كثيرا مما ينسب إلى عثمان لم يأمر به، وإنما هو رأي مروان. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٦، ص ٤٨. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص٤٣٠

٣- ابن خياط، تاريخ، ص ٢٥٣. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٤٢٣. ابن الأثير، الكامل، جـ ٤، ص ١٤٣. فوزي، الجيش والسياسة، ص٦٤.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٠١

٥- ابن خياط، تاريخ، ص ٢٦٩.

٦ - عندما وصل مروان إلى الجابية، قام الضحاك بن قيس الفهري فاستمال الناس إليه، وانحاز عن مروان، والتقى الأشدق ومروان، فقال الأشدق لمروان: هل لك فيما أقوله لك فهو خير لي ولك. قال مروان: وما هو. قال: أدعو الناس إليك وآخذك لك على أن تكون لي من بعدك، فقال مروان: لا، بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية، فرضي الأشدق بذلك، ودعا الناس إلى بيعة مروان فأجابوا، ومضى الأشدق إلى حسان بن مالك بالأردن، فأرغبه في بيعة مروان، فجنح لها. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٣٨٥. فوزي، تاريخ الدولة الأموية، ص ٥١

٧- ابن خياط، تاريخ، ص ١٦٢. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٦٥. ابن الأثير، الكامل، جـ ٤، ص ١٥٠. ابن الوردي، عمر بن مظفر(ت: ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م). تاريخ ابن الوردي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٦م، جـ١، ص١٦٧ (سيشار إليه فيما بعد: ابن الوردي، تاريخ ابن الودري).

٨- ابن خياط، تاريخ، ص ٢٦١. الطبري تاريخ، جـ ٣، ص ٤٢٣. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٢١٦

وحكمته "**أما خالد بن يزيد بن معاوية فكان حكيما** "[1] وهو ما استغله مروان بن الحكم في مبايعة ابنيه عبد الملك وعبدالعزيز[2].

ولما توفي مروان " **بويع لولده عبد الملك بن مروان في اليوم الذي مات فيه** "[3] وفي موضع أخر "**فتوفي مروان وولي بعده ابنه عبد الملك بن مروان** "[4]. وبتولية مروان العهد لابنيه حفظ الخلافة في البيت المرواني.

أراد عبد الملك عزل أخيه عبد العزيز عن ولاية العهد[5] وكان ذلك بنصيحة "عمران بن عصام العنزي[6] **وهو الذي أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز والبيعة للوليد بن عبد الملك في خطبته المشهورة وقصيدته المذكورة** "[7]. وفي رواية البلاذري أن عبد الملك بن مروان أرسل إلى أخيه "**إن رأيت أن تصير هذا الأمر لابن أخيك وولدك**"[8] يريد عبد الملك أن يجعل ولاية العهد للوليد بن عبد الملك ثم لأبي بكر بن عبد العزيز. فأبى عبد العزيز، فكتب إليه يسأله أن يجعلها للوليد من بعده، ويقول له: لولا أن الوليد أعز الخلق على أمير المؤمنين لم يسألك هذا له، فكتب إليه: "**إني أرى في بكر بن عبد العزيز[9] مثل الذي ترى في الوليد**"[10].

١- مقدمة تحقيق رسالة فضل هاشم، ص ٤٢

٢- جدد مروان البيعة لنفسه ولابنه عبد الملك بن مروان من بعده ثم عبد العزيز ابن مروان وذلك في أول سنة خمس وستين. فولي عبد العزيز العهد بعد عبد الملك بن مروان فمات قبله بمصر، وكان عبد الملك أراد خلعه وتولية الوليد ابنه فمات قبل ذلك. فبايع عبد الملك لابنيه الوليد وسليمان. ابن خياط، تاريخ، ص٢٦١، ص٢٨٩. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٦، ص٣٣٣.

٣- الطبري تاريخ، جـ ٣، ص ٤٢٣. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٢١٧

٤- الطبري تاريخ، جـ ٣، ص ٤٢٤. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص٢٣٠

٥- نصحه قبيصة بن ذؤيب بأن لا يخلعه فلعل الموت يأتيه فيستريح منه وهذا ما كان. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٦٦٤. الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٣٤. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ ٣، ص ٥٧.

قبيصة بن ذؤيب الخزاعي(١ - ٨٦ هـ / ٦٢٢ - ٧٠٥ م) صحابي، من الفقهاء. ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ثم كان على خاتم عبد الملك بن مروان بالشام وكان على الخاتم والبريد، وكان يقرأ الكتب إذا وردت ثم يدخل بها على عبد الملك، توفي بدمشق. ابن خياط، تاريخ، ص٢٩٩. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٦، ص ١٧١. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٧، ص٢٢٣.

٦- عمران بن عصام العنزي(ت: ٨٥ هـ /٧٠٤ م) خطيب وشاعر، اشتهر في أيام عبد الملك بن مروان. وخاطبه بأبيات يثني بها على الحجاج. ولما أمر المهلب بصنع الركب من الحديد بعد أن كانت من الخشب، مدحه في هذا، وفضل ضرب الحديد للركاب، على ضربه للدراهم. قتل في أيام الحجاج بعد أن خرج في ثورة ابن الأشعث. انظر: ابن خياط، تاريخ، ص ٢٨٢. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص ٢٥٤.

٧- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٤

٨- البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص ٢٥٣

٩ - ابن عبد العزيز الذي رأى والده أن له حق الخلافة مثل ما للوليد بن عبد الملك، وهي حيلة يريد منها عبد الملك عزل أخيه عبد العزيز عن ولاية العهد. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٦، ص ١٩٨.

مهدت وفاة عبد العزيز[2] الطريق لعبد الملك لتحقيق هدفه في تولية أبنائه العهد[3]. ولا يرى الجاحظ فرقاً في انتقال الخلافة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني في ظل استيلاء بني أمية، إذ أن معاوية في الأساس - كما يرى الجاحظ - استولى على الخلافة دون وجه حق، وبما أنها ما زالت في بني أمية فهي ليست لهم ولا يؤثر انتقالها من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني في شيء[4].

تولى عبد الملك الخلافة بعد وفاة والده مروان، ثم تتابع أبناء عبد الملك على الخلافة من بعده، وقد أورد الجاحظ رد أبي إسحاق[5] على عبد الملك صراحة في استيلائه على الخلافة **"وإني والله ما أنا بالخليفة المستضعف وهو يعني عثمان بن عفان ولا أنا بالخليفة المداهن يعني معاوية ولا أنا بالخليفة المابون يعني يزيد بن معاوية. قال أبو اسحق والله لولا نسبك من هذا المستضعف وسببك من هذا المداهن لكنت منها أبعد من العيوق[6] والله ما أخذتها من جهة الميراث ولا من جهة السابقة ولا من جهة القرابة ولا تدعى شورى ولا وصية "**[7]. وردت هذه الخطبة أيضا عند الجاحظ في رسالة فضل هاشم بقوله: **"وحسبك من جهله قيامه على منبر الخلافة قائلا إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف، ولا بالخليفة المداهن، ولا بالخليفة المأفون. وهؤلاء سلفه وأئمته، وبشفعتهم قام ذلك المقام، وبتقديمهم وتأسيسهم نال تلك الرئاسة، ولولا القادة المتقدمة والأجناد المجندة والصنائع القائمة لكان أبعد خلق الله من ذلك المقام وأقربهم إلى الهلكة إن رام ذلك الشرف"**[8]. وعلى الرغم من توافق الروايتين في بعض العبارات لكن روايات الجاحظ في كتاب البيان تتسم بالتركيز على اللفظ دون المعنى، أما في رسالة فضل هاشم فتظهر حدة العبارات وقوتها، إذ أن الرسالة كتبت للحديث عن علي بن أبي

١- البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص ٢٥٣

٢ - كتب عبد الملك إلى أخيه: احمل لي خراج مصر، فكتب إليه عبد العزيز: يا أمير المؤمنين إنا قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك، إلا كان بقاؤه بعدها قليلا، وإنا لا ندري أينا يأتيه الموت أولاً، فإن رأيت أن لا تغثث علي بقية عمري فافعل، فرق له عبد الملك وقال: لعمري لا فعلت ذاك ولا سؤت أخي. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص ٢٥٣، ص ٢٥٤.

٣- ابن خياط، تاريخ، ص ١٨٣. مجهول (منسوب لابن قتيبة)، الإمامة والسياسية، جـ ٢، ص ٢٢٢. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص٦٦٤. ابن الأثير، الكامل، جـ ٤، ص ٦٤٢.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٩٩. الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٤٤

٥- عمرو بن عبد الله بن علي بن أحمد الهمداني (٣٣ - ١٢٧ هـ / ٦٥٣ - ٧٤٥ م)من أعلام التابعين الثقات. كان شيخ الكوفة في عصره. وكان من الغزاة المشاركين في الفتوح. أدرك عليا، ورآه يخطب، وقال: رأيته أبيض الرأس واللحية. غزا الروم في زمن زياد ست غزوات. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٧،ص ٢٦٣-٢٦٤. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٨، ص ١٩٠.

٦ - العيوق نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمه، لسان العرب، جـ ١٠، ص٢٨٠.

٧- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٩٨.

٨ - الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٣٤.

طالب – رضي الله عنه- وتعديد صفاته مثل الفقه والمنشأ الكريم، وصفاته الحميدة[1]. وهذا يعكس الحالة السياسية السائدة في تلك الفترة والتي أعلنت فيها البراءة من معاوية[2]، كما واشتدت عداوة العباسيين نحو الأمويين منذ أعلن المأمون الرضا من علي حيث كتب الجاحظ الرسالة في تلك المرحلة[3].

بويع الوليد بن عبد الملك[4] بالخلافة بعد وفاة أبيه عبد الملك، وقد حاول الوليد في أول خطبة التأكيد على أنّ الخلافة جاءته هبة من الله **"ولما مات عبد الملك بن مروان صعد المنبر الوليد ابنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال لم أر مثلها مصيبة ولم أر مثلها ثوابا موت أمير المؤمنين والخلافة بعده"**[5]. ورغم موقف السلبي من الخلافة الأموية، إلا أن الجاحظ لم يخف إعجابه بالوليد بن عبد الملك وأورد خطبته في البيان والتبيين[6].

كان الوليد غير راض عن تولية أخيه سليمان الخلافة من بعده، فسار على خطى سابقيه وفكر في تولية العهد لابنه عبد العزيز وعزل أخاه بعد أن أشار عليه خواصه بذلك، وأراد التوجه إلى فلسطين[7] لعزله بالقوة لولا أن عاجلته المنية **" وفي هذه السنة كان الوليد أراد الشخوص إلى أخيه سليمان لخلعه وأراد البيعة لابنه من بعده وذلك قبل مرضته التي مات فيها"**[8].

---

١ - الزويري، الإمامة، ص ٨

٢ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١. الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧

٣ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١ . الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٦٣. الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٤ - سار عبد الملك على نهج والده، فبايع بولاية العهد من بعده لأربعة من أبنائه على التوالي: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام. فقد أخذ على الوليد وسليمان أن يبايعا يزيد بن عبدالملك ولمروان بن عبد الملك من بعده، لكن مروان مات في خلافة أخيه سليمان اما يزيد فتولى الخلافة سنة ١٠١هـ / ٧١٩م. ابن خياط، تاريخ، ص٢٠٦. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٤٩.

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٧٦

٦- المصدر نفسه، ص ١٧٦

٧ - ولى الوليد أخاه سليمان على فلسطين، فظل واليا عليها حتى أتاه نعي الوليد. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٨، ص ٩٩، ص ٢٨٣.

٨- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٠. ابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ٥.

يشير الجاحظ إلى مدى حرص الأمويين على موضوع التوريث ما ذكره عن الوليد بن عبد الملك الذي قال: **"لولا بيعة في أعناق الناس ليزيد بن عاتكة لجعلت هذا الأمر شورى بين صاحب الأعوص[1] إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدق[2]، وبين أحمس[3] قريش القاسم بن محمد بن أبي بكر[4]، وبين سالم بن عبد الله بن عمر[5] "**[6]. كما أشار الجاحظ للأشدق في كتاب البيان بقوله: **"ثم من الخطباء: عمرو بن سعيد، وهو الأشدق، يقال إن ذلك إنما قيل لتشادقه في الكلام"**[7] ومن خلال الروايتين يلاحظ كيف يستعين الجاحظ بأساليب اللغة ليوظفها خدمة لهدفه، فقد هدف في الرواية الأولى خدمة غرض سياسي يتجلى في التشنيع على بني أمية في أن الخلافة صارت ملكا يورث، أما الرواية الأخرى فيتضح بها إعجاب الجاحظ ببلاغة الأشدق موظفا النص بأسلوب صريح لا يحتوي على توريه أو لمز، حتى وإن كان للجاحظ موقف منه **"لما بلغ عبد الله بن الزبير قتل عبد الملك بن مروان عمرو ابن سعيد الأشدق، قام خطيبا. فقال: إن أبا الذبان قتل لطيم الشيطان، كذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون"**[8]

---

١ - الأعوص موضع شرقي المدينة المنورة. التميمي، الفتنة، ص ٥٨. الطبري، تاريخ، جـ ٢، ص ٦٩. ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ١، ص ٤٤٠. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٥، ص ٥١.

ورد عند ابن سعد في الطبقات بقوله: "الأعوص إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص"، جـ ٥، ص ٣٤٥. كما أشار البلاذري له بقوله: " ومنهم إسماعيل بن عمرو بن سعيد وهو صاحب الأعوص الذي قال فيه عمر بن عبد العزيز: لو أن لي من الأمر شيئا لوليت صاحب الأعوص" أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ٤٥٥.

كما ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق: "وقال عمر بن عبد العزيز لو كان إلي من الأمر شيء يعني أمر الخلافة بعده لوليتها القاسم بن محمد أو صاحب الأعوص يعني إسماعيل بن عمرو" جـ ٩، ص ٣٣.

مما يعني أن الاسم الذي ورد عند الجاحظ ليس إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدق وإنما الأعوص إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص.

٢ - الأشدق: لقب عمرو بن سعيد بن العاص. كان فقيها وسكن مكة، سار إلى معاوية بعد وفاة والده، استخلفه عبدالملك بن مروان على دمشق عندما توجه إلى العراق. فوثب عمرو على دمشق، وبايعه الناس. فلما توطدت العراق لعبد الملك، وقتل مصعباً، رجع وحاصر عمر بدمشق، وأعطاه أمانا مؤكدا، فاغتر به عمرو. ثم بعد أيام، غدر به، وقتله. الكلبي، جمهرة النسب، جـ ١، ص٨. السمعاني، الأنساب، جـ ١، ص٢٠٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٣، ص٤٤٩.

٣ - الشديد والأحمس: المتشدد على نفسه في الدين. لسان العرب، جـ ٦، ص ٥٦.

٤ - القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، كان دينا، روى عن أبي هريرة، وابن عباس، وعائشة. ابن خياط. أبي عمر خليفة بن خياط بن أبي هريرة(ت: ٢٤٠هـ / ٨٥٤م) طبقات خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط٢، دار طيبة، الرياض:١٩٨٢م، ص٢٤٤ (سيشار إليه فيما بعد: ابن خياط، الطبقات). ابن الجوزي، المنتظم ، جـ ٧، ص ١٢٣.

٥ - سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أمة أم ولد يكنى أبا عمر وكان من خيار المسلمين وعبادهم وفقهائهم توفي سنة سبع ومائة. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ١٠، ص ٤٥٦. ابن خياط، الطبقات، ص ٢٤٦.

٦- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص٤٣٣

٧ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٥٨.

٨ - المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٦١.

أما الخليفة سليمان بن عبد الملك فعندما حضرت منيته اختار عمر بن عبدالعزيز للخلافة[1]، وهو ما يفخر به بنو أمية لأن سليمان لم يتبع العرف السائد بتوريث الخلافة بل اختار شخصاً أموياً مروانياً رأى فيه الكفاءة فهم يعدونها من حسناتهم " **ومنا سليمان بن عبد الملك الذي هدم الديماس[2] ورد المسيرين[3] وأخرج المسجونين[4] وترك القريب واختار عمر بن عبد العزيز** "[5] وكان اختيار سليمان لعمر بن عبد العزيز بعد مشورة رجاء بن حيوة الكندي[6] مؤدب سليمان[7].

أشار الجاحظ إلى تلكؤ مروان بن محمد في بيعته ليزيد بن الوليد " **قال لما بايع الناس يزيد بن الوليد وأتاه الخبر عن مروان بن محمد ببعض التلكؤ والتحبس. كتب إليه، بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد، إلى مروان بن محمد. أما بعد فإني أراك تقدّم رجلا وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت. والسلام**" [8]. هذه الرواية لم يقصد بها الجاحظ الجانب السياسي وإنما الجانب اللغوي والبلاغي. فهذه الروايات تدل على صفة البلاغة التي اتصف بها بنو أمية والتي أعجب بها الجاحظ وأشاد بها في كتاب البيان بقوله معلقا على تلك الرواية "**وها هنا مذاهب تدل على أصالة الراي، ومذاهب تدل على تمام النفس، وعلى الصلاح والكمال، لا أرى كثيرا من الناس يقفون عليها**"[9].

غدت مسألة ولاية العهد إحدى سمات وتقاليد الخلافة الأموية التي يجب أن لا يغفلها الخليفة، ومن ذلك الوقت صار كل خليفة في حياته يسمي ولياً للعهد واستمر هذا الحال حتى

١- مؤلف مجهول. العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، ط٢، دار الطليعة، بيروت: ١٩٩٧م، ص ٣١ (سيشار إليه فيما بعد: مجهول، العيون).

٢ - الديماس سجن كان زمن الحجاج، قام الخليفة سليمان بهدمه وإخراج المسجونين منه. ابن قتيبة، المعارف، ص٨٢

٣ - المسيرين الذين سيرهم عثمان بن عفان في خلافته من الكوفة إلى دمشق. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٥، ص ٥٣٢. ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ٢٣، ص ٣.

٤ - أفرج عن المسجونين الذين كانوا بالبصرة، ابن قتيبة، المعارف، ص٨٢.

٥- الجاحظ، رسالة فخر هاشم على عبد شمس، ص٤٤١

٦ - من العلماء ومن جلة التابعين ، وكان يجالس عمر بن عبد العزيز، ومما قام به أنه عمل على تأخير هشام عندما توفي سليمان، وعقد الخلافة لابن عمه عمر بن عبد العزيز توفي في أول خلافة هشام. الدينوري، الأخبار الطوال، ص٣٢٩-٣٣٠. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٩. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص٣٠١. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٤، ٥٥٧-٥٦١. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ٦، ص١.

٧- الصرايرة، سليمان سالم. التكوين الثقافي لعبد الملك بن مروان وولديه الوليد وسليمان(٦٥هـ - ٩٩هـ)، مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد ٢٥، العدد ٥، سلسلة البحوث الإنسانية والاجتماعية، الأردن: ٢٠١٠م، ص٨٨ (سيشار إليه فيما بعد: الصرايرة، التكوين الثقافي).

٨ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٣١

٩ - المصدر نفسه، ص ٢٤٨.

سقوط دولة بني أمية[1]. ويبدو التناقض في موقف الجاحظ من مسألة ولاية العهد أنه عاب على الأمويين تولية العهد لمن لا يستحق وفي المقابل أعطى شرعية لفكرة الاستخلاف باعتبارها طريقة لإقامة الإمامة، ويهدف من ذلك تعزيز موقف العباسيين في مسألة ولاية العهد. كما أن الغاية التي قصدها الجاحظ من ذلك إبراز أخطاء الأمويين في حق المسلمين وحق آل علي[2].

وسعى الجاحظ في التأكيد على مخالفة الأمويين لما سار عليه الخلفاء الراشدون وخاصة الخليفة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - **"ثم أن عمر بعد ذلك جعلها شورى بين ستة وجعل إليهم الخيار، وسلم ذلك جميع المسلمين، فيهم الزهري والتيمي والهاشمي والأموي والأسدي، على أنها إن وقعت للأسدي لم يكن منكرا عند الجميع، وكذلك الزهري والأموي"**[3]. وهذا النهج هو الذي ابتعد عنه بنو أمية منذ جعلوا الخلافة وراثية في بيتهم، وبين أبنائهم. إذ أصبح الخليفة يعين ولي عهده ويأخذ البيعة له من وجهاء القوم وكبار رجال الدولة في حياته، كما كانت تؤخذ البيعة في المدن والأمصار من قبل الوالي نيابة عن الخليفة. فجمع النظام مساوئ الحكم الفردي، فحالما تؤخذ البيعة كانت موافقة الشعب لا تمثل أهمية بغض النظر عن الاختيار سواء كان شرعيا أم مغتصباً[4].

وعند الانتقال إلى أسباب سقوط الدولة الأموية، فعلى الرغم من تعددها[5]، إلا أن الجاحظ حددها بالآتي: فالعامل الأول تمثل في حرصهم على الأرومة العربية لأم ولي العهد واستبعاد أبناء الإماء عن السلطة والخلافة وعدم الاستفادة من قدراتهم حتى وإن كانوا أكفأ. فقد عرض ذلك في رسالة صناعة القواد والتي أشاد فيها بمسلمة بن عبد الملك بن مروان الذي لم يكن لعبد الملك ابن أكثر سداداً منه رأياً، ولا أذكى عقلاً، ولا أشجع قلباً، ولا أسمح نفساً ولا أسخا كفاً[6]، وله من الصفات الخلقية الكثيرة مثل ما ذكره الجاحظ بأنه يكره اللحن **"قال مسلمة بن عبد الملك: إن الرجل ليسألني الحاجة فتستجيب نفسي له بها، فإذا لحن انصرفت نفسي عنها "**[7] ولكنه

١- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ ٣، ص ٣٣، ص ٥٧. باحشوان، نظام ولاية العهد، ٩٦

٢ - الزويري، الإمامة، ص٥٧، ص٥٩

٣- الجاحظ، العثمانية، ص ٢٤٨

٤ - ابن خلدون، المقدمة ، ص ١٠٧- ١٠٨.

٥ - حول تداعيات سقوط دولة بني أمية انظر الطبري، جـ ٤ ، ص ٣٣٩- ٣٥٠.

٦- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد(ت: ٣٨٢ هـ / ٩٩٢م). العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحه، المكتبة العصرية، بيروت: ١٩٨٣م، جـ ٧، ص ١٤٥ (سيشار إليه فيما بعد: ابن عبد ربه، العقد الفرد).

٧- الجاحظ، الرسائل الأدبية، رسالة صناعة القواد، ص ٣١٤

استبعد من الخلافة ومن ولاية العهد لأنه كان ابن أمة، ولأن بني أمية كانوا يتشاءمون من ترشيح أبناء الإماء إلى منصب الخلافة خشية زوال ملكهم على يد ابن أم ولد.

"لا تلْحِمُن ذئاب الناسِ أنفُسكُمْ إن الذئاب إذا ما أُلحِمتْ رتعـوا[1]

لا تبْقرُن بأيديكم بطونكُـمُ فثم لا حسْرةٌ تغني ولا جـزعُ"[2]

أما العامل الثاني فيتمثل في ما قام به مروان بن محمد من تغيير الولاءات نحو القيسية حيث ساهم بشكل كبير في سقوط دولة بني مروان **"ألا ترى أن مروان بن محمد لما استبدل قيس عيلان الجند[3] بقيس عيلان الجند[4]، من أبناء قحطان، كيف ظهر انتشار أمره واضطرب حبله واختلفت الكلمة وتقطع النظام وانحلت العقد وأدبر الملك وركدت الريح "[5]** وهنا يظهر الجاحظ دور العصبية في خلافة مروان الذي سار سيرة سلفه فتعصب للقيسية. فقد أطلت القبلية برأسها في عهده من جديد. فاحتدم الصراع بين القبائل المضرية والقبائل اليمانية[6].

وقد سعى مروان منذ بيعته في دمشق، في تهدئة خواطر الناس، وأن يبعث الثقة في النفوس، فلما بايعه الناس عرض عليهم أن يختاروا بأنفسهم من يرضون من الولاة لولايات الشام الرئيسة، يقول الطبري: **"فامرهم أن يختاروا لولاية أجنادهم، فاختار أهل دمشق زامل بن عمرو**

١- أي لا تمكنوا الناس منكم بضعفكم وتفرق كلمتكم ولا تخلطوا أمركم بين الناس، حتى إذا ما رأوا منكم ضعفاً انقضوا عليكم. لسان العرب، جـ ١٤، ص٤٣٤

٢- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٢١٠.

٣- ذكر البلاذري أن قيس بن الناس. ودهمان بن الناس، هم أهل بيت في قيس. وحضن عيلان وهو عبد كان لمضر على الناس فسمي الناس به، فقيل قيس عيلان وإنما هو قيس بن الناس، ويقال بل حضن عيلان قيسا، فقيل قيس بن عيلان، وقيس عيلان. أنساب الأشراف، جـ ١٣، ص٩٥.

٤- تكرر ذكر قيس عيلان الجند والذي اراد ذكره الجاحظ هنا هو الياس أخو قيس، حيث كانت قيس عيلان إلى جانب صف مروان، وقد أكد ذلك الطبري بقوله: " وكانت القيسية مع مروان لأنه طلب بدم الوليد وأخوال الوليد من قيس" كما يقول نصر بن سيار في ذلك شعراً: أنا ابن خندف تنميني قبائلها ... للصالحات وعمي قيس عيلانا. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٢٨٦، ٢٩٦

٥- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٤٨

٦ - قام معاوية بالموازنة بين القيسية واليمنية في بلاد الشام فقد كان يقف في الوسطين بين الطرفين، لكن عندما حدثت ثورة عبدالله بن الزبير انقسم الناس بين القيسية التي أرادت مبايعته بقيادة الضحاك، وبين اليمنية الذين أرادوا مبايعة مروان بن الحكم. مما أدى إلى المواجهة بينهم في معركة مرج راهط سنة ٦٤هـ / ٦٨٣م، والتي أدت إلى مقتلة كبيرة من الطرفين، ثم سار خلفاء بني أمية بتقريب أحدهم على الأخر حتى خلافة مروان بن الحكم الذي تعصب للقيسية. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٩، ص٢٢٨. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١٩٢.

الجيراني، وأهل حمص عبد الله بن شجرة الكندي، وأهل الأردن الوليد بن معاوية بن مروان، وأهل فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي"[1]

وبيَّنَ الجاحظ أن ما لحق مروان بن محمد من الظلم مما جعله السبب في سقوط دولة بني أمية، فقد تسلم الخلافة في فترة كانت الدولة فيها قد بدأت في مرحلة السقوط **"ثم لم ينزعوه إلا من يد أشجعهم شجاعة وأشدهم تدبيرا وأبعدهم غورا ومن نشأ في الحروب وربى في الثغور ومن لا يعرف إلا الفتوح وسياسة الجنود "**[2] فمروان لم يتسلم الخلافة إلا والثورات قد أحاطت به من الشرق والغرب[3]، فكلما أخمد ثورة قامت أخرى، وعلى كل المعارك التي خاضها مروان وانتصر فيها، لكن الناس لا يذكرون له سوى معركة الزاب[4] التي انهزم فيها جيش بني أمية[5].

وفي خلافة مروان بن محمد كانت مرحلة التخطيط السري للدعوة العباسية قد وصلت مرحلة النضج، إذ تمكنوا من قبض زمام الأمور، فواجه مروان دسائس المفسدين والخارجين على دولة بني أمية إلى أن انتهى به الأمر مقتولاً في دير بمصر بعد هروبه من جنود العباسيين[6]، قتله صالح بن علي الذي ذكره الجاحظ في معرض حديثه عن ادعاء بني أمية البسالة **"صالح بن علي وهو الذي تبع مروان بن محمد إلى مصر حتى قتله"**[7] إذ إن العباسيين استمروا في تتبع مروان حتى دخل مصر، وبه انتهى عصر الخلافة الأموية في المشرق سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠ م والذي دام أكثر من ٩٠ سنة[8].

ويشير الجاحظ في رواية أن مروان عندما أحيط به في مصر كان يحمل برداً وقضيباً للرسول صلى الله عليه وسلم فدفع بهما إلى خادمه وأمره أن يدفنهما في تلك الرمال وهي البردة التي لبسها الخلفاء العباسيون والتي تمثل رمزا دينيا **"وقد كان مروان بن محمد حين أحيط به**

١- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٢٨٠

٢- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٤

٣- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٢٨٠ وما يليها.

٤- معركة الزاب: وقعت في ١١ من جمادى الآخرة عام ١٣٢ هـ / ٢٥ يناير ٧٥٠م قرب نهر الزاب الأكبر، وهو أحد روافد نهر دجلة، ويقع في شمال العراق. وقعت المعركة بين عبد الله بن علي بن عبد الله وهو عم أبو العباس عبد الله السفاح ومروان بن محمد الخليفة الأموي. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٣٧٦. ابن خياط، تاريخ، ص٤١٤، الطبري، تاريخ، جـ ٤،ص ٣٥٢، ٣٥٣

٥- ابن خياط، تاريخ، ص ٤٠١

٦- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٣٥٦

٧- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٥٠

٨- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٥٠ وما يليها. ابن الأثير، تاريخ، جـ٢، ص٤٩٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٥، ص ٣٧٤. المقريزي، المواعظ، جـ ٢، ص٤٧٨.

دفع البرد والقضيب إلى خادم له، وأمره أن يدفنهما في بعض تلك الرمال، ودفع إليه بنتا له، وأمره أن يضرب عنقها. فلما أخذ الخادم في الأسرى قال: إن قتلتموني ضاع ميراث النبي صلى الله عليه وسلم، فأمنوه على أن يسلم ذلك لهم"[1].

كما أورد الجاحظ في كتاب الحيوان شعراً قيل في نهاية مروان بن محمد " وقال رجل من همدان، يقال له الضحاك بن سعد[2]، يهجو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، واشتق له اسما من الكلب فجعله كلبا فقال:

لج الفرار بمروان فقلت له ... عاد الظلوم ظليما همه الهرب

أين الفرار وترك الملك إن قبلت ... منك الهوينى فلا دين ولا أدب

فراشة الحلم فرعون العذاب، وإن ... يطلب نداه فكلب دونه كلب"[3]

ثالثاً: صورة الخلفاء الأمويين وسياستهم

أشار الباحث سابقاً إلى غياب صفة الحياد في تناول الجاحظ لتاريخ بني أمية، فأحيانا يشيد بهم خاصة في الجانب البلاغي والخطابي كما في كتابه البيان، وأحيانا أخرى يتنقصهم كما في رسائله الحكمين والنابتة وفضل هاشم. كما يلاحظ أنه غلبت على كتابات الجاحظ نحو بني أمية جانب التقليل والتنقيص طوال الفترة الزمنية التي كانت فيها الدولة العباسية مناهضة العداء لبني أمية والتي امتدت من ١٩٨ - ٢٣٢هـ / ٨١٣-٨٤٦م، والتي فيها وضع الجاحظ جل كتبه. وتعد الفترة التي عملت فيها الخلافة العباسية على التقارب مع العلويين مبرراً للجاحظ نحو توجيه سهامه للدولة الأموية التي يرى أنها سلبت العلويين حقهم في الخلافة.

تعد رسالة النابتة من أشد الرسائل التي تناول فيها الجاحظ بني أمية وشنع عليهم[1]، وخاصة معاوية الذي يرى أنه سبب ما حدث من مصائب للمسلمين والمتمثلة في حرب صفين

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٤٧

٢- لم يعثر الباحث على ترجمته في أي من كتب التراجم. وردت هذه الرواية عند ابن العمراني "وكان معه خادم يختص به فقدم ليقتل فقال: لا تقتلوني، فأنا أفتدي نفسي. قالوا: بماذا؟ قال: بميراث النبوة فإنه عندي قيل له: وما ميراث النبوة؟ قال: البردة والقضيب والخاتم فقالوا: أحضره فأحضر ذلك وسلمه إليهم فخلوا عنه وحملوا البردة والقضيب والخاتم إلى الكوفة وسلموها إلى أبي العباس السفاح" ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد(ت: ٥٨٠هـ / ١١٨٤م). الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، ط١، دار الآفاق العربية، القاهرة: ٢٠٠١م، ص ٥٣ (سيشار إليه فيما بعد: العمراني، الإنباء).

٣- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٧٤

ومقتل الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- ، ثم ما تلا ذلك من تنكيل بآل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) . مما جعل الجاحظ يصب جام اتهاماته في الرسالة على معاوية، كما أن تشنيع الجاحظ على بني أمية بلغ حداً أن اتهمهم بالكفر، متجاهلا كل فضل لهم في الإسلامِ وكل ما ساهموا به منذ بداية الدعوة[٢]. فجاءت رسالة النابتة تعبيرا عن توجه الدولة الجديد المتمثل في العداء لبني أمية، كما تعد تصريحا من الجاحظ في موالاته للعباسيين سياسيا وفكريا[٣]، وتبنيه موقف السلطة واستعداده للدفاع عنها[٤]، كما تمثل موقفه في مهاجمة الأمويين من خلال رسائله ومصنفاته الأخرى[٥].

وقد علل الجاحظ أسباب موقفه المعادي لبني أمية على النحو التالي من ذلك: جعل خراج مصر لعمرو بن العاص " **وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر**"[٦] إذ أن خراج مصر في ذلك الوقت كان يبلغ ضعف خراج بلاد الروم إذا جمعت أبواب المال من البلاد جميعا، ويشير الجاحظ إلى خراجها الضخم الذي يدل على خصبها والبالغ أربعة آلاف ألف دينار[٧]. حيث لجأ معاوية إلى ترغيب عمرو بن العاص بمصر وإن كانت بعض المصادر ترى أن عمرو بن العاص اشترط ولاية مصر على معاوية ليقف إلى صفه في حربه مع علي[٨].

يعرض الجاحظ مدى حرص عمرو بن العاص على ولاية مصر بقوله: "**فلما صارت مصر في يدك تتبعك فيها بالعزل والتنقص، حتى لو أن نفسك فيها ألقيتها إليه** "[٩]. لقد فتح عمرو بن العاص مصر في سنة ٢٠هـ / ٦٤٠م. وظل والياً عليها حتى وفاة عمرو بن الخطاب، إذ عزله عنها الخليفة عثمان بن عفان[١٠] - رضي الله عنه -. فالجاحظ يحلل رغبة عمرو بن العاص في

---

١ - EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JÄHIZ ,p٢٠٣.

٢ - الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٤.. الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٢٤.

٣ - نوري، الجاحظ، ص ٨

٤ - الزويري، الإمامة، ص٣٩٠.

٥ - المرجع نفسه، ص ٣٩

٦- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٥.

٧- الجاحظ، رسالة في الجد والهزل،، ص ٢٣٤. في مقدمة تحقيق رسالة الأوطان، أخطأ المحقق إذ ذكر أن خراج مصر اربعة آلاف دينار، ص ١١٥.

٨- قال عمرو بن العاص مخاطبا معاوية: إني قصدت إليك لتجعل لي في أمرك هذا حظا إذا بلغت إرادتك، ولأن تشركني في الرأي والتدبير. فقال له معاوية : نعم ونعمة عين، قد جعلت لك ولاية مصر. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٢٨٢. انظر: الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٥٦. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٢٨٣. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١٢٨.

٩- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٠٦

١٠- ابن خياط، تاريخ، ص ١٤٢، ١٤٣، ١٥٦. ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ص ٣٥٦.

تولي مصر لمعرفته بأحوالها ومقدار خراجها وما بها من الخير. كما أن عمرو بن العاص طلب من معاوية "**الاستئثار بالفيء** "[1]. ولم يكن معاوية كما يظهر الجاحظ ذلك يدقق في اختيار الولاة إلا حسب ما تتحقق مصلحته في الخلافة، فتعيين الولاة يتم حسب " **اختيار الولاة على الهوى** "[2].

إن النابتة الذين ظهروا بعد مقتل الخليفة عثمان - رضي الله عنه - عادوا في عهد الدولة العباسية رغبة في إحياء دولتهم، مما جعل الجاحظ مدفوعا من السلطة يوجه لهم رسالة أطلق عليها النابتة[3]. وبالتالي كان على الجاحظ أن يتناول في رسالته كل ما يتعلق بالدولة الأموية ورموزها ومن ضمنهم معاوية " **وقد أربت عليهم نابتة عصرنا، ومبتدعة دهرنا فقالت: لا تسبوه فإن له صُحبة؛ وسب معاوية بدعة، ومن يبغضه فقد خالف السنة فزعمت أن من السُنة ترك البراءة ممن جحد السُنة** "[4].

تلاحقت تهم الجاحظ لبني أمية من ذلك إيراده مقتطفات من خطبة أبي حمزة[5] التي قالها في معاوية وبني أمية، وما أوردها الجاحظ إلا من باب رغبته في التنقيص منهم، فعادة الجاحظ عندما لا يعجبه حدث يسكت عنه، لكن عندما يذكره حتى ولو بلسان غيره فهو مما يوافق عليه ويؤيده " **ثم ولي معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله وابن لعينه، فاتخذ عباد الله خولا، ومال الله دولا، ودينه دغلا، ثم مضى لسبيله، فالعنوه لعنة الله**"[6]. وقد وردت الخطبة في البيان هادفا بذلك إلى تبيين مدى بلاغتها وكذلك في التعريض ببني أمية، إذ كيف يعقل أن يلعن الرسول صلى الله عليه وسلم مع ما عرف عنهم من أدوار في خدمة الإسلام، ثم موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من أبو سفيان أثناء فتح مكة وما تلى ذلك، وموقف الخلفاء الراشدين من معاوية.

يشير الجاحظ إلى ما أحدثه معاوية من تغيير وتبديل في الخلافة بعد بساطتها، فأحدث أمور الملوك، فكان ينقده لما غير وبدل في الخلافة عما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين

١- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٥.

٢- المصدر نفسه، ص ١٧

٣ - الزويري، الإمامة، ص ٣٩

٤- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٦.

٥- أبو حمزة المختار بن عوف. كان قائداً للإمام طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي. الذي بويع بالإمامة في اليمن سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٦م وقد خضعت له اليمن والحجاز في أواخر الدولة الأموية، كان من المؤسسين لدولة الإمامة في اليمن وحضرموت حينما بعثه شيخه أبو عبيده مع صاحبه بلج بن عقبة نجدة لأهل حضرموت فبايعا عبد الله بن يحيى الكندي(طالب الحق) بالإمامة. ابن خياط، تاريخ، ص ٣٨٥. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٣٠٢. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٨، ص ٢٧. انظر أيضاً: فوزي، الخلافة الأموية، ص ٢١٨ وما يليها.

٦- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ٨٤

حتى حولها معاوية من الخلافة إلى المُلك " **والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكا كسرويا، والخلافة غصبا قيصريا**"[1].

يصور الجاحظ تحول الخلافة بعد أن كانت شورى حتى انتقلت إلى بني أمية فصارت ملكاً عضوضاً[2] " **استوى معاوية على الملك، واستبد على بقية الشورى، وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين، في العام الذي سموه عام الجماعة، وما كان عام جماعة بل عام فرقة وقهر، وجبرية وغلبة ...،ولم يعد ذلك أجمع الضلال والفسق، ثم مازالت معاصيه من جنس ما حكينا** "[3]. إن بسبب خلو الساحة بعد مقتل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- تهيأ الجو لمعاوية أن يتولى الخلافة وحصل على إجماع الناس سنة ٤١هـ / ٦٦١م[4] فأطلقوا عليه عام الجماعة لأن معاوية نال بيعة جميع الأمصار وأجتمع الناس على خليفة واحد[5].

كما أخذ أيضا على معاوية اتخاذه المنبر للصلاة في إشارة إلى ما أحدثه معاوية " **وقد كان في حجج معاوية في اتخاذ المقصورة بعد ضرب البرك**[6] **إياه بالسيف، أنه أبصر كلبا على منبره**"[7]. ولم ينقص معاوية الدهاء في هذا الموقف، فالكلب كان مما يدل على خوف معاوية من غيلة أخرى بعد البرك قد لا ينجو منها.

أما يزيد بن معاوية فقد أبرز الجاحظ عيوبه ومثالبه، وكان ذلك واضحا من خلال تفصيله لموقفه من آل البيت وخاصة ما حدث في كربلاء[8] والتي استشهد فيها الحسين بن علي

١- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٣.

٢- ملك عضوض ينال الرعية منه ظلم وعسف. لسان العرب، جـ ٢، ص ٥٥١. حول الملك العضوض انظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ ١، ص ٢٤٤

٣- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٣.

٤- ابن خياط، تاريخ، ص ٢٠٣

٥- ابن خياط، تاريخ، ص١٢٣. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٩٢. ماجد، عبد المنعم. التاريخ السياسي للدولة العربية (عصر الخلفاء الأمويين)، ط ٨، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة: ١٩٩٨م، ص٢٢ (سيشار إليه فيما بعد: ماجد، التاريخ السياسي).

٦- البرك بن عبد الله التميمي(٤٠ هـ / ٦٦٠ م) من اهل البصرة كان أول من عارض في التحكيم لما سمع بذكر الحكمين بين علي ومعاوية فقال: لا حكم إلا لله، وخرج على الفريقين. ثم كان أحد الثلاثة الذين اتفقوا على قتل علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص في يوم واحد. وضمن قتل معاوية، فذهب وكمن له، حتى خرج يريد الصلاة، فضربه، فأصاب أليته ولم يقتله، فقبض عليه معاوية وقتله. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٤٩٠. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١٥٦.

٧- الجاحظ، الحيوان، جـ ٢، ص٣١٦

٨- تسمية كربلاء تعود في جذورها إلى العهد البابلي، وهي مشتقة من كرب أي مصل. واشتهرت بسبب خروج الحسين بن علي إلى الكوفة، حيث علم يزيد به فوجه إليه جيشا اعترضه في كربلاء بالقرب الكوفة، فنشب قتال أصيب الحسين فيه بجراح شديدة، وسقط عن فرسه، فقتله سنان بن أنس النخعي(وقيل الشمر بن ذي

بعد أن خرج على يزيد رافضاً خلافته إلا أنه تعرض للخيانة من قبل الذين وعدوه بالنصر في الكوفة[1]، كما حدثت في خلافته مصائب أخرى، فقد أشار له الجاحظ بقوله: **"ثم الذي كان من يزيد ابنه ومن عماله وأهل نصرته، ثم غزو مكة، ورمي الكعبة، واستباحة المدينة، وقتل الحسين عليه السلام في أكثر أهل بيته مصابيح الظلام، وأوتاد الإسلام؛ بعد الذي أعطى من نفسه من تفريق أتباعه، والرجوع إلى داره وحرمه، أو الذهاب في الأرض حتى لا يحس به، أو المقام حيث أمر به، فأبوا إلا قتله والنزول على حكمهم. وسواء قتل نفسه بيده، أم أسلمها إلى عدوه وخير فيها من لا يبرد غليله إلا بشرب دمه. فاحسبوا قتله ليس بكفر، وإباحة المدينة وهتك الحرمة ليس بحجة، كيف تقولون في رمي الكعبة، وهدم البيت الحرام، وقبلة المسلمين؟ فإن قلتم: ليس ذلك أرادوا، بل إنما أرادوا المتحرز به والمتحصن بحيطانه. أفما كان من حق البيت وحريمه أن يحصروه فيه إلى أن يعطى بيده، وأي شيء بقي من رجل قد أخذت عليه الأرض إلا موضع قدمه"**[2].

وفي تناوله لموقعة كربلاء وأسبابها يخلص الجاحظ إلى أن يزيد يتحمل دم الحسين[3]، يتضح ذلك من خلال رواية عبيد الله بن زياد بن أبيه[4] بعد حادثة مقتل الحسين بن علي "**وكيف تقولون في قول عبيد الله بن زياد لإخوته وخاصته: دعوني أقتله فإنه بقية هذا النسل، فأحسم به هذا القرن، وأميت به هذا الداء، وأقطع به هذه المادة** "[5]. عبيد الله بن زياد ما كان ليرسل جيشاً إلا وهو على يقين بما في نفس الخليفة يزيد. يضيف الجاحظ أن عبيد الله بن زياد قتل الحسين في يوم عاشوراء، وقتله الله يوم عاشوراء في السنة الأخرى **"وذلك أنّ عبيد الله بن زياد قتل الحسين في يوم عاشوراء، وقتله الله يوم عاشوراء في السّنة الأخرى"**[6].

الجوشن) وكان مقتله يوم الجمعة عاشر المحرم. ابن خياط، تاريخ، ص ٢٣٤. الحموي، معجم البلدان، جـ ٤، ص ١٣٦. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٣

١- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٢٩٨. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٣

٢- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٣٩.

٣ - عندما خرج الحسين إلى الكوفة لقيه الفرزدق الشاعر، فسأله عن أمر الناس وراءه، فقال له الفرزدق: إن قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء من السماء والله يفعل ما يشاء. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٣، ص ١٦٤.

اقبل الحسين من مكة يريد العراق، وكان يزيد قد ولى عبيد الله بن زياد العراق، وكتب إليه: قد بلغني أن أهل الكوفة قد كتبوا إلى الحسين في القدوم عليهم، وأنه قد خرج من مكة متوجها نحوهم، وقد بلي به بلدك من بين البلدان، وأيامك من بين الأيام، فإن قتلته، وإلا رجعت إلى نسبك وإلى أبيك عبيد، فاحذر أن يفوتك. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٢٠٦. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ٢٩٨.

٤- عبيد الله بن زياد بن أبيه والي العراق زمن يزيد بن معاوية .ولي البصرة سنة ٥٥ هـ وعمره ٢٢ سنة، كما ولي خراسان. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص٣١٠، ٣١١، ٣١٤. ابن خياط، تاريخ، ص ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٥٨.

٥- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٧.

٦- الجاحظ، رسالة الأوطان والبلدان، ص ١٠٩

وقد أشار الجاحظ إلى قتلى آل البيت، فقد قتل عبيد الله بن زياد يوم الطف[1] تسعة من صلب علي وسبعة من صلب عقيل، وقد خلّد الشعراء الشيعة[2] ذلك في شعرهم:

عين جودي بعبرة وعويل ... واندبي إن ندبت آل الرسول

تسعة كلهم لصلب علي ... قد أصيبوا وسبعة لعقيل[3]

وأشار الجاحظ إلى افتراء الأمويين بقولهم أن عقيلاً[4] قد أعان معاوية على علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- **" ثم إن بني أمية تزعم أن عقيلا أعان معاوية على علي[5]، فإن كانوا كاذبين فما أولاهم بالكذب، وإن كانوا صادقين فما جازوا عقيلا بما صنع. وضرب عنق مسلم ابن عقيل صبرا وغدرا بعد الأمان، وقتلوا معه هاني بن عروة[6] لأنه آواه[7] ونصره"[8]**. ولذلك قال الشاعر:

فإن كنت لا تدرين ما الموت فانظري ... إلى هانئ في السوق وابن عقيل

١- الطف ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق، وهو موضع بين البصرة وواسط، والمقصود به المكان الذي قتل فيه الحسين بن علي. الحموي، معجم البلدان، جـ ٤، ص ٣٦. لسان العرب، جـ١، ص ٢٨٣.

٢ - البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٧٠. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٣٧٥

٣- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٥٠

٤ - عقيل بن أبي طالب الهاشمي. شهد بدرا مع قومه مكرها، فأسر يومئذ، سار إلى معاوية فأعطاه مئة ألف وقال: اصعد على المنبر فاذكر ما أولاك علي وما أوليتك، فصعد وقال: يا أيها الناس إني أردت عليا على دينه، فاختار دينه علي، وأردت معاوية على دينه، فاختارني على دينه. توفي في خلافة معاوية. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٦٩-٧٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٣، ص ٩٩-١٠٠.

٥ - قال معاوية لعقيل وهو معه بصفين: أنت معنا يا أبا يزيد، قال: نعم وقد كنت أيضا معكم يوم بدر. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٧١، ص ٧٣. العش، الدولة الأموية، ص ١٠٧.

أما المسعودي فيرى أن قدوم عقيل على معاوية بسبب أنه زار الشام منتجعا ولم يشر إلى خلاف عقيل مع علي حول مسألة فاقة عقيل وحاجته للمال. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٣٦٤.

٦- هاني بن عروة المرادي الغطيفي .تابعي جليل من أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ,حارب معه في الجمل وصفين والنهروان. كان هانئ من وجهاء أنصار علي بن أبي طالب في مدينة الكوفة ومن المناصرين لمسلم بن عقيل وثورته. قبض عليه عبيد الله بن زياد وقتله يوم عرفة سنة ٦٠ هـ/ ٦٧٩م. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٧٩. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٣٣. الذهبي، تاريخ، جـ ٤، ص ١٧٠.

٧ - تحول مسلم حين قدم عبيد الله بن زياد من الدار التي كان فيها إلى منزل هانىء بن عروة. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ٢٧٥.

٨ - الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢١.

تري بطلا قد هشم السيف وجهه ... وآخر يهوي من طمار قتيل[1]

ويكرر الجاحظ مساوئ بني أمية، والتي نفر الناس منها، فعدا عن أنهم جعلوا الخلافة ملكا كسرويا فإنه أيضا "غزو مكة، ورمي الكعبة، واستباحة المدينة، وقتل الحسين عليه السلام في أكثر أهل بيته مصابيح الظلام، وأوتاد الإسلام"[2].

والجاحظ يربط بين الأحداث حتى يثبت صحة روايته في موقف جيش يزيد من الحسين والظروف التي أحاطت بتلك الحادثة[3]. يشير في الرواية التالية إلى واقعة مقتل الحسين " قال الحسين بن على بن أبي طالب رحمة الله عليه قبل أن يقتل بليلة: إني رأيت في المنام كأن كلبا أبقع يلغ في دمائنا، فعبرته هذا الأبرص الضبابي يعني شمر بن ذي الجوشن. كان الرئيس في قتل الحسين ابن علي، والملك يزيد بن معاوية، وكان أمير العراق الذي جهز الجيش وعقد اللواء عبيد الله بن زياد، وكان صاحب الجيش وأمير الجماعة عمر بن سعد، وكان قائده الأكبر شمر بن ذي الجوشن، وكان الذي تولى قتله يزيد بن خولي، والذي حفظ ظهر يزيد حتى نزل إليه وحز رأسه سنان بن أنس. وسألت مشيخة بني صبير عن برص"[4].

ويظهر من رسالة الحجاب، أن الجاحظ أراد من خلالها نقد بني أمية، وعيبه عليهم في اتخاذهم الحجب كما كان الحال زمن دولة فارس واليونان، إذ وصف يزيد بأنه كان يحتجب عن الناس وهذه منقصة في من يحمل لقب الخلافة " خبرت أن هانئ بن قبيصة[5] وفد على يزيد بن معاوية، فاحتجب عنه أياما ثم لقيه وهو راكب للصيد: يا يزيد، إن الخليفة ليس بالمحتجب المتخلي، ولا المتطرف المتنحي، ولا الذي ينزل على الغدران والفلوات، ويخلو للذات والشهوات. وقد وليت أمرنا فأقم بين أظهرنا، وسهل إذننا، واعمل بكتاب الله فينا، فإن كنت قد عجزت عما هنا فاردد بيعتنا نبايع من يعمل فينا ويقيمه لنا ثم عليك بخلواتك وصيدك وكلابك "[6].

١- أمر عبيد الله بن زياد بهانيء فسحب إلى الكناسة فصلب. الجاحظ، رسالة في الأوطان والبلدان، ص١٠٩. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ٢٧٦.

٢- الجاحظ، رسالة في النابتة، ص٢٤٥.

٣- انظر: ابن خياط، تاريخ، ص١٤٦. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص٢٩١. ماجد، التاريخ السياسي، ص٦٨.

٤- الجاحظ، البرصان والعرجان، ص ١٢٩

٥- هانئ بن قبيصة بن جابر الأسدي الكوفي(ت: ٦٩ هـ / ٦٨٨ م) من رجال الحديث، الفصحاء، الفقهاء. يعد في الطبقة الأولى من فقهاء أهل الكوفة بعد الصحابة. السمعاني، الأنساب، جـ١، ص٣٩. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي(ت: ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م). تهذيب التهذيب، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد: ١٩٠٧م، جـ ٨، ص٣٨٨ (سيشار إليه فيما بعد: ابن حجر، التهذيب).

٦- الجاحظ، رسالة الحجاب، ص ٥٧٤

ومن مظاهر تلك الصورة السلبية التي رسمها الجاحظ ليزيد بن معاوية إبرازه بصورة المنشغل باللهو والملذات في حياته، جاء ذلك من خلال خطبة أبي حمزة الشاري " **ثم ولي يزيد بن معاوية، ويزيد الخمور، ويزيد القرود، ويزيد الفهود، الفاسق في بطنه، المأبون في فرجه، فعليه لعنة الله وملائكته ثم اقتصهم خليفة خليفة** "[١]. كما تتطابق الأوصاف التي أوردها الجاحظ عن يزيد بن عبد الملك بقوله: " **ثم ولي يزيد بن عبد الملك الفاسق في دينه، المأبون في فرجه**"[٢] مع ما ذكره المسعودي بقوله: "**كان يزيد بن الوليد أحول، وكان يلقب بيزيد الناقص، ولم يكن ناقصا في جسمه ولا عقله، وإنما نقص بعض الجند من أرزاقهم، فقالوا: يزيد الناقص** "[٣]. وعلى الرغم أن هذه الروايات وردت في كتاب البيان والتبيين الذي احتوى على إطراء وثناء للأمويين، إلا أن الروايتين السابقتين نقلهما الجاحظ عن خطبة أبي حمزة الشاري، فكثيرا ما ينقل الجاحظ الرواية دون أن يبدي رأيه فيها، بل يترك القارئ يحكم ويقرر.

كما اتهم الجاحظ الأمويين بتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة " **وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة من جنس جحْد الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسنن المنصوبة** "[٤]. وجحد الكتاب ورد السنة النبوية، إذ كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره إلا أن أحدهما أعظم، وعقاب الأخرة عليه أشد، فهذه أول كفرة كانت من الأمة " **جحد الكتاب ورد السنة؛ إذْ كانت السنة في شُهرة الكتاب وظهوره، إلا أن أحدهما أعظم، وعقاب الآخرة عليه اشد** "[٥].

كما يأخذ الجاحظ على بني أمية قيامهم بكل ما يمكن من أجل تثبيت ملكهم وفي سبيل ذلك قاموا:" **فأحسبْ أن تحويل القبلة كان غلطاً، وهدم البيت كان تأويلا، وأحسب ما رووا من كل وجه أنهم كانوا يزعمون أن خليفة المرء في أهله أرفع عنده من رسوله إليهم، باطلاً ومصنوعاً مولداً**"[٦]. وتفسير ما يشير إليه الجاحظ في أمر تحويل القبلة يرجع إلى سنة ٧٢هـ / ٦٩١م التي قام فيها الحجاج

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٨٤. تشابهت الخطبة مع خطبة أخرى أوردها الجاحظ في رسالة النابتة تناول فيها بني أمية، ص٢٤٦. كما أشار بلا أيضا إلى وجود تشابه بين الخطبتين، انظر: بلاء الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٩٨.

٢ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٨٤.

٣ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٤٤٣

٤- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٨.

٥- المصدر نفسه، ص٢٤٨.

٦- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٥.

بحصار عبدالله بن الزبير في مكة، إذ أن الحصار طال حتى آتى موسم الحج، فاستأذن الحجاج من ابن الزبير السماح لهم بالطواف فلم يأذن له لا بالطواف ولا بالوقوف بعرفة[1].

عدد الجاحظ من خلال أعمال بني أمية الجائرة على الإسلام والمسلمين، من ذلك قوله: **"حتى قام عبد الملك بن مروان، وابنه الوليد، وعاملهما الحجاج بن يوسف، ومولاه يزيد بن أبي مُسْلم، فأعادوا على البيت بالهدم، وعلى حرم المدينة بالغزو، فهدموا الكعبة، واستباحوا الحُرْمة، وحولوا قبلة واسط، وأخروا صلاة الجمعة إلى مُغيربان الشمس "**[2] فما أحدثه يزيد بن معاوية قام به عبد الملك بن مروان مرة أخرى[3]. كما يشير الجاحظ إلى ما قام به الحجاج بن يوسف الثقفي بأمر من عبد الملك بن مروان بضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق بعد محاصرة مكة متعمدا لقتل عبدالله بن الزبير بعد رفضه البيعة للخليفة. ونلاحظ أن الجاحظ يركز على موضوع هدم البيت في أكثر من رواية سالفة الذكر حتى يستثير عواطف الناس ويؤلب قلوبهم على بني أمية. أما تأخير الصلاة والجمع بينها فهذا ما أحدثه الحجاج[4].

وكانت صفة الجور، الصفة الغالبة على بني أمية تجاه رعيتهم " **.... فإن نطق مسلمٌ خبط السيف، وأخذته العمد، وشك بالرماح. وإن قال قائلٌ: اتق الله، أخذته العزة بالإثم، ثم لم يرض إلا بنثر دماغه على صدره، وبصلبه حيث تراه عياله"**[5]. الجاحظ بروايته يشير إلى أن القوم لم يكونوا إلا في طريق التمرد على الله والاستخفاف بالدين والتهاون بالمسلمين والابتذال لأهل الحق.

---

١ ـ البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص١١٩.

وقد ذهب ابن خياط واليعقوبي إلى: أن عبد الملك بن مروان منع الناس من الحج بقوله أن عبد الملك بن مروان عندما تولى الخلافة أراد أن يلفت أنظار الناس ويبعدهم عن مكة المكرمة حتى لا يجبرهم عبدالله بن الزبير على البيعة له، فأمر ببناء قبة الصخرة، ومرد ذلك أن اليعقوبي حمل في أحيان كثيرة على الدولة الأموية. ونشير إلى نقطتين: أولاهما أن اليعقوبي ذو ميول شيعية لذا يجب أخذ رواياته على حذر، والثانية: لم نجد في مصادر التاريخ الأخرى ما يسند روايته، فقد ورد عند ابن خياط: أقام الحج للناس عبد الله بن الزبير من سنة أربع وستين إلى أن حضر موسم اثنتين وسبعين فحج ابن الزبير بالناس ولم يقفوا الموقف وحج الحجاج بأهل الشام ولم يطوفوا بالبيت، إن المسألة تتمحور حول رغبة أهل الشام في الحج في السنة التي حاصروا فيها ابن الزبير، أما تفسير منعهم من قبل عبد الملك بن مروان بسبب الخوف من إجبارهم على البيعة لابن الزبير فهذا لا يقبله منطق الأحداث التي رافقت عملية حصار ابن الزبير. ثم لا يعقل أن يقوم عبد الملك بمحاولة تحويل قبلة المسلمين وحجهم إلى مكان غير مكة المكرمة. فلم تكن القدس أكبر اهتماماً لديه من مكة والمدينة، فبعد أن ضم الحجاز قام فوراً بأداء فريضة الحج إجلالاً لمكة، وكذلك فإن عبد الملك بن مروان أمر بالبدء في تعمير الكعبة المشرفة. تاريخ ابن خياط، ص٢٦٩. اليعقوبي، تاريخ، ص ٢١٤.

٢ـ الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٦.

٣ ـ الزويري، الإمامة، ص ٨١.

٤ـ الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣١٧. ابن خياط، تاريخ، ص ٣٨٢-٣٨٧. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٤، ص ٣٠٦

٥ـ الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٧

وفي الوقت نفسه، فقد عمل الجاحظ على إظهار جور بني أمية تجاه بني هاشم، ابتداءً من محاربة علي، إلى سَّم الحسن، وقتل الحسين، وسم أبي هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- ، وضرب الكعبة وتغيير موعد الصلاة. " **فاحسبوا قتله ليس بكفر، وإباحة المدينة وهتك الحُرمة ليس بحجة، كيف تقولون في رمْي الكعبة، وهدم البيت الحرام، وقبْلة المسلمين؟** "[1] كما كررها في رسالة النابتة[2]. " **وبسبب ما ارتكب بنو أمية من مخاز وفجور دالت دولتهم بسرعة وانتزع العباسيون الملك من أيديهم بالبطش والحيلة** "[3]. في إشارة منه أن زوال دولة بني أمية كانت بسبب بطشهم وتجبرهم على الناس.

ليس هذا فحسب، بل إن الجاحظ عمل على التقليل من شأن بني أمية، حتى في الصفات التي عرفت عنهم "**وإن أريد الموازنة بين ملوك بني العباس وملوك بني أمية في العطاء افتضح بنو أمية وناصروهم فضيحة ظاهرة. فإن نساء خلفاء بني العباس أكثر معروفا من رجال بني أمية، ولو ذكرت معروف أم جعفر**[4] **وحدها لآتى ذلك على جميع صنائع بني مروان. وذلك معروف. ولو ذكرت معروف الخيزران**[5] **وسلسبيل**[6] **لملأت الطوامير الكثيرة به، .... وإن شئت أن تذكر مواليهم وكتابهم فاذكر عيسى بن ماهان**[7]**، وابنه عليا**[8]**، وخالد بن برمك**[9] **وابنه يحيى، وابنيه جعفر والفضل، وكاتبهم منصور بن زيد**[1]**،**

١- المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

٢- المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

٣- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤١١

٤ - زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور وهي أم الأمين محمد بن هارون الرشيد سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الرواية عندهم بدينار، أسالت الماء عشرة أميال بحط الجبال حتى غلغلته من الحل إلى الحرم. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣١٤. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٤، ص ٣٧٢.

٥- الخيزران(ت: ١٧٣هـ / ٧٨٩ م) زوجة المهدي العباسي، وأم ابنيه الهادي وهارون الرشيد، وكانت من جواري المهدي، ولما مات وولي ابنها الهادي أخذت المواكب تغدو وتروح إلى بابها. وحاول الهادي منعها من ذلك حتى قال لها: إذا وقف ببابك أمير ضربت عنقه، وسعى في عزل أخيه الرشيد من ولاية العهد، وقيل: إنها علمت عزمه على قتل الرشيد. فأرسلت إليه بعض جواريها، وهو مريض، فجلسن على وجهه حتى مات خنقا. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٥٥١، ٦٠٤، ٦٠٥. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١١، ص٦، ص١١١.

٦ - أم ولد لجعفر بن المنصور، ابن قتيبة، المعارف، ص ٨٦.

٧- أبو جعفر الرازي عيسى بن ماهان ، ولد بالبصرة. ولد في حدود التسعين، في حياة بقايا الصحابة. حدث عن: عطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، وقتادة، والربيع بن أنس، وجماعة. زامل أبو جعفر الرازي والمهدي، توفي في حدود سنة ستين ومئة. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، ص١٦٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٣٤٦-٣٤٨.

٨ - من كبار قواد الدولة، وهو الذي أشار على الأمين بخلع أخيه المأمون من ولاية العهد، فأمره الأمين على أصبهان والجبال، وقدم جيش المأمون عليهم طاهر بن الحسين، فالتقى الجمعان، فكان علي بن عيسى أول قتيل. وذلك في سنة خمس وتسعين ومائة. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣٩٠-٣٩٦. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ١٣، ص ٣١٢.

٩- خالد بن برمك وزر لأبي العباس السفاح بعد أبي سلمة الخلال. ثم إنه وزر للمنصور سنة وأشهرا، ثم ولاه إمرة بلاد فارس، كان من أفراد الرجال رئاسة، ودهاء، وحزما، وخلفه في ذلك أولاده يحيى وجعفرا والفضل.

ومحمد بن منصور فتى العسكر[2]، **فإنك تجد لكل واحد من هؤلاء ما يحيط بجميع صنائع بني عبد شمس"**[3].

فهذه المقارنة بين خلفاء بني أمية ونساء بني العباس لم يوفق فيها الجاحظ البتة، بل إن النفس السوية لتنأى عن مثل هذه المقارنات لرجال خدموا الإسلام ردحا من الزمن. ومعلومٌ ما لخلفاء بني أمية من الفتوحات، وما خصهم الله عز وجل ويسره على أيديهم من نشر الإسلام وفيه انتشر العلم والفقه، ودُون الحديث، ودُون التفسير، وعم الرخاءُ في العالم الإسلامي. وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان كثيرٌ مِنْ عُمالِهِ في البلدان من بني أمية، وكذا عمال أبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم- وماتوا وهم عنهم راضون.

ولما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة كان راغبا في أن يسير بالناس سيرة عمر بن عبد العزيز لكنه فشل بسبب حاشية السوء[4] حيث انقلب حاله وأصبح مولعاً بالجواري والغناء **"واتخذ يزيد بن عبد الملك حبابة وسلامة[5]، وأدخل الرجال عليهن للسماع "**[6].

كما أشار الجاحظ إلى يزيد بن الوليد أنه كان مهملاً للخلافة طائشاً لا يُحسن تصريف الأمور مات مقتولاً[7] من قبل ابن عمه يزيد الثاني بن الوليد " **ولما قتل يزيد بن الوليد ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان "**[8].

كما نجد أن الجاحظ يحمل حتى على الكتاب المخضرمين الذين كتبوا لبني أمية وعاشوا في دولة بني العباس ويرميهم بالشؤم: **"فهذا عبد الحميد الكاتب[1] الذي كتب لبني امية**

مات في سنة خمس وستين ومئة. انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٣٧٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٢٨-٢٢٩.

١- لم نعثر على ترجمة له، إذ كثيرا ما يذكر الجاحظ أعلاما لم ترد في مصادر التاريخ الأخرى.

٢- كان من قواد هارون الرشيد كما أن والده كان كاتباً، أطلق عليه هارون الرشيد لقب فتى العسكر لسخائه وسريته. انظر: الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٦٦٥.

٣- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٣٢

٤- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٧٢. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص٣٧٢.

٥- سلامة مولدة من مولدات المدينة وبها نشأت. وإنما سميت سلامة القس لأن رجلاً يعرف بعبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي من قراء أهل مكة، وكان يلقب بالقس لعبادته، شغف بها وشهر، فغلب عليها لقبه. واشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان، وعاشت بعده، وكانت إحدى من اتهم به الوليد من جواري أبيه. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص١١٠. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص٤٣٤.

٦- الجاحظ، رسالة القيان، جـ ٢، ص١٥٩

٧- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٢٣٢. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٤٣٧- ٤٤٢.

٨- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٩٦

فانتقضت خراسان عليهم وزال ملكهم..."[2]. " ثم كتب لهم عبدُ الحميد وكان معلماً، وبتحامله على نصر بن سيار انتقضت خراسان، وزال ملك بني مرْوان"[3].

أورد الجاحظ بعض الخطب التي تتناول بني أمية وتنتقص من قدرهم، هذا على الرغم أن الجاحظ برر موقفه من أنها خطب متداولة لكن عملية انتقائها تدل على فحوى ما يرمي إليه الجاحظ، من ذلك أورد خطبة أبي حمزة الشاري[4] " وأما بنو أمية ففرقة الضلالة، بطشهم بطش جبرية، يأخذون بالظنة، ويقضون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويحكمون بالشفاعة، ويأخذون الفريضة من غير موضعها، ويضعونها في غير أهلها، وقد بين الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف، فقال: إنما الصدقاتُ لِلْفقراءِ والْمساكِينِ والْعامِلِين عليْها والْمُؤلفةِ قُلُوبُهُمْ وفِي الرقابِ والْغارِمِين وفِي سبِيلِ اللهِ وابن السبِيلِ. فاقبل صنف تاسع ليس منها فأخذها كلها. تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله"[5]. انطلق هدف الجاحظ في إيراد خطبة أبي حمزة من منطلق سياسي هدفه تنقيص خلافة بني أمية وإظهار عيوبها، ومن منطلق بياني تعريفا بما احتوته الخطبة من البيان.

أما الصورة الأخرى التي رسمها الجاحظ لخلفاء بني أمية، فقد كانت صورة إيجابية اتسمت بالمدح والثناء، يعرض من خلالها دور بني أمية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك فترة الخلفاء الراشدين، ثم دورهم في الدفاع عن الإسلام ونشره في عهد دولتهم. ينطلق الجاحظ من أبي سفيان صخر بن حرب[6] الذي يعده من أهم شخصيات بني أمية، ومن سادات

١- عبد الحميد الكاتب: يضرب به المثل في الكتابة والبلاغة. سكن الرقة وكتب الإنشاء لمروان بن محمد أخر خلفاء بني أمية. كان في الأول مؤدباً فتنقل في البلدان وعنه أخذ المترسلون ومنه يستمدون حتى قيل: فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد ومجموع رسائله نحو مائة. قتل مع مروان ببوصير في سنة اثنتين وثلاثين ومائة. التوحيدي، البصائر والذخائر، جـ ١، ص ٢٨، ١٩٠، ١٩٨. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٨، ص٤٧٠.

٢- الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، جـ ٢، ص ٣١٧

٣ - المصدر نفسه، ص ٢٠٢

٤ - المختار بن عوف الأزدي من أهل البصرة يوافي الموسم كلّ سنة يدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمّد وآل مرون، حتّى وافى عبد الله بن يحيى. فقال لعبد الله بن يحيى: يا رجل، إني أسمع كلاما حسنا وأراك تدعو إلى حق، فانطلق معي فإني رجل مطاع في قومي. فخرج حتى ورد حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى خلاف مروان وآل مروان. الطبري، تاريخ الطبري، جـ٤، ص ٣٠٢. ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ٣، ص ٢٥٦. للمزيد انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٩، ص ٢٨٩. المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص ٤٥٢. جـ ٢، ص٢١١.

٥- الجاحظ، البيان والتبين، جـ ٢، ص ٨٥

٦ - أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف(٥٧ ق هـ - ٣١ هـ / ٥٦٧ - ٦٥٢ م)، من سادات قريش في الجاهلية. والد معاوية رأس الدولة الأموية، قاد قريشا وكنانة يوم أحد ويوم الخندق لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم يوم فتح مكة(سنة ٨هـ/ ٦٢٩م) وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن. وشهد حنينا والطائف، ففقئت عينه يوم الطائف ثم فقئت الأخرى يوم اليرموك، فعمي، قال المسيب: فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل يقول: يا نصر الله اقترب. قال: فنظرت، فإذا هو أبو سفيان، تحت راية ابنه يزيد. ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبو سفيان عامله على نجران. ثم أتى الشام، وتوفي بالمدينة،

قريش في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان له مواقف جليلة مع الرسول صلى الله عليه وسلم، لعل منها ما أورده لنا الجاحظ **"وقد قال ابو سفيان بن حرب بن امية، عندما بلغه من تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بام حبيبة[1]، وقيل له: مثلك تنكح نساؤه بغير إذنه؟! فقال: ذلك الفحل لا يقرع أنفه"[2][3].**

فتمثل ثناء الجاحظ على بني أمية في صور متعددة من ذلك استشهاده بهم في كتاباته ورواياته وتحليلاته ونقده، مثل استشهاده بمعاوية بن أبي سفيان في رسالة كتمان السر وحفظ اللسان إذ يقول: " ...**قال معاوية: أتدري من النبيل؟ هو الذي إذا رأيته هبته، وإذا غاب عنك اغتبته. وهي لعمري سبيل العظماء عند العوام، والملوك عند الرعية، والسادة عند العبيد"**[4]. فقد تميز معاوية بعقلية فذة وخبرات واسعة حيث أن تقلبه في المناصب العسكرية والولاية المدنية أكسبته خبرة في سياسة البلاد. وأهم ما تفرد به قدرته على ضبط النفس عند الغضب.

كما أورد الجاحظ شعرا لابن الرقيات[5] في الأمويين:

وقيل بالشام. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص ٣٥٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٢، ص ١٠٥. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٥، ص ٢٤٠.

١ - رملة بنت أبي سفيان أم المؤمنين. تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي بالحبشة زوجه إياها النجاشي ومهرها أربعة آلاف درهم من عنده وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة وجهازها كله من عند النجاشي. توفيت بالمدينة سنة أربع وأربعين وقيل بدمشق وقد أتت تزور أخاها معاوية.البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ١، ص١٩٩، ص٤٣٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٢، ص ٢١٨. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٤، ص ٤٦٣.

٢ - عندما خطب النبي، صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة، استأذنت أباها في أن تتزوجه، فأذن لها في ذلك وقال: هو الفحل لا يقرع أنفه يقصد هذا الكفء الذي لا يرد نكاحه ولا يرغب عنه. لسان العرب، جـ ٤، ص١٥٩. جـ ٨، ص ١٤.

٣- أشار الواقدي لما قدم أبو سفيان المدينة، عندما عزم النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة، كلمه في أن يزيد في الهدنة. فلم يقبل عليه الصلاة والسلام. فقام أبو سفيان فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي صلى الله عليه وسلم طوته دونه. فقال: يا بنية، أرغبت بهذا الفراش عني، أم بي عنه ؟ قالت: بل هو فراش رسول الله. الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي(ت: ٢٠٧ هـ / ٨٢٣ م). المغازي، ط ٣، مؤسسة الأعلمي، بيروت: ١٩٦٦م، جـ ٢، ص ٧٩٢ (سيشار إليه فيما بعد: الواقدي: المغازي). ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري(ت: ٢٣٠هـ / ٨٤٤م). الطبقات الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٧م، جـ ٨، ص١٠٠ (سيشار إليه فيما بعد: ابن سعد، الطبقات). الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٣٠.

٤- الجاحظ، رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، جـ ١، ص ١٠٥

٥- هو عبيد الله بن قيس (ت: ٨٥هـ / ٧٠٤م)، من بني عامر بن لؤي، وإنما سمي الرقيات لأنه له عدة جدات يسمين رقية . ولما قتل مصعبٌ وصار الأمر إلى عبد الملك بن مروان أتى عبيد الله بن قيس عبد الله بن جعفر

"ما نقموا من بني أمية إلا ... أنهم يحلمون إن غضبوا

وأنهم معدن الملوك ولا ... تصلح إلا عليهم العرب"[1]

أورد الجاحظ البيتين في كتاب البيان الذي رفع فيه من شأن بني أمية وبلاغتهم، وأبدى إعجابه بدولتهم كما سنأتي عليه تاليا.

أشار الجاحظ أن دولة بني أمية دولة عربية بينما وصف دولة بني العباس بأعجمية خراسانية **"وقد يجب أن نذكر بعض ما انتهى إلينا من كلام خلفائنا من ولد العباس، ولو أن دولتهم أعجمية خراسانية، ودولة بني مروان عربية أعرابية وفي أجناد شامية"[2]**، وقد فسر الكثير من المؤرخين كلامه على أن دولة بني العباس قامت على سواعد الفرس وهذا راجع إلى الخطأ في فهم الرواية[3]، ، وسنفسر ذلك من خلال رواية الجاحظ نفسه بقوله: **" وقد نرى الناس أبناء الأعراب والأعرابيات الذين وقعوا إلى خراسان فلا شك أنهم علوج[4] القرى"[5]** حيث تؤكد هذه الإشارة سكن العرب في القرى وامتزاجهم بالسكان المحليين، والجاحظ ينبه أيضا أن اصطلاح أهل خراسان ليس اصطلاحاً عرقياً بل حضارياً **" ولو أن أهل خراسان حفظوا على أنفسهم وقائعهم في أهل الشام، وتدبير ملوكهم، وسياسة كبرائهم، وما جرى في ذلك من فرائد الكلام وشريف المعاني، كان فيما قال المنصور وما فعل في أيامه، وأسس لمن بعده ما يفي بجماعة ملوك بني مروان "[6]** فدولة بني أمية قامت على سواعد عربية وينطبق نفس الشيء على دولة بني العباس التي كانت منطلق الثورة فيها من عرب خراسان[7].

يستشفع به إليه. فقال عبد الملك: قد عفونا عنه ولا يأخذ مع المسلمين عطاءً. انظر: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري(ت: ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م). الشعر والشعراء، تحقيق عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت: ١٩٩٧م، ص٥٣٠ (سيشار إليه فيما بعد: ابن قتيبة، الشعر والشعراء). الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٦، ص٣١٥.

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٣٥

٢- المصدر نفسه، ص ٢٣٥

٣ - ذكر الدكتور علي محمد في كتابة تيار الشعوبية أن المقصود من الرواية أن الدولة العباسية قد تشكلت بفعل الموالي وأخذت صبغة أعجمية، وهذا تحليل خاطئ بسبب أن عبارة الجاحظ ترجع إلى موضوع أصل سكان خراسان وليس الأمور الإدارية كما ظن الكاتب. والخطأ الذي وقع فيه الكاتب وقع فيه غيره بسبب الخطأ في تحليل وفهم روايات الجاحظ. خليفة، تيار الشعوبية، ص٥٨.

٤ - العلج: الشديد والغليظ من الرجال. لسان العرب، جـ ٢، ص ٣٢٦.

٥- الجاحظ، رسالة فخر السودان على البيضان، ص ٥٥٥

٦- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٣٧.

٧- أشار بلا أن هذه العبارة تدل على التحول العميق في طريقة كتابة التاريخ، فقد كانت الأخبار في القرن الأول الهجري والتي دونت فيما بعد واعتمد عليها المؤرخون تعنى بالأقوال أكثر منها بالأفعال التي صدرت،

نظرة الجاحظ نحو بني أمية في هذا المحور تتمثل بالمدح والثناء نظرا للموقف السياسي العام السائد نحو بني أمية بعد تولي المتوكل الخلافة، وهو موقف سلمي يخلو من النبرات العدائية نحو بني أمية وإن كان جاء متأخراً. فلا ينكر الصفات الحميدة التي تحلو بها، من ذلك وصفهم بمكارم الأخلاق " **كانت بنو أمية لا تقبل الراوية إلا أن يكون راوية للمراثي. قيل: ولم ذاك؟ قيل: لأنها تدل على مكارم الأخلاق** "[1].

أورد الجاحظ خصال معاوية منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك صفات إعانة المحتاجين والفقراء، يقول الجاحظ: " **يكتب إلى أطرافه وعماله وإلى زياد في العراق بإطعام السابلة والفقراء وذوي الحاجة، وله في كل يوم أربعون مائدة يتقاسمها وجوه جند الشام**"[2]. والملاحظ على الجاحظ في حديثه عن الأمويين في كتاب البيان أنه يبتعد في أحكامه عن الهوى والعاطفة[3]. ودليل ذلك أنه لا يخفي مواقفه المعجبة بسياساتهم ومهاراتهم في الإدارة وكذلك ببلاغتهم في الخطابة.

كما أشاد الجاحظ بصفة الحلم في معاوية " **قال معاوية: إذا لم يكن الهاشمي جوادا لم يشبه قومه، وإذا لم يكن المخزومي تياها لم يشبه قومه، وإذا لم يكن الأموي حليما لم يشبه قومه**"[4]. ولم يكن كل أموي حليماً فلم توجد هذه الصفة عند يزيد بن معاوية ولكنها وجدت عند معاوية بن أبي سفيان الذي عرف عنه الحلم[5]. لقد كان حلم معاوية ورحابة صدره مضرب المثل، وأخباره في ذلك كثيرة[6].

يشير الجاحظ إلى ما اتصف به معاوية من البلاغة بقوله: "**حتى إن معاوية مع تخلفه عن مراتب أهل السابقة، أملى كتابا إلى رجل فقال فيه: لهو أهون علي من ذرة، أو كلب من كلاب الحرة، ثم قال:**

عن أصحابها. الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص١٧٢. انظر أيضا: فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص٤١٠ وما يليها.

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢١٨

٢- التاج في أخلاق الملوك (منسوب للجاحظ). تحقيق أحمد زكي باشا. دار الفكر: بيروت، ١٩٥٥م. ص ١٥.(سيشار إليه فيما بعد: التاج منسوب للجاحظ).

٣ - EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JÄHIZ,p٢٠١

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص٢٨٤

٥ - قال معاوية: إن الحلم عز، والجهل ذل، فمن حلم ظفر، ومن جهل خسر. مجهول، أخبار العباس وولده، ص٦١.

٦- انظر: ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان(ت: ٢٨١هـ / ٨٩٤م). حلم معاوية، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، بيروت: ٢٠٠٣م، جـ ١، ص ١٩ وما يليها (سيشار إليه فيما بعد: ابن أبي الدنيا، حلم معاوية).

امح: من كلاب الحرة، واكتب: من الكلاب. كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع، وأرى أنه ليس في موضعه "[1].

والمفارقة أن الجاحظ يصف يزيد بن معاوية بالخطابة، وعده من خطباء بني أمية "ومن خطبائنا يزيد بن معاوية، كان أعرابي اللسان بدوي اللهجة. قال معاوية: وخطب عنده خطيب فأجاد- لأرمينه بالخطيب الأشدق. يريد يزيد ابن معاوية "[2]. إذ وردت الإشارة له في باب مفاخر بني عبد شمس بالخطابة.

يشيد الجاحظ بجهود عبد الملك بن مروان في إعادة الأمن والاستقرار للدولة، وإخضاعه للخوارج، كما استطاع من خلال قائده الحجاج أن يخمد ثورات العراق ويقضي على ثورة عبد الله بن الزبير بعد حصار مكة الذي دام سبعة أشهر[3] " وقُتل عبد الله بن الزبير في محاربة الحجاج" [4]، كما قضى على أخيه مصعب من قبل " ودخل عبيد الله على عبد الملك بن مروان بعد أن أتاه برأس مصعب ابن الزبير ومعه ناس من وجوه بكر بن وائل "[5].

لم يخف الجاحظ إعجابه بسياسة عبد الملك بن مروان الذي كان حريصاً على مقابلة رعيته، ونستشف من خلال الأخبار والأقوال والأشعار التي ساقها الجاحظ كره العرب للحجابة التي توضع بين الحاكم والشعب ورغبتهم في تمتين الصلة بينهما حتى أنه أوصى أخاه عبدالعزيز وكان والياً على مصر قال له :" إن الناس قد أكثروا عليك، ولعلك لا تحفظ، فاحفظ عني ثلاثا. قال: قل يا أمير المؤمنين. قال: انظر من تجعل حاجبك، ولا تجعله إلا عاقلا فهما مفهما، صدوقا لا يورد عليك كذبا، يحسن الأداء إليك والأداء عنك. ومره ألا يقف ببابك أحد من الأحرار إلا أخبرك، حتى تكون أنت الإذان له أو المانع؛ فإنه إن لم يفعل كان هو الأمير وأنت الحاجب. وإذا خرجت إلى أصحابك فسلم عليهم يأنسوا بك. وإذا هممت بعقوبة فتأن فيها؛ فإنك على استدراكها قبل فوتها أقدر منك على انتزاعها بعد فوتها"[6].

١- الجاحظ، رسالة مدح التجار وذم عمل السلطان، ص ٢٤٠

٢- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٣٩

٣- أرسل عبد الملك بن مروان الحجاج لحرب ابن الزبير في ذي القعدة سنة ٧٢ هـ/ ٦٩١م. وكتب الحجاج إلى عبد الملك بحصار ابن الزبير وظفره بأبي قبيس فلما ورد كتابه كبر عبد الملك، فكبر من معه في داره، واتصل التكبير بمن في جامع دمشق فكبروا، واتصل ذلك بأهل الأسواق فكبروا، ثم سألوا عن الخبر فقيل لهم: ان الحجاج حاصر ابن الزبير بمكة وظفر بجبل أبي قبيس. ابن خياط، تاريخ، ص ٣٢٩، الطبري، تاريخ، جـ٣، ص٥٤١، ٥٨٣.

٤- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٩. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص٢٧١

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٤٣

٦- الجاحظ، رسالة الحجاب، ص٥٧١

كما أورد الجاحظ الصراع الذي دار بين عبد الملك بن مروان من جهة وعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب[1] من جهة أخرى وذلك عندما تناول موقف الروم من الصراع الذي كان دائراً بين ابن الزبير وعبد الملك " لما تشاغل عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزبير، اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم فقالوا له: قد أمكنتك الفرصة من العرب، بتشاغل بعضهم مع بعض، لوقوع بأسهم بينهم، فالرأي لك أن تغزوهم إلى بلادهم، فإنك إن فعلت ذلك بهم نلت حاجتك، فلا تدعهم حتى تنقضي الحرب التي بينهم فيجتمعوا عليك! فنهاهم عن ذلك وخطأ رأيهم، فأبوا عليه إلا أن يغزوا العرب في بلادهم. فلما رأى ذلك منهم أمر بكلبين فحرش بينهما، فاقتتلا قتالا شديدا، ثم دعا بثعلب فخلاه، فلما رأى الكلبان الثعلب، تركا ما كانا فيه، وأقبلا عليه حتى قتلاه، فقال ملك الروم: كيف ترون!؟ هكذا العرب، تقتتل بينها، فإذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا فعرفوا صدقه، ورجعوا عن رأيهم"[2].

ونالت شخصية الحجاج حيزاً من اهتمامات الجاحظ، فقد أشار إلى شخصيته وقدراته السياسية والعسكرية التي كانت سبباً في بروزه وفي تقريب عبد الملك بن مروان له، إذ أن قضاءه على ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز كانت من العوامل التي ساهمت في أن يوليه عبد الملك بن مروان ولاية العراق، ويشير الجاحظ إلى تلك الحادثة بقوله: " خرج الحجاج يريد العراق واليا عليها، في اثني عشر راكبا على النجائب، حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار، وقد كان بشر بن مروان بعث المهلب إلى الحرورية[3]، فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله، ثم صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء، فقال: علي بالناس! فحسبوه وأصحابه خوارج، فهموا به، حتى إذا اجتمع الناس في المسجد قام فكشف عن وجهه، ثم قال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

أما والله إني لأحتمل الشر بحمله، واحذوه بفعله، وأجزيه بنعله، ... إني والله يا أهل العراق، والشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، ما أغمز تغماز التين[4]، ولا يقعقع لي بالشنان[5]، ولقد فررت عن ذكاء

١- كان أميرًا على العراق في خلافة أخيه عبد الله بن الزبير. وقتل أمام جيش الأمويين بقيادة عبد الملك بن مروان ٧١هـ / ٦٩١م. وأمر الحجاج بقطع رأسه وبعث به إلى أخيه عبد الله بن الزبير في مكة. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٣٢٧، ٣٢٨.

٢- الجاحظ، الحيوان، جـ ٢، ص ٣٢٣

٣ - لما قدم علي بن أبي طالب إلى الكوفة من صفين خاصمته الحرورية، فلما رأى ذلك علي أرسل إليهم إنا نوادعكم إلى مدة نتدارس فيها كتاب الله لعلنا نصطلح. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٣٥٣.

٤ - استضعفه وعابه وصغر شأنه وجهلة في العقل. لسان العرب، جـ ٥، ص ٣٨٩.

٥ - البغضة. ويقال: شنئت الرجل أي أبغضته. لسان العرب، جـ ١، ص ١٠١ – ١٠٢.

وفتشت عن تجربة، وجريت من الغاية. إن أمير المؤمنين كب كنانته ثم عجم عيدانها، فوجدني أمرها عودا، وأصلبها عمودا، فوجهني إليكم، فإنكم طالما أوضعتم في الفتن.."[١]

كان الوليد بن عبد الملك يعتز بالحجاج بن يوسف لأنه وطد له العراق ولوالده عبد الملك، كما كان الحجاج صاحب فكرة البيعة للوليد حيث أوفد في ذلك وفداً[٢]، ويتوافق هذا مع ما ذكره الجاحظ " **خطب الوليد بن عبد الملك فقال: إن أمير المؤمنين كان يقول: إن الحجاج جلدة ما بين عيني، ألا وإنه جلدة وجهي كله** "[٣] وهذا ليس بغريب فقد وطد الحجاج لبني مروان العراق الذي كان لا يبقى فيه والٍ بسبب الثورات والاضطرابات.

امتاز الحجاج بالبلاغة والفصاحة، وكان هذا سر إعجاب الجاحظ بخطبته التي أورد بعضاً منها في كتابه البيان والتبيين، والتي من خلالها يلاحظ موقف الحجاج من أهل العراق"**خرج الحجاج يوما من القصر بالكوفة، فسمع تكبيرا في السوق، فراعه ذلك، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصل على نبيه ثم قال: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوىء الأخلاق، وبني اللكيعة**[٤]**، وعبيد العصا**[٥]**، وأولاد الإماء**[٦]**، والفقع بالقرقر**[٧]**. إني سمعت تكبيرا لا يراد به الله، وإنما يراد به الشيطان**"[٨] استعمل الحجاج في هذه الخطبة كل تقريع وشتم بعد أن رأى غمز القوم ولمزهم على رسالة عبد الملك بن مروان.

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢١٠. وردت الخطبة بنصها عند كل من: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص٢٧٤. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٥، ص ٢٧٩. ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ٢، ص٢٥٦. النويري، نهاية الأرب، جـ ٦، ص٣٤.

٢- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٦٦٤. ابن الأثير، الكامل، جـ ٤، ص ٥١٣.

٣- الجاحظ، البيان والتبيين جـ ١، ص٢٤٢.

٤- اللكيع قليل الخير وخبيث الفعال شحيحا. لسان العرب، جـ ٨، ص ٣٢٤،

٥- وهم عبيد العصا، أي: يُضربون بها. يقصد أنهم لا ينقادون إلا بالإذلال. كان حجر بن الحارث أبو امرئ القيس ملك بني أسد وكان له عليهم إتاوة كل سنة لما يحتاج إليه فبقي كذلك دهرا ثم بعث إليهم من يجبي ذلك منهم وحجر يومئذ بتهامة فطردوا رسله وضربوهم فبلغ ذلك حجرا فسار إليهم فأخذ سرواتهم وخيارهم وجعل يقتلهم بالعصا فسموا عبيد العصا. المبرد، الكامل في اللغة، جـ ١، ص ٧١. لسان العرب، جـ ١٥، ص ٦٦، صفوت، جمهرة خطب العرب، جـ ١، ص٧٩.

٦- يقصد أن العرب تنكح إماء الروم فتستعمل عليكم أولاد الإماء، وهم من بني العرب وهم سود ومن بني الروم وهم بيض، ولم تكن العرب قبل ذلك تنكح الروم إنما كان إماؤها سودانا، والعرب تقول: أتاني الأسود والأحمر يعني العرب والعجم، ولم يرد أن أولاد الإماء من العرب بقع كبقع الغربان، وأراد أنهم أخذوا من سواد الآباء وبياض الأمهات. لسان العرب، جـ ٨، ص ١٧

٧- الشؤم والشر. لسان العرب، جـ ٥، ص ٨٦.

٨- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص٩٤

كانت خلافة عمر بن عبد العزيز علامة فارقة في تاريخ بني أمية، فقد تناولها الجاحظ بكثير من الإعجاب، فقد أشار إلى عمر بن عبد العزيز عندما تولى الخلافة أنه غطى الأجزاء المزخرفة من الجامع عن الناس حتى لا يشغل الناس عن الصلاة "، فلما قام عمر بن عبد العزيز، جلله[1] بالجلال[2]، وغطّاه بالكرابيس[3]، وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق؛ وذهب إلى أن ذلك الصنيع مجانب لسنة الإسلام، وأن ذلك الحسن الرائع والمحاسن الدقاق، مذهلة للقلوب، ومشغلة دون الخشوع، وأن البال لا يكون مجتمعا وهناك شيء يفرقه ويعترض عليه"[4] حيث يعد عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين لما كان عليه من الزهد فعندما كان يكتب للشعب كان يضيء شمعة من بيت مال المسلمين وعندما كان يكتب أمورا خاصة به كان يضيء شمعة من ماله[5].

وفي الوقت نفسه أظهر الجاحظ إعجاب عمر بن عبد العزيز بالبيان " وسمع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه رجلا يتكلم فابلغ في حاجته، فقال عمر: هذا والله السحر الحلال"[6] كما أن الخطبة التي أوردها الجاحظ على لسان أبو حمزة في معاوية وبني أمية وأشار فيها إلى أبي حمزة سكت عندما جاء على عمر بن عبد العزيز " فلما انتهى إلى عمر بن عبد العزيز أعرض عنه، ولم يذكره"[7]. فتناول الجاحظ لسيرة عمر بن العزيز منطلقا من المثل التي سار عليها الخليفة والتي ماثلت الحال زمن الخلفاء الراشدين.

ولعل موقف عمر بن عبد العزيز من أبناء علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- يتجلى فيما ذكره الجاحظ عند قدوم عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب على عمر الذي أكرم وفادته[8] " ولما قدم عبد الله بن الحسن بن الحسن رضي الله عنهم، على عمر بن عبد العزيز- رضي الله عنه- في حوائج له، فلما رأى مكانة بالشام، وعرف سنه وسمته وعقله، ولسانه، وصلاته

١- غطّاه. لسان العرب، جـ ٧،ص ٣١٨

٢- السعف. لسان العرب، جـ ٩،ص ٢٦٩

٣- القطن. لسان العرب، جـ ٦،ص ١٩٥.

٤- الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ٣٤.

٥- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(ت: ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م). مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، تقديم سعيد اللحام، مكتبة الهلال، بيروت: ٢٠٠٣م، ص ٧٥ (سيشار إليه فيما بعد: ابن الجوزي، مناقب عمر بن عبد العزيز).

٦- الجاحظ، رسالة صناعة القواد، ص ٣١٤

٧- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص٩٤

٨ - قدم عبد الله بن الحسن على عمر بن عبد العزيز وكان له منزلة عنده، فقال له عمر: إنك لن تغنم غنيمة ولا يغنمها أهلك خير من نفسك. فرجع عبد الله فأتبعه حوائجه. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٣، ص٨٤. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ٤٣٣. ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ ٢١، ص ٧

وصيامه، فلم يكن شيء أحب إليه من ألا يراه أحد من أهل الشام، فقال له: إني أخاف عليك طواعين الشام[1]؛ فإنك لن تغنم أهلك أكثر منك، فالحق بهم؛ فإن حوائجك ستسبقك إليهم"[2]. فقد خافوا عليه المقام في الشام. كما اتصف عبد الله بن الحسن بالبيان وحسن التدبير[3].

تولى هشام بن عبد الملك الخلافة فاهتم بترسيخ الأمن في الولايات الإسلامية كافة، وازدهرت في عصره الحضارة الإسلامية ووصلت إلى مستوى من التقدم في شتى المجالات[4]، واشتهر عهده بازدياد الاهتمام بالعلماء وتم إنشاء المزيد من دور العلم والمدارس التخصصية ودور العبادة كما ازدهرت فنون العمارة الأموية الإسلامية المميزة للعهد الأموي حيث تميزت ببناء القصور والحصون التي انتشرت في دمشق والشام وأرجاء البلاد الإسلامية. وعلى الرغم من أن هشاماً كان إدارياً مقتدراً لكن الجاحظ لا يذكر عنه شيئاً إلا النزر اليسير عندما وقف هشام على نهر الفرات قال: " ووقف هشام بن عبد الملك على الفرات، ومعه عبد الرحمن بن رستم[5]، فقال هشام: ما في الأرض نهر خير من الفرات! فقال عبد الرحمن: ما في الأرض نهر شر من الفرات، أوله للمشركين، وآخره للمنافقين"[6]. وهذه الرواية التي لم نجد لها تفسير، تحمل دلالات سياسية حول وقوع بعض الأقاليم شمال العراق على حدود البلاد الإسلامية وما يحتمل ذلك من الصراع بينهم.

ثم تولى الخلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك، عندما بايعه الناس جاءه خبر بتلكؤ ابن عمه مروان بن محمد في مبايعته فأرسل إليه " بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد، إلى مروان بن محمد. أما بعد فإني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت. والسلام "[7]، حيث عد الجاحظ صنيعه هذا دليل على أصالة الرأي، وعلى تمام النفس، وعلى الصلاح والكمال[8]

١- كانت الشام كثيرة الطواعين ثم تمتد إلى العراق وأول طاعون وقع في الشام في الإسلام طاعون عمواس وذلك في زمن عمر بن الخطاب وفيه مات معاذ بن جبل وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما ثم الجارف ثم طاعون العذارى ثم طاعون الأشراف. الثعالبي، ثمار القلوب، جـ ١، ص ٥٤٦.

٢- الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٧٣.

٣ - المصدر نفسه، جـ ٣، ص ٢٢٦.

٤- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ١١١. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص٣٩٤.

٥- لم نعثر على ترجمة هذا الشخص، وهذا ليس عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية في المغرب بسبب البعد الزمني والمكاني بينهما. فالجاحظ كثيراً ما يذكر شخصيات غير معروفة.

٦- الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ١٢٣

٧- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٤٩

٨- المصدر نفسه، ص ٢٤٩

كما أورد الجاحظ شعر أبي العباس الأعمى[1] الذي قاله في مروان بن محمد أخر خلفاء بني أمية:

" آمت نساء بني أمية منهم .... وبنوهم بمضيعة أيتام

نامت جدودهم وأسقط نجمهم ... والنجم يسقط والجدود تنام

خلت المنابر والأسرة منهم ...... فعليهم حتى الممات سلام"[2]

لقد تبدلت مواقف الجاحظ السياسية تجاه بني أمية نتيجة لتغير الظروف والأحوال التي عاشها، إذ عاصر ما يقرب من أحد عشر من الخلفاء العباسيين، فكان الجاحظ لسان حال السلطة العباسية، يتجه حسب ما تتجه له السلطة سواء كان قبولا وترضي من جماعة أم فرقة أم كان عداء ونفورا من جماعة أخرى. فكان ولاؤه مع ولاء السلطة العباسية، فنتج عن ذلك تبدل مواقف الجاحظ السياسية. فنجده مثلا في رسالة النابتة يصف خلفاء بني أمية بالفسق والكفر " وقد كانت هذه الأمة لا تجاوز معاصيها الإثم والضلال، إلا ما حكيت لك عن بني أمية وبني مروان وعمالها، ومن لم يدِنْ بإكفارهم، حتى نجمت النوابت، وتابعتها هذه العوام، فصار الغالب على هذا القرن الكفر، وهو التشبيه[3] والجبر[4]، فصار كفرهم أعظم من كُفر من مضى في الأعمال التي هي الفسق، وصاروا شركاء من كفر منهم، بتوليهم وترك إكفارهم"[5] إن تهمة التشبيه والتجسيم للشيعة كانت موجودة في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، فمنذ أن راج وطفح كيله مجه الناس، فاتهمت به السلطة معارضيها، أي صارت هذه التهمة تعلق على من تريد السلطة التخلص منه[6].

---

١ ـ مولى بني جذيمة بن عليّ بن الديل: سمع عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان منحرفا عن آل أبي طالب مائلا إلى بني أمية مادحا لهم. توفي أبو العباس الأعمى بعد ست وثلاثين ومائة. الحموي، معجم الأدباء، جـ ٣، ص ٣٤٤. الكتبي، الوافي بالوفيات، جـ ٢، ص ٤١.

٢ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٣٢

٣ـ المشبهة هي طائفة من الطوائف الإسلامية التي شبهت الله بخلقه، ووصفته بأنه يشبه المخلوقات، أول من قال بالتشبيه هم البيانية، وهي فرقة من غلاة الروافض، وأول من نشر التشبيه في الأمة هو هشام بن الحكم الشيعي. البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢١٤، الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١٠٨

٤ـ الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب، والجبرية أصناف فالجبرية الخالصة لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل بالأصل، وأما الجبرية المتوسطة فتثبت للعبد قدرة غير مؤثرة. البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٣٢٨، الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٨٥

٥ـ الجاحظ، رسالة في النابتة، ص٢٤١.

٦ـ ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد (ت: ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م). ذيل طبقات الحنابلة، دار المعرفة، بيروت: ١٩٥٢م، ص ١١١ (سيشار إليه فيما بعد: ابن رجب، ذيل طبقات).

الفصل الثالث: رؤية الجاحظ في عصر العباسيين الأوائل

أولاً: الدعوة وإعلان الخلافة العباسية

ثانيا: التوريث الأسري (التسلسل التاريخي للعباسيين الأوائل)

ثالثاً: صورة الخلفاء العباسيين وسياستهم

أولاً: الدعوة وإعلان الخلافة العباسية

لقد اعتمد العباسيون الأوائل في تنظيم حركتهم على التنظيم السري، وذلك بسبب ما تعرض له آل البيت من نكبات إبان العهد الأموي، وما عمدت إليه الدولة الأموية من القضاء على الحركات العلوية وعلى زعمائها بشكل خاص، وتقوم الدعوة السرية حول إمام من آل البيت يدير دفة هذه الحركات السرية، ويرعى هذه التنظيمات ويوجه النقباء والدعاة ويقودهم[1].

لم يتناول الجاحظ الكيفية التي كان عليها التنظيم السري للدعوة العباسية. لكنه أشار بصورة مقتضبة عن حال أبي العباس في الكوفة، وحال الدولة العباسية في بدايتها بعد سقوط الدولة الأموية عندما عرض موقف سعيد بن عمرو بن جعدة[2] مع أبي العباس عندما حمل رأس الخليفة مروان بن محمد[3] إليه **"قام سعيد بن عمرو، فأكب عليه قياماً، ثم قال: هذا رأس أبي عبد الملك، خليفتنا بالأمس، فوثب أبو العباس، فطعنه في حجره. وانصرف ابن جعدة إلى منزله، وتحدث الناس بكلامه، وقالوا: عرضتنا ونفسك للبوار. فقال: اسكتوا. قبحكم الله الستم الذين أشاروا علي بالأمس بحران بالتخلف عن مروان، ففعلت في ذلك غير فعل أهل الوفاء والشكر؟ وما ليغسل عني عار تلك الفعلة إلا هذه. وغدا الشيخ، فإذا هو بسليمان بن مجالد[4]. فلما بصر به، قال: يا ابن جعدة الا أبشرك بجميل رأي أمير المؤمنين؟ إنه ذكر في هذه الليلة، ما كان منك، فقال: والله ما أخرج ذلك الكلام من الشيخ إلا الوفاء، ولهو أقرب منا قرابةً"**[5] فالرواية تكشف حال الأمويين في كنف الدولة العباسية وكيف غدت رموزها موضع شبهة وتوجس، كما توضح موقف الخلفاء العباسيين من الدولة الأموية وإن كان الجاحظ يقف مدافعا عن السلطة العباسية.

١- الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٣٠٥، ٣٠٧. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٧، ص ٢٧٠. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٤١- ١٤٤. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٠، ص٢٨. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ ٣، ص١٠٠- ١٠٢.

٢- قدم البصرة داعية لمروان بن محمد في الفتنة بعد قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك وإظهار مروان الطلب بدمه، فلم يتم له ذلك، وجعل يعدهم الأموال ويمنيهم أن تأتيهم الأعطية من قبل مروان. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٨، ص ٢٣٥.

٣- مروان بن محمد بن مروان بن الحكم يقال له مروان الجعدي، كان بنو أمية يكرهون الإماء لأنه بلغهم أن ذهاب ملكهم على رأس أمة ومروان أمة كردية وقيل له الجعدي لأن جعد بن درهم الزنديق غلب عليه. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٦، ص ٥٤

٤ - سليمان بن مجالد بن أبي مجالد الوزير، من أهل الأردن، كَانَ أخا أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين من الرضاعة، وَكَانَ معه بالحميمة من أرض الشام فلمّا أفضت إليه الخلافة قربه وأدناه، وَكَانَ معه كالوزير، وقدم معه بغداد حين بناها وولّاه الريّ وولي لَهُ الخزائن إلى حين وفاته. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، ص١١، ٢٣٤، ٢٦٨. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٥، ص١٣٨.

٥- التاج (منسوب إلى الجاحظ)، ص ٧٥

كما وردت إشارات مقتضبة عن بعض الدعاة مثل حديثه عن سليمان بن كثير الخزاعيّ وهو أحد النقباء الذين أرسلهم إبراهيم الإمام إلى خراسان[١]، كما أشار إلى أبي مسلم واصفا إياه بأنه "**صاحب الدعوة، وكان حسن الألفاظ جيد المعاني**"[٢].

أكد الجاحظ على دور العرب في الدعوة العباسية وأنها قامت على أكتافهم بقوله: "**ولم يقض على عمال الأمويين وخليفتهم الأخير مروان بن محمد إلا عرب الدعوة. ولم يفتح الهند إلا موسى بن كعب، ولم يفتح افريقية إلا محمد بن الأشعث وكلهم عرب أقحاح**"[٣]. كذلك فإن الدعاة كانوا من العرب كما أكد الجاحظ ذلك بقوله " **وهل أكثر النقباء إلا من صميم العرب، ومن صليبة هذا النسب** "[٤]. وقد وردت هذه الرواية عند الجاحظ في أكثر من مصنف هادفا من وراء ذلك إلى تأكيد عروبة الدعوة العباسية[٥].

كما لعب العرب في خراسان الدور الأكبر في القيام بالدعوة "**وخرج أبو مسلم**[٦] **في يومه من الكوفة ومضى على وجهه إلى خراسان وقد قوى بها أمر المسودة جدا وانتشرت الدعوة العباسية إلى أن صار في كل بلد من شيعة بنى العباس**"[٧] والجاحظ لا يختلف معهم في ذلك إذ يؤكد على دور العناصر العربية في خراسان " **وذكر أن الخراساني يقول: نحن النقباء وأبناء النقباء، ونحن النجباء وأبناء النجباء، ومنا الدعاة، قبل أن تظهر نقابة، أو تعرف نجابة**"[٨].

---

١ ـ الجاحظ، البرصان والعرجان، ص ١٩٠.

٢ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص٧٩.

٣- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٧٧

٤ ـ المصدر نفسه، ص ٤٨٣

٥ ـ الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ١٨١. هياجنه، الجاحظ مؤرخا، ص ٩٥.

٦- عبدالرحمن بن عثمان الخراساني(ت:١٠٠- ١٣٧هـ/٧١٨-٧٥٥م) ظهر بمرو وكان الوالي على خراسان نصر بن سيار، نائب مروان بن محمد فكان ظهوره يومئذ في خمسين رجلا. وآل أمره إلى أن هرب منه نصر بن سيار قاصدا العراق. وصفا إقليم خراسان لأبي مسلم، في ثمانية وعشرين شهرا. انظر: الطبري، تاريخ، جـ٦، ص ٤٠٥ و جـ٧، ص ١٢٩، ١٩٨، ٢٢٧، و ٢٢٩، ٢٤٤، ٢٥٣ و ٢٧٠ و ٢٧٧ و ٢٩٢، ٤٧٩. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ١٠، ص ٢٠٧. ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ ٣، ص ١٤٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٦، ص ٤٨.

٧- العمراني، الإنباء، ص ٥٩

٨- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٧٧

ويشير الجاحظ إلى خراسان ويعدها المكان الذي انطلق منه العمل العسكري ضد بني أمية بعد أن انتهت فترة التخطيط السري، فانطلقت الدعوة من خراسان التي هي منبع الدعوة العباسية "أهل خراسان الذين هم أهل الدّعوة، ومخرج الدولة"[1]

وفي محاولة منه لإثبات مشاركة العرب مشاركة فعالة في أحداث الثورة، وضّح مفهوم أهل خراسان فقال أنه ليس اصطلاحا عرقياً بل حضارياً فالاصطلاح لا يعني العجم من سكان خراسان بل يعني العرب وغير العرب المستوطنين هناك[2] "وذكر أن الخراساني يقول: نحن النقباء وأبناء النقباء؛ ونحن النجباء وأبناء النجباء، ومنا الدعاة، قبل أن تظهر نقابة، أو تعرف نجابة، وقبل المغالبة والمباراة، وقبل كشف القناع وزوال التقية وزوال ملك أعدائنا عن مستقره، وثبات ملك أوليائنا في نصابه. وبين ذلك ما قتلنا وشردنا، ونهكنا ضربا وبضعنا بالسيوف الحداد، وعذبنا بألوان العذاب. ونحن فتحنا البلاد وقتلنا العباد، وأبدنا العدو بكل واد. ونحن أهل هذه الدولة، وأصحاب هذه الدعوة، ومنبت هذه الشجرة. ومن عندنا هبت هذه الريح. والأنصار أنصاران: الأوس والخزرج نصروا النبي صلى الله عليه وسلم في أول الزمان، وأهل خراسان نصروا ورثته في آخر الزمان. غذانا بذلك آباؤنا وغذونا به أبناءنا وصار لنا نسبا لا نعرف إلا به، ودينا لا نوالي إلا عليه"[3].

أما عن موقف الموالي أو ما عرف بالأبناء[4] من الدعوة العباسية فقد أشار الجاحظ إلى موقفهم في دعم الدعوة العباسية، كما وقفوا إلى جانبها ضد المعارضة[5]، وكذلك في الحرب بين الأمين والمأمون، ويشير الجاحظ إلى فخر الأبناء بمواقفهم مع الخليفة الأمين " ونحن أصحاب الفتك والإقدام، ولنا بعد التسلق، ونقب المدن، والتقحم على ظبات السيوف وأطراف الرماح، ورضخ الجندل، وهشم العمد، والصبر على الجراح وعلى جر السلاح إذا طار قلب الأعرابي، وساء ظن الخراساني"[6].

كما يرى أن فئة الموالي في العصر العباسي تشكل مزيجاً من أجناس مختلفة عربية أو عجمية، وكان رباطها بالخليفة العباسي أقوى من رباط الانتماء "وقد كان المنصور، ومحمد بن علي، وعلي بن عبد الله، يخصون مواليهم بالمواكلة والبسط والإيناس، لا يبهرجون الأسود لسواده، ولا

---

١ - الجاحظ، البغال، ص ١١٨.

٢- فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤١٥

٣- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٧٩.

٤- الأبناء هم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن لما جاء يستنجده على الحبشة، فنصروه، وملكوا اليمن، وتديروها، وتزوجوا في العرب، فقيل لأولادهم: الأبناء، وغلب عليهم هذا الاسم لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٢، ص٢٢٥

٥- فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤١٧

٦- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٨٥

الدميم لدمامته، ولا ذا الصناعة الدنينة لدناءتها. ويوصون بحفظهم أكابر أولادهم، ويجعلون لكثير من موتاهم الصلاة على جنائزهم، وذلك بحضرة من العمومة، وبني الأعمام والإخوة "[1].

لم يفرد الجاحظ رسالة مستقلة في تناول موضوع دعوة بني العباس، فرسالة مناقب بني العباس تناولت المأثر والمميزات التي اجتمعت للخلافة العباسية والتي جعلتها أكثر تفرداً للقيام بأمر الناس من الخلافة الأموية، كما تناول في الرسالة الخلفاء العباسيين بالمدح والثناء، فتحدث عن مؤسسي الخلافة مثل أبو العباس السفاح والمنصور، وكان عادته في رسائله أن يسكت عمن لا يعجبه من الخلفاء لكن نجده يشهر بالمهدي وهارون الرشيد بسبب موقفهم من المعتزلة، ويقفز للحديث عن المأمون وما اتصف به وخاصة تبنيه مذهب الاعتزال، وقد أشاد به كثيرا في الرسالة لا يزيد عليه إلا الواثق[2].

كذلك فإن رسالة العباسية التي لا تتجاوز الصفحات الخمس[3] ركزت على مسألة الميراث وحق آل البيت، وعلى الرغم من قصرها لكنها تعطي فكرة عن المضمون الذي كتبت من أجله. إنها تدور حول موضوع واحد يتمثل في حق العباسيين في الخلافة دون سواهم، وأن سياقها واحد هو الجدل وقرع الحجة بالحجة بين خصمين هما العباسيون من جهة وخصومهم العلويين من جهة ثانية، فقد أشار إلى ذلك الحق أنه جاء من وراثة العباس للرسول صلى الله عليه وسلم[4]. كما أكد من خلالها مفاخر العباسيين على الأمويين[5]" أنهم ملكوا بالميراث وبحق العصبة والعمومة، وأن ملكهم في مغرس نبوة وأن أسبابهم غير أسباب بني مروان..."[6]. مروجا بأسلوبه الشخصي في أحقية الخلافة للعباسيين.

وإذا تجاوزنا رسالة العباسية فإن رسالة العثمانية[7] التي شرح فيها نظرية اتباعها في الحكم، وشيئا من التطور التاريخي للخلافة أفرد فيها الحديث عن صحة خلافة بني العباس،

١- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص٤٨٤.

٢ - الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٢٥- ٢٨.

٣ - يستبعد الباحث أن تكون رسالة بهذه الأهمية والمغزى لا تحتوي سوى على بضع صفحات، وقد أشار الكثيرون ممن تناولوا الجاحظ مثل جبر والسندوبي إلى هذه النقطة، ومن المؤكد أن الأجزاء الباقية من الرسالة فقدت، أو لم يتم كشفها حتى الآن ولعله في المستقبل تظهر هذه الرسالة التي من المؤكد أنها تحتوي على روايات عديدة حول دولة بني العباس. انظر: نوري، الجاحظ، ص ٣

٤- الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، ص ١٩٧.

٥ - نوري، الجاحظ، ص ٦

٦- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٠.

٧- اعتقد شارل بلا أن تناول الجاحظ للعثمانية أنه ذو ميول عثمانية بقوله: "وكان الجاحظ من مناصري العثمانية وألف كتابا فيها، ولعل ذلك من متناقضات هذا الكتاب الخصب" لكن غاب عن ذهنه أن الجاحظ عندما

مقدما الحجج والبراهين التي جلعت العباسيين أصحاب حق في تولي الخلافة[1]، وظهر ذلك جليا بعد أن تحولت الدولة إلى موقف مناوئ للعلويين الذين سبق وأن مدحهم في رسالة العباسية[2]، فهذا التقلب عند الجاحظ جاء مسايرا للتطور السياسي عند السلطة العباسية[3].

كما وضع الجاحظ رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة، إذ وضع القسم الأول في خلافة المعتصم ووجهها إليه فلم تصل إليه لأسباب لم يفصح عنها الجاحظ[4]. والقسم الثاني في خلافة المتوكل وجهها إلى وزيره الفتح بن خاقان، الذي قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م " **وكان المتوكل في مجلس خلوة، فوثبوا عليه، فقتلوه بأسيافهم، وقتلوا الفتح بن خاقان معه** "[5]. وهدف الجاحظ من الرسالة إلى تآلف قلوب أبناء الشعوب التي تشكل الدولة العباسية.

ومن خلال ما سبق من عرض للرسائل التي تناول فيها الجاحظ الدولة العباسية وخلفائها نستنتج أنه رسم صورة مشرقة لهم، فقد ولد في خلافة المنصور، وظهرت موهبته الفكرية والثقافية منذ عهد المهدي والهادي وهارون الرشيد، وبدأ في الاقتراب من السلطة منذ عهد المأمون، حتى صار أحد رجالها، كما أن إنتاجه الفكري الذي بدأ منذ نهاية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي جاء انعكاساً للتطورات الحاصلة في تلك الفترة مثل مسألة الإمامة والقول بخلق القرآن[6] ومعارضة حزب الأمويين والتبري من معاوية[7] والتقرب من العلويين[8].

يتناول فرقة فإنه يتناولها كأنه فرد منها، يدافع عنها ويتبنى أفكارها ومعتقداتها حتى يخيل للقارئ أنه منها. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٦٥.

أضحت العثمانية منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي مجرد مدرسة فكرية تسير في خط معاكس للشيعة الرافضة، مسلمين بشرعية الخلفاء الثلاثة رافضين الاعتراف بشرعية خلافة علي بن أبي طالب. الزويري، الإمامة، ص ٦.

١ - نوري، الجاحظ، ص ٦.

٢ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١ . الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٣ - الطبري، تاريخ، جـ ٩، ص ١٨٥. نوري، الجاحظ، ص ٤، ص ١٤.

٤ - الخرشة، أحمد غالب ورغدة علي. رسالة مناقب الترك(دراسة تحليلية نصية)، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد ٨، العدد ٤، الأردن: ٢٠١٢م، ص ٢٤٣.(سيشار إليه فيما بعد: الخرشة، رسالة مناقب الترك). الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٢١.

٥- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٤٦٨

٦ - الطبري، تاريخ، جـ ٩، ص١٩٠. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١١، ص ٢٥١.

٧ - اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٥٤. انظر: تحليل رسالة النابتة في مقدمة الدراسة ، وكذلك الفصل الثاني حول معالجة الجاحظ للأمويين.

٨ - الزويري، الجاحظ، ص ٨٤

كانت قضية أحقية بني العباس بالخلافة، قضية مهمة سعى الجاحظ في معالجتها، فقد ركز على مسألة قرابة العباسيين من الرسول صلى الله عليه وسلم وأن لهم على الناس حق الطاعة "**مر العباس بن عبد المطلب بنفر من قريش وهم يقولون إنما محمد من أهله مثل نخلة نبتت في كناسة**[1]**، فبلغ ذلك رسول الله صلى لله عليه وسلم فوجد منه فخرج حتى قام فيهم خطيباً ثم قال: أيها الناس، من أنا ؟ قالوا: أنت رسول الله. قال: أفأنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، إن الله عز وجل خلق خلقه فجعلني من خير خلقه ثم جعل الخلق الذي أنا منهم فريقين فجعلني من خير الفريقين من خلقه، ثم جعل الخلق الذي أنا منهم شعوباً فجعلني في خيرهم شعباً، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني من خيرهم بيتاً فأنا خيركم بيتاً وخيركم والداً وإني مباه لكم. قم يا عباس فقام عن يمينه، ثم قال: قم يا سعد فقام عن يساره فقال: يقرب امرؤ منكم عماً مثل هذا وخالاً مثل هذا** "[2].

ومن صور المناقب التي عمل الجاحظ على بثها بين الناس الإشارة إلى دورهم في بدايات الدعوة الإسلامية، مؤكدا على دور العباس في حماية الرسول صلى الله عليه وسلم بعد تفرق الناس عنه "**وقد كان العباس بن عبد المطلب جهيرا. وقد مدح بذلك، وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين، حين ذهب الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فنادى العباس: يا أصحاب سورة البقرة، هذا رسول الله. فتراجع القوم، وأنزل الله عز وجل النصر وأتى بالفتح**"[3] وفي موضع آخر "**ويقال إنه لم يكن لقرشي مثل رأي العباس** "[4].

وينبه الجاحظ أن تمام دعوة بني العباس لأن من قام بها لا ينقصه الحسب والنسب "**فإنما ذهب إلى أن الدعوة إذا قام بها خامل الذكر والنسب فلا يحسده من أكفائه أحد وأما إذا قام بها مذكور بيمن النقيبة، وبالظفر المتتابع، فذلك أجود ما يكون، وأقرب إلى تمام الأمر**"[5].

كما عمل الجاحظ على تأكيد هذا الحق لبني العباس من ذلك قوله على لسان مسلم بن الوليد الأنصاري[1] :

١- موضع القمامة، وفي رواية الطبري "لقد مكث أيوب عليه السلام مطروحا على كناسة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهرا" تاريخ، جـ ١، ص ١٩٥.وفي رواية الذهبي "تتكلم بهذا الكلام، ونرى منك أشياء قال: احسبوني درة وجدتموها على كناسة" تاريخ الإسلام، جـ ١٣، ص ٤٨٣.

٢- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ٦٤.

٣- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١١٩.

٤- المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

٥ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٣، ص ٤٨.

"لولا يزيد وأيام له سلفت ... عاش الوليد مع الغاوين أعواما

سل الخليفة سيفا من بني مطر ... يمضي فيخترق الأجسام والهاما

إذا الخلافة عدت كنت أنت لها ... عزا وكان بنو العباس حكاما"[٢]

فالعم في نظرهم بمنزلة الوالد، وهو أقرب الناس إليه، وهو وريثه في العصبات. وبهذه الحجة احتج العباسيون على العلويين في تقدمهم عليهم بحق الخلافة.[٣]

كما عرض من الصفات ما يؤهلهم لتولي الخلافة، فوصفهم بالشجاعة والفروسية، ويفهم من موقفه امتداح عصر العباسيين الذي يرى أن أمتاز بالحق والعدل والمساواة[٤] "وزعم رجال من مشيختنا أنه لم يقم أحد من ولد العباس بالملك إلا وهو جامع لأسباب الفروسية"[٥]. من ذلك تصويره موقف العباس من أبي سفيان، وفضل العباس عليه في دخوله الإسلام وفي تأمينه "...على أنه إنما أسلم على يد العباس، والعباس هو الذي منع الناس من قتله وجاء به رديفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله فيه أن يشرفه وأن يكرمه وينوه به. وتلك يد بيضاء ونعمة غراء ومقام مشهود، ويوم حنين غير مجحود"[٦]. وفضل العباس يعني فضل العباسيين على الأمويين عامة، إذ أن أبا سفيان هو كبير بني أمية، ودخوله في الإسلام على يد العباس هو فضل ليس بعده فضل، والجاحظ يلمح هنا إلى فضل العباسيين على الأمويين بصورة يلمزهم فيها.

ويشير الجاحظ إلى ما عرف عن عبد الله بن العباس من جزالة الرأي "ودعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اللهم أعطه الحكمة، وعلمه التأويل "[٧] كما أكد الجاحظ على جزالة رأي العباس في موضع أخر بقوله: "كانت قريش تعد أصل الجزالة في الرأي العباس بن عبد المطلب "[٨]

١- مسلم بن الوليد الانصاري(٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م) لقب بصريع الغواني فعرف به ، أول من أكثر من البديع وتبعه الشعراء فيه. كان من أهل الكوفة ونزل بغداد. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ١٣، ص ٩٦. المرزباني، نور القبس، ص ٥٧.

٢- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٧٧

٣- انظر: الواقدي، المغازي، جـ ٢، ص ٧٠٦، ٧١٣، ٧٢١، ابن خياط، تاريخ، ص ٨٥. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٢٣. أبو الفداء، المختصر، ص ٩٤.علي، المفصل في تاريخ العرب، جـ ٧، ص ٣٥٥.

٤ - عندما توافدت الشيعة على الإمام محمد بن على بن عبد الله ابن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، وكان مستقرة بأرض الشام، بالحميمة، قالوا له: ابسط يدك لنبايعك على طلب هذا السلطان، لعل الله يحيى بك العدل، ويميت بك الجور. الدينوري، الأخبار الطوال، ص٣٣٢. نوري، الجاحظ، ص ٨

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٧

٦- - الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢١

٧- مجهول. أخبار العباس وولده، ص ٢٥

٨- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ١٨١

كما يقول " وإن كان الفخر بنبل الرأي وصواب القول، فمن مثل عباس بن عبد المطلب وعبد الله بن العباس؟ "[1] وهذا المعنى أكد عليه الجاحظ بقوله: " وفي الخطابة لم ينبغ أحد من أولاد أمية بن عبد شمس ولا يضارع أحد فيها علي بن أبي طالب وعبد الله بن العباس"[2].

تناول الجاحظ عبد الله بن العباس فهو يعلم أنه بمثابة الجذر لبني العباس، وبالتالي أراد أن يعطي الدعوة العباسية حجة وقوة فذكر حب عبد الله بن العباس للعلم، إذ دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يزيده الله علماً ومعرفة[3] " قيل لعبد الله بن عباس: أنى لك هذا العلم؟ قال: قلب عقول، ولسان سؤول"[4].

كما أشار إلى نبوغ عبد الله بن العباس في الخطابة وهو المعروف بغزارة علمه حتى لقب بالبحر "ومن الخطباء الذين لا يضاهون ولا يجارون: عبد الله بن عباس. قالوا: خطبنا بمكة، وعثمان محاصر، خطبة لو شهدتها الترك والديلم لأسلمتا "[5]. وهذا إشارة إلى موقف عبد الله بن العباس الذي اعتزل الناس في هذه الفتنة[6]، كما أشار له الجاحظ في موضع أخر بقوله " فغير الكنية فصيرها أبا محمد- ابن عبد الله وهو البحر وهو حبر قريش وهو المفقه في الدين المعلم التأويل، ابن العباس ذو الرأي وحليم قريش، ابن شيبة الحمد وهو عبد المطلب سيد الوادي، ابن عمرو وهو هاشم هشم الثريد وهو القمر سمي بذلك لجماله ولأنهم كانوا يقتدون به ويهتدون برأيه، ابن المغيرة وهو عبد مناف بن زيد وهو قصي وهو مجمع"[7].

كما عرض الجاحظ نبوغه في العلم "كان عبد الله بن عباس أول من عرف بالبصرة، صعد المنبر فقرأ البقرة وآل عمران، ففسرهما حرفا حرفا، وكان والله مثجا[8] يسيل غربا، وكان يسمى البحر وحبر قريش. وقال فيه النبي صلى الله عليه وآله: اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل "[9].

١- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٧

٢- المصدر نفسه، ص ٤٢٦

٣- مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٢٥.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٨٨

٥- المصدر نفسه، ص ٢٦٨

٦- الطبري، تاريخ، جـ ٢، ص ٦٨١

٧- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤١٩

٨ - يصب الكلام صبا شبهه بفصاحته وغزارة منطقه. لسان العرب، جـ ٢، ص ٢٢١. وردت في مؤلف أخبار العباس وولده " كان ابن عباس مثجا يتحدر غربا" ص ٣٤. كما وردت عند الذهبي بنفس اللفظ عند الجاحظ ويبدو أنه نقلها عنه، تاريخ الإسلام، جـ ٥، ص ١٥٩

٩- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٦٨. انظر: مجهول. أخبار العباس وولده، ص ٢٥، ٣٩، ٨٥.

لذا فإن الجاحظ يرى أن تقديم عبد الله بن العباس على الناس في عهد عمر[1] تؤكد أحقيته بتولي أمر الناس " **وما استقبل ابن عباس بذلك إلا لما رأى عمر قدمه على أهل القدم، ونظر إليه وقد أطاف به أهل الحرم، فاوسعهم حكما، وثقبوا منه رأيا وفهما، واشبعهم علما وحلما**"[2]. وهذه لها بعد سياسي أخر يتمثل في مكانته بين الناس سواء كانت العلمية أم الفقهية وبالتالي فأبنائه نسلهم علم وفقه ومعرفة وحنكة.

أما على الصعيد السياسي، فقد حرص الجاحظ على إبراز دور عبد الله بن العباس في الخلاف الذي وقع بين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- ومعاوية بن أبي سفيان، فقد أشار إلى موقف ابن عباس من عزل معاوية عن ولاية الشام " **قال لعلي حيث أبى إلا عزله وقال: ما له عندي إلا السيف حتى يغلبه الحق، فقال له ابن عباس: وما لك عنده إلا السيف حتى يغلبك الباطل، فإن باطل معاوية يوم عزم على عزله لا يتخوفه على الخلافة ولا ظن أحد ولا دار في وهمه ولا خطر على باله أن الأمور ستنفتح وأن الحوادث ستنفتق بما تفتحت وتفتقت**"[3]. فقد عارض الجاحظ إمامة معاوية والسفيانية التي ترى أحقية معاوية في الخلافة، فظهور هؤلاء في الدولة العباسية كان السبب في أن يتصدى لهم الجاحظ مفندا حججهم بعدم صحة خلافة معاوية، فحججهم تمثل الفئة المؤيدة لخلافة معاوية[4].

وفي الحوار الذي دار بين ابن عباس ومعاوية بن أبي سفيان بعد أن تولي الخلافة[5]، يحاول الجاحظ إظهار عدم رضى عبد الله بن العباس عن خلافة معاوية "**قال معاوية: والله يا ابن عباس إن بابي لكم لمفتوح، وإن خيري لممنوح، ولا يغلق بأبي عنكم قلة ولا يمنع خيري عنكم علة...... فحسر ابن عباس عن ذراعيه فقال: يا معاوية فتحت لنا بابك حين قرعناه، ومنحتنا حين سألناه، ولئن أغلقت عنا بابك لنكفن أنفسنا عنك. وهذا المال فليس لك فيه إلا ما لرجل من المسلمين فعلى أي جهة أعطيتناه. ولولا حقنا فيه ما أتاك آت منا بجمله خف ولا حافر**"[6].

١- قال العباس لابنه عبد الله: إن هذا الرجل يدنيك- يعني عمر بن الخطاب- فاحفظ عني ثلاثا: لا تفشين له سرا، ولا تغتابن عنده أحدا، ولا يطلعن منك على كذبة. مجهول، أخبار العباس وولده، ص ١٢٠. الطبري، تاريخ، جـ ٢، ص٥٢٣

٢- الجاحظ، رسالة الحاسد والمحسود، ص ١٢٠

٣- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٨

٤ - الزويري، الإمامة، ص ٧٩.

٥ - عندما قدم معاوية المدينة بعد أن تولى الخلافة، قال مخاطبا ابن عباس: ما منعك أن تلقاني مع نظرائك من بني أبيك. قال: لم يقض ذلك. قال: فلعل الذي كان بيني وبين ابن عمك منعك. قال ابن عباس: هو ذاك. قال معاوية: فإن الله قد نصرني عليه لما علم من نيتي. قال ابن عباس: وما علم من نيتك يا معاوية، أن آمن وكفرت، ونصر وخذلت، وقام وقعدت. مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٧٤.

٦- الجاحظ، الأمل والمأمول، ص ١٤.

ثم يعرج الجاحظ إلى تصوير العلاقة التي كانت بين الحسن وعبد الله بن العباس من خلال رأي الحسن نفسه في ابن عباس " **قيل للحسن: يا أبا سعيد، إن قوما زعموا أنك تذم ابن عباس. قالوا: فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: إن ابن عباس كان من الإسلام بمكان، إن ابن عباس كان من القرآن بمكان، وكان والله له لسان سؤول، وقلب عقول، وكان والله مثجا يسيل غربا**"[1]. ويظهر من هذا أن الجاحظ يهدف إلى تقريب العلويين منهم بعد أن أخذت الدولة العباسية ذلك النهج في خلافة المأمون[2].

أشار أيضا إلى شخصية علي بن عبدالله بن العباس[3] وهو أول شخصية عباسية كانت لها أهداف سياسية[4] بقوله: "**قال علي بن عبد الله بن عباس: من لم يجد مس الجهل في عقله، وذل المعصية في قلبه، ولم يستبن موضع الخلة في لسانه، عند كلال حده عن حد خصمه، فليس ممن ينزع عن ريبة، ولا يرغب عن حال معجزة، ولا يكترث لفصل ما بين حجة وشبهة** "[5] فمن لم يكن عقله أغلب خصال الخير فيه كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه، فلم يجعل لغير الفطنة نصيبا من الخير ولا حظا في الصلاح لأن الإنسان لا يتغافل إلا عن شيء قد فطن له وعرفه[6].

كما أشار إلى ابنه محمد بن علي[7] الذي كان الشخصية الأساسية التي عملت وخططت عملياً لإقامة دولة بني العباس[8] بقوله: "**قال محمد بن علي بن عبد الله بن عباس إني لأكره أن يكون مقدار لسانه فاضلا على مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله**"[1].

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٨٩

٢ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١ . الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٣- ولد علي بن عبد الله ليلة قتل علي بن أبي طالب في شهر رمضان سنة أربعين فسمي باسمه، وكان أصغر ولد عبد الله سنا، وكان يكنى أبا محمد، ويقال له: السجاد. ويقال: سمي باسم علي بن أبي طالب وكني بكنيته، فقال له عبد الملك بن مروان: لا والله ما احتمل لك الاسم والكنية جميعا فغير أحدهما، فغير كنيته فصيرها أبا محمد. انظر: مجهول، أخبار العباس وولده، ص ١٣٤. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٦، ص ٥٨. ابن مسكويه، تجارب الأمم. جـ ٣، ص٨٦.

٤- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص٣٤٤.

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٨٩

٦ - المبرد، الكامل في اللغة، جـ ٤، ص ٢١.

٧- قال علي بن عبد الله: أكره أن أوصي إلى محمد خوفا من أن أشينه بالوصية. فأوصى إلى سليمان، فلما دفن، جاء محمد إلى سعدى ليلا فقال: أخرجي إلي وصية أبي. فقالت: إن أباك أجل من أن تخرج وصيته ليلا، ولكنها تأتيك غدا، فلما أصبح غدا بها عليه سليمان فقال: يا أبي ويا أخي هذه وصية أبيك. فقال محمد: جزاك الله من ابن وأخ خيرا، ما كنت لأثرب على أبي بعد موته كما لم أثرب عليه في حياته. مجهول، أخبار العباس وولده، ص ١٦٠. انظر باقي الأخبار عنه في نفس المصدر ص ١٦١-١٦٩.

٨- العمراني، الإنباء، ص ٥٧.

وعند الحديث عن التخطيط السري الذي سار عليه العباسيون نجد أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب استغل التيار المستعد للالتفاف حوله من أجل استخدامهم في الإطاحة ببني أمية[٢]، ولما كبر أبو هاشم وشعر بدنو أجله وهو خارج من لقاء الخليفة سليمان بن عبد الملك، خشي أبو هاشم على نفسه، فانتقل إلى الحميمة[٣] من أرض الشام؛ حيث مر على بني عمومته العباسيين "علي السجاد[٤] بن عبد الله بن عباس"، وهناك وافته منيته، فأوصى إلى "محمد بن علي بن عبد الله بن عباس" بما أجمع عليه الناس وكاتبوه به، ثم انه دفع إليه الكتب التي كتبوها إليه، وقال له: " **أنت صاحب هذا الأمر، وهو في ولدك**"[٥] وكان ذلك في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ/ ٧١٨م[٦]. إن الانطلاقة الأساسية لعمل العباسيين الجاد للإطاحة بالأمويين بدأت بعد هذا اللقاء التاريخي بين أبي هاشم وعلي بن عبد الله بن العباس (السجاد) في الحميمة[٧].

ومن مقر محمد بن علي بن عبد الله بن العباس في الحميمة أخذ ينظم الدعوة، ويدير شؤونها ويرسل الدعاة والنقباء إلى الأقاليم المحددة وأهمها خراسان[٨] " **ولما دخلت سنة مائة بعث محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ميسرة أبا رباح[٩] إلى العراق، ومحمد بن خنيس[١٠]، وأبا عكرمة**

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٨٩

٢- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٣٢٣

٣- الحميمة بلد من أرض الشراة من أعمال عمان في أطراف الشام كانت منزل بني العباس، تقع في جنوب الأردن حالياً. الحموي، معجم البلدان، جـ ٢،ص ٣٠٧.

٤- علي بن عبد الله بن العباس كان يصلي كل يوم إلى كل أصل ركعتين، فكان يدعى ذا الثفنات. فكان يصلي كل يوم أربعمائة ركعة، ويقال: إنه كان يصلي ألف ركعة كل يوم. وكانت قريش تسميه السجاد، وإنما عرفوا عدد ما يركع أنه كان له خمسمائة أصل زيتونا، فكان يصلي كل يوم تحت كل شجرة ركعتين. مجهول، أخبار العباس وولده، ص ١٤٣. ابن العمراني، الإنباء، ص ١٣٥

٥ - انظر: ابن سعد، الطبقات، جـ ٥، ص ٣٢٧. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٥، ص ٧٦. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ١٨٧. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٦، ص ٤٠٦.

٦- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٣٤٩

٧- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٣٤٨

٨- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٧٩

٩ - مولى بني أسد، كان ضمن وفد أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية على سليمان عندما استخلف، كما صار له دورا بارزا في دعوة بني العباس. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٣، ص ٢٧٤، جـ ٤، ص ١١٤، ١١٦، ١١٧. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٦٦.

١٠ - كان ضمن ممن قام بالدعوة السرية، لم نعثر على ترجمة كاملة له وإنما شذرات فقط، البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١١٥. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٣٦٨.

السراج[1]، وحيان العطار[2]، إلى خراسان "[3] وذلك عن طريق شبكة سرية متعددة الحلقات حملت اسم "دعوة آل البيت" وتجلت مقدرته في وضع هيكلية التنظيم السري الذي قام على الشعارات الدعائية من اختيار مركز الدعوة وشعاراتها والأمصار التي تنطلق منها وتحديد مقر الدعاة، ومهنتهم، وطريقة التعامل مع الناس[4].

فمن حيث مركز الدعوة فقد اختار الحميمة، ومن حيث الشعار فإنه نادى بشعار المساواة، والدعوة إلى الرضا من آل محمد، والإصلاح، أما الأمصار التي انطلقت منها الدعوة[5]، فإن محمد بن علي أمر الدعاة بالتركيز على خراسان، ومن حيث تحديد مقر الدعاة، فقد اتخذ الإمام العباسي الكوفة المعروفة بالولاء لآل البيت. وقد أشار محمد بن علي على دعاته أن يتعاطوا مهنة التجارة لإخفاء هدفهم عن السلطة، كما أوصاهم بنشر الدعوة بالحكمة[6].

نلاحظ أن الجاحظ لم يتناول المراحل التي مر بها التنظيم السري، بل يذكر مقتطفات بسيطة من ذلك حديثه عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الذي توفي سنة ١٢٤هـ/٧٤٢م[7]، حيث أوصى ابنه إبراهيم الملقب بالإمام " **إن أخاك إبراهيم الإمام حدث عن أبيه محمد بن علي أنه قال: لا يزال الرجل يزاد في رأيه ما نصح لمن استشاره، فكنت له يومئذ كذلك، وأنا لك اليوم كذلك**"[8] . بمواصلة المسيرة[9].

اتخذت الدعوة العباسية في فترة إبراهيم الإمام صورة أخرى غير التي كانت عليها قبل ذلك، فقد أصبحت أكثر تنظيماً، ولها مناطق نفوذ بالإضافة إلى وجود قادة ودعاة معروفين[10]،

---

١ - زياد بن درهم كبير الدعاة في خراسان الذي اختار اثني عشر نقيبًا. مجهول، أخبار العباس وولده، ص٢٠٣. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١١٦.

٢ - خال إبراهيم بن سلمة، كان ضمن النقباء الذين توجهوا إلى خراسان. مجهول، أخبار العباس وولده، ص٨٤. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٦٦.

٣- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٣٥٥

٤ - العش، الدولة الأموية، ص ٣١٧-٣١٨.

٥ - انظر: الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٦٦. ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ ٣٨، ص ١٠٠- ١٠٣. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٩، ص ٢١٣.

٦- فوزي، فاروق عمر. الخلافة العباسية، دار الشروق، الأردن: ٢٠٠٣م، جـ ١، ص ٣٥ وما يليها (سيشار إليه فيما بعد: فوزي، الخلافة العباسية).

٧ - مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٢٣٩

٨- أطلق عليه الجاحظ لقب إمام هذا لما وصل إليه من الشأن فهو يرى أن الإمام يفرض نفسه على الناس بسيرته وأعماله ومواقفه وأقواله. البيان والتبيين، جـ ١، ص٩٠.

٩- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٢٦٥.

١٠ - العش، الدولة الأموية، ص ٣٢٠.

فمن قادتها أبو سلمة الخلال[1] في الكوفة[2]، وأبو مسلم الخراساني في خراسان[3] "أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم، وأبو سلمة حفص بن سليمان. وأبو مسلم مولى الإمام، وعليهما دارت رحى الدولة، وتم الأمر واتسق نظام الملك"[4] وكلف إبراهيم الإمام أبا مسلم الخراساني أن يكون رئيسًا للدعاة جميعًا في خراسان وما حولها "ومنهم أبو مسلم صاحب الدعوة"[5] كما كلفه بالجهر بالدعوة للعباسيين علنًا، وأن يعمل على جعل خراسان قاعدة للانطلاق بقواته ضد البيت الأموي[6].

بحلول سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٧م، ومع تطور الدعوة العباسية دخل أبو مسلم "مرو"[7] عاصمة خراسان، وكاد أن يستولي عليها إلا أنه لم يتمكن من ذلك، وهنا أسرع الوالي الأموي على خراسان نصر بن سيار[8] يستغيث بمروان بن محمد ويطلب منه مددًا[9]، وينبه رجال الدولة إلى الخطر المحدق فيقول:

أرى خلل الرمادِ وميضَ نــــارٍ ... ويُوشكُ أن يكُون لها ضِرامُ

فإن النار بالعودين تُذْكــــى ... وأن الحرب مبدؤها كــــــلامُ

١- أبو سلمة حفص بن سليمان الهمداني، مولاهم الكوفي، ذو مفاكهة وأدب، وخبرة بالأمور، وكان صيرفيا انفق أموالا كثيرة في إقامة الدولة، وذهب إلى خراسان. وكان أبو مسلم تابعا له في الدعوة، ثم توهم منه ميل إلى آل علي عندما قتل مروان إبراهيم الإمام. فلما قام السفاح، وزر له. ثم كتب أبو مسلم إلى السفاح يحسّن له قتله فأبى وقال: رجل قد بذل نفسه وماله لنا. فدس عليه أبو مسلم من سافر إليه، وقتله غيلة ليلا بالأنبار، فإنه خرج من السمر من عند الخليفة، فشد عليه جماعة فقتلوه، وذلك بعد قيام السفاح بأربعة أشهر سنة اثنتين وثلاثين ومئة، في رجبها. وتحدث العوام أن الخوارج قتلوه. وكان يقال له: وزير آل محمد، وكان ينزل درب الخلالين فعرف بذلك. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٦٠. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٦، ص ٨.

٢- مجهول أخبار العباس وولده، ص ٣٧٦

٣- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٨٣

٤- الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ١٨٤

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص٩٠

٦- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٠٠. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ٢١٨

٧- الطبري، تاريخ، جـ ٧، ص ٣٥٣، ٣٥٧.

٨ - نصر بن سيار(٤٦ - ١٣١ هـ / ٦٦٦ - ٧٤٨ م كان شيخ مضر بخراسان، ووالي بلخ. ثم ولي إمرة خراسان سنة ١٢٠ هـ / ٧٣٧م، بعد وفاة أسد بن عبد الله القسري، ولاه هشام بن عبد الملك. وغزا ما وراء النهر، وأقام بمرو. وقويت الدعوة العباسية في أيامه، فكتب إلى بني مروان بالشام يحذرهم وينذرهم، فلم يأبهوا للخطر، فصبر يدبر الامور إلى أن أعيته الحيلة وتغلب أبو مسلم على خراسان، فخرج نصر من مرو سنة ١٣٠هـ / ٧٤٧م. ورحل إلى نيسابور، فسير أبو مسلم إليه قحطبة بن شبيب، وكتب إلى مروان وأخذ يتنقل منتظرا النجدة إلى أن مرض في مفازة بين الري وهمذان، ومات بساوة. الحموي، معجم الأدباء، جـ٥، ص٣١٠. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ١٤٩-١٥٣. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٧، ص ٣٢٢.

قال الجاحظ: كان نصر من الخطباء الشعراء، يعد في أصحاب الولايات والحروب والتدبير والعقل وسداد الرأي. البيان والتبيين، جـ ١، ص ٦٢.

٩- الجاحظ، البغال، ص ٥٥.

فقلت من التعجب ليت شعري   أأيقـــــاظ أمية أم نيــــام[1]

والعامل الأساسي الذي يرى الجاحظ أنه من أسباب سقوط مرو وعدم قدرة نصر بن سيار على مقاومة أبي مسلم يتمثل في "أنه وإن كان والياً لأربعة خلفاء، فإنه كان مأموراً بمكاتبة صاحب العراق، وإن كان صاحب العراق لا يقدر على عزله، وقد كان يزيد بن عُمر[2] يخاف أن يُولى مكانة نصر بن سيار، أو مسنور بن عمرو بن عباد، فاحتال لمسنور، ولم تمكنه الحيلة في نصر"[3].

لم تلقَ استغاثات نصر بن سيار أذانا صاغية من بني أمية بدمشق فلم يدركوا الخطر المحدق بسبب انشغالهم بصراعاتهم في الشام "ما أذهب مُلك بني مروان؟ قال: ما زال ملكهم قائما حتى عميث عليهم الأخبار"[4]، وكذلك انشقاق زعماء الأمويين على أنفسهم، فلم يمدوا واليهم على خراسان بالمساعدة[5]، هنا أدرك أبو مسلم الخراساني أن الوالي الأموي لن يصبر طويلا، وأن "مرو" ستفتح قريبًا، فأخذ يجمع العرب من حوله، ثم انقض بهم على "مرو" ففتحت له، وهرب وإليها نصر بن سيار " وذلك أن نصر بن سيار، كان صاحب خراسان، قبل خروج أبي مُسلم وقوة أمره، إلى أن قوي عليه حتى هرب منه "[6] كان ذلك في سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٨م[7].

كما أن والي مروان على العراق يزيد بن عمر كان يرغب في الإطاحة بنصر بن سيار، لكن حقده عليه أعماه أن يدرك حقيقة أن سقوط مرو ما هو إلا مقدمة لسقوط العراق ومن بعدها دولة بني أمية وهذه الملاحظة أشار لها الجاحظ موضحا أن العداء بين والي العراق ووالي خراسان والتنافس على الولاية سبب في عدم إبصار الخطر المحدق بهم "فكان إذا كتب

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٤٥. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٣٠

٢ - يزيد بن عمر بن هبيرة(٨٧ - ١٣٢ هـ / ٧٠٦ - ٧٥٠ م)/ من ولاة الدولة الأموية. أصله من الشام ولي قنسرين للوليد بن يزيد. ثم جمعت له ولاية العراقين (البصرة والكوفة) سنة ١٢٨ هـ، في أيام مروان بن محمد. واستفحل أمر الدعوة العباسية في زمن إمارته، فقاتل أشياعها مدة. وتغلبت جيوش خراسان على جيوشه، فرحل إلى واسط وتحصن بها، فوجه السفاح أخاه المنصور لحربه، فمكث المنصور زمنا بواسط يقاتله، حتى أعياه أمره، فكتب إليه بالأمان والصلح. وأمضى السفاح الكتاب. وكان بنو أمية قد انقضى أمرهم، فرضي ابن هبيرة وأطاع. وأقام بواسط وعمل أبو مسلم الخراساني على الايقاع به، فنقض السفاح عهده له، وبعث إليه من قتله بقصر " واسط ". وكان خطيبا شجاعا، ضخم الهامة، طويلا جسيما. انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٣، ص٥٢. الطبري، تاريخ، جـ ٨، ص ١٧٨. المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص ١٣٧. البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي(ت: ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م). معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت: ٢٠٠٣م، جـ ٢، ص ٤٠٥ (سيشار إليه فيما بعد: البكري، معجم ما استعجم).

٣- الجاحظ، البغال، ص٥٥.

٤- المصدر نفسه، ص ٥٥.

٥- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٥٢

٦- الجاحظ، البغال، ص ٥٥.

٧- الجاحظ، البغال، ص٥٥. شاكر، محمود. التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٩٨٧م، جـ ٥، ص٤٣(سيشار إليه فيما بعد: شاكر، التاريخ الإسلامي).

إليه بالرأي الذي يحسم به من أسباب قوة المسودة، كتب بذلك إلى يزيد، فكان يزيد لا يرفع خبره ولا يمده بالرجال، طمعاً في أن يُهزَم أو يُقتل، ونسى يزيد أن غلبة أبي مُسلم على خراسان، سببٌ لغلبته على الجبال، وإذا استحكم له ذلك، لم يكن له همة إلا صاحب العراق. فلما طوى أخبار نصر، سد وجه الرأي والتدبير على مروان، حتى كان الذي كان"[1]

تتابعت فتوحات أبي مسلم، فسقطت "بلخ"[2] و"سمرقند"[3] و"طخارستان"[4] و"الطبسين"[5] وغيرها، وتمكن من بسط سيطرته ونفوذه على خراسان جميعًا، وراح يتطلع إلى غيرها. وكان كلما فتح مكانًا أخذ البيعة من أهله على كتاب الله-عز وجل-وسنة نبيه والرضا من آل محمد[6].

إن تسلسل الأحداث يدل على أن بني أمية كانوا مشغولين بالفتن الداخلية في آخر عهدهم وهذا ما نبه عليه الجاحظ بقوله: **"قيل لأبي مسلم: باي شيء أدركت هذا الأمر ؟ قال: أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت. .. عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا ما زلت أسعى عليهم في ديارهم. ."**[7]، حتى عندما وقع في يد الخليفة مروان بن محمد كتاب من الإمام إبراهيم يحمل تعليماته إلى الدعاة، ويكشف عن خطتهم وتنظيمهم، كان مروان منشغلا بتوطيد سلطانه المزعزع وقمع الثائرين ضده.

اكتفى الخليفة مروان بن محمد بأن أرسل إلى القائم بالأمر في دمشق للقبض على إبراهيم بن محمد بالحميمة وإيداعه في السجن[8]، فظل به حبيسًا إلى أن مات سنة

١- الجاحظ، البغال، ص٥٥.

٢ - وسط خراسان وأكثرها خيرا وأوسعها غلة تحمل غلتها إلى جميع خراسان وإلى خوارزم. الحموي، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٧٩.

٣ - تقع في بلاد ما وراء النهر، افتتحها قتيبة بن مسلم، في زمن الوليد، وصالح ملكها. الحموي، معجم البلدان، جـ ٣، ص ٢٤٦-٢٤٩.

٤ - ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد وهي من نواحي خراسان. الحموي، معجم البلدان، جـ ٤، ص٢٣.

٥ - قصبة ناحية بين نيسابور وأصبهان، والعرب تسميها باب خراسان، الحموي، معجم البلدان، جـ ٤، ص٢٠.

٦- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص٣٧٠

٧- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١٥

٨ - شك مروان بن محمد في أن القائم بأمر الدعوة عبد الله بن الحسن بن الحسن، فأقدمه إليه لكنه حلف له أنه ليس هو بل إبراهيم الإمام هو صاحب الدعوة في المشرق، فأرسل مروان بعد أن كشف أمر إبراهيم الإمام إلى عامله على البلقاء بأن يأتيه بإبراهيم الإمام، فأحضر وسجن ثم قتل ليلا ومعه عبد الله بن عمر بن العزيز. مجهول أخبار العباس وولده، ص ٣٨٧-٣٩٢.

١٣٢هـ/٧٥٠م[1]. لكن الجاحظ يشير أن مروان قتله بعد أن أدخل رأسه في جراب نورة[2] "**وما صنع مروان بإبراهيم الإمام ادخل رأسه في جراب نورة حتى مات**"[3].

ولما علم إبراهيم بالمصير الذي ينتظره، وعلم أن أنصاره ومؤيديه قد واصلوا انتصاراتهم، وأن الكوفة قد دانت لهم وصارت في قبضتهم أوصى لأخيه "أبى العباس" بالإمامة وطلب منه أن يرحل إلى الكوفة مع أهل بيته؛ وينزل على داعي العباسيين بها وهو أبو سلمة الخلال، فهناك يكون في مأمن من رقابة الأمويين وسلطانهم[4].

في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، وهناك في الكوفة وبعد وصول آل العباس إليها تمت مبايعة أبى العباس خليفة للمسلمين، حيث توجه أبو العباس إلى مسجد الكوفة عقب مبايعته بالخلافة، وألقى على الملأ خطبة كانت الإعلان الرسمي لقيام الدولة العباسية، وكان مما جاء في تلك الخطبة: "**زعم الشامية أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، شاهت وجوههم، بم ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم..... وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله، فاستعدوا أيها الناس، فأنا السفاح[5] المبيح والثائر المبير**"[6]. فكانت الخطبة مؤكدة على حق العباسيين في الخلافة، فالجاحظ يرمي إلى تأكيد ذلك الحق من خلال وراثة النبي صلى الله عليه وسلم.

في يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م كان اللقاء الحاسم بين الأمويين والعباسيين[7]. كان اللقاء على أحد فروع دجلة بالقرب من الموصل وهو "نهر الزاب الأعلى". وكان يقود جيش العباسيين عم الخليفة عبد الله بن علي الذي ذكره

١- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٣٧٥. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ٢٣١

٢ - الجراب: وعاء من إهاب الشاء لا يوعى فيه إلا يابس. والنورة من الحجر الذي يحرق ويسوى منه الكلس وله استخدامات مختلفة مثل حلق الشعر. لسان العرب، جـ ١، ص ٢٦١. جـ ٥، ص ٢٤٤.

٣- الجاحظ، رسال فضل هاشم، ص ٤٢٢. كما وردت رواية عند البلاذري "غم ابراهيم الإمام في جراب نورة" أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١٢٢.

٤- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٤٥.

٥- رجل سفاح، معطاء، وهو أيضا الفصيح. ورجل سفاح أي قادر على الكلام. والسفاح: لقب عبد الله بن محمد أول خليفة من بني العباس. لسان العرب، جـ ٢، ص ٤٨٦.

٦- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١٥.

وردت الخطبة عند الطبري باختلاف بسيط في العبارات من ذلك "وزعمت السبيئة الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم" تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٣٤٧.

وعند ابن كثير "وزعمت السبائية الضلال" البداية والنهاية، جـ ١٠، ص٤٥.

٧- ابن العمراني، الإنباء، ص ٥٢.

الجاحظ ضمن مفاخر بني هاشم "وهو الذي أزال ملك بني مروان وشهد الحروب بنفسه"[1]، بينما يقود جيش الأمويين الخليفة مروان بن محمد بنفسه[2].

بعد الهزيمة التي مني بها الأمويون لم يجد الخليفة الأموي مروان بدأ من الفرار، فهرب إلى دمشق أمام مطاردة عبد الله بن علي[3]، الذي استولى على دمشق بعد هروبه منها، وكذلك مدن الشام الواحدة تلو الأخرى. وكان استسلام دمشق العاصمة معناه سقوط دولة بني أمية، وانتهاء عهدها كعاصمة للدولة الإسلامية. لكن الخليفة مروان فر إلى مصر وتوجه إلى صعيدها[4]، وقرب الفيوم، عند قرية أبوصير أُلقي القبض عليه، وقُتِل بعدما ظل هاربًا ثمانية أشهر، يفر من مكان إلى مكان[5].

اتخذ العباسيون الكوفة عاصمة لدولتهم بعد نجاح ثورتهم[6]، ثم بعد ذلك نقلت العاصمة إلى الأنبار "وفيما يذكر عن عبد الله بن حسن أنه بينما هو يساير أبا العباس السفاح، بظاهر مدينة الأنبار، وهو ينظر إلى بناء قد بناه "[7]، قبل أن يقوموا بتشييد مدينة بغداد لتكون عاصمة الخلافة الإسلامية، والتي ازدهرت طيلة قرنين من الزمن، وأصبحت إحدى أكبر مدن العالم وأجملها، وحاضرة العلوم والفنون.

ثانياً: التوريث الأسري (التسلسل التاريخي للعباسيين الأوائل)

ينحدر العباسيون من سلالة العباس بن عبد المطلب[8] وهو أصغر أعمام النبي محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب يقول الجاحظ عن العباس: " وفي الحسن لم يكن أحد أجمل من العباس بن عبد المطلب من بسطة جسمه وتمام قوامه" [9]. فعبر عن بسطة الجسم بالصحة والقوام[1].

١- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٥٠

٢- ابن خياط، تاريخ، ص ٤٠٣

٣- المصدر نفسه، ص ٤٠٣

٤- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٥٠

٥- ابن خياط، تاريخ، ص ٤٠٣

٦- مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٣٧٣

٧- التاج (منسوب للجاحظ)، ص ٥٥

٨- العباس بن عبد المطلب بن هاشم أبو الفضل عم النبي صلى الله عليه وسلم، ولد قبل النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين أو ثلاث، وحضر بدراً فأسره المسلمون، ثم أسلم بعد أن فدى نفسه وقدم مكة، له أحاديث. مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٢١- ٢٢. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١-٦. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٣،ص ٢٧٣

٩- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٨

ركز الجاحظ على مبدأ الوراثة ليؤكد حجج العباسيين في الخلافة[٢]. لقد عدَّ العباسيون الخلافة إرثا تحدر إليهم عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهم أحق بذلك الإرث من أبناء فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم، فالأعمام وأولاد الأعمام هم من يرثون[٣]. وهم يرون موقف أبي بكر- رضي الله عنه - من الإرث صحيحا والدليل على صحته أن الصحابة لم يستنكروه. فتجيب العباسية انه "**إذا كان ترك النكير دليلا على صدق دعوى أبي بكر وعمر، فإن ترك النكير على المتظلمين والمحتجين والمطالبين دليل على صحة دعواهم أو استحسانها. وقد طالبت فاطمة أبا بكر بميراث والدها فمنعها إياه، فاحتجت وألحت وشكت ووجدت ودعت على أبي بكر فلم يرد عليها أحد من الصحابة ولم يصرفها عن الخطأ إذا كانت على خطا**"[٤]. فخروج بني العباس كان رداً على ابتزاز الأمويين الخلافة من أهلها، وظلمهم للعلويين، ولأن العلويين تنازلوا عن الخلافة فليس من حقهم أن يطالبوا بها بعد أن صارت إلى العباسيين[٥].

اعتمد الجاحظ على مبدأ الوراثة والقرب من آل البيت في تأكيد أحقية العباسيين بالخلافة[٦]، فأكد على ذلك من خلال "**إن الخلافة إنما تنال بالوراثة وتستحق بالعمومة وتستوجب بحق العصبة**"[٧]. فرؤيته تتمثل في أن العم يرث قبل ابن العم؛ فإذا كانت الإمامة تورث، فالعباس عليه السلام أحق بها، ويلمح بذلك إلى إبعاد العلويين عن أمر الخلافة، كما حصر الإمامة في الفرع العباسي، منتصرا في ذلك للعباسيين في جه خصومهم من العلويين والنابتة والإمامية[٨].

سار خلفاء بني العباس علي سيرة بني أمية في ولاية العهد، بل إن بعضهم عمد إلى تسمية أكثر من ولي للعهد في وقت واحد مما ساهم في نشوب الصراع بين ولاة العهد، كما

---

١ - الدروبي، رسالة مناقب خلفاء بني العباس، ص ٢٩

٢ - أكد أبو العباس مبدأ الوراثة كحق من حقوقهم في الخلافة في خطبته: وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كما أن المنصور أكد على نفس الفكرة: ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا .الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٣٤٧، ص ٥٣٥. الزويري، الإمامة، ص ٤١.

٣- الجاحظ، رسالة العباسية، ص ٤٧٤

٤ - المصدر نفسه، ص ٤٧٥

٥ - تأكيدا على تنازل الحسن عن الخلافة فيما يذكر الواقدي: ان معاوية خاطب أهل الشام بعد أن تنازل الحسن عن الخلافة. وأيا كان فلم تطل خلافة الحسن ، إذ لم تتجاوز سبعة أشهر وأحد عشر يوما، وقيل سبعة أشهر وسبعة أيام. اليعقوبي، تاريخ، ص ١٩٤. أيام الزويري، الإمامة، ص ٤٢. البطاينة، محمد. وصول بني أمية إلى منصب الخلافة. مجلة الجامعة الإسلامية ، العدد ٨٣، المدينة المنورة: د ت، ص ٢٧٩ (سيشار إليه فيما بعد: البطاينة، وصول بني أمية للخلافة).

٦ - نوري، الجاحظ، ص ٦

٧- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٠.

٨ - الزويري، الجاحظ، ص ٨. نوري، الجاحظ، ص ٦

حصل بين الأمين والمأمون[1]، والملاحظة الجديرة بالاهتمام أن الجاحظ لم يتناول موضوع التوريث عند العباسيين مثل ما تناوله عند الأمويين، حتى لا يعاب عليه صفة التناقض، فقد تناول موضوع التوريث عند الأمويين من مبدأ عدم جواز تولية الخلافة من لا يستحقها مثل ما حدث من معارضته تولية يزيد[2]، أما عند العباسيين فقد تناولها من باب أهمية تسمية ولي للعهد حتى لا يختلف الناس، وأن العامة لا تدرك مصلحتها في اختيار الإمام فكان لا بد للخاصة أن تقوم بعملية اختيار الإمام، ويظهر التناقض عند الجاحظ بين ما عابه على الأمويين في تسمية ولي للعهد من بعدهم وبين المبادئ التي نادى فيها بأهمية قيام الخاصة باختيار إمام.[3]

وردت إشارات بسيطة عند الجاحظ حول مسألة التوريث في الدولة العباسية، متحرزا أن يقع في تناقض بين مبادئه وبين ما يؤيده - وإن كان قد وقع - فقد أورد ذكر أبي العباس السفاح الذي عهد بولاية العهد من بعده إلى أخيه أبي جعفر المنصور، ومن بعده إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي العباسي فلم يعترض على تولية العهد "وهو الذي شيد ملك المنصور وحارب ابني عبد الله بن حسن وأقام عمود الخلافة بعد اضطرابه، وكان فصيحا أديبا شاعرا"[4]، إذ بويع أبو جعفر المنصور خليفةً بعد وفاة أخيه أبو العباس " أتاه كتاب بموت أبي العباس واستخلاف أبي جعفر"[5]. أما بعد ذلك فقد سكت الجاحظ عن انتقال الخلافة بعد المنصور ولم يورد أي إشارة حول ذلك.

عدد الجاحظ مناقب أبي العباس (١٣٢-١٣٦/ ٧٥٠-٧٥٤م) والذي تلقب بأمير المؤمنين[6] فكان وزيره أبو سلمة الخلال، وقائد جيشه أبو مسلم[7]، وكان على شرطته عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي[8]، وعلى قضائه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى[1]، وحاجبه أبو

١- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٩.

٢ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٠

٣ - الزويري، الإمامة، ص ١٠٩.

٤- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٦٠

٥- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٨٠.

٦- الجاحظ الحيوان، جـ٢، ص٣٢١

٧ - قتل أبو سلمة الخلال في عهد أبي العباس، وأبو مسلم في عهد المنصور. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٣٦٠، ٣٨٠.

٨ - من الأشداء ظهر في صدر العهد العباسي. ولاه المنصور إمرة خراسان سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٧م، فقتل كثيرا من أهلها بتهمة الدعاء لولد علي بن أبي طالب. ثم خلع طاعة المنصور. فوجه المنصور الجند لقتاله، فأسروه وحملوه إليه. فقطعت يداه ورجلاه وضرب عنقه، بالكوفة، ونفي أهله وبنوه. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٢٣٠. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٦، ص ٥٣.

غسان صالح بن الهيثم[2]. "كان أبو مسلم استشار مالك بن الهيثم، حين ورد عليه كتاب المنصور في القدوم عليه، فلم يشر عليه في ذلك، فلما قتل أبو مسلم أذكره ذلك"[3] بعد الحديث الذي دار بينهما حول ما أخذه المنصور على أبي مسلم[4].

عمل الجاحظ على تقريض أبي العباس بصفات مثل الحلم والكرم والخطابة وغزارة العلم وعمق الفهم وفصاحة المنطق وقوة العارضة وحسن الاستماع " وكان عبد الله السفاح أحلم الناس "[5] كما وصفه " وكان السفاح يضرب به المثل في السرو وسجاحة الخلق"[6] وتعني كلمة السفاح الكريم[7] لقول الجاحظ "ومن رجالنا محمد بن السفاح، كان جوادا أبدا"[8]. كما لا يفوت الجاحظ أن يشير إلى البصر الذي تميز به في مسائل الدين والفقه فيها، فكان يقرب رجال العلم والفقه حتى يتعلم منهم[9].

وعلى الرغم أن الجاحظ لم يعاصر أبا العباس السفاح إلا أنه وصفه بأبلغ الصفات، منزها إياه عن العيوب والنواقص "فنشأ بخير ما ينشأ به الرجال، أديبا عفيفا نزيها، لم ير له قط صبوة، ولا غرام بشهوة الجاهلية، ولا ملابسة لظنين[10]، ولم ير منتجعاً قط، ولا راجلا إلى ذي سلطان، ولا مخاصما إلى قاض"[11]. كما وصفه بالحلم والسكينة والتواضع وغيرها من الصفات التي يهدف

---

١ - محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، كان من أصحاب الرأي، وتولى القضاء بالكوفة وأقام حاكما ثلاثا وثلاثين سنة، ولي لبني أمية ثم لبني العباس وكان فقيها. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ١٧٩.

٢- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٨٣.

٣- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص٦٥٤

٤- العمراني، الإنباء، ص ٦١

٥- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٨

٦- المصدر نفسه، ص ٤٥٩

٧ - إن الأعداد التي قتلت من بني أمية جلعت الناس تربط بين لقب السفاح وكثرة القتل، لكن حقيقة الأمر أنه حدث خلط بين أبي العباس وعمه عبدالله بن علي الذي كما يشير المؤرخون يلقب أيضا بالسفاح بسبب كثرة من قتل من الأمويين، ومن ناحية أخرى يشير ابن عبد ربه أن أبو العباس خطب في الشام وأبو العباس لم يزر الشام مما يعني وقوع المؤرخين في خلط بينه وبين عمه عبد الله بن علي. من ناحية أخرى لم يعرف عن أبي العباس حبه للقتل وسفك الدماء حتى أن أبا سلمة الخلال الذي أراد تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين لم يقم أبو العباس بقتله بل أرسله إلى أخيه المنصور. كما عرف أنه كما يشير ابن طباطبا الكرم والجود وعفة النفس. انظر: ماجد، عبد المنعم. العصر العباسي الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة: ١٩٧٦م، جـ ١، ص ٤٨-٥٠ (سيشار إليه فيما بعد: ماجد العصر العباسي الأول).

٨- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٦٠

٩ - الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣٠. ماجد، العصر العباسي الأول، ص ٤٩.

١٠ - الظنين: المتهم وأيضا قليل الخير. لسان العرب، جـ ١٣، ص ٢٧٣، ٢٧٤.

١١ - الجاحظ، رسالة في مناقب بني العباس، ص ٤

منها تعظيم شأن العباسيين، فأبو العباس هو رأس الدولة والمؤسس ومن قامت الدولة على يديه، فعلو كعبه من علو الدولة قاطبة[1].

أما المنصور (١٣٦هـ - ١٥٨هـ / ٧٥٤-٧٧٥م) الذي تولى الخلافة بعد وفاة أخيه أبي العباس والذي استمرت خلافته اثنتين وعشرين سنة، يشير له الجاحظ مظهرا مناقبه "**ملك البلاد ودوخ الأقطار وضبط الأطراف اثنتين وعشرين سنة** "[2]. كما أشار إلى ثلاث خصال عند المنصور وهي الحزم والعلم والحلم[3].

أثنى الجاحظ على أبي جعفر المنصور، خاصة في الدور الذي لعبه في بدايات الدعوة العباسية وما قام به من إصلاحات في خلافته جعلته المؤسس لدولة بني العباس "**كان فيما قال المنصور وفعل في أيامه، وما أسس لمن بعده، ما يفي بجامعة ملوك بني مروان**"[4] فقد بالغ الجاحظ في حكمه إذ عد المنصور بكل خلفاء بني مروان.

وأشار الجاحظ إلى صور من دهاء وسياسة المنصور[5]. فهو لم ينس خروج عمه عبد الله عليه، لكنه أخذه باللين حتى قتله "**وقال عثمان بن خريم للمنصور، حين عفا عن أهل الشام في أجلابهم مع عبد الله بن علي عمه: يا أمير المؤمنين: لقد أعطيت فشكرت، وابتليت فصبرت، وقدرت فغفرت**"[6].

يصور الجاحظ مواقف المنصور مع رعيته[7] ومدى علاقته بهم "**دخل شاب من بني هاشم على المنصور، فسأله عن وفاة أبيه فقال: مرض أبي رضي الله عنه يوم كذا، ومات رضي الله عنه يوم كذا،**

---

١ - المصدر نفسه، ص ٤

٢- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٠

٣ - الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣١.

٤ - الجاحظ، رسالة في مناقب بني العباس، ص ٢.

٥ - وصف المنصور بالدهاء والمكر والحزم، ولعل في حملته على محمد النفس الزكية ما يدل على ذلك الدهاء، وكذلك في استدراجه أبي مسلم الخراساني الذي عزم على العودة إلى خراسان حتى أقنعه بالعودة إليه فقتله. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٢٠١- ٢١١، ص ٢٢٤. الحميري، محمد عبدالمنعم(ت: ق ٨ / ق١٤م). الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط١، مكتبة لبنان، بيروت: ١٩٨٤م، ص٢٧٧ (سيشار إليه فيما بعد: الحميري، الروض المعطار).

٦- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٧٦

٧ - أوصى المنصور ابنه المهدي: انظر أهل الجزالة والفضل والعقل منهم فشرفهم ، وأجزل لهم الإعطاء ووسع عليهم في الأرزاق، وتحبب إليهم بالإحسان جهدك وتفقد الصغير تفقدك الكبير، وانظر الأموال فوفرها بولاية أهل العفاف عنها ولا تبتذلها إلا في إصلاح أمور الرعية وثواب أهل الطاعة والنصيحة، واجعل لكل إليك حاجة واجعل لهم من فضلك مادة واسمع من أهل التجارب ولا تردن على ذوي الرأي، وعود نفسك الصبر في إصلاح الرعية. البلاذري، انساب الأشراف، جـ ٤، ص ٢٧٠.

وترك رضي الله عنه من المال كذا، ومن الولد كذا. فانتهره الربيع وقال: بين يدي أمير المؤمنين توالي بالدعاء لأبيك؟ فقال الشاب: لا ألومك، لأنك لم تعرف حلاوة الآباء. قال: فما علمنا أن المنصور ضحك في مجلسه ضحكا قط، فافتر عن نواجذه إلا يومئذ "[1].

كما يعدُّ المنصور وما قام به من الأعمال[2] أنها تتجاوز كل أعمال خلفاء بني أمية، وعلى الرغم أن الجاحظ لا يفصل في تلك الأعمال بل يعطي إشارات عابرة "كان فيما قال المنصور وما فعل في أيامه، وأسس لمن بعده ما يفي بجماعة ملوك بني مروان"[3]. فكان الجاحظ لسان حال السلطة. كما وصفه بأنه "داهية أريبا، مصيبا في رأيه سديدا، وكان مقدما في علم الكلام، ومكثرا من كتاب الآثار"[4].

تولى الخلافة بعد المنصور ابنه المهدي (١٥٨-١٦٩هـ / ٧٧٥-٧٨٥م) الذي تميزت فترة خلافته بالاهتمام بالخدمات الداخلية من تنظيم للطرق واهتمام بالبريد كما اهتم بالزراعة. واشتهر بالورع والالتزام بالشريعة "وكان المهدي بن المنصور أسرى خلق الله والطفهم خلقا"[5] وأشاد الجاحظ بخلافة المهدي فكانت فترة خلافته هادئة وسالمة " وسنو المهدي كانت سني سلامة"[6] وعلى الرغم من حالة الهدوء التي امتازت بها خلافة المهدي، إلا أنها شهدت بعض حركات

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٢٣

٢ - يعتبر المنصور مؤسس الدولة العباسية، وقد قام بأعمال جليلة سواء لتثبيت الدولة أم لحمايتها من هجمات المعارضة والهجمات الخارجية، من ذلك ما قام به في القضاء على المتمردين والمنشقين من الراوندية، البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٢٣٦. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٣٩٦.

كما قضى على عمه عبدالله بن علي في بلاد الشام، البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١٨٥-٢٠٠.

وأيضا استدرج أبا مسلم الخراساني حتى قضى عليه. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٨٠.

كما قضى على ثورة العلويين بقيادة محمد النفس الزكية في المدينة. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص٢٠١- ٢١١، ص ٢٢٤. الحميري، الروض المعطار، ص ٢٧٧.

كما قضى على حركات الخوارج في الجزيرة الفراتية بقيادة بني شيبان. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٩٠.

كما قضى على الحركات التي قامت في بلاد فارس مثل حركة أشناس، وحركة سنباذ، وحركة إسحق الترك، وحركة أستاذ سيس. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص، ٣٣٨، ٤٩٤ وما يليها. سالم، السيد عبد العزيز. دراسات في تاريخ العرب (العصر العباسي الأول)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية: ١٩٩٥م، جـ ٣، ص١٤٥-١٤٦. (سيشار إليه فيما بعد: سالم، العصر العباسي الأول).

٣- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٣٧

٤- المصدر نفسه، ص ٢٣٨

٥- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٥٩

٦- المصدر نفسه، ص ٤٢٠

التمرد كحركة المقنع الخراساني[1] "وكان المقنع الذي خرج بخراسان يدعي الربوبية، لا يدع القناع في حال من الحالات..... وهذا المقنع كان قصارا من أهل مرو، وكان أعور ألكن"[2].

لم يغفل الجاحظ الحديث عن بعض من حياة الخليفة المهدي[3] الخاصة، فقد أشار إلى ولع المهدي بالقيان وسماع الغناء[4] "كان يحب القيان وسماع الغناء، وكان معجبا بجارية يقال لها " جوهر "، وكان اشتراها من مروان الشامي، فدخل عليه ذات يوم مروان الشامي وجوهر تغنيه، فقال مروان:

أنت يا جوهر عندي جوهرة ... في بياض الدرة المشتهرة

فإذا غنت فنار ضرمت ... قدحت في كل قلب شررة"[5]

وفي هذا يبرز الجاحظ دور القيان في محيط الدولة العباسية، وذلك لما يتمتعن به من دهاء، إضافة إلى ذلك فإن القيان ساهمن في نشر الميل إلى الأدب والفنون الجميلة لأنهن يجدن الغناء وأصول اللغة والشعر، كل ذلك أختمنه بحسن ظاهر وبارز[6].

كما وصفه الجاحظ بالكرم والجود "ووقف المهدي على امرأة من بني ثعل فقال لها: ممن العجوز ؟ قالت: من طيء ؟ قال: ما منع طيناً أن يكون فيها آخر مثل حاتم. قالت: الذي منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك، وأعجب بقولها ووصلها "[7]

وعلى الرغم من ذلك، فإنه عرف عن المهدي الورع فكان شديدا على أهل الإلحاد والزندقة[1] "فلما دخلنا معاً ما شعرت الخيزران إلا ببني أبي عبيد الله قد عمدوا عليها فاستترت عنهم،

---

١ - سعيد الحرشي الملقب بالمقنع خرج في مرو، يقول بتناسخ الأرواح فاستغوى بشرا كثيرا وقوي وصار إلى ما وراء النهر فوجه المهدي لقتاله عدة من قواده، وابتدأ المقنع بجمع الطعام عدة للحصار في قلعة بكش. ابن خياط، تاريخ، ص ٤٣٧. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٦٠، ٥٦٦. سالم، العصر العباسي الأول، ص١٥٣.

٢- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص٧٠

٣ - كان المهدي في بداية خلافته محباً للغناء لكن هذا التحول من الغناء والقيان حدث في فترة متأخرة من حياة المهدي، وهذا ما يؤكد عليه الطبري بقوله على لسان إحدى القيان "دخلت على المهدي وقد وصف له غنائي فسألني عن الغناء وعن علمي به وقال لي تغني النواقيس قلت نعم والصليب يا أمير المؤمنين فصرفني وبلغني أنه قال معيطي ولا حاجة لي إليه فيمن أدنيه من خلوتي ولا آنس به" الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٩٢

٤ - انظر: الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٩٢. المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص ٢.

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٤١.

٦- أسهب الجاحظ الحديث في رسالة القيان عن مكان القانية في البلاد العباسي، انظر: جـ ٢، ص ١٥٨ وما يليها.

٧- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١٢

فقالوا: لو أردنا أن نفعل كما فعلتم بحرمتنا لفعلنا، ولكنا لا نستحل، فقالت لهم: والله لو رمتم ذلك لأمرت الخدم بقتلكم، فانصرفوا، فلما رجعت الخيزران، أخبرت المهدي بذلك، فكان السبب في قتل المهدي محمد بن أبي عبيد الله على الزندقة "[2].

وإذا كان الطبري يذكر أن المهدي استتاب بعض من أخذ بالزندقة مثل ما ذكر بقوله **"أخذ داؤد بن روح بن حاتم وإسماعيل بن سليمان بن مجالد ومحمد بن أبي أيوب المكي ومحمد بن طيفور في الزندقة فأقروا فاستتابهم المهدي وخلى سبيلهم وبعث بداؤد بن روح إلى أبيه روح وهو يومئذ بالبصرة عاملا عليها فمن عليه وأمره بتاديبه"**[3] فهذا لا يتنافى مع رواية الجاحظ التي كان المهدي عازماً فيها على قتل ابن عبيد الله بسبب الزندقة أو غيرها، لأن هذا العزم يُحمل على أنه كان قبل التوبة من الزندقة.

ثم تولى الخلافة بعده ابنه موسى الهادي (١٦٩-١٧٠هـ /٧٨٥-٧٨٦م) الذي أظهر الجاحظ إعجابه في سياسته تجاه رعيته حيث كان حريصاً على مقابلة ورؤية الناس، فيقول لحاجبه: **" لا تحجب الناس عني فإن ذلك يزيل التزكية ولا تلق إلي أمرا إذا كشفته وجدته باطلا، فإن ذلك يوتغ**[4] **المملكة "**[5] وهذا ما أكد عليه الطبري بقوله **" وكان الهادي قد استخلف على حجابته بعد الربيع ابنه الفضل فقال له لا تحجب عني الناس فإن ذلك يزيل عني البركة ولا تلق إلي أمرا إذا كشفته أصبته باطلا فإن ذلك يوقع الملك ويضر بالرعية "**[6]

انتقلت الخلافة إلى هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ / ٧٨٦-٨٠٩م) بعد أخيه الهادي الذي تميزت فترة خلافته بالإصلاحات، إذ بنيت المساجد الكبيرة والقصور الفخمة، كما شهدت

١- يعد المهدي أول من قام بحركة منظمة ضد الزندقة، فقد أمعن في قتل الملحدين والمداهنين، كما أمر بتصنيف كتب في الرد على الملحدين. يهدف من ذلك أن يثبت للناس أنه أهل للخلافة ويستحق لقب المهدي الذي أضفاه عليه المنصور، كما يؤكد الطبري اجتهاد المهدي في طلب الزندقة والبحث عنهم في بغداد وخارجها، كما أنه أنشأ ديواناً للزندقة، وقد اشتهرت عمليات مطاردة الزنادقة خاصة في عام ١٦٦هـ/ ٧٨٢م، كما أنه كان يتحرى بنفسه عن هؤلاء الزنادقة. انظر: اليعقوبي تاريخ اليعقوبي، ص٤١١. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٥٦٨، ٥٨٠، ٥٨٢. فوزي، الخلافة العباسية، جـ١، ص ١٥٨-١٥٩.

كما أن الطبري في موضع أخر أشار إلى أن المهدي اتهمه في أهل بيته، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٦٢.

لكن الجاحظ انفرد برواية مختلفة حول سبب القتل موضحا أن سبب مقتل محمد بن أبي عبيد الله هو أحد الموالي الفرس الذي عمل على اتهام ابن أبي عبيد الله عند المهدي وسعى بالوشاية به عند المهدي. الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١٤٥.

٢- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١٤٥

٣- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٧٩

٤ - الهلاك. وفسد وهلك وأثم. لسان العرب، جـ ٨، ص ٤٥٨.

٥- الجاحظ، رسالة الحجاب، ص ٥٦٧

٦- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٦١١-

الحركة العلمية تطوراً هائلاً على مختلف مجالات العلوم. وكان من مميزات عصره أنه اهتم كثيراً بالأمور الاقتصادية إذ اعتنى بالزراعة ونظمها[1]، أما في مجال التجارة فقد شجع التبادل التجاري بين الولايات وحراسة الطرق التجارية بين المدن. من آثاره العمرانية تشييد مدينة الواقفة قرب مدينة الرقة[2].

أشار الجاحظ إلى أن الرشيد عرف بالورع بقوله: " **وكان الرشيد إذا طاف بالبيت جعل لإزاره ذنبين عن يمين وشمال، ثم طاف بأوسع من خطو الظليم[3]، وأسرع من رجع يد الذنب"[4]**

كما يشير الجاحظ إلى تقريب الرشيد للشعراء، فإذا كانت وردت رواية منفردة لشاعر عماني، فمن المؤكد أن هناك شعراء كثر لم يذكرهم الجاحظ لأنهم صاروا أمراً معتاداً في بلاط الرشيد **"دخل العماني الراجز[5] على الرشيد، لينشده شعرا، وعليه قلنسوة طويلة، وخف ساذج، فقال: إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان دمالقان. .... ولا الله إن رأيت فيهم أبهى منظرا، ولا أحسن وجها، ولا أنعم كفا، ولا أندى راحة منك يا أمير المؤمنين. وو الله لو ألقي في روعي أني أتحدث عنك ما قلت لك ما قلت**

جهير العطاس شديد النياط ... جهير الرواء جهير النغم

ويخطو على الأين خطو الظليم ... ويعلو الرجال بجسم عمم"[6]

كان هوى الجاحظ في الفتنة التي حصلت بين الأمين والمأمون مع المأمون الذي عمل على تقريبه وإدخاله البلاط مع كبار رجالات المعتزلة، ومن ثم كان الجاحظ لا يذكر الأمين إلا وقرن اسمه بكلمة المخلوع **"علمت ان الشاري حدثني أن المخلوع بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم؛ كأنه يخبر أن عنده من الجند بعدد ذلك الحب وأن المأمون بعث إليه بديك أعور، يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم، كما يلقط الديك الحب "[7]**.

١- ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٤، ص١٢٠

٢- الجاحظ، البغال، ص١١٨. شيدت على ضفاف الفرات لتكون مقرًا صيفيًا لحكمه. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ١٤، ص ٥

٣ - المشي السريع. لسان العرب، جـ ٢، ص ٣٨٨.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٢٢.

٥ - هو محمد بن ذؤيب الفقيمي، ولم يكن من أهل عمان، وإنما قيل له عماني لأن دكينا الراجز نظر إليه وهو يسقى الإبل ويرتجز، فقال: من هذا العماني؟ فلزمه الاسم. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ ٢، ص ٧٤٣.

٦- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٩٧

٧- الجاحظ، الحيوان، جـ ٣، ص ٤٣٦

لم يشأ الجاحظ في أن يخوض في هذه الفتنة وأسبابها وأطرافها وملابساتها، فقد وقع في الحرج بين انهزام الحزب العربي بقيادة أم جعفر وابنها الأمين ووزيره الفضل بن الربيع، وبين انتصار شريكه في فكر الاعتزال ولكن بمعية كبار الأعاجم الذي يشكلون الحزب المعادي للعرب. إن غلبة المأمون واتفاقه مع الجاحظ في الفكر والاتجاه خاصة في مبادئ المعتزلة ساهمت في تعميق العلاقة بينهما، من جانب أخر فإن إرهاصات العلاقة التي حدثت بين الأمين والمأمون عمقت فكرة وجود حزبين عربي وغير عربي يسعى كل منها لتثبيت نفسه في الخلافة[1].

تناول الجاحظ عهد الأمين (١٩٣-١٩٨هـ / ٨٠٩-٨١٣م) بإشارات تدل على هواه الغناء والطرب ولعل الجاحظ يهدف من وراء ذلك إلى التقليل من شأنه لإبعاد الناس عنه وخاصة أهل بغداد الذين وقفوا معه ضد أخيه المأمون[2] " **لما أحيط به، وبلغت حجارة المنجنيق بساطه، كنا عنده، فغنته جارية له بغناءٍ تركت فيه شيئاً لم تجد حكايته. فصاح: يا زانية تغنينني الخطأ خذوها فحملت، وكان آخر العهد بها**"[3].

لكن الفتنة انتهت بمقتل الأمين وتولى الخلافة بعده أخوه المأمون (١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م) الذي كان من أفضل رجال بني العباس حزما و عزما و له محاسن و سيرة طويلة، لم يتولّ الخلافة من بني العباس أعلم منه و كان فضيحا مفوها[4].

يعدّ المأمون من أكثر الخلفاء العباسيين الذي تناولهم الجاحظ في كتاباته ففضلا عن أن عصره هو العصر الذهبي للعلم والعلماء حيث تميز عهده بتشجيع مطلق للعلوم من فلسفة وطب ورياضيات وفلك واهتمام خاص بعلوم اليونان، كما قرب العلماء وأجزل لهم العطاء[5]، فإنه أجتمع في شخصه حميد الأخلاق والجود والعفو والبر والحلم والصبر والتدبير والسياسة والرفق وأصالة الرأي والوفاء والعدل " **ولما قرا المأمون كتبي في الإمامة فوجدها على ما أمر به، وصرت إليه..... وهذا كتاب لا يحتاج إلى حضور صاحبه، ولا يفتقر إلى المحتجين عنه، قد جمع استقصاء**

---

١ - الزويري، الجاحظ، ص ٣٨

٢ - أشار الفضل بن سهل على المأمون بإظهار الورع والدّين وحسن السّيرة، فأظهر المأمون حسن السيرة واستمال القوّاد وأهل خراسان، وكان كلّما اعتمد الأمين حركة ناقصة، اعتمد المأمون حركة شديدة، ثم نشأت العداوة بينهما. ابن الطقطقي، الفخري، ص٢١٠-٢١١.

٣- التاج (منسوب للجاحظ)، ص ٢٦

٤- السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٦١

٥- الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ١٦٠

المعاني، واستيفاء جميع الحقوق، مع اللفظ الجزل، والمخرج السهل، فهو سوقي ملوكي، وعامي خاصي"[1].

لقد ألقت العلاقة بين المأمون والجاحظ بثقلها على نظرة الجاحظ لمسألة الإمامة، فإذا كان الجاحظ قد وصف خلافة الأمويين بأنها خلافة قهر وغلبة بسبب موقفهم من المسلمين عامة ومن المعارضين لهم خاصة، فإنه وصف خلافة المأمون الذي تولى بعد أن غلب أخاه الأمين بأنها خلافة شرعية، فلم يكن يعني أمر الغلبة بقدر ما هو معني بإظهار ظلم الأمويين لغيرهم[2].

اهتم المأمون كثيراً بالترجمة حتى إننا نستطيع أن نسمي عهده بعهد الترجمة فقد نقلت المعرفة من علوم وآداب سريانية وفارسية ويونانية إلى العربية فاكتسبت اللغة العربية اهتماما خاصاً و مكانة مرموقة إذ تحولت من لغة شعر وأدب فحسب إلى لغة علم وفلسفة. كما أن الجاحظ نفسه تولى ديوان الرسائل في عهد المأمون[3].

إلا أن الجاحظ له رأي في المترجمين فهو لا يثق بهم وهذا ما دفعه إلى التقليل من قدرهم[4]، ودحض الأكاذيب التي يلجؤون إليها لتبرير مواقفهم، وإلى فضح عوراتهم وخطل تأويلهم ونقلهم[5]. وكثيراً ما يربط بينهم وبين البحارة أو الصيادين من حيث المبالغة أو التلفيق في سرد الأخبار والأساطير[6].

حظيت شخصية المأمون بأهمية واضحة، فكان له – كما يرى الجاحظ - من المؤهلات العلمية التي انعكست على شخصيته وجعلته أعلم الخلفاء وأميزهم، فقد أشار الجاحظ إلى ثقافة المأمون ومعرفته بألوان العلوم وقدرته على إزالة مبهماتها ومشكلاتها، كما تميز بالقدرة اللسانية على المحاجة مما أكسبه فصحة في اللسان وبيانا وطلاقة، جعلته كما يشير الجاحظ وحيد عصره وخطيب دهره نفسه "**وقال سهل بن هارون يوما، وهو عند المأمون: من أصناف العلم مالا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه، وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال! قال المأمون: قد يسمى بعض الشيء علما وليس بعلم، فإن كنت هذا أردت فوجهه الذي ذكرناه. ولو قلت: العلم لا يدرك**

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٤٤

٢ - الجاحظ، رسالة في النابتة، ص٢٤٢. الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣٢. الزويري، الإمامة، ص ٥٩.

٣- الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، جـ٢، ص ٦٠٥

٤ - سوء الترجمة، وفساد تأويل المترجم لما يترجمة، وفساد النسخ الذي قد يعود إلى سوء الخط أو التحريف والتبديل والتغيير والضياع بمرور الزمن؛ كل هذا يساهم في تقليل قدر الكتاب المترجم وصعوبة فهمه. عزت، فلسفة الأخلاق، ص ٤٧.

٥- الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٤، ص ٢٩٤. جـ ١٦، ص ١٤٩. فوزي، دراسات في التاريخ الإسلامي، ص ٢٢٤.

٦- الجاحظ، الحيوان، جـ٦، ص ١٩، ٢٨٠

غوره، ولا يسبر قعره، ولا تبلغ غايته، ولا يستقصى اصنافه، ولا يضبط آخره، فالأمر على ما قلت. فإذا فعلتما ذلك كان عدلا، وقولا صدقا"[1] . فجمع الناس على مذهب واحد يعد عند الجاحظ من أهم ما تميز به المأمون[2].

كما أن المأمون المعروف عنه بإطلاق الحريات فكان يسائل حتى الزنادقة " فقال له المأمون: أسألك عن حرفين فقط. خبرني: هل ندم مسيء قط على إساءته، أو نكون نحن لم نندم على شيء كان منا قط؟! قال: بل ندم كثير من المسيئين على إساءتهم. قال: فخبرني عن الندم على الإساءة، إساءة أو إحسان؟ ... "[3].

عد الجاحظ فترة خلافة المأمون الأكثر فساداً في الاعتقاد، واختلاطا في القول، فصار المأمون في امتحان قاس، لكن ما تميز به من الصفات جعله يخوض غمار الإصلاح هادفا إلى رد الناس عن غيهم، فكان يعالجهم بحسن السياسة والمداراة حتى تم له ما أراد "تميز المأمون بالبلاغة والجهارة، وبالحلاوة والفخامة، وجودة اللهجة والطلاوة "[4]. كما أضاف "لم أر انطق من المأمون أمير المؤمنين "[5]. وكلمة أمير تحمل أبعاد سياسية تتمثل في تذكير الناس بأنه الخليفة الشرعي الذي تولى الخلافة وهو أهل لها، فسار فيها سيرة الخلفاء الراشدين مثل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهم -[6].

كما يصور الجاحظ العلاقة بين المأمون والمعتزلة من خلال تصوير علاقة المأمون بسهل بن هارون الذي أراد أن يبعد سهلاً عن مجلسه، لكن سهلاً المعروف بحلاوة وجزالة اللفظ استطاع أن يقرب المأمون إليه " كان المأمون قد استثقل سهل بن هارون، فدخل عليه سهل يوما والناس عنده على منازلهم، فتكلم المأمون بكلام فذهب فيه كل مذهب، فقال سهل بن هارون: ما لكم تسمعون ولا تعون، وتشاهدون ولا تفقهون، وتنظرون ولا تبصرون. والله إنه ليفعل ويقول في اليوم القصير مثل ما فعل بنو مروان وقالوا في الدهر الطويل. عربكم كعجمهم، وعجمكم كعبيدهم، ولكن كيف يعرف الدواء من لا يشعر بالداء. قال: فرجع له المأمون بعد ذلك إلى الرأي الأول "[7].

١ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٤٣

٢ ـ الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣٢.

٣ـ الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ١٦٣

٤ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٩٤

٥ـ المصدر نفسه، ص ٩٤

٦ ـ الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣٣

٧ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٧٠

كما امتدح سياسة المأمون بتقريب العلماء، فمن رأى منه نبوغا في العلم قربه منه[1].

وعندما تولى المأمون الخلافة، وجد العلماء فريقين مختلفين، ووجد الخلاف محتدمًا بين علماء الكلام والفقهاء والمحدثين، فأطلق الحرية مما حدا بالمعتزلة التي تحكم العقل في كل آرائها إلى الثناء على المأمون. فكان المأمون يهدف من تلك المجالس في الاطلاع على ما يجري في مجالس أهل الفكر على ألسنة المعارضين له[2].

كما وصفه بالعدل "وهل سمعتم بأعدل منه في حكمه، ولا أقصد في فعله، ولا أسد في قوله على غناء طرفه، وذكاء عينه"[3] أما عن صفة البلاغة عند المأمون "بينا الحسن اللؤلؤي في بعض الليالي بالرقة يحدث المأمون والمأمون يومئذ أمير، إذا نعس المامون، فقال له اللؤلؤي: نمت أيها الأمير؟ ففتح المامون عينيه وقال: سوقي والله خذ يا غلام بيده"[4]

لكن الجاحظ أورد رواية يتيمة حول حياة المأمون الخاصة، فكان لا يتردد في استعمال نفوذه في الحصول على ما يروق له من الجواري بدعوى الزواج، متستر بعقد النكاح الشرعي. وقد نقل لنا الجاحظ هذا السلوك عند المأمون " ولقد نظر المامون إلى سُكر فقال: أحُرةٌ أنت أم مملوكة؟ قالت: لا أدري، إذا غضبتْ علي أم جعفر قالت: أنت مملوكة، وإذا رضيتْ قالت: أنت حُرة. قال: فاكتبي إليها الساعة فاسأليها عن ذلك. فكتبتْ كتاباً وصلته بجناح طائرٍ من الهُدى كان معها، أرسلتْه تعلم أم جعفرٍ ذلك، فعلمت أم جعفرٍ ما أراد فكتبتْ إليها: " أنت حُرة ". فتزوجها على عشرة آلاف درهم، ثم خلا بها من ساعتها فواقعها وخلى سبيلها، وأمر بدفع المال إليها "[5].

بعد وفاة المأمون تولى الخلافة أخوه المعتصم (٢١٨- ٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤٢م)، الذي اعتمد على الأتراك فكان حرسه منهم، وكانوا أخواله إذ كانت أمة تركية "فقلت لصاحب لي: انظر أي شيء اتفق لنا. أشهد أن المعتصم كان أعرف بهم حين جمعهم واصطنعهم "[6]، كما فعل أخوه المأمون مع الفرس، وكان قوام الحرس التركي بداية عهد المعتصم أربعة آلاف رجل، غير أنه استقدم

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٨

٢ - الزويري، الإمامة، ص ٣٤.

٣ - الجاحظ، رسالة في مناقب بني العباس، ص ٧.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٢٤

٥- الجاحظ، رسالة في القيان، جـ ٢، ص ١٥٧.

٦- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٥٠٥

المزيد من قبائلهم ما آثار قلاقل واضطرابات في بغداد اضطر معها الخليفة لنقل عاصمته إلى سامراء[1].

ويبرر المعتصم اصطناعه للأتراك عندما تولى الخلافة لشدة بطشهم وصبرهم على القتال. كما أراد أن يكسر شوكة الفرس، فقد كان الخلفاء الذين سبقوه يعتمدون على عنصرين هم العرب والفرس فجاء المعتصم وأضاف عنصرا أخر وهم الأتراك خاصة وأن أمة تركية، كما رأى فيهم شدة إخلاصهم للخليفة وعدم إثارتهم النزعات والحركات الفكرية والدينية كما فعل الفرس، وأشار الجاحظ إلى شدة بأس التركي في الحرب والقتال وكذلك ما شاهده من انفلات فرس من الجنود الخراسانيين وعجزهم عن أخذها حتى جاء تركي فقبض عليها وسلمهم إياها[2].

ومن أبرز الأحداث في عهده فتح عمورية[3] عام ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م. وقد أشار الجاحظ إلى طرف من تلك المعركة بقوله: "**وساير البطريق الذي خرج إلى المعتصم من سور عمورية، محمد ابن عبد الملك، والأفشين بن كاوس، فساوم كل واحد منهما ببرذونه، وذكر أنه يرغبهما أو يربحهما. فإذا كان هذا أدب البطريق، مع محله من الملك والمملكة، فما ظنك بمن هو دونه منهم! ولما استجلس المعتصم بطريق خرشنة، تربع ثم مد رجليه**"![4]

أشاد الجاحظ بالمعتصم في حماية حدود الدولة الإسلامية وفي سد الثغور ورد المظالم؛ كما أشاد به في الفتوح التي قام بها "**الفتوح التي تسكت الأزرقين وتخرس الرافضي، وتخذل السني الجماعي، وتعم الأمة السرور، والرعية بالمحبة والحبور، والتي تصغر معها كبار الفتوح**"[5]. كما صور الجاحظ معركة عمورية التي خاضها المعتصم ضد الروم[6] "**وذلك أني لقيت حزاما حين قدم أمير المؤمنين من بلاد الروم، فسألته عن الحرب كيف كانت هناك؟ فقال لقيناهم في مقدار صحن الإصطبل، فما**

١- الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص٢١٣

٢- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٥١٢. ماجد، العصر العباسي الأول، جـ ١، ص ٣٨٨-٣٩١.

٣ - عمورية في بلاد الروم، حرزها المعتصم، وقد ذكرها أبو تمام

يا يوم وقعة عمورية..... انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب

معركة عمورية كانت بين المعتصم و الإمبراطورية البيزنطية في سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م. انظر: ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت: ٢٧٢هـ/٨٨٥م). المسالك والممالك، ط١، دار أحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٨٨م، ص١٠٦-١٠٧ (سيشار إليه فيما بعد: ابن خرداذبة، المسالك والممالك). الحموي، معجم البلدان، جـ ٤، ص ١٥٨. الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٣- ٤١٤.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ١٧٥

٥ - الجاحظ، رسالة في مناقب بني العباس، ص ٨

٦- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٤٥٤

كان بقدر ما يحس الرجل دابته حتى تركناهم في أضيق من ممرغة. وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابير سرجين، فلو طرحت روثة ما سقطت إلا على ذنب دابة "[1].

وقد أكثر الجاحظ في مدح المعتصم في رسالة مناقب بني العباس أكثر من غيره من الخلفاء العباسيين، ويستنتج من ذلك أن الجاحظ بدأ الرسالة في فترة خلافة المعتصم وبالتالي عاصره حتى فرغ منها، وهذا ما وفر له مادة غنية عن الأحداث التي وقعت في خلافة المعتصم ويسجل الجاحظ ستة من أعمال المعتصم والتي تتمثل في: قضية خلق القرآن[2]، وثورة الزط[3]، وحرب مازيار طبرستان[4]، وقتل بابك الخرمي[5]، وفتح عمورية[6] والقضاء على ثورة جعفر الكردي[7]، ورد خطر القراصنة[8] " **وللمعتصم بالله ستة فتوح عظام جليلة، لم يحارب في واحد منهن إلا من قصد الإسلام والمسلمين دون ملكه خاصة، فمن ذلك مازيار وملك طبرستان بعد أن تغلب وقتل وتهضم، وسبى وتمكن من تلك القلاع، حتى ظفر به وقتله، ومن ذلك بابك، فقتله وصلبه حيث مازيار، ومن ذلك فتح عمورية وفي الثانية من قسطنطينية ثم أسر ياطس صاحب الضواحي وصلبه إلى جنب بابك ومازيار، واستباحة الزط، حيث اجتث أصلهم، ثم جعفر البركمي وتغلبه، حتى قتله الله على يده، ثم ما كان في ضائقة البصر وشق الهند وقتل الغزاة، وإخراب السواحل"**[9]

فالمعتصم يبدو من خلال إشارات الجاحظ ذو عبقرية حربية فذة، يبذل ما يملك من أجل إعداد الجيوش وتجهيز العتاد من رجال وسلاح، لكنه يجد نفسه يقصر عن وصفه "**وأما المعتصم، فلو شئنا أن نطيل الذكر، ونطنب في الوصف لوجدنا إلى ذلك أنهج السبل، وأسهل الطرق، وأتم الأسباب، وأكبر الأعوان، وأظهر الحجج"**[10].

١ـ الجاحظ، رسالة صناعة القواد، ص ٣١٣

٢ ـ تم عرض القضية في الفصل الأول

٣ ـ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٣٠٤.

٤ ـ تحصن في القلاع والجبال، حتى أخذه المعتصم، فقتله، وصلبه إلى جنب بابك. الدينوري، الأخبار الطول، ص ٤٠٢. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٤٨.

٥ ـ المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٤٧٨. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٣، ص ١٥١.

٦ ـ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٤٥٤

٧ ـ خرب البلاد وسبى الذراري، فوجه إليه المعتصم الخيول في طلبه، ولم يزل به حتى أخذه وقتله، وصلبه إلى جنب بابك ومازيار. الدينوري، الأخبار الطول، ص ٤٠٢.

٨ ـ الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣٥.

٩ ـ الجاحظ، رسالة العباسية، ص ٧١

١٠ ـ المصدر نفسه، ص ٦٨.

كما أن لهذا الإعداد أثراً معنوياً ومادياً في إنجاح المعركة وتحقيق النصر[1] "**حسم به عرق البغي ونواجم الفتنة، الذي لم يزل الله يزيده في كل طرفة محبة ومع كل محبة هيبة، ومع كل نعمةٍ شكراً، ومع كل شكرٍ فضلا. وهو المبتدئ بهذا الأمر والقائم به، والقطب الذي عليه تدور الرحى** "[2]، مع أن المعتصم أخفق أصلاً في حسم قضية خلق القرآن، واضطر إلى إطلاق سراح الإمام أحمد بن حنبل، بعد إخفاقه في حمله على القول بخلق القرآن، وخوفاً من العواقب التي بدأت تلوح ملامحها، وأنذرت بما هو خطير[3].

ويسلط الجاحظ الضوء على جوانب من شخصية المعتصم كالقيام بأمر الرعية والعناية بشؤونها والمعرفة بإدارة الدولة، كما ساس الناس بالعدل والإنصاف "**وقد جمع الله لأمير المؤمنين مع كرم العروق وصلاح المنشأ، البعد عن إيثار الهوى، وهل رأيت أفعالاً أشبه بأخلاق، ولا أخلاقاً أشبه بأعراق، من أفعال بأخلاقه وأخلاق بأعراق**"[4]. ومثل هذه العبارات قد فاحت منها رائحة الجبرية[5]، وهي الفكرة التي حاربها المعتزلة أشد حرب[6]. وهذا التمييز وتأكيد هذه الصفة يعني أن الله تعالى اختارها له دون ضدها. وهذا نزوع جبري بلا شك، إذ من المفترض أن يكون الله تعالى قد طبعه على البعد عن إيثار الهوى وعلى اتباع الهوى أيضا[7].

كما لا يفوت الجاحظ الحديث عما تميز به المعتصم من الحنكة العسكرية، وقضائه على الثورات التي تستهدف الإسلام وفتوحاته، وقد كبرت هذه الفتوحات في عين الجاحظ بسبب أنها أعلت من شأن الأمة الإسلامية كافة، كذلك فإن كثيرا من جهود المعتصم وجهها نحو منبع الحركات التي تستهدف الإسلام والمسلمين[8].

---

١ - الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣٥.

٢- الجاحظ، رسالة في نفي التشبيه، جـ ١، ص ٣٠٦.

٣- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(ت: ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م). مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، ط ٢، دار هجر، الرياض: ١٩٨٨م، ص٣٤٠ (سيشار إليه فيما بعد: ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد).

٤- الجاحظ، رسالة في نفي التشبيه، جـ ١، ص ٣٠٨.

٥- الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف. فالجبرية الخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا، والجبرية المتوسطة: هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلا، فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرا ما في الفعل، وسمي ذلك كسبا، فليس بجبري. والمعتزلة يسمون من لم يثبت للقدرة الحادثة أثرا في الإبداع والإحداث استقلالا: جبريا. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٨٥.

٦- الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٤٣

٧- الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٢، ص ٨٥

٨ - الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣٥

أما الواثق الذي تولى الخلافة سنة (٢٢٧- ٢٣٢هـ / ٨٤٢- ٨٤٧م) بعد وفاة المعتصم، فلم يتناوله الجاحظ سوى في رسالة واحدة[1] معددا الصفات التي اتصف بها "**فهو الذي جمع بني المهابة والمحبة، وإيثار الحق، وحسن النية، والشغف بالعدل، وقمع الظالم، وقلة الرخصة، وإعمال اليقظة**"[2]. أما الصفات التي اتصف بها فتتمثل في أصالة الرأي، وصحة العقل، والحس اللطيف، والفهم العجيب ثم الجود، وطيب العشرة، وحسن الملكة[3].

واستمرت صلة الجاحظ بالسلطة حتى خلافة المتوكل (٢٣٢- ٢٤٧هـ / ٨٤٧- ٨٦١م) الذي لم يكن متحمساً لعلاقته مع رجالات المعتزلة ومن ضمنهم الجاحظ[4]. فجاءت رواية الجاحظ عنه مبطنة فمن ذلك حديثه عن جور المتوكل بسبب أخذه النساء من ديار أوليائهن عنوة، ويرغم الرجال على التنازل له عن أمهات أولادهم، لا يخاف عقاب الخالق ولا نقمة الزمن " **كانت نخلة، جارية الحسين الخلال، قبل أن يتولى المتوكل الخلافة، تقعد بين يديه وتغنيه، فولدت للحسين ابناً، فلما ولي المتوكل الخلافة، طرقه ليلاً، فقال له الحسين: زرتنا، جعلت فداك، قال: اشتهيت أن اسمع غناء نخلة. فأخرجها إليه مطمومة الشعر، فقال: يا خلال أليس قد ولدت منك ابناً ؟ قال: بلى، قال: فأنا أحب أن تعتقها. قال: فإنها حرة، قال: فأشهد إني قد تزوجتها، قومي يا نخلة. فاشتد ذلك على الحسين، فعوضه منها خمسة عشر ألف دينار، وحول إليه نخلة** "[5]. ولم يكن المتوكل يفتقر إلى القيان إذ كان قصره مليء بهن، لكن نشوة السلطة والانحراف عن سبيل الحق والعدل. وموقف الجاحظ من

---

١ - EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JĀHIZ ,p٢٣٦.

٢ - الجاحظ، رسالة في مناقب بني العباس، ص ١٣

٣ - المصدر نفسه، ص ١٤

٤- إن السياسة التي سار عليها المأمون والمعتصم والواثق من تقريب المعتزلة واتخاذ الاعتزال مذهبا رسميا أثارت عليهم الناس، فقد استغل المأمون مذهب الاعتزال في مجابهة أعداء الدولة ومعارضيها، فحاول المأمون أن يعتمد على المعتزلة في التقرب إلى العلويين، فخلق مذهبا رسميا للدولة يمتاز بكونه سنيا بطبيعته ولكنه معتزلي بتفسيره، مما أوجد مذهبا وسطا بين أهل الحديث والشيعة والعلوية. لكن سياسة المأمون ضد أهل الحديث مثل أحمد بن حنبل أثارت الناس عليه مثل ما حدث في ثورة بغداد.

بالتالي جاء التحول في عهد المتوكل الذي أعلن إنهاء القول بخلق القرآن وفرض حظرا على المناقشة لترك السخط الذي أصاب الناس من الإجراءات التي قام بها الخلفاء الذين سبقوه ضد أهل السنة، وعلى الرغم من انهيار الاعتزال كمذهب رسمي إلا أنه لم تحدث ردة فعل ضده كما حدث ضد أهل السنة.

لقد كانت السياسة الجديدة التي سار عليها المتوكل نابعة من الظروف السياسية التي تتمثل في الحصول على عضد شعبي من الناس والفقهاء والعلماء ضد العلويين والأتراك، فقد حاول أن يحد من نفوذ الأتراك المتزايد. ومن أجل ذلك فقد كان يحضر صلوات الجمعة والأعياد ويوسع المساجد. لقد وصل المعتزلة للسلطة وظلوا بها حتى عام ٢٣٢هـ / ٨٤٦م لكن لم تفلح عقيدتهم في أن تكسب الناس إليها ولا أن تجذبهم، فظلوا دون سند مما سهل على المتوكل أن ينهي أمرهم، كما أن المجتمع نفسه كان يرفض الاعتزال خاصة أنهم بسبب ثقافتهم اليونانية التي تعتمد على الاستدلال العقلي والمنطق كانوا ينظرون بتعالي على الناس. انظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ٣، ص ١٠٢. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٩٦. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩١. نوري، الجاحظ، ص ٣. فوزي، الخلافة العباسية، جـ١، ص٢٩٢- ٢٩٧.

٥- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١١٢

المتوكل ينبع من موقف المتوكل نفسه من المعتزلة حيث أن هذا كان سبيل خلفاء بني العباس جميعاً، منذ عهد المهدي[1].

وحين تناول الجاحظ هذه الظاهرة في رسالته الجواري والغلمان ورسالة الفتيان، تناول أغلب الأمثلة من العصر الأموي وليس العباسي كما شاهدنا على الرغم من انتشارها بشكل كبير في العصر العباسي بشكل يفوق حتى العصر الأموي[2].

كما أن الجاحظ لم يتناول تفاصيل حياة المتوكل في كتبه ورسائله وذلك بسبب أن المتوكل وقف موقفاً معادياً من المعتزلة ورجالاتها، وعلى الرغم من فتور علاقة الجاحظ بالمتوكل إلا أن علاقة الجاحظ بالسلطة لا سيما الوزراء منهم استمرت حتى وفاته، فأهداهم كتبه ورسائله ومصنفاته، فأجزلوا له العطاء بدورهم وأفاضوا عليه[3].

وهكذا يمكن القول بأن علاقة الجاحظ بالخلفاء جعلته يصور وينقل الكثير من المشاهد عنهم وعن صفاتهم، كما جعلته يكون على مقربة من الأسباب التي كانت تقف وراء ذياع صيت وشهرة هذا الخليفة أو ذاك وكذلك العكس، إضافة إلى كشفها عن ميول الجاحظ واتجاهاته السياسية والفكرية في بعض الأحيان، وأظهرت كتاباته بعض الحقائق التاريخية الخاصة بهذه الفترة خاصة التي كان مقرباً فيها من خلفاء بني العباس.

ثالثاً: صورة الخلفاء العباسيين وسياستهم

رسم الجاحظ صورة خاصة للعباسيين بسبب قربه من البلاط، فأتاح له ذلك الاطلاع على خفايا الأمور، فروى الجاحظ العديد من الروايات التي ميزت الخلفاء العباسيين في النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية فقد اهتم الخلفاء العباسيون بتلك النواحي، مما جعل العاصمة بغداد مركزا مزدهرا سعى إلى اجتذاب العديد من الفنانين والتجار والصناع الذين أبدعوا في مجال الاقتصاد، وكذلك الأدباء والعلماء في شؤون اللغة والفلسفة والقانون الذين تناظروا في حضرة الخلفاء فتناظروا في قضايا السياسة والدين[4].

١- غيوه، يوسف. حرائر البلاط العباسي في كتابات الجاحظ، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ١١، جامعة منتوري، الجزائر: ١٩٩٩م، ص ١٩٩ (سيشار إليه فيما بعد: غيوه، حرائر البلاط العباسي).

٢- فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٢٣

٣- الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص. ٧٦.

٤ - انظر: ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص ٢٧. نوري، الجاحظ، ص ١

وعندما نتناول الجانب الذي لعبه الجاحظ سياسياً نجد أنه حدد من خلال موقفه من الدعوة العباسية أشكال المعارضة التي يمكن أن تجابه الخليفة بأنها لا تعدو أن تكون واحدة من عشر حالات، نعتها جميعاً بنعوت توحي بالسلبية وعدم المشروعية[1] فقال:"... **فإن السلطان لا يخلو من متأول ناقم، ومن محكوم عليه ساخط، ومن معدول عن الحكم زار، ومن متعطل متصفح، ومن معجب برأي ذي خطل في بيانه، ومن لئيم قد أفسده الإحسان، وصاحب فتنة خامل في الجماعة، رئيس في الفرقة** "[2]. وهذه الأمثلة لا تعدو أن تكون نظرية ساقها الجاحظ دون أن يعطي أمثلة عليها. كما يتبدى رفض الجاحظ لفكرة الخروج على الحاكم أو معارضته، وأنها في مجملها أمور سلبية، إلا أن الجاحظ لم يوضح هنا كيفية توجيه الحاكم إذا أخطأ أو تقويمه إذا اعوج[3].

فكان نهجه السياسي يميل نحو العباسيين، مما جعل صورة العباسيين مشرقة في كتاباته، وعلى الرغم أن الجاحظ معتزلي إلا أن الولاء السياسي طغى على الولاء الديني لذا فقد تنازل عن الكثير من المبادئ التي نادى بها المعتزلة وخاصة في مسألة الإمامة من أجل كسب ود الخلفاء العباسيين[4] "**انفراد السيد بالسيادة كانفراد الإمام بالإمامة. وبالسلامة من تنازع الرؤساء تجتمع الكلمة، وتكون الألفة، ويصلح شان الجماعة. وإذا كانت الجماعة انتهت الأعداء، وانقطعت الأهواء**"[5].

لقد أطرى على النهج السياسي والفكري للدعوة العباسية، وأيد مذهبهم ولم ير الخروج على الدولة أو استعمال السيف ضدهم[6]، ودافع عن العباسيين بقوله: " **وهكذا تدبير الخلفاء ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولو كان إذا لم يفهموا عن الأئمة لم يعترضوا عليهم ولم يخطئوهم ولم يجهلوهم كان أيسر**"[7] فكان وقوف الجاحظ إلى جانب السلطة العباسية يتخذ صوراً وأشكال مختلفة من ضمنها التشهير بهم وبأخلاقهم، فعرضه لظاهرة البخل التي أقرها على خصوم العباسيين وأعني بهم

---

١ - نوري، الجاحظ، ص ١٠

٢- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٧٤.

٣ - إن مسألة عدم جواز الخروج على السلطان بل تأييده حتى ولو كان فاجرا وجدت تأييدا من بعض الفقهاء الذين يرون وجوب تأييد إمامته في حالة أنه ملك أمر المسلمين حتى وأن كانت خلافته غلبة وقهراً. الزويري، الإمامة، ص ٦٠.

٤- فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤١٩

٥- الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ١٥١.

٦ - فوزي، الجاجظ مؤرخا، ص ٤١٩.

٧ - الجاحظ، العثمانية، ص ٤١٩

العناصر الفارسية[1]، إذ أججت ثورته على البخلاء والبخل عوامل سياسية خطيرة من ذلك حملته على الشعوبية التي امتدح فيها جود العرب مقابل بخل الموالي. وليس ثمة إهانة في نظر العربي أقبح من البخل[2]. فالجاحظ بصفته كاتبا شبه رسمي للسلطة العباسية كان عليه بث الدعاية وحشد التأييد للسلطة، كما كتب العديد من الرسائل الأخرى لأن السلطة أرادت ذلك[3].

وللجاحظ آراء عديدة دافع بها عن العباسيين، وأثنى على منجزاتهم في كتبه ورسائله، من قوله: **"أنتم تزعمون أن عبد المطلب أحلم الناس، وكذلك العباس بن عبد المطلب. قلنا إن الأحنف كان الحلم سيد عمله، فبان من سائر أعماله؛ ومحاسن عبد المطلب، وخصال العباس في المجد والشرف كانت متكافئة متساوية، كل خصلة منها تنتصف من أختها، وكانت كما قال الشاعر**

أني غرضت إلى تناصف وجهها ... غرض المحب إلى الحبيب الغائب"[4]

كما أن موقفه يهدف إلى الرفع من شأن بني العباس وتقليل شأن الأمويين **"ولم يكن في أصحابنا مذ هلك أبو العباس إلى ملك المتوكل إلا سليم الجوارح نقيّ من الابن صحيح الأعضاء، جميل المنظر، بهي الرواء. فأما الصلع[5] فإنه انقطع بعد مروان بن الحكم، فلم يكن في ملوكهم ولا في خلفائنا أصلع إلى يومنا هذا"**[6].

لعب الجاحظ دوراً سياسيا يتمثل في جمع ولاء الناس للخليفة العباسي من خلال تناول موضوع الخروج على السلطان[7]، وتحديداً في رسالة "العثمانية" فالجاحظ كتب رسالته مسايرا للتطور السياسي في الدولة العباسية الذي بدأ يأخذ موقفا مناوئا من العلويين فصار الجاحظ من مناصري ومؤيدي حزب العثمانية[8]. فجاءت الرسالة تأكيدا لمواقف السلطة ونظرتها للقضايا

---

١ - احتوى كتاب البخلاء على التعريض شمل حتى حيوانات مرو من أجل أن يعمم تلك الظاهرة على كافة أهل مرو. انظر مثلا: ص ٣٧، ص ٣٨، ص ٤٠، ص٤٣، ص٤٩.

٢ - جبر، الجاحظ ، ص٦٥

٣ - نوري، الجاحظ، ص ٢.

٤- الجاحظ، البرصان والعرجان، ص ٣١٢

٥- يشير اليعقوبي أن الصلعاء هم الذين يكذبون على المنابر بقوله: "قد سميت الكذبة، على المنبر، الصلعاء فإذا أوعدتكم أو وعدتكم، فلم أف لكم بوعدي ووعيدي، فلا طاعة لي عليكم " اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص٣٠٦. والجاحظ هنا يعرّض بالأمويين.

٦- الجاحظ، البرصان والعرجان، ص ٣٢٠

٧ - تناول المسعودي رسالة الجاحظ في العثمانية من أوجه مختلفة حيث يأخذ على الجاحظ أنه حل نفسه من فضائل علي، ورأي المسعودي نابعا من ميوله الشيعية. مروج الذهب، جـ ١، ص٤٥٠.

٨ - بلاء، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٦٥

التي تواجهها مما عزز من صمودها أمام خصومها السياسيين[1]. وجاءت معالجته لها بصورة تقريرية؛ فالخروج على السلطان أمر غير ممكن عملياً ونظرياً. ومن يقوم بذلك لن يلقى إلا الإخفاق ليصل إلى النتيجة التي مؤداها ضرورة القبول والتسليم بالسلطان القائم فعلاً، وذلك بلا ريب أهم ما قدمه الجاحظ فكرياً للسلطة العباسية[2]. ونسبة عثماني تعني " **علاقة مع أسرة الخليفة عثمان سواء عن طريق القرابة أو الولاء، ويشتق معناها التاريخي من أنها تدل عادة على الانتصار للخليفة المقتول، واعتقاد المسلم ببراءة الشهيد، والمطالبة بالتكفير عن دمه المهراق[3]، وهذه اقل العواطف التي كانت تجول في نفس العثمانيين**"[4].

ويبدو أن السياسة التي اتبعها بعض الخلفاء العباسيين وخاصة المأمون والمعتصم بتقريب العناصر الأجنبية على حساب العناصر العرب، قد شكلت ردة فعل معارضة من قبل العناصر العربية التي رأت حال العرب في الدولة الأموية وحالهم في الدولة العباسية، فتشكل حزب من هؤلاء العرب معارض للخلافة العباسية وهو ما عبّر عنه الجاحظ بالنابتة. كانت ردة فعل السلطة العباسية على هذا الاتجاه الجديد رداً سياسياً وفكريا تمثل بتكليف عدد من الأدباء والعلماء للرد على الحزب وفكره[5].

كان الجاحظ على رأس هؤلاء المدافعين عن أحقية بني العباس، ونقض أفكارهم، فجاء موقفه من الأمويين في إطار تبرير وصول العباسيين للسلطة[6]. . لقد حمل الجاحظ على الأمويين لسببين بارزين هما لأنهم أعداء بني العباس أولياء نعمته، ثم لأنهم قتلوا المعتزلي غيلان الدمشقي[7]. ففي رسالة النابتة مثلاً كان الجاحظ عنيفاً في الرد على هذه الفئة التي كانت تتكاثر يوماً بعد يوم[1].

---

١ - الزويري، الإمامة، ص ٣٩

٢ - نوري، الجاحظ، ص ٩

٣ - المراق. لسان العرب، جـ١٠، ص ٣٦٦.

٤ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٦٤.

٥- الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٠٠.

٦- قام الجاحظ بكتابة مجموعة من الرسائل المؤيدة لخلافة بني العباس مثل النابتة والعباسية والعثمانية، وفضل هاشم على عبد شمس، وتصويب الحكمين. وقد فعل ذلك تقربا من العباسيين أصحاب السلطان. نوري، الجاحظ، ص ٥

٧ - أبو مروان: غيلان بن مسلم الدمشقي(١٠٥ هـ / ٧٢٣م) تنسب إليه فرقة " الغيلانية " من القدرية. وهو ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه، كان غيلان يقول بالقدر خيره وشره من العبد، وفي الإمامة إنها تصلح في غير قريش، وكل من كان قائما بالكتاب والسنة فهو مستحق لها، ولا تثبت إلا بإجماع الامة. ومن كلام غيلان: " لا تكن كعلماء زمن الهرج إن وعظوا أنفوا، وإن وعظوا عنفوا ".وله رسائل، في نحو ألفي ورقة. تاب عن القول بالقدر، على يد عمر ابن عبد العزيز، فلما مات عمر جاهر بمذهبه، فطلبه هشام بن عبد الملك، وأحضر

أما في مسألة الإمامة فبعد أن كان يشترط في الخليفة أن يكون من أبناء الحرائر كما كان زمن الدولة الأموية فإن رأي الجاحظ بناءً على ما حدث من تطورات سياسية في الدولة العباسية فلم يعد يشترط في الخليفة أن يكون من أبناء الحرائر بل يحق لأبناء الإماء أن يتولوا الخلافة[2]، وهذا ما دعا الجاحظ إلى الإشارة إلى خلفاء بني العباس الذين كانت أمهاتهم من الحرائر بقوله: " **وليس من خلفاء بني العباس من أبناء الحرائر إلا ثلاثة: السفاح، والمنصور، والأمين، والباقون كلهم أبناء الجواري، وقد علقت الجواري لأنهن يجمعن عز العرب، ودهاء العجم**"[3]. فلم تعد الجارية جسداً بل أصبحن كما يصورهن الجاحظ يناظرن العلماء ويطارحن الشعراء في النظم[4].

إن الأسلوب الكلامي الذي قام به الجاحظ من أجل تبرير حق العباسيين في الإمامة تمثل في جوانب مختلفة، مثل ذلك ما قام به في ذكر براعة العباسيين في الخطابة كمنهج دعائي يأخذ البعد السياسي لهم، معرباً عن إعجابه بقدراتهم[5]. فاجتهد في وصف خصال الخلفاء العباسيين مثل المنصور في تمثيله بعض المواقف التي أظهر فيها كرم عطائه وجود سخائه[6]، كما وصفه بأنه "**داهياً أريباً، مصيباً في رأيه سديداً، وكان مقدماً في علم الكلام، ومكثراً من كتب الآثار**"[7].

كما عمل في تناوله لموضوع الإمامة (الخلافة) التأكيد على أحقية بني العباس بها "**والإمامة اليوم لا تصلح في الأخوة ولو صلحت في الأخوة كانت تصلح في ابن العم، ثم إنها دنت من الأرحام بعد ذلك فصارت لا تصلح إلا في الولد، وفي هذا القياس إنها بعد أعوام لا تصلح إلا ببقاء الإمام نفسه آخر الأبد**"[8].

الأوزاعي لمناظرته، فأفتى الأوزاعي بقتله، فصلب على باب كيسان بدمشق. ابن النديم، الفهرست، ص ١٤٩. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١٣٩.

١- جبر، الجاحظ، ص٣٥.

٢- أغلب الخلفاء العباسيين كانوا من أبناء الإماء التي صار لهن شأن في الدولة العباسية. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣٩٢.

٣- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١٨٨

٤- الجاحظ، رسالة مفاخرة الجواري، جـ ٢، ص ١٥٦. غيوه، يوسف. المرأة الجارية ودورها الاجتماعي والثقافي في المجتمع العربي الإسلامي من خلال كتابات الجاحظ، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ١٥، جامعة منتوري، الجزائر: ٢٠٠١م، ص ٧ (سيشار إليه فيما بعد: غيوه، المرأة الجارية).

٥- نوري، الجاحظ، ص ٩

٦- المرجع نفسه، ص ٩

٧- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٣٦٧.

٨- الجاحظ، رسالة التربيع والتدوير، ص ٤٧٢

فمن أجل تأكيد أحقية بني العباس في الخلافة، قام الجاحظ بعرض آرائه في مسألة الإمامة في رسائله ومصنفاته بهدف إيجاد مبرر شرعي لتوليهم الخلافة " وقد زعم أناس أن **الدليل على صدق خبرهما(يعني أبا بكر وعمر) في منع الميراث وبراءة ساحتهما**[1]**، ترك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم النكير عليهما.! قد يقال لهم: لئن كان ترك النكير دليلا على صدقهما، إن ترك النكير على المتظلمين والمحتجين عليهما والمطالبين لهما دليل على صدق دعواهم أو استحسان مقالتهم**"[2]. استند أبو بكر وعمر بن الخطاب- رضي الله عنهم - بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم "**لا نورث، ما تركنا صدقة**" فالمال الذي خلفه النبي لم يجعله أبو بكر- رضي الله عنه - لنفسه ولا لأهل بيته وإنما هذا المال هو صدقة لمستحقيها، وأن عمر قام بتسليم هذا المال إلى علي والعباس يفعلان فيه ما كان النبي يفعله وأن يجعلانه صدقة، وأن علياً لما ولي الخلافة لم يغيرها عما عمل فيها في عهد الخلفاء الثلاثة ولم يتعرض لتملكها ولا لقسمة شيء منها بل كان يصرفها في الوجوه التي كان من قبله يصرفها فيها[3].

كذلك فإنه مدح في مناسبات عديدة الهاشميين بصورة عامة والخلفاء العباسيين بصورة خاصة، مشيراً إلى مناقبهم ومآثرهم، فقد كان دور الجاحظ السياسي بتكليف من السلطة العباسية[4] المقرب منها[5]. إذ وضع رسالة " فضل هاشم على عبد شمس"، أفاض فيها في ذكر مناقب بني هاشم ومفاخرهم[6].

نبهت الرسالة إلى مآخذ عديدة على الأمويين لم يقع العباسيون فيها، فعد ذلك منقبة وفضلاً لهم[7]. وإذا ما امتدح أمراً قام به الخلفاء العباسيون عاب على الأمويين عدم إتيانهم إياه،

١- سألت فاطمة أبا بكر أن يقسم لها ميراثها، فقال أبو بكر: إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "لا نورث، ما تركنا صدقة". فغضبت فاطمة فهجرت أبا بكر، وعاشت ستة أشهر. وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك أبوها من خيبر وفدك، وصدقته بالمدينة، فأبى أبو بكر عليها ذلك وقال: لست تاركا شيئا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به، فإني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ. فأما صدقته بالمدينة فدفعها عمر إلى علي وعباس، وأما خيبر وفدك فأمسكها عمر وقال: هما صدقة الرسول صلى الله عليه وسلم، كانتا لحقوقه التي تعروه ونوائبه، وأمرهما إلى من ولي الأمر. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ١٠، ص ٧٩. البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٣

٢- الجاحظ، رسالة العباسية، ص ٤٦٧

٣- انظر: الواقدي، المغازي، جـ ٢، ص ٧٠٦، ٧١٣، ٧٢١، ابن خياط، تاريخ، ص ٨٥. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٢٣. أبو الفداء، المختصر، ص ٩٤.

٤ - الجوزي، مكانة العقل، ص ٣٠٥

٥ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ٥، ص ١٩٣.

٦- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٣- ٤٢٤.

٧- نوري، الجاحظ، ص ٤

مثل قوله إنه لم يقم أحد من ولد العباس بالملك إلا وهو جامع لأسباب الفروسية، وتنقّص بذلك من فروسية الخلفاء الأمويين[١].

مما سبق نستنتج أنه كان للجاحظ فكر سياسي عبر عنه من خلال رسائله، بعضها تصريحا وبعضها تورية، كما أن موقفه السياسي يخضع لاعتبارات شخصية في بعض الأحيان بسبب قربه من السلطة العباسية وكذلك لاعتبارات عامة في أحيان أخرى.

إضافة إلى ذلك مدح الجاحظ الدولة العباسية مرارا بقوله: "**ولنقل إنا لم نر في صدر هذه الدولة المباركة العباسية، ولا في تاريخها وأيامها إلى هذه الغاية، فتى اجتمعت له فضائل الملوك وآدابها ومكارمها ومناقبها، فحاز الولاء من هاشمٍ والخصيص من خلفاء بني العباس الطيبين، والتبني من المعتصم بالله** "[٢]

لم تتوقف تلك الصورة على مجرد المدح والثناء، بل نجد الجاحظ مدافعاً عن الخلافة العباسية، ومبرراً لوجودهم في السلطة ومؤكدا لحقهم "**فأين أنتم من جود عبد الله بن جعفر وعبيد الله بن العباس، والحسن بن علي؟ وأين أنتم من جود خلفاء بني العباس كمحمد المهدي، وهارون، ومحمد بن زبيدة، وعبد الله المأمون، بل لعل جود بعض صنائع هؤلاء كبني برمك أعظم من جود الرجلين اللذين ذكرتموهما، بل من جميع ما جاء به خلفاء بني أمية**"[٣]

أما عن حق العباسيين في الخلافة فنجد الجاحظ يورد بين الحين والآخر روايات لتأكيد ذلك، فقد أشار إلى ما جاء على لسان عمرو بن العاص مخاطبا عبد الله بن العباس في قضية التحكيم[٤] "**قال عمرو بن العاص لعبد الله بن عباس: إن هذا الأمر الذي نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء، وقد بلغ الأمر بنا وبكم ما ترى، وما أبقت لنا هذه الحرب حياء ولا صبرا، ولسنا نقول ليت الحرب عادت، ولكنا نقول ليتها لم تكن كانت. فانظر فيما بقي بغير ما مضى، فإنك رأس هذا الأمر بعد علي، وإنما هو أمير مطاع، ومأمور مطيع، ومشاور مأمون، وأنت هو** "[٥].

وعندما ننتقل إلى ميول الجاحظ نجدها عباسية بحكم أنه عاش في كنف السلطة مقربا إليها يتكلم باسمها ويحاج باسم الخليفة، ونستنتج ذلك الميل الصريح من خلال ما أورده من

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٤.

٢- التاج (منسوب للجاحظ)، ص ١٣٥

٣- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٧

٤- موقف الجاحظ بسبب ما قام به عمرو بن العاص من خلع علي بن أبي طالب من الخلافة وتثبيت معاوية، وقد عرضنا لذلك في الفصل السابق بالدولة الأموية.

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٠٤

حوار بين عبدالله بن العباس وعمرو بن العاص " قام عمرو بن العاص بالموسم، فاطرى معاوية وبني أمية، وتناول بني هاشم، ثم ذكر مشاهده بصفين، فقال له ابن عباس: يا عمرو، إنك بعت دينك من معاوية فأعطيته ما في يدك، ومنّاك ما في يد غيره، فكان الذي أخذ منك فوق الذي أعطاك، وكان الذي أخذت منه دون ما أعطيته، وكل راض بما أخذ وأعطى، فلما صارت مصر في يدك تتبعك فيها بالعزل والتنقص، حتى لو أن نفسك فيها القيتها إليه، وذكرت مشاهدك بصفين فما ثقلت علينا يومئذ وطأتك، ولا نكتنا فيها حربك. وإن كنت فيها لطويل اللسان، قصير السنان. آخر الحرب إذا اقبلت، وأولها إذا أدبرت. لك يدان: يد لا تبسطها إلى خير، ويد لا تقبضها عن شر. ووجهان: وجه مؤنس، ووجه موحش. ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لحري أن يطول حزنه على ما باع واشترى. لك بيان وفيك خطل، ولك رأي وفيك نكد، ولك قدر وفيك حسد. فأصغر عيب فيك أكبر عيب في غيرك. فقال عمرو: أما والله ما في قريش احد أثقل وطأة علي منك، ولا لأحد من قريش عندي مثل قدرك"[١].

يرى الجاحظ أن بني العباس أرفع شأنا عن بقية الناس لأنهم من آل البيت ويلمز هنا بكلامه بني أمية مما أدى إلى بغضهم وحسدهم " عن سعيد بن جبير قال: قدت ابن عباس حتى أدخلته على ابن الزبير، قال: أنت الذي تؤنبني؟ قال: نعم، لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ليس بمؤمن من بات شبعانا وجاره طاو. فقال له ابن الزبير: لمن قلت ذلك؟ إني لأكتم بغضكم أهل البيت مذ أربعين سنة. فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأنهما عسيبا نخل، ثم قال لابن الزبير: نعم فليبلغ ذاك منك، ما عرفتك. ولقد أجلت الرأي ظهرا لبطن وفكرت في جوابه لابن عباس أن أجد له معنى سوى الحسد فلم أجده، وكانت وخزة في قلبه فلم يبدها. وفروع بني هاشم حول الحرم باسقة، وعروق دوحاتهم بين أطباقها راسية، ومجالسهم من أعاليها عامرة، وبحورها بأرزاق العباد زاخرة، وأنجمها بالهدى زاهرة. فلما خلت البطحاء من صناديدها استقبله بما أكن في نفسه"[٢]

وكثيراً ما نجد الجاحظ يقارن بين خلفاء العباسيين أمثال المنصور والرشيد والمعتصم والواثق، وخلفاء بني أمية أمثال مروان بن الحكم ومعاوية ويزيد وعبد الملك مقارنة تبين عظمة العباسيين وقدرتهم وضعف الأمويين.[٣]

وقد تولى أفراد البيت العباسي الحرب بأنفسهم أمثال عبد الله بن علي، وصالح بن علي، وداؤد بن علي، وعبد الصمد بن علي، والمنصور. وفي هذا إسقاط للدعوة التي تقول أن الفرس هم الذين أسقطوا دولة الأمويين " وقد بلغتكم شجاعة أبى إسحق المعتصم ووقوفه في مشاهد

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٠٦

٢- الجاحظ، رسالة الحاسد والمحسود، ص ١٢٠

٣- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٦٠ وما يليها

الحروب بنفسه حتى فتح الفتوح الجليلة، وبلغتكم شجاعة عبد الله بن علي وهو الذي أزال ملك بني مروان وشهد الحروب بنفسه. وكذلك صالح بن علي وهو الذي تبع مروان بن محمد إلى مصر حتى قتله "[١].

ويبرر الجاحظ أحقية العباسيين بالخلافة بسبب أن من خصالهم الملك، كما يتبنى موقفهم حول شرعية خلافتهم " إلا من بني هاشم، فإن ملكهم العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله- صلى الله عليه وسلم، والعم وارث، والعم أب، ولا نعلم أمة تدعي مثل هذا لملكها"[٢].

يرى الجاحظ أن الخلافة في بني العباس حق لهم، وأن الأمويين ليسوا سوى مغتصبين لها، وأنها عادت لهم لتكون فيمن يستحقها، كما يؤكد الجاحظ على حقيقة مهمة وهي انتزاع العباسيين الملك من بني أمية بفضل شجاعتهم وحنكتهم. " ويفخر بنو العباس على بني مروان، وهاشم على عبد شمس بأن الملك كان في أيديهم فانتزعوه منهم وغلبوهم عليه بالبطش الشديد وبالحيلة اللطيفة ثم لم ينزعوه إلا من يد أشجعهم شجاعة وأشدهم تدبيرا وأبعدهم غورا ومن نشأ في الحروب وربى في الثغور ومن لا يعرف إلا الفتوح وسياسة الجنود "[٣]

كما يرى الجاحظ أن المفاخر ليست بكثرة الولد، فلو كان كذلك " وإن كان الفخر بكثرة العدد، فإنه من أعظم مفاخر العرب، فولد علي بن عبد الله بن العباس اليوم مثل جميع بني عبد شمس "[٤].

بهذه الملاحظات كشف لنا الجاحظ عن حقائق مهمة تتعلق بالثورة العباسية ولو أن مستشرقي ومؤرخي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قد انتبهوا إلى هذه الملاحظات لما وقعوا أسارى التفسير العنصري للثورة ولما برزوا دور الفرس وغمطوا دور العرب حيث قادهم هذا التفسير إلى تخريجات خاطئة عن مطالع العصر العباسي[٥].

كما يؤخذ على الجاحظ أنه أظهر هذا الميل الشديد والتحيز للدولة العباسية على الدولة الأموية بالرغم من أن للدولة الأموية الكثير من الحسنات، ولعل تقلبات الأحوال وتغيرها كان له أثر في تحول الجاحظ، وقد عمل الجاحظ في أغلب الأحيان بأن يخفي ميله الحقيقي واتجاهه الذي ظهر جلياً أيام الدولة العباسية.

١- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٥٠

٢- الجاحظ، رسالة الأوطان والبلدان، ص ١٠٧

٣- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٤

٤- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٥

٥ - فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤١٤

القضية بالنسبة للجاحظ إيجاد مسوغ شرعي للعباسيين للاستيلاء على الخلافة؛ كما عمل في تسويغه وتبريره على نقد المسلمين الذين تواطأوا مع النابتة[1] بصورة شعورية أو لا شعورية[2] "ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة، ومراتب متباينة: من قاتل، ومن شاد على عضده، ومن خاذل عن نصرته. والعاجز ناصر بإرادته، ومطيع بحسن نيته. وإنما الشك منا فيه وفي خاذله، ومن أراد عزله والاستبدال به. فأما قاتله والمعين على دمه والمريد لذلك منه، فضلال لا شك فيهم، ومراق لا امتراء في حكمهم. على أن هذا لم يعد منهم الفجور، إما على سوء تأويل، وإما على تعمد للشقاء"[3]. فكانت رسالة النابتة ترجمة لتوجه الدولة الجديد نحو الوقوف في وجههم، وتعبيرا صريحا من الجاحظ عن موالاته للعباسيين واستعداده للدفاع عنهم حتى وإن تعارض ذلك مع المبادئ التي نادى بها[4].

لقد تشتت الجاحظ بين ميوله السياسية ومعتقده الاعتزالي حتى في مبادئ الإمامة التي طالما كانت موضع اعتزاز عند المعتزلة، فمال للجانب السياسي على حساب عقيدته، مما جعله في موقف يتجاذب طرفاه عقيدته التي طالما أمن بها ودافع عنها والطرف الآخر السلطة العباسية التي أصبح إن جاز التعبير أديبا رسميا لها. كما أن الجاحظ لم ينكر دور النسب في تولي الخلافة، وإن كان أنكره عند الأمويين لكن عند العباسيين خالف رأي المعتزلة ويتضح ذلك كما أسلفنا في رسالة العثمانية[5]. كما جاء حديثه عن الدولة العباسية متسما بالحماس لكل ما هو عباسي ومعتزلي[6].

---

١ - أستكر الجاحظ مزاعم العوام والنابتة وشجب كل أشكال الدعوة إلى بني أمية أو تسويغ أفعالهم والدفاع عنهم. هياجنه، الجاحظ مؤرخا، ص ٢١

٢ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٧٢

٣ - الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٠.

٤ - الزويري، الإمامة، ص ٣٩.

٥ - نوري، الجاحظ، ص ٢١

٦ - الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص٣٦

الفصل الرابع: موقف الجاحظ من الحركات السياسية والفرق الدينية

أولاً: الشعوبية

ثانياً: الزندقة

ثالثاً: الشيعة

رابعاً: الخوارج

خامساً: المعتزلة

يعد الجاحظ من أوائل الكتّاب الذين وقفوا في وجه الحركات الهدامة التي هدفت إلى تقليل شأن التراث الحضاري العربي والإسلامي، فلم تستطع تلك الحركات التي كانت تأمل من قيام الدعوة العباسية تحقيق مأربها في رفع شعار التسوية ولاحقا من خلال الشعوبية في كافة معانيها أن تحقق غايتها وأهدافها، بل إنها خابت، مما جعلها تقوم بردة فعل صريحة من خلال تيار الشعوبية المعادي للعرب والمسلمين[1].

الجاحظ لم يكن دائما كاتب سلطة، ولكنه أيضا كاتب حمل مسؤولية أمة وحضارة، فوقف وبكل ما أوتي من ملكات اللغة ضد تلك الحركات الهدامة التي تستهدف الأمة الإسلامية. فكانت كتاباته تخفي ورائها أهدافا ثقافية واجتماعية ودينية سواء كانت مباشرة وظاهرة للعيان أم مبطنة لا يصرح بها. فكانت كتاباته في هذا المجال مرنة وواسعة الأفق، قامت على عرض التراث العربي الإسلامي مما جعله موضع قبول من كافة الناس، وتعد حركة الشعوبية والزندقة من أكثر الحركات التي تناولها الجاحظ في كتاباته، كاشفا أهدافها ونزعاتها[2]. إضافة إلى ذلك، فقد عرض الجاحظ في ثنايا بعض مصنفاته، أو أفرد رسائل خاصة للحركات السياسية التي ظهرت في العصرين الأموي والعباسي، وكذلك تناول عدداً من الفرق الإسلامية كالشيعة والخوارج والمعتزلة، وسيتم عرض تلك الفرق على النحو التالي:

أولاً: الشعوبية

تمثل الشعوبية جانباً من محاولات شعوب غير عربية ضرب السلطان العربي، عن طريق الفكر والعقيدة، فقد بدأت الحركة الشعوبية في المراحل الأخيرة للدولة الأموية، واندفعت بقوة في العصر العباسي[3]. أما عن معنى كلمة شعوبية فهي: "**الذين يرون تفضيل العجم على العرب ويتمنون عود الملك إلى العجم**"[4] وهي عبارة عن نزعة في العصر العباسي تنكر تفضيل العرب

---

١ - الدوري، عبد العزيز. الجذور التاريخية للشعوبية، ط ٣، دار الطليعة، بيروت: ١٩٨١م، ص٩- ١٣، ص٧٥(سيشار إليه فيما بعد: الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية). سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص١٤٤. فوزي، الخلافة العباسية، جـ ١، ص ١٦٤-١٦٥.

٢ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٩. سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص ١٤٤. فوزي، الخلافة العباسية، جـ ١، ص ١٦٤-١٦٥.

٣ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٩. القارصي، محمد علي. الرمز والمطلق في رد الجاحظ على الشعوبية، مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد ٥١، الجامعة التونسية، تونس: ٢٠٠٦م، ص ٢١٩. .(سيشار إليه فيما بعد: القارصي، الرمز والمطلق).

٤ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٢٨٥

على غيرهم وتحاول الحط منهم، ويطلق على الواحد منهم اسم شعوبي[1]. وقد عرفها القرطبي بقوله: "**هي حركة تبغض العرب وتفضل العجم**"[2]. كما تعرف أيضا " **محتقر أمر العرب وهم الشعوب**"[3]. كما تعني الشعوبية تعصب كل شعب لقوميته وحضارته وبغض العرب[4].

استفحلت الشعوبية في عصر العباسيين في العراق بسبب وقوعه كحد فاصل بين العرب والعجم[5]، وقد وقف الجاحظ في وجه هذه الحركة متصدياً لها ومدافعاً عن اللغة العربية والعرب فخصص لها مجموعة من المؤلفات مثل رسالة مناقب الترك، ورسالة فخر السودان على البيضان اللتين تصوران الحركة الشعوبية تصويرا واضحا[6].

عرض الجاحظ في مصنفاته المراحل التي مرت على الشعوبية موضحا أن بدايتها كان منذ بدأ الجدال في الدين والتمادي على العرب وصولا إلى مرحلة الشعوبية في أوجهها، فيقول: "**إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أولُ ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدي إلى الضلال، فإذا أبغض شيئًا أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وهي السلف والقدوة**"[7]. وعبارة الجاحظ هنا تصور بدقة العلاقة بين العداء للعرب والشعوبية باعتبارهما تيارًا معاديًا للعرب والإسلام معًا. إن الأساس الذي تصدى الجاحظ للرد عليه هو ما ذهبت إليه الشعوبية ومن يتعصب للعجمية، فإذا أبغض العرب أبغض كل ما يمت لهم بصلة حتى الدين واللغة لأنهما قرينتان للعرب.

---

١ - غلبت الشعوب على جيل العجم، حتى قيل لمحتقر أمر العرب. والشعوبي: الذي يصغر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلا على غيرهم. لسان العرب، جـ ١، ص ٥٠٠

٢ - القرطبي، محمد بن أحمد(ت: ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م). تفسير القرطبي، دار الشعب، القاهرة: ١٩٦٤م، جـ١١، ص١٨٩ (سيشار إليه فيما بعد: القرطبي، تفسير القرطبي).

٣ - لسان العرب، جـ ٥، ص ٥٠٠.

٤ - اشتدت الحركة الشعوبية في العصر العباسي ونجمت عن تعدد الشعوب التي ضمها المجتمع العباسي من فرس وزنج وروم وهنود إلى جانب العرب الذين يمثلون الطبقة الحاكمة. إذ سمحت الحرية الفكرية التي قام بها الخلفاء العباسيون في نشوء هذه الحركة وما رادفها من الزندقة، فكانت محاولة هذه الشعوب إثبات وجودها والادلال بمآثرها وحضاراتها والبرهنة أن العرب ليسوا أفضل من سائر الأمم. كان أول ظهور لهذه الحركة في العصر الأموي، إلا أنها ظهرت وانتشرت للعيان في بدايات العصر العباسي. انظر: الدوري، عبد العزيز. الجذور التاريخية للشعوبية. ص ٩.

٥ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٩-١٠.

٦ - راجع رسائل الجاحظ: رسالة مناقب الترك ورسالة فخر السودان على البيضان.

٧ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٧، ص ١٣١

ومن الأسباب الرئيسة التي حملت الجاحظ على وضع كتاب "البيان والتبيين" الرد على الشعوبية التي طعنت في بلاغة العرب وموهبتهم الخطابية. ونستنتج ذلك من خلال أنه تناول الشعوبية في الجزء الثاني إذ استهله بالعبارة التالية:" **اردنا أبقاك الله أن نبتدئ صدر هذا الجزء الثاني من البيان والتبيين بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب وملوكهم ...** "[1]. كما تناولها مرة أخرى في الجزء الثالث في باب العصا. ومن الملاحظ أنه كلما استطرد في الحديث عن مواضيع أخرى يعود للشعوبية ليكمل ما بداه، وهكذا دواليك حتى أخذ هذا الباب نسبة كبيرة من الجزء الثالث من كتاب البيان[2]. وهو في كل ذلك يعرض أشكال مفصلة لدعاوي الشعوب الأعجمية في تفوقهم على العرب والإشادة بماضيهم وخصالهم وأفعالهم[3].

كان وراء موقف الجاحظ من الحركة الشعوبية دافعان، الدافع الأول: يتمثل في الدفاع عن الإسلام ضد هجمات الشعوبية، والدافع الثاني: يتمثل في دعم خلفاء بني العباس له والذين طلبوا منه أن يقوم بدوره في الرد على هؤلاء الشعوبية، ثم ولاؤه للعرب فيرد على الهجمات التي تطال العرب والعروبة. لذا جاءت كتاباته عن الشعوبية في أغلب مناحي مؤلفاته.

وقد أدرك الجاحظ الدور الخطير الذي يلعبه الشعوبيون من خلال الأدب والشعر، لأجل الترويج لأفكارهم ومبادئهم فقد دأبت الحركة الشعوبية على استخدام الأدب في الترويج لأفكارهم، وزرع بذور الكراهية والعنصرية في نفوس أبناء الفرس تجاه العرب خاصة والإسلام عامة[4]. ونظراً لسهولة حفظ الشعر والتصاقه بعقول القراء فقد نفثوا سمومهم في هذا الشعر فكثيرة هي القصائد التي تمجد الفرس والتي أشار إليها الجاحظ، كما أشار إلى أشهر شعرائهم في حديثه عن الزندقة[5] .

فكان موقف الجاحظ النقدي من الشعوبية رداً على تلك الافتراءات الشعرية على العرب، ويعد هذا الموقف شيئاً جديداً، فهو في صراعه ضد الشعوبية يرى في الشعر مادة المعرفة، وهو في موقفه الثقافي الحضاري يحاول أن يرى من الزاوية العقلية ذلك التفاوت في

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٢١

٢ - راجع الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الثالث باب العصا.

٣ - إن الحاجة الملحة للرد على مطاعن الشعوبيين في الحط من قيم العرب قد ساعد على توسعة العلوم التاريخية. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص١٩٦.

٤ - السامرائي، عبدالله سلوم. الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية، المكتبة الوطنية، بغداد: ١٩٨٤م، ص٧٦ (سيشار إليه فيما بعد: السامرائي، الشعوبية).

٥ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٦١. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٧٠.

الشعر بين العرق العربي وغير العربي وبين البادية والحاضرة[1]، أي أن يلحظ أثر الجنس والبيئة. ولكن نقد الجاحظ - إذا استثنينا كتابه في نظم القرآن - لم يكن سوى مكمل لنشاطه الفكري عامة[2].

تنكر الشعوبية من خلال الشعر وحدة العرب محتجة بوجود أنساب مختلفة كالقحطانية والعدنانية، يرد عليها الجاحظ ويحدد مقومات ينبغي على كل الأمة الإسلامية الالتفات حولها بقوله: "فإن قلت: فكيف كان أولادهما(قحطان وعدنان) جميعاً عرباً مع اختلاف الأبوة. قلنا: إن العرب لما كانت واحدةً فاستووا في التربة وفي اللغة، والشمائل والهمة، وفي الأنف والحمية، وفي الأخلاق والسجية، فسكبوا سبكاً واحداً، وافرغوا إفراغاً واحداً، وكان القالب واحداً، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط، وحين صار ذلك أشد تشابهاً في باب الأعم والأخص وفي باب الوفاق والمباينة من بعض ذوي الأرحام، جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب، وصارت هذه الأسباب ولادةً أخرى"[3] والجاحظ لا يحسب النسب أو العنصر أساس تكوين الأمة، بل يرى في اللغة والطباع والسجايا، وفي البيئة الجغرافية المقومات التي تكون الأمة. وطبيعي أن يكون هذا المفهوم أكثر ثباتاً وأبعد أثرا من المفهوم العنصري الذي اتخذته الشعوبية، وأن يلعب دوره في توسع العروبة وفي صمودها أمام النظرة الضيقة التي تحدتها[4].

"قال شاعر الشعوبية للعرب في قصيدة طويلة:

زعمتم بان الترك أبناء مذحج ... وبينكم قربى وبين البرابر

وذلكم نسل ابن ضبة باسل ... وصوفان أنسال كثير الجرائر

وقال آخر:

متى كانت الأتراك أبناء مذحج ... ألا إن في الدنيا عجيبا لمن عجب[5]

حيث كانت أفكار الشعوبية توجه بعناية في صورة كتب مزخرفة تستهدف أهواء الناس[1]. " ثم اعلم انك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكا

١ - المجالي، رابعة. صورة الأقوام الغير عربية في حيوان للجاحظ، حولية آداب عين شمس، المجلد ٤٠، مصر: ٢٠١٢م، ص ١٠٥ (سيشار إليه فيما بعد: المجالي).

٢ - العاكوب، التفكير النقدي، ص ١٠.

٣ - الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٧٧

٤ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٧٥-٧٦.

٥ - الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص٥١٢.

لعرضه، ولا أطول نصبا، ولا أقل غنما من أهل هذه النحلة"[2] والجاحظ، وإن انتصر للعرب ضد الشعوبية، لم يرتكب الخطأ الذي ارتكبه غيره، فهو يذهب إلى أن الأمم ينبغي أن تكف عن البغضاء والتعصب لمزاياها، وأن تتعاون وتتآلف لأن لكل أمة مزايا ونقائص.

ينسب الجاحظ للعرب الفضل على الأمم كلها في الخطابة والبلاغة ويناظر في ذلك الشعوبية، ويسفه أحلامهم في إنكار ذلك، ثم يقول: "**ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب الفضل على الأمم كلها في أصناف البلاغة، من القصيدة والأرجاز، والمنثور والأسجاع، ومن المزدوج ومما لا يزدوج، فمعنا على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعار الناس اليوم، ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير والشيء القليل**"[3].

كما طعنت الشعوبية على العرب ضعف ملكتهم الخطابية، وقالت إنهم لا يضاهون الفرس واليونان والهنود في مضمار الخطابة والبلاغة. فيرد عليهم الجاحظ أن ملكة العرب الخطابية أمر ظاهر جلي لا يحتاج إلى برهان. ويكفي أن نأخذ بيد الشعوبي وندخله بلاد العرب الخلص، معدن الفصاحة، ونوقفه على خطيب مصقع أو شاعر مفلق ليعلم الحق ويبصر الشاهد عيانا[4]. ولذلك يقطع الجاحظ بأن العرب أخطب الأمم "**والخطابة شيء في جميع الأمم، وبكل الأجيال إليه أعظم الحاجة، حتى أن الزنج مع الغثارة[5]، ومع فرط الغباوة، ومع كلال الحد[6] وغلظ الحس وفساد المزاج، لتطيل الخطب، وتفوق في ذلك جميع العجم، وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ، وألفاظها أخطل وأجهل. وقد علمنا أن أخطب الناس الفرس وأخطب الفرس أهل فارس، وأعذبهم كلاما وأسهلهم مخرجا وأحسنهم دلا وأشدهم فيه تحكما، أهل مرو، وأفصحهم بالفارسية الدرية[7]، وباللغة الفهلوية[8]، أهل قصبة**

١- فوزي، فاروق عمر. طبيعة الحركة الشعوبية، مجلة آفاق عربية، العدد ٦، بغداد: ١٩٧٧م، ص٢٨ (سيشار إليه فيما بعد: فوزي، طبيعة الحركة الشعوبية).

٢- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢١

٣ - المصدر نفسه، ص ٣١

٤ - المصدر نفسه، ص٢١

٥ - الغثارة، الحمق والجهل. العرب، جـ ٥، ص ٣٣

٦ - شدة التعب والإعياء. لسان العرب، جـ ٥، ص ٢٢٥.

٧ - لغة المدائن، والغالب عليها من لغة أهل خراسان. ابن النديم، الفهرست، ص٢٥.

٨ - من اللغات الفارسية، اسمها يقع على خمسة بلدان وهي أصفهان والري وهمدان نهاوند وأذربيجان، ابن النديم، الفهرست، جـ ١، ص ٣٤.

الأهواز، فأما نغمة الهرابذة[1]، ولغة الموابذة[2]، فلصاحب تفسير الزمزمة[3]"[4]. وكثيرا ما نجد الجاحظ ينقد الشعوبية في مواضع مختلفة من مؤلفاته خاصة في استعمالهم لزّمزمه في كلامهم[5].

تحدث الجاحظ في موضوع الخطابة عن أساليب الجاهليين في الكلام في أمورهم الجليلة مثل المنافرة والمفاخرة، وعقد المعاقدة والمعاهدة وأمثال ذلك فيقول :"وكذلك الأسجاع عند المنافرة[6] والمفاخرة، واستعمال المنثور في خطب الحمالة[7]، وفي مقامات الصلح وسل السخيمة[8]، والقول عند المعاقدة والمعاهدة، وترك اللفظ يجري على سجيته وعلى سلامته، حتى يخرج على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف، ولا التماس قافية، ولا تكلف لوزن" [9]. ثم يعرج الجاحظ عن أخذ العرب للمخصرة[10] عند مناقلة الكلام فيقول: "وبمطاعنهم على خطباء العرب: بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام، ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى، والمنثور الذي لم يُقفَ، وبالأرجاز عند المنح[11]، وعند مُجاثاة[12] الخصم، وساعة المشاولة[13]، وفي نفس المجادلة والمحاورة"[14]. إذ أن الشعوبية حاولت أن تظهر فصاحة الخطباء بمظهر البساطة البدوية الذي لا صنعة فيه ولا بديع.

---

١ - جمع هربذ، الجزء الأول بمعنى التعليم، والجزء الثاني لاحقة تفيد معنى الاتصاف والملكية. وهم حكام المجوس. لسان العرب، جـ ١، ص ٣٤٠

٢ - لغة سادتهم من الهرابذة، المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ١١٩.

٣ - صوت خفي لا يكاد يفهم. وأصل الزمزمة صوت المجوسي. لسان العرب، جـ ١٢، ص ٢٧٤.

٤ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٠ .

٥ - المصدر نفسه، جـ ١، ص ٥١

٦ - المنافرة: المحاكمة في الحسب، لسان العرب، جـ ٥، ص ٢٢٦.

٧ - الدية والغرامة التي يحملها قوم عن قوم. وكانوا يسمون السيد يفعل ذلك الحمال. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت: ٢٧٦هـ/٨٨٩م). أدب الكاتب، مراجعة درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٩م، ص٣١٩ (سيشار إليه فيما بعد: ابن قتيبة، أدب الكاتب).

٨ - الحقد والضغينة والموجدة في النفس. لسان العرب، جـ ٩، ص ٢٩٦

٩ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٦

١٠ - المخصرة: العصا. يأخذها الرجل بيده ليتوكأ عليه مثل العصا ونحوها. لسان العرب، جـ ٤، ص ٢٤٢

١١ - الناقة يعيرها صاحبها لمن يحلبها وينتفع بها ثم يعيدها، وأيضاً العطية والسقي من البئر بالدلاء. لسان العرب، جـ ٣، ص ٤٧٢.

١٢ - أن يجثو الخصمان على الركب أمام بعضهما ثم يأخذان في صنوف الجدل. لسان الغرب، جـ١٤، ص١٣٢

١٣ - تناول القوم بعضهم بعضا بالرماح عند القتال. لسان العرب، جـ ١١، ص٣٧٧.

١٤ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٥

لقد تناول الجاحظ ما أخذته الشعوبية على العرب على نفس السياق والكلام ولكن هنا يضيف بعض المآخذ الأخرى مثل القناة[1] والقضيب، والاتكاء والاعتماد على القوس، والخد[2] في الأرض[3]، فيقول: "والاتكاء والاعتماد على القوس، والخد من الأرض، والإشارة بالقضيب"[4]، وذكر أن من المستحسن في الخطيب أن يكون جهوري الصوت، قليل التلفت، نظيف البزة[5]، وأن يخطب قائمًا على نشر من الأرض[6]، أو على راحلته، وأن يحتجز عمامته، ويكمل هذه الخصال شرف الأصل وصدق اللهجة[7].

احتجت الشعوبية بقولها إنه لا يوجد بين العصا والخطبة سبب، وأن العصا لم توجد للخطابة بل للقتال أو الهش على المواشي، وأنها لا تنفع الخطيب في شيء، وهي تلهي السامع. والعرب قوم رعاة اعتادوا على حمل العصا في رعي مواشيهم فنقلوا تلك العادة إلى خطابتهم "قالت الشعوبية ومن يتعصب للعجمية: القضيب للإيقاع، والقناة للبقار، والعصا للقتال، والقوس للرمي. وليس بين الكلام وبين العصا سبب، ولا بينه وبين القوس نسب، وهما إلى أن يشغلا العقل ويصرفا الخواطر...."[8]. حيث يقوم طعن الشعوبية على كسر العلاقة بين الخطاب اللغوي للعصا الذي يحيل إلى البداوة ويقترن بنمط عيش عربي، حيث زج بالعرب في منافي البداوة بنمط إنتاجها الرعوي الذي يعيش فيه الإنسان على الكفاف وليس هذا المطعن إلا مدخلا لأصحاب الشعوبية في تجريد العرب من صفوة التفوق في الخطابة .

كان رد الجاحظ على الشعوبية قد استغرق عدة صفحات، بسبب أن موضوع العصا تناول بعداً أكبر من العرب تمثل في الأنبياء والرسل، ولذلك فإن الجاحظ فصل فيها كثيراً خاصة في كتاب البيان[9]، حيث يقرعهم في الفنون التي تصرف فيها العصا، وذكر العصا من أبواب المنافع والمرافق، وفي كم وجه صرفته الشعراء وضرب به المثل فيقول: "ونحن لو

١ ـ القناة من الرماح ما كان أجوف كالقصبة. لسان العرب، جـ ١٥، ص ٢٠٤

٢ ـ الطريق من الرمل والسحاب. لسان العرب، جـ ١، ص ٣٤٣

٣ ـ الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٧٠.

٤ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٦

٥ ـ الهيئة. لسان العرب، جـ ٥، ص ٣١٢.

٦ ـ ما خرج من نباتها، وقيل الكلأ إذا يبس ثم أصابه مطر في آخر الصيف فاخضر. لسان العرب، جـ ٥، ص٢٠٧.

٧ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٦٤

٨ـ المصدر نفسه، ص ٩

٩ ـ انظر: المصدر نفسه، جـ٢، ص ١٩٠ وما يليها وكذلك الصفحات الأولى من الجزء الثالث.

تركنا الاحتجاج لمخاصر البلغاء، وعصي الخطباء، لم نجد بدا من الاحتجاج لجلة المرسلين، وكبار النبيين، لأن الشعوبية قد طعنت في جملة هذا المذهب على قضيب النبي صلى الله عليه وسلم وعنزته، وعلى عصاه ومخصرته، وعلى عصا موسى، لأن موسى صلى الله عليه وسلم قد كان اتخذها من قبل أن يعلم ما عند الله فيها، وإلام يكون صيور أمرها. الا ترى أنه لما قال الله عز وجل: وما تِلْك بِيمينِك يا مُوسى، قال: قال هِي عصاي أتوكؤا عليْها وأهُش بِها على غنمِي ولِي فِيها مآرِبُ أخرى. وبعد ذلك قال: قال ألْقِها يا مُوسى. فألقاها فإذا هِي حيةٌ تسْعى"[1]

ويعلل الجاحظ كل ذلك إذ لا يستطيع أن يدعي الإحاطة بما فيها من مآرب موسى إلا بالتقريب وذكر ما خطر على البال، وقد كانت العصا لا تفارق يد سليمان بن داوُد عليه السلام في مقاماته وصلواته[2]، ولا في موته ولا في أيام حياته، حتى جعل الله تسليط الأرضة عليها وسليمان ميت وهو معتمد عليها، من الآيات عند من كان لا يعلم أن الجن لم تكن تعلم إلا ما تعلم الإنس[3]. "وإنما بدأنا بذكر سليمان صلى الله عليه وسلم لأنه من أبناء العجم، والشعوبية إليهم أميل، وعلى فضائلهم أحرص، ولما أعطاهم الله أكثر وصفا وذكرا"[4].

يذكر الجاحظ الدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم، ومعدن شريف، ومن المواضع التي لا يعيبها إلا جاهل، ولا يعترض عليها إلا معاند، اتخاذ سليمان بن داوُد علية السلام العصا لخطبته وموعظته، ولمقاماته، وطول صلاته، ولطول التلاوة والانتصاب، فجعلها لتلك الخصال جامعة[5].

وقد جمع الله لموسى بن عمران عليه السلام في عصاه من البراهين العظام، والعلامات الجسام، ما عسى أن يفي ذلك بعلامات عدة من المرسلين وجماعة من النبيين[6]، ويستشهد الجاحظ بالقرآن الكريم عند حديثه عن النبي موسى عليه السلام: " إنْ هذانِ لساحِرانِ يُريدانِ أنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما... ولا يُفْلِحُ الساحِرُ حيْثُ أتى"[7]

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص٦٢

٢ - المصدر نفسه، ص٦٢

٣ - المصدر نفسه، ص٦٢

٤ - المصدر نفسه، ص٢٢

٥ - المصدر نفسه، ص ٢٢

٦ - المصدر نفسه، ص ٢٣

٧ - سورة طه، الآية ٦٣

فلذلك قال الحسن بن هاني[1] في شأن الخصيب[2] وأهل مصر حين اضطربوا عليه:

فإن تك من فرعون فيكم بقية ... فإن عصا موسى بكف خصيب[3]

ألم تر أن السحرة لم يتكلفوا تغليط الناس والتمويه عليهم إلا بالعصي، ولا عارضهم موسى إلا بعصاه[4] **"مع الذي عابوا من الإشارة بالعصي، والاتكاء على أطراف القسي، وخد وجه الأرض بها، واعتمادها عليها إذا اسحنفرت[5] في كلامها، وافتنت[6] يوم الحفل في مذاهبها، ولزومهم العمائم في أيام الجموع"**[7].

وكان الاعتزاز بالإرث والتراث الفارسي مظهراً من مظاهر الحركة الشعوبية، والتي التفت إليها الجاحظ، وأشار إلى عظم خطرها، فقد أعطى صورة حية لموقف الكتاب من اعتزاز بآثار الفرس، ومن ترويج لها، ومن ازورار عن الثقافة العربية ومن تجريح الدراسات الإسلامية[8] من حيث إنهم يتشدقون بحكم بزرجمهر[9] وبسياسات أنوشروان[10] وبعبقرية الفرس،

---

١ - أبو نواس الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء(١٤٦ - ١٩٨ هـ / ٧٦٣ - ٨١٤ م) شاعر العراق ولد بالأهواز، ونشأ بالبصرة، وسمع من حماد بن سلمة، ورحل إلى بغداد فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، ومدح بعضهم، وخرج إلى دمشق، ومنها إلى مصر، فمدح أميرها الخصيب، وعاد إلى بغداد فأقام إلى أن توفي فيها. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٩٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٩، ص ٢٧٩

٢ - الخصيب بن عبد الحميد أبو نصر، صاحب ديوان الخراج بمصر. قصده أبو فراس من بغداد وامتدحه بقصيدته الرائية المشهورة، ولما قلد هارون الرشيد الخصيب خراج مصر وضياعها، توجه إلى مصر. ولما استقر بها كتب إلى أبي نواس يستزيره، وكان به خاصاً. فخرج إليه. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٦١، ص١٨٧. جـ ٣، ص١٨٥. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٤، ص ٣٦٥.

٣ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٢،

٤ - المصدر نفسه، ص ٢١

٥ - مضى مسرعا. واسحنفر في خطبته إذا مضى واتسع في كلامه. لسان العرب، جـ٤، ص ٣٥٢.

٦ - من أفتنت والفتنة: الجنون. والفتنة: الفضيحة. وقوله عز وجل: ومن يرد الله فتنته ؛ قيل: معناه فضيحته، وقيل: كفره. لسان العرب، جـ ١٣، ص٣١٩.

٧ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٥

٨ - الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، جـ ٢، ص ١٩١. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٥٣.

٩ - بزرجمهر بن البختكان كان وزيرا لأنوشروان .كان رجلا حكيماً عالما وقد ذكر اسمه في بعض الأعمال الهامة وعلى الأخص فى الشاهنامة. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت: ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م). عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٩م، مجـ ٢، ص ١٥، ١٨٤ (سيشار إليه فيما بعد: ابن قتيبة، عيون الأخبار).

١٠ - أنو شروان بن قباذ بن يزدجرد بن بهرام جور. اعتلى العرش بعد أبيه قباذ الأول بنى العديد من الجسور والسدود وخلال عهده ازدهرت الفنون و العلوم في بلاد فارس، وكانت الإمبراطورية الساسانية في قمة مجدها وهو أحد الأباطرة الأكثر شعبية في الثقافة الفارسية. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ١، ص ٩٢.

فيبين أن الناشئ منهم متى "وطأ مقعد الرئاسة وصارت الدوامة أمامه، وروى لبزرجمهر أمثاله ولأردشير[1] عهده، ولعبد الحميد رسائله ولابن المقفع أدبه، وصير كتاب مزدك[2] معدن علمه، ودفتر كليلة ودمنة[3] كنز حكمته، أنه الفارق الأكبر في التدبير"[4] ثم يكون " أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه، والقضاء عليه بتناقضه، ثم يظهر ظرفه بتكذيب الأخبار(أي التاريخ العربي) وتهجين من نقل الآثار"[5]. حيث يرى الجاحظ الشعوبية أصلا يهدد العقيدة الإسلامية في عصره، وتهديد العقيدة يقضي على الدين من الأساس، حيث يرى الشعوبية المنشأ الأول للريبة الفكرية والعقائدية، هذه الريبة تنتقل رويداً في كل ما يخص العرب من آثار وأشعار وحكم وخطابة بمعنى كل ثقافة العرب.

إن طعن الشعوبية للعرب في ثقافتهم ينطلق من ذكر مؤلفات الفرس واليونان ومقارنة ذلك بما لدى العرب، حيث يزعمون أن للفرس كتبا ورسائل محبرة، ولليونان كتبا في المنطق والحكمة، وللهنود كتبا في الحكمة والأسرار وليس للعرب مثل تلك الرسائل والكتب[6] " قالوا: **ومن أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة، ويعرف الغريب، ويتبحر في اللغة، فليقرأ كتاب كاروند، وهذه يونان ورسائلها وخطبها، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة....**"[7]. فيرد الجاحظ صحيح أن للهند كتبا مخلدة ولكنها لا تضاف إلى رجل معروف، وأن لليونان فلسفة وصناعة منطق ولكن صاحب المنطق كان بكيء اللسان[8]، وأن للفرس خطباء ولكن كل كلام

---

١ - أردشير بن بابك بن ساسان حاكم إصطخر ووالي فارس. أسقط الإمبراطورية البارثية وأصبح أول الملوك الساسانيين ولد في إيران في قرية طيروده من قرى مدينة اصطخر. الدينوري، الأخبار الطوال، ص٤٢

٢ - يقول الجاحظ في ذلك عن البرامكة: وإن تليت عندهم آية ... أتوا بالأحاديث عن مزدك. البيان والتبيين، جـ٣، ص ٢٢٨. مزدك من أهل الفساد، ومعروفاً عنه سوء التدبير. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٣، ص١٦٧.

٣ - كتبها الفيلسوف بيدبا، عبارة عن مجموعة من القصص تتجنب الأسلوب المباشر والصريح، وتحاول أن تركز على المعاني الضمنية، وقد تُرجم هذا العمل من اللغة السنسكريتية إلى اللغة الفهلوية(الفارسية القديمة)، الأمر الذي أتاح لعبد الله بن المقفع أن يترجمها من اللغة الفهلوية إلى اللغة العربية في منتصف القرن الثامن الميلادي، وسماه كليلة ودمنة، بعد أن كان يسمى "الفصول الخمسة" قبل ترجمته، وقد أدرج فيه بابًا جديدًا تحت عنوان "الفحص عن أمر دمنة"، كما ألحق به أربعة فصول لم ترد في النص الفارسي. ابن النديم، الفهرست، ص١٥٠، ١٥٢-١٥٨. البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ٧، ص ٤٤، ص٤٥. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ٩، ص١٩٩. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٠، ص١٠٢، ص٣٢١. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٢٨.

٤ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص١٤

٥ - المصدر نفسه، ص١٤

٦ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٥٣.

٧ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص٩

٨ - يقصد بصاحب المنطق أرسطو، فيرى أنه قليل الكلام، فكيف يكون لليونان رسائل وخطب وهم قليلو الكلام، كما أن أرسطو كما يرى الجاحظ صاحب منطق أي لا يزيد منطقه عن عقله، فكانوا يخافون من فتنة القول، ومن سقطات الكلام. الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١١٢. لسان العرب، جـ ١، ص ٣٤.

للفرس إنما هو ثمرة التفكير والدراسة وكدّ الخاطر. أما العرب فكلامهم وليد البديهة والإلهام، لا يعانون فيه جهدا ولا يجيلون فكرا[1].

كما يضيف الجاحظ أن هذه الكتب والرسائل المنسوبة إلى الفرس واليونان ليست صحيحة، وهي منحولة ولدها أمثال ابن المقفع وسهل بن هارون[2] وعبد الحميد وغيلان ونسبوها إلى قومهم الفرس[3]. **" ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس، أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة، إذ كان مثل ابن المقفع[4] وسهل بن هارون[5]، وأبي عبيد الله[6]، وعبد الحميد[7] وغيلان[8]، يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل، ويصنعوا مثل تلك السير"[9].**

بل إن بعض هذه المؤلفات الموضوعة نسبت إلى بعض الأعلام لتكتسب قيمة خاصة، الم تكن نسبة الكتاب إلى بعض الأعلام المشهورين فناً جديداً من فنون الشعوبية[10].

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٠

٢ - إن العلاقة بين ابن المقفع وسهل بن هارون والجاحظ تدعونا إلى التحفظ في حكمنا الخاص، بلا، ص٣١٢. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٢٧-٢٨.

٣ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٥١-٥٢.

٤ - سبقت ترجمته

٥ - سبقت ترجمته

٦ - أبو عبد الله يعقوب بن داود بن عمر بن طهمان(١٨٧ هـ / ٨٠٣ م) كان وزير المهدي، يكتب بين يديه، وعليه تخرج رسائل تقع في نحو ألف ورقة. كان والده كاتبا للأمير نصر بن سيار. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٧، ص ١٩، ٢٠، ٢٢. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٠، ص ٢١.

٧ - سبقت ترجمته

٨ - سبقت ترجمته

٩ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢١

١٠ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ١٠. خليفة، تيار الشعوبية، ص ٥٦.

يشير الجاحظ إلى موقف الشعوبية في تجريح أعلام الثقافة العربية الإسلامية[1]، فيقول: "فإن استرجح أحد عنده أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فتل عند ذكرهم شدقه، ولوى عند محاسنهم كشحه[2]. وإن ذكر عنده شريح[3] جرحه، وإن نعت له الحسن استثقله، وإن وصف له الشعبي[4] استحمقه، وإن قيل له ابن جبير[5] استجهله، وإن قدم عنده النخعي[6] استصغره. ثم يقطع ذلك من مجلسه سياسة أردشير بابكان[7]، وتدبير أنوشروان، واستقامة البلاد لآل ساسان"[8]، هذا الموقف يشعرك بتصغير شأن العرب وثقافتهم حتى في الإسلام، وبأنه لم يسلم من تَهجّم شعوبيي الكتّاب حتى القرآن والحديث. ويبدو أن الكتّاب على تضلعهم بالعربية وأدبها كانوا لا يعنون بأصول الثقافة العربية الإسلامية[9]. بل إن الجاحظ يتهمهم في تكوين ثقافتهم بقوله: " أنه لم ير كاتب قط جعل القرآن سميره، ولا علمه تفسيره، ولا التفقه في الدين شعاره، ولا الحفظ للسنن والآثار عماده"[10]. ونلاحظ من خلال ذلك أن الكتّاب بذلوا مجهودا كبيرا لطبع الإدارة العباسية وثقافة أصحابها بطابع أعجمي، كل ذلك في ظل دولة عربية إسلامية[11].

١ - الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، جـ٢، ص ٦٠٨. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٥٤.

٢ - الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف، وهو من لدن السرة إلى المتن. لسان العرب، جـ ٢، ص٥٧٢.

٣ - شريح بن هانئ بن يزيد الحارثي(ت: ٧٨ هـ / ٦٩٧ م) من مقدمي أصحاب علي ومن أمراء جيشه يوم الجمل. ولما كان يوم التحكيم بعث علي أبا موسى، ومعه أربعمائة رجل، عليهم شريح بن هانئ. قتل غازيا بسجستان. الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٩٧، ٢٠١. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص١١١-١١٣. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٥، ص ٢٠١. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص٥٥١.

٤ - عامر بن شراحيل الشعبي(١٩ - ١٠٣ هـ / ٦٤٠ - ٧٢١ م) من التابعين، ولد ونشأ ومات بالكوفة. اتصل بعبد الملك بن مروان، فكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم. استقضاه عمر بن عبد العزيز. الحموي، معجم الأدباء، جـ٤، ص ٣٥. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ١٢.

٥ - سعيد بن جبير الاسدي(٤٥ - ٩٥ هـ / ٦٦٥ ــ ٧١٤) من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد. أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر. قال الإمام أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيدا وما على وجه الارض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه. الحموي، معجم الأدباء، جـ ٣، ص ٣٩٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٧١.

٦ - إبراهيم بن الأشتر النخعي، من أكابر التابعين صلاحا وصدق رواية وحفظا للحديث، مات متخفيا من الحجاج سنة ٩٦ هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ١، ص٢٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٤، ص٥٢٣.

٧ - في الأصل: أردشير بن بابكان، أول السلسلة الساسانية. الطبري، تاريخ، جـ ٢، ص ٧٠٤.

٨ - الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، جـ٢، ص٦٠٨.

٩ - حجاب، محمد نبيه. مظاهر الشعوبية في الأدب العربي، مطبعة الرسالة، القاهرة: ١٩٦١م، ص٨٧ (سيشار إليه فيما بعد: حجاب، مظاهر الشعوبية). الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٥٤.

١٠ - الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، جـ٢، ص٦٠٩.

١١ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٥٥. حجاب، مظاهر الشعوبية، ص٧٦.

لكن الشعوبية غفلت أنه بازدهار الثقافة العربية أصبحت الرابطة العربية اللغوية الثقافية رابطة حية. فالجاحظ يؤكد على عروبة وثقافة العرب منذ عهد إسماعيل عليه السلام[1]، بقوله: " **وقد جعل إسماعيل وهو ابن أعجميين عربياً، لأن الله تعالى لما فتق لهاته بالعربية المبينة على غير التلقين والترتيب، وفطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوء والتمرين، وسلخ طباعه من طبائع العجم، ونقل إلى بدنه تلك الأجزاء، وركبه اختراعاً على ذلك التركيب، وسواه تلك التسوية[2]، وصاغه تلك الصيغة، ثم حماه من طبائعهم، ومنعه من أخلاقهم وشمائلهم، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها وأسناها، وأشرفها وأعلاها**"[3]. وهذا توضيح للأسس الثقافية للعروبة، ولمفهوم الروابط التي تجعل من العرب أمة. والشعوبية خطر يهدد الإسلام بالارتياب فيه والجدال في تعاليمه وبغض أهله، ولغتهم والتدرج بالمرتاب حتى ينسلخ عن الإسلام فتتلاشى العقيدة ويتضاءل العدد وتخرس اللغة ويتلاشى مركز الثقل الجغرافي ببعده التاريخي والثقافي[4].

ومن مظاهر حقد الحركة الشعوبية على العرب، محاولة الطعن بصفاتهم وخصالهم، وخاصة صفتي الشجاعة والكرم، فقد رمت الشعوبية العرب بجهل فنون الحرب والأسلحة. فهم لا يتقنون تنظيم الجيوش ولا يعرفون الكمين[5]، فيرد عليهم: " **وأما قولهم: ولا يعرفون الكمين فقد قال أبو قيس بن الأسلت[6]:**

وأحرزنا المغانم واستبحنا ... حمى الأعداء والله المعين

بغير خلابة[7] وبغير مكر ... مجاهرة ولم يخبأ كمين"[8]

كما رمتهم الشعوبية بأنهم لا علم لهم بالميمنة والميسرة والقلب والجناح، والقتال في الليل " **ليس فيما ذكرتم من هذه الأشعار دليل على أن العرب لا تقاتل بالليل. وقد يقاتل بالليل والنهار من**

---

١ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٧٨.

٢ - يعد الجاحظ من أوائل من أشار إلى مصطلح التسوية الذي بدأ في القرن الأول الهجري وحتى القرن الثاني الهجري، ويهدف إلى تسوية العرب بالأمم الأخرى، حتى إذا رأت أنها لم تحقق هدفها بدأت الشعوبية على طبيعتها الحقيقية التي تستهدف العرب والمسلمين. فوزي، الخلافة العباسية، جـ ١، ص ١٦٦.

٣ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ١٩١

٤ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٧٨-٧٩.

٥ - الكمين في الحرب الذين يكمنون. وأمر فيه كمين أي فيه دغل لا يفطن له، لسان العرب، جـ١٣، ص٣٥٩.

٦ - صيفي بن جشم بن وائل من شعراء الأوس المشهورين كان سيد قومه وأسندت إليه الأوس حربها يوم بعاث الذي انتصر فيها الأوس على الخزرج وهو والد الصحابي عقبة بن أبي قيس الذي استشهد يوم القادسية. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ١، ص ١٤١. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١، ص ٢٩٧. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٧، ص ٤٤٥.

٧ - الخلابة: الخديعة، ويقال خلبت الرجل: إذا خدعته. لسان العرب، جـ ١، ص ٣٦٣.

٨ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٦.

تحول دون ماله المدن وهول الليل. وربما تحاجز الفريقان وإن كل واحد منهم يرى البيات"[1] ويورد الجاحظ في ذلك شعراً:

"وليلة تبع وخميس كعب ... أتونا، بعد ما نمنا، دبيبا

فلم نهدد لبأسهم ولكن ... ركبنا حد كوكبهم ركوبا

بضرب يفلق الهامات منه ... وطعن يفصل الحلق الصليبا"[2]

ولا يحسنون استعمال الأسلحة التي يحسنها الفرس مثل الدراجة[3] والمنجنيق والدبابة ثم إن رماح العرب رديئة النوع لا تضارع رماح الفرس الجيدة. رد الجاحظ على مطاعنهم فقال إن الرماح العربية أجود من الرماح الفارسية وهي متنوعة منها المربوع[4] والمخموس[5] "وأما ما ذكروا من شأن رماح العرب فليس الأمر في ذلك على ما يتوهمون. للرماح طبقات: فمنها المربوع، ومنها المخموس، ومنها الخطل وهو الذي يضطرب في يد صاحبه لإفراط طوله. فإذا أراد الرجل أن يخبر عن شدة أمر صاحبه ذكره، كما ذكر متمم بن نويرة أخاه[6]"[7].

ولهذه العلة قتل خالد بن سعيد بن العاص[8]، حين غشيه العدو وأراد الركوب ولم يجد من يحمله. ولذلك قال عمر[9] حين رأى المهاجرين والأنصار قد أخصبوا بعد حركة الفتوح

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٤

٢ - المصدر نفسه، ص ١٤.

٣ - تشبه الدبابة يختبىء تحتها الجنود أثناء الحصار، لسان العرب، جـ ٢، ص ٢٦٦.

٤ - المربوع: الذي ليس بطويل ولا قصير، لسان العرب، جـ ٨، ص ١٠٧.

٥ - رمح مخموس الذي طوله خمس أذرع. لسان العرب، جـ ٦، ص ٦٧.

٦ - اخاه مالك بن نويره الذي أرتد عن الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فجاء أخوه تميم فكان يرثيه. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٦.

٧ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص١٧

٨ - خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، كان يلزم النبي صلى الله عليه وسلم ويصلي في نواحي مكة خالياً. فبلغ أباه فضيق عليه بالضرب والحبس والجوع ثم انفلت منه مهاجراً إلى الحبشة في الهجرة الثانية، فأقام بها حتى قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بخيبر مع أصحاب جعفر فأسهم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر. وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك المشاهد. وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم عاملاً على صدقات اليمن، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ولايته. انظر: ابن خياط، تاريخ، ص٩٧. الطبري، تاريخ، جـ٢، ص١٣٢، ١٨٠، ١٩٩، ٢١٣. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٤، ص ٣٤٤، ٣٤٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ١، ص٤٤١، جـ ٢، ص ٢٢٠.

٩ - كان عمر بن الخطاب يحرص على أن يلتزم العرب بعد الفتوحات حياتهم الأولى القائمة على التقشف والخشونة والزهد خشية أن تجرفهم حياة المدنية في تيارها، إذ بعد فتح الشام والعراق تمرد العرب على بداوتهم بتأثير البيئات الحضارية الجديدة ورغبتهم في مجاراة أهل البلاد المفتوحة. سالم، عبد العزيز. تاريخ الدولة العربية، دار النهضة العربية، بيروت: ١٩٧١م، ص ٦٨٨ (سيشار إليه فيما بعد: سالم، الدولة العربية).

بمقاربة عيش العجم: "تمعددوا[1] واخشوشنبوا، واقطعوا الركب، وانزوا على الخيل نزوا. وقال: احفوا وانتعلوا، إنكم لا تدرون متى تكون الجفلة[2] "[3]. وهذه كناية عن الشدة التي تربى عليها العرب. والتي تساعدهم وقت الحروب، كما تعمل على الشد من رباطة جأشهم وبأسهم.

وكانت العرب لا تدع اتخاذ الركاب للرحل فكيف تدع الركاب للسرج، ولكنهم كانوا وإن اتخذوا الركب فإنهم كانوا لا يستعملونها إلا عندما تكون لا بد منها، كراهة أن يتكلوا على بعض ما يورثهم الاسترخاء والتفنخ[4]، ويضاهوا أصحاب الترفة والنعمة[5]." **كان عمر بن الخطاب يأخذ بيده اليمنى أذن فرسه اليسرى. ثم يجمع جراميزه ويثب، فكأنما خلق على ظهر فرسه. وفعل مثل ذلك الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهو يومئذ ولي عهد هشام، ثم أقبل على مسلمة بن هشام فقال له: أبوك يحسن مثل هذا؟ فقال مسلمة: لأبي مائة عبد يحسنون مثل هذا. فقال الناس: لم ينصفه في الجواب**"[6].

كما حاولت الشعوبية أن تنفي صفة الأمة عن العرب فإطلاق الفرس على أنفسهم لفظ الشعوبية يشعر بأنهم قصروا مفهوم الشعوبية على أنفسهم[7]، وأما العرب في زعمهم فقبائل متفرقة متنازعة دائمة الترحال والتنقل[8]. ورد الجاحظ عليهم بأن حياة الترحال فيها الفضيلة والحرية، وأن الترحال دليل على نبل الهمة وشدة الأنفة والحمية والهرب من الذل، فسكن البادية تحتاج جهد وقوة، وإلى صبر لتحمل شظف العيش والمشقة في البادية[9] " **وقد يصيب القوم في باديتهم ومواضعهم من الجهد ما لم يسمع به في أمة من الأمم، ولا في ناحية من النواحي. وأن أحدهم ليجوع حتى يشد على بطنه الحجارة، وحتى يعتصم بشدة معاقد الإزار، وينزع عمامته من رأسه فيشد بها بطنه. وإنما عمامته تاجه**"[10].

---

١ ـ تمعددوا، واخشوشنبوا أي اصبروا على جهد العيش، ليكون أجلد لكم. وفي حديث عمر، رضي الله عنه: اخشوشنبوا، وتمعددوا. تمعددوا أي تشبهوا بعيش معد، وكانوا أهل قشف وغلظ في المعاش؛ يقول: فكونوا مثلهم ودعوا التنعم وزي العجم. لسان العرب، جـ ١، ص ٣٥٤. جـ ٣، ص ٢٨٧.

٢ ـ المضي والهرب. لسان العرب، جـ ١١، ص ١١٣.

٣ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٧

٤ ـ الفنيخ: الرخو الضعيف. لسان العرب، جـ ٣، ص ١٦

٥ ـ بروكلمان، تاريخ الشعوب، جـ٣، ص ١٤٣

٦ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٥

٧ ـ النعمي، حسن أحمد. موقف الجاحظ من الشعوبية، مجلة الجمعية العلمية السعودية للغة العربية، العدد ٤، الرياض: ٢٠٠٨م، ص ٣٣٣ (سيشار إليه فيما بعد: النعمي، موقف الجاحظ).

٨ ـ الجاحظ، البخلاء، ص ٢٨٨

٩ ـ الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٦٨.

١٠ ـ الجاحظ، البخلاء، ص ٢٨٢

كما حاولت الشعوبية أن تنفي صفة الكرم والمروءة عن العرب، وتشويه ما فيه من بذل وتضحية وبالغوا في التشنيع به. وذهبوا إلى أبعد من ذلك وكتبوا رسائل في البخل[1].

ولما وجهت الشعوبية هجومها على الكرم الذي اشتهر به العرب، تناول الأدباء العرب الكرم بالمدح واستطاعوا من خلال هذا المدح اظهار صفة الكرم بمظهر رائع[2]، فرددوا قول الرسول صلى الله عليه وسلم **"السخي قريب من الله، قريب من الناس، بعيد عن النار، والبخيل بعيد عن الله بعيد عن الناس بعيد عن الجنة قريب من النار، ولجاهل سخي أحب إلى الله من عباد بخيل"**[3] ومن كلام الجاحظ في الرد على الشعوبية ما جاء في كتاب البخلاء **"وقال ثمامة[4] لم أر الديك في بلدة قط إلا وهو لاقط، يأخذ الحبة بمنقاره، ثم يلفظها قدام الدجاجة، إلا ديكة مرو، فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب. قال: فعلمت إن بخلهم شيء في طبع البلاد، وفي جواهر الماء، فمن ثم عم جميع حيوانهم"**[5]. إن مطالعة كتاب البخلاء تنقلك من السخرية إلى الجد، ومن إنكار البخل إلى تحليل شبه فلسفي يبين لك أن البخل طبع متأصل في الشعوبيين وبذلك يقدم دفاعاً قوياً عن الكرم[6].

وعلى الرغم من الدور الذي قام به في الوقوف في وجه الشعوبية ومعاصرته فريقاً من مشاهير الشعوبيين فإنه لم يطلق على أي منهم لفظ الشعوبية، فهو في حديثه عن أبي عبيدة معمر بن المثنى مع ما عرف من معاداة للعرب اكتفى بالقول فيه **"... وهذا التأويل أخرجه من أبي عبيدة سوء الرأي في القوم"**[7] ويبدو أن الجاحظ ركز اهتمامه على الشعوبية كحركة معادية للعرب للعرب والإسلام ورد عليها دون الاهتمام بأشخاصها[8].

ويختم الجاحظ هذا الجدل بالإشارة إلى الدافع الذي حمل هؤلاء العجم على بغض العرب والتنقص من شأنهم، إنه دافع نفسي يرجع إلى الحسد الجاثم على قلوبهم كما يرجع إلى كره الإسلام الذي جاء به العرب. **" اعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكا لعرضه، ولا أطول نصبا، ولا أقل غنما من أهل هذه النحلة. وقد شفى الصدور منهم**

---

١ - الجاحظ، البخلاء، ص٢٨٨. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٨٤-٨٥.

٢ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٨٤.

٣ - اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ١٤٢.

٤ - تم تعريفه عند الحديث عن شيوخ المعتزلة.

٥ - الجاحظ، البخلاء، ص ٣٨

٦ - السامرائي، الشعوبية، ص ١٨٤. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٨٥.

٧ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٦٦.

٨ - السامرائي، الشعوبية، ص ٩٤.

طول جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائرة، وتسعر تلك النيران المضطرمة. ولو عرفوا أخلاق أهل كل ملة، وزي أهل كل لغة وعللهم، على اختلاف شاراتهم وآلاتهم، وشمائلهم وهيئاتهم، وما علة كل شيء من ذلك، ولم اجتلبوه ولم تكلفوه، لأراحوا أنفسهم، ولخفت مئونتهم على من خالطهم"[1]. والجاحظ، وإن انتصر للعرب ضد الشعوبية، لم يرتكب الخطأ الذي ارتكبته، فهو ذهب إلى أن الأمم ينبغي أن تكف عن البغضاء والتعصب لمزاياها، وأن تتعاون وتتآلف لأن لكل أمة مزايا ونقائص[2].

ثانياً: الزندقة

من خلال استعراض كتابات الجاحظ في مجال الحركة الشعوبية نجده يقرنها بالزندقة[3]، والتي تبدأ من التهجم على العرب إلى اللغة العربية والإسلام[4]، إذ أن الشعوبية والزندقة مترابطتان ويصعب الفصل بينهما[5]. وقد أشار الجاحظ إلى الصلة الوثيقة بينهما[6] بقوله: " إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أولُ ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدي إلى الضلال، فإذا أبغض شيئًا أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وهي السلف والقدوة"[7].

---

١ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢١

٢ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٨٤. للجاحظ كتاب مفقود في الرد على الشعوبية أطلق عليه اسم كتاب الشعوبية، البخلاء، ص ٣٣١. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٤٧.

٣ ـ الزنديق: الملحد، والزنديق من الثنوية، وزندقته أنه لا يؤمن بوحدانية الخالق وبالآخرة. لسان العرب، جـ١٠، ص١٤٧.

٤ ـ الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٩، ص ٥٨.

٥ ـ المرجع نفسه، ص ٢٩

٦ ـ المرجع نفسه، ص ٥٨، ص ٩٣.

٧ ـ الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ١٣١.

الزنديق هو الملحد الذي لا يؤمن بوحدانية الله ولا باليوم الآخر[1]. كما تعرف بأنها القول بأزلية العالم، وأطلق على الزرادشتية[2] والمانوية[3] وغيرهم من الثنوية[4] وتُوسع فيه فأُطلق على كل شاك أو ضال أو ملحد[5]. كانت هذه الفرقة منتشرة في بلاد فارس فهي تضم كل من ظل معتنقا تعاليم مزدك[6] وماني[7] التي تدعو إلى عبادة إلهين إله النور، وإله الظلمة[8]. ثم إنها وطمعاً في استقطاب الشباب إليها أباحت ما حرم الإسلام من حرمات، وتأثرت بعقائد الهند التي تقول بالتناسخ والحلول، وأخذت تحارب الإسلام من الداخل[9]، وكانت تسعى بذلك إلى تقويض الحكم العربي[10]، من خلال تقريب العناصر الفارسية من الخليفة ومشاركته في السلطة أو حتى التفرد والاستقلال بها. فقد كانت هذه العناصر تحلم بإعادة مجدها المفقود فشجعت حركات الزندقة والشعوبية[11]، وكانت تخفي أحلامها بمطاوعة الخلفاء فيما يشتهون وإشباع

١ـ الاسفراييني، التبصير، ص ١١٦. الغزالي، محمد بن محمد(ت: ٥٠٥هـ / ١١١١م). التفرقة بين الإسلام والزندقة، تحقيق سميح دغيم، دار الفكر اللبناني، بيروت: ١٩٩٣م، ص٣٢ (سيشار إليه فيما بعد: الغزالي، التفرقة بين الإسلام والزندقة).

٢ ـ الزرادشتية: ديانة وثنية تؤمن بأن للعالم إلهين، أحدهما إله الخير، والآخر إله الشر، نسبت الديانة إلى مؤسسها زرادشت، يدين بها ملوك آل ساسان، كانت تنتشر في بلاد فارس. الطبري، تاريخ، جـ ١،ص ٣١٧. المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٣٥، ٣٦. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٢، ص٤١، ٤٢.

٣ ـ المانوية: أصحاب ماني بن فاتك الحكيم، الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير، أحدث دينا بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة عيسى عليه السلام. ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام. المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٣٠. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٢، ص ٤٩ - ٥٢.

٤ ـ يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان قالوا بتساويهما في القدم، واختلافهما في الجوهر، والطبع، والفعل، والحيز، والمكان والأجناس، والأبدان والأرواح. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ٢، ص ٤٩.

٥ـ لسان العرب، جـ ١٠، ص ١٤٧.

٦ ـ مزدك الذي ظهر في أيام قباذ والد أنوشروان، ودعا قباذ إلى مذهبه، فأجابه. وطلع أنوشروان على خزيه وافترائه فطلبه فوجده فقتله. قول المزدكية كقول كثير من المانوية في الكونين والأصلين، إلا أن مزدك كان يقول: إن النور يفعل بالقصد والاختيار. والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق. السمعاني، الأنساب، جـ ٥، ص ٢٧٣. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٢، ص ٥٤.

٧ ـ راجع المانوية التي سبق ذكرها.

٨ ـ الأصفهاني، الأغاني، جـ ٣، ص٧٣.

٩ ـ جبري، شفيق. عصر الجاحظ الزندقة، ط ١، دمشق: ١٩٣١م، ص٩ (سيشار إليه فيما بعد: جبري، عصر الجاحظ الزندقة).

١٠ـ الفياض، عبدالله. تاريخ البرامكة، مطبعة الرشيد، بغداد: ١٩٨٤م، ص ٥٦ (سيشار إليه فيما بعد: الفياض، تاريخ البرامكة).

١١ـ الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٤٨

شهواتهم وإظهار الوفاء لهم. وكان من هؤلاء أبو مسلم الخراساني ثم البرامكة[1]، ثم بني سهل[2] وبني طاهر[3].

كما سعت إلى خلع طاعة الخليفة وإعلان الثورة عليه، ومنها ثورة الراوندية[4] والبابكية الخرمية[5]، بإفساد عقيدة المسلمين تحت شعار التشيع، فتسربت عقائد وديانات الفرس السابقة

---

١ البرامكة أسرة فارسية، بدأ اتصالها بالعباسيين في أوائل أيام ثورتهم، فكان يحيى أحد قادة الثورة العباسية. وبعد نجاحها ولاه المنصور ديوان الخراج. وعظمت منزلته إلى أن عهد الخليفة المهدي له ولزوجته بتربية ابنه الرشيد، فلما تولى الرشيد زادت مكانة يحيى وولديه الفضل وجعفر. انظر: الحموي، معجم الأدباء، جـ ٢، ص ١٢٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٣٣٧، ٣٣٨. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٢، ص ٢٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٩، ص ٦٤. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٣٧. سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص ١٣٥-١٤٣.

٢ - هم من البرامكة الذين سبق تعريفهم، ومنهم: الفضل، والحسن. اتصل الفضل بن سهل بعد إسلامه بالمأمون فأحسن إليه، ولعب الفضل دورًا في الصراع بين الأمين والمأمون، وكانت له اليد الطولى في انتصار المأمون وانفراده بالخلافة؛ ولاه المأمون على المشرق سنة(١٩٦ هـ)، ولقبه بذى الرياستين. كما كافأ المأمون الحسن بن سهل بأن ولاه ديوان الخراج. واستغل الفضل ما منحه المأمون من سلطة فاستأثر بالسلطة وصارت بيده مقاليد الأمور، وخص أقاربه وأعوانه الفرس بأعظم مناصب الدولة دون العرب، وبلغ من تأثير الفضل بن سهل في المأمون أنه أغراه بتولية على بن عيسى الرضا العهد من بعده، وأراد تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين. وقد أحس المأمون بالخطر من ازدياد سلطة بنى سهل؛ فتحين الفرصة حتى تمكن من القضاء على الفضل بن سهل سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٧م. الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٧٢. جـ ٢، ص٦١٧. جـ ٣، ص ٦٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٤٦. جـ ٤، ص ٤١-٤٢. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٢، ص ٤٢. جـ ١٣، ص ٣٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ١٠، ص ٩٩. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٢، ص ١٣٩. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٣٧. سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص ١٣٥-١٤٣.

٣ - الطاهرية إحدى الدول الإسلامية الصغيرة التي قامت في العصر العباسي الأول. تُنسب إلى مؤسسها طاهر بن الحسين أحد القواد في ظل الخلافة العباسية. دامت هذه الدولة نحو(٥٢) سنة حتى سقوطها على يد الصفارين. بدأ حكم الطاهريين سنة (٢٠٢هـ/ ٨١٧/) حين ولى المأمون العباسي قائده طاهر بن الحسين إمارة المشرق، واتخذ من نيسابور عاصمة لدولته، واستطاع أن يؤسس لنفسه إمارة شبه مستقلة عن الدولة العباسية؛ إذ منحه الخليفة استقلالا في إدارتها، على أن يؤدى ما عليها من الخراج. حموي، معجم الأدباء، جـ ٢، ص ٥٦٣، ٥٦٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٥١٧-٥٢٠. الذهبي تاريخ الإسلام، جـ ١٣، ص ٤٩، ٥٢، ٥٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٠، ص ١٠٨. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٥، ص ٢٦٧، ٢٦٨. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٤١.

٤ - الراوندية تنسب إلى مدينة راوند قرب أصفهان ببلاد فارس. كانت بداية ظهورها في الدولة الأموية، عندما خرج رجل يقال له: الأبلق، وكان أبرص، وزعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في على بن أبى طالب والأئمة من بعده واحدًا واحدًا وأنهم آلهة. ولما شاع أمرهم وما يرتكبونه من المحرمات، قام عليهم أسد بن عبد الله القسري والي بنى أمية على خراسان فقتلهم، ولكن ظل منهم قليل حتى ظهروا ثانية في خلافة أبى جعفر المنصور العباسي، وخرجوا جميعًا على الناس بالسلاح فأقبلوا يصيحون: بأبي جعفر أنت أنت، يعنون أنت الله، فخرج إليهم بنفسه ورد عليهم ادعاءهم، وقاتلهم وحبس مائتي رجل من زعمائهم، ولكن الباقين اقتحموا السجن، وأخرجوهم منه، ثم ذهبوا إلى قصر أبى جعفر فخرج إليهم مترجلاً وكادوا يقتلونه لولا دفاع معن بن زائدة الشيباني الذى دفعهم عنه، وظل المنصور في جهادهم حتى قضى عليهم. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٢٣٦. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣٨٤. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص٤٥٠. الذهبي تاريخ الإسلام، جـ ٩، ص ٥، ٧. سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص ١٤٧-١٥٠.

٥ - نسبت إلى بابك الخرمي، الذي أظهر الباطنية، فلما تولى الخلافة المعتصم قبض عليه وصلبه بسامراء سنة ٢٢٣هـ / ٨٣٧م. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٣، ص ٣٥٢. سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص١٥٧.

للإسلام من خلال هؤلاء الشيعة، فكانت تغرر بالشبان بما كان "ماني" يدعو إليه من طلب اللذة بإباحة شرب الخمر ووطء المحرمات ومنهم الأخوات والبنات[1].

استفحلت الزندقة في العصر العباسي فكشف الجاحظ عن فريق من أهل الكتاب "وذلك **أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا، والضعيف بالإسناد من رواياتنا، والمتشابه من آي كتابنا، ثم يخلون بضعفائنا، ويسألون عنها عوامنا، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين، والزنادقة الملاعين، وحتى مع ذلك ربما تبرأوا إلى علمائنا، وأهل الأقدار منا، ويشغبون على القوي، ويلبسون على الضعيف**"[2].

صور الجاحظ موقف الدولة العباسية من حركة الزندقة، ورواياته تتباين ما بين الهزل والجد والسخرية والتهكم والنقد والتقريع، لكن إذا أمعنت النظر فيها تجد حتى الهزلية تحتوي على مادة مهمة من ذلك مثلاً "**لأن العوام تقضي على من كان في داره ديك أبيض أفرق بالزندقة** "[3] وهذه الرواية على الرغم من هزلها فإنها تدل على ما وصل إليه حال الناس من التشكيك في وصف الإنسان بالزندقة على أبسط الأمور. انظر للجاحظ وهو يريد أن ينتقص من قدر الترك فوصفهم بالزندقة ولكن بتحوير المعني " **فلما دانوا بالزندقة ودين الزندقة في الكف والسلم أسوأ من دين النصارى نقصت تلك الشجاعة، وذهبت تلك الشهامة** "[4].

وتتباين التهم التي يأخذها الجاحظ على أهل الزندقة، ويعلل ذلك بقوله: " **فقد كانوا يصنعون الآثار، ويولدون الأخبار، ويبثونها في الأمصار، ويطعنون في القرآن، ويسألون عن متشابهه، وعن خاصه وعامه** "[5].

ويضيف الجاحظ " **فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغبيائنا وظرفائنا، ومجانينا وأحداثنا شيء من كتب المنانية[6]، والديصانية[7]، والمرقونية[1]، ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى،**

يرى الدوري أنه لا يمكن تصنيف ثورة بابك ضمن الحركة الشعوبية، فلا تندرج ضمن الحركات السرية التي تتظاهر بالإسلام وتعمل على هدم السلطان العربي أو على هدم الإسلام كما هو حالب باقي الحركات، الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ١١.

١ - الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، جـ ٣، ص ٢٥٢.

٢ - الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، جـ ٣، ص ٣٢٠.

٣- الجاحظ، الحيوان، جـ٢، ص ٣٠٣

٤- الجاحظ، رسالة الأوطان والبلدان، ص ١١٠

٥- الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٧٨

٦ - المنانية؛ والمنانية هي نفسها المانوية التي سبق ذكرها. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٥٦ وما يليها، المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ١٠٨، جـ ٢، ص ١١٢.

٧ - الديصانية: فرقة من المجوس، وهم أصحاب ديصان، الذي كان قبل ماني. والمذهبان متقاربان، ويختلفان في اختلاط النور والظلمة. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٧٤، الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٢، ص ٨٨.

وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها، ومخلاة في أيدي ورثتها. فكل سخنة عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا فمن قبلهم كان أولها "[٢] .

ويظهر أن الزندقة فشت بين المسلمين وخاصة في العراق فقد روى الأصمعي عن الخليل بن أحمد أنه قال: **" أكثر من تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية"**[٣]. لم يغفل المهدي والذي يعد أول من طارد الزنادقة[٤] عن معاقبتهم فمنهم من يهرب من وجه السلطان، ومنهم من يقتل، ومنهم من يستر زندقته حتى ينجو من الشر[٥]، كما خصص وظيفة لصاحب الزنادقة[٦]. يقول الجاحظ: **"والزنادقة لم تكن قط أمة، ولا كان لها ملك ومملكة، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق"**[٧] .

وجد الزنادقة في التظاهر بالمجون وسيلة لستر معتقداتهم وآرائهم وأسلوباً ناجحا للهجوم على الإسلام فقد اشتهر عدد من مشاهير الزنادقة بالمجون فكان **" حماد عجرد**[٨] **وحماد الرواية**[٩] **وحماد الزبرقان**[١] **ويونس بن فروة**[٢] **يتواصلون، وكأنهم نفس واحدة "**[٣] وكانت هذه المواصلة

---

١ ـ المرقيونية: أصحاب مرقيون وهم قبل الديصانية وهم طائفة من النصارى أقرب من المنانية والديصانية وزعمت المرقيونية أن الأصلين القديمين النور والظلمة وأن ها هنا كونا ثالثا مزجها وخالطها وقالت بتنزيه الله عز وجل عن الشرور وأن خلق جميع الأشياء كلها لا يخلو من ضرر وهو مجل في ذلك واختلفوا في الكون الثالث. ابن النديم، الفهرست، ص ٤١٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ١،ص ١٠٩.

٢ ـ الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٣٢٠

٣ ـ الأنباري، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد(ت: ٥١٣هـ / ١١١٩م). نزهة الألباب في طبقات الأدباء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٣م، ص٣١ (سيشار إليه فيما بعد، الأنباري، طبقات الأدباء).

٤ ـ الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٢٣. سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص١٥١.

٥ ـ اليعقوبي تاريخ اليعقوبي، ص٤١١. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٦٨، ٥٨٠، ٥٨٢. فوزي، الخلافة العباسية، جـ١، ص ١٥٨-١٥٩.

٦ ـ سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص١٥٣

٧ ـ الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٤٧٣

٨ ـ حماد بن عمر بن يونس بن كليب(ت: ١٦١ هـ / ٧٧٨ م) قدم بغداد في أيام المهدي. وكان حماد ماجنا ظريفا متهما في دينه، وسبب تسميته بعجرد أن أعرابيا مر به وهو غلام يلعب مع الصبيان في يوم شديد البرد وهو عريان، فقال له الأعرابي: تعجردت يا غلام، فسمي عجردا. كان حماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان يتنادمون ويتناشدون الأشعار، وكانوا يرمون بالزندقة جميعا.

انظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٦٦٣. ابن المعتز، عبد الله بن المعتز العباسي(ت: ٢٩٦هـ / ٩٠٨م). طبقات الشعراء، تقديم صلاح الدين الهواري، ط١، مكتبة الهلال، بيروت: ٢٠٠٢م، ص ٦٧(سيشار إليه فيما بعد: ابن المعتز، الطبقات). الأصفهاني، الأغاني، جـ١٤، ص ٣٠٤. الدار قطني، علي بن عمر(ت: ٣٨٥هـ / ٩٩٥م). المؤتلف والمختلف، تحقيق موفق بن عبد الله، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت: ١٩٨٦م، ص١٥٧ (سيشار إليه فيما بعد: الدار قطني، المؤتلف والمختلف). الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ٨، ص١٤٨. الحموي، معجم الأدباء، جـ ٣، ص٢٤٣.

٩ ـ حماد بن ميسرة بن المبارك بن عبيد الديلمي(٩٥ ـ ١٥٥ هـ / ٧١٤ ـ ٧٧٢ م)، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها، كان متهما بأنه يقول الشعر وينحله شعراء العرب. ابن سعد، الطبقات، جـ ٨، ص٦٩. الأصفهاني، الأغاني، جـ ٦، ص ٦٨. ابن النديم، الفهرست، ص ١٠٤. ابن خلكان،

على الشراب والغلمان وأنواع المجون الأخرى في سبيل إبعاد تهمة الزندقة عنهم والحكم عليهم بالمجون دونها[٤].

حاولت الزندقة[٥] أن تدخل على المسلمين بواسطة الفكر والأدب، حيث قاموا بتأليف كتب أشار إليها الجاحظ بأنها " **ليس في كتبهم مثل سائر ولا خبر طريف ولا صنعة أدب ولا كلمة غريبة ولا فلسفة ولا مسألة كلامية.. وجل ما فيها ذكر النور والظلمة وتناكح الشياطين**"[٦]. كما يشير أيضا إلى قيام هؤلاء الزنادقة باستخدام الحبر والورق الجيد وتلميعه كل ذلك بهدف إغواء الناس ليسهل جرهم لأهدافهم " **وددت أن الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقي الأبيض، وعلى تخير الحبر الأسود المشرق البراق، وعلى استجادة الخط والإرغاب لمن يخط، فإني لم أر كورق كتبهم ورقا، ولا كالخطوط التي فيها خطا**"[٧].

كان المأمون إذا سمع بزنديق أمر بحمله إلى مجلسه وفيه جماعة من المتكلمين - المعتزلة - فناظروه لعلهم يقنعونه ويردونه إلى الإسلام، وكان المأمون يشترك في مناظرته، فإذا لم يكف عن غوايته، أمر بقتله[٨] " **سأل أمير المؤمنين الزنديق الذي كان يكنى بأبي علي، ذلك عند ما رأى من تطويل محمد بن الجهم[٩] وعجز العتبي[١٠] وسوء فهم القاسم بن سيار[١]، فقال له المأمون:** أسألك

وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٢٠٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ١٥٧. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ١٣، ص ١٣٧.

١ - حماد بن سابور، ممن اتهم بالزندقة وقد سبق الإشارة إليه. الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٤٤٥. ابن حجر، لسان الميزان، جـ ٢، ص ٣٤٧. ابن المعتز، الطبقات، ص ٦٩

٢ - يونس بن محمد بن كيسان أبي فروة(ت:١٥٠ هـ / ٧٦٧ م). كاتب متزندق خالط ابن المقفع. ووالبة بن الحباب، وحماد عجرد وبشار بن برد، وحماد الراوية، وآخرين، كانوا يجتمعون على الشرب وقول الشعر، ويهجو بعضهم بعضا، خرج إلى البصرة فلم يزل بها حتى مات. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٩، ص ٤٨. السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١، ص ١١٨.

٣ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٧، ص ٤٨١. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٢٦.

٤ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٧، ص ٤٨٣.

٥ - أشار بلا أن نشأة الزندقة كنوع من الارتياب تجاه دين الفاتحين، فهي مظاهرة قصوى ومنتهى غاية الشعوبية التي أملاها شعور الفرس بتفوقهم على العرب في الميدانين الزمني أولا والروحي ثانياً. الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣١١.

٦ - الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص٥٧ - ٥٨

٧ - المصدر نفسه، ص ٤١

٨ - المصدر نفسه، جـ ٤، ص ٤٧٩

٩ - محمد بن الجهم بن هارون السمري، أبو عبد الله الكاتب (ت: ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م). روى كتابه في معاني القرآن، وهو أحد الثقات من رواة المسند. الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص ٩١.

١٠ - محمد بن عبيد الله بن عمرو بن معاوية (ت: ٢٢٨هـ/ ٨٤٢م). كان أديبا فاضلا شاعرا مجيدا، وكان يروي الأخبار وأيام العرب. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ٣٩٨.

عن حرفين فقط. خبرني: هل ندم مسيء قط على إساءته، أو نكون نحن لم نندم على شيء كان منا قط؟! قال: بل ندم كثير من المسيئين على إساءتهم. قال: فخبرني عن الندم على الإساءة، إساءة أو إحسان؟ قال: إحسان. قال: فالذي ندم هو الذي أساء أو غيره؟ قال: الذي ندم هو الذي أساء. قال: فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر، وقد بطل قولكم: إن الذي ينظر نظر الوعيد غير الذي ينظر نظر الرحمة. قال: فإني أزعم أن الذي أساء غير الذي ندم. قال: فندم على شيء كان منه أو على شيء كان من غيره؟ فقطعه بمسألته، ولم يتب ولم يرجع، حتى مات، وأصلاه الله نار جهنم"[٢].

والخليفة المعتصم الذي اكتشف أن قائده الأفشين زنديقاً فبعد محاكمته وثبوت الزندقة عليه أمر بقتله[٣]، وفي ذلك يقول الجاحظ: " **كان الأفشين يقول: إذا ظفرت بالعرب شدخت رؤوس عظمائهم بالدبوس والدبوس شبيه بهذه العصا التي في رأسها عجرة"[٤].**

مما سبق يتبين أن خلفاء بني العباس لم يكونوا يقتلون على الزندقة إلا بعد ثبوتها على صاحبها ثبوتا لا يرقى إليه الشك. وإنهم كانوا يقتلون من كان ينزع في مجوسيته إلى المانوية[٥]، أما الموبقات الأخرى من شرب الخمر واللهو والمجون فكانوا يتسامحون فيها ويغضون الطرف عنها[٦].

---

١ - القاسم بن سيار البغدادي الكاتب الشاعر؛ خرج إلى خراسان واتصل بذي الرياستين الفضل بن سهل. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٧، ص ٢٠٢.

٢ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٤٧٩

٣ - حيدر بن كاوس، حارب بابك وظفر به، كان الأفشين أيّام حرب بابك ومقامه بأرض الخرّمية لا تأتيه هديّة من أهل أرمينية إلّا وجّه بها إلى أسروشنة فيجتاز ذلك بعبد الله بن طاهر فيكتب عبد الله بخبره إلى المعتصم فيكتب المعتصم بتعرف جميع ما يوجّه به الأفشين من الهدايا إلى أسروشنة، فيفعل عبد الله ذلك.

وكان الأفشين كلّما تهيّأ عنده مال حمله في أوساط أصحابه من الدنانير، كان الرجل يحمل ما بين الألف فما فوقه، ولمّا تواترت أمثال هذه من الأفشين تغيّر له المعتصم وأحسّ الأفشين بتغير حاله عند المعتصم.

فقام المعتصم بسجنه بعد أن رفع عنه أنه يكاتب المازيار، كما اتهمه بدين المجوسية، فظل في السجن حتّى مات سنة ٢٢٦هـ. ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ٤، ص ٢٦١-٢٧٠. الجوزي، المنتظم، جـ ١١، ص٩٨-٩٩، ص١١١. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ١١٧. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٤٣-٤٤. سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص ١٦٥-١٦٨.

٤ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٣٩

٥ - أشار بلا أن أصحابها تعرضوا للاضطهاد منذ فترة طفولة الجاحظ، أي منذ منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ص ٣٠٥.

٦ - الدجيلي، عبد الصاحب. الشعوبية، ط٢، مطبعة القضاء، النجف: ١٩٦٠م، ص ٨٢ (سيشار إليه فيما بعد: الدجيلي، الشعوبية).

وقد ظهرت أسماء زنادقة كانت لهم اليد الطولى، فكان الزنادقة يتسترون على بعضهم البعض فهذا حماد عجرد[1] يجعل يونس بن أبي فروة مخدوعاً ببعض المتهمين في دينهم، في حين أنه من الزنادقة[2]، يقول الجاحظ: " **ويونس بن أبي فروة الذي زعم حماد عجرد أنه غرّ نفسه بهؤلاء الزنادقة كان أشهر بهذا الرأي**"[3] ويونس هذا شعوبي كتب كتاباً لملك الروم في مثالب العرب وعيوب الإسلام بزعمه[4].

وقد عرض الجاحظ الحيل التي يحتال بها الزنادقة في خداع الناس، ومن أشهرهم ابن أبي العوجاء وإسحق بن طالوت والنعمان بن المنذر وأشباههم، وكشف خطرهم على الإسلام والعروبة "**بل لا شبهة في الزندقة خاصة. فقد كانوا يصنعون الآثار، ويولدون الأخبار، ويبثونها في الأمصار، ويطعنون في القرآن، ويسألون عن متشابهه، وعن خاصه وعامه، ويضعون الكتب على أهله. وليس شيء مما ذكرنا يستطيع دفعه جاهل غبي، ولا معاند ذكي**"[5] . إن تساؤلات الجاحظ تهدف إلى تكفير الزنادقة وإثارة الناس عليهم، كما يهدف إلى دفع الخليفة أن يتخذ موقفاً منهم لدفع خطرهم عن الناس.

إن الشعوبية وقرينتها الزندقة لم تكن حركة طبقة اجتماعية معينة فقد سارت معها جنبا إلى جنب، كما ظهرت في إطار ديني وثقافي بين تلك الفئات التي لها المؤهلات الفكرية والاستعداد الذهني اللازم. وكل محاولة لإكسابها صفة طبقية أو لحصرها في فئة اجتماعية معينة إنما يناقض طبيعتها وشمولها[6].

ويمكن أن نجمل ما سبق بما أشار إليه الدوري. حيث: تظهر الصورة جلية في العلاقة بين الشعوبية والزندقة، بل إن الشعوبية كانت من الدوافع السياسية للزندقة، وهذا نتيجة الارتباط الوثيق من ناحية السير التاريخي بين العروبة والإسلام من جهة، وبسبب ارتباط الشعوبية والزندقة بمفاهيم وعقائد دينية قديمة غير إسلامية مجوسية وغيرها. ومن الواضح أن

---

١ - شنع السيد المرتضى على حماد الراوية بقوله: "واما حماد الرواية فكان منسلخا من الدين، زاريا على أهله، مدمنا لشرب الخمور وارتكاب الفجور". السيد المرتضى، أبي القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين (ت: ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م). الأمالي، تحقيق محمد بدر، ط ١، مطبعة السعادة، مصر: ١٩٠٧م، جـ ١، ص١٣٣ (سيشار إليه فيما بعد: السيد المرتضى، الأمالي).

٢ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٢٧

٣ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٤٨٤.

٤ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ١٠

٥ - الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، جـ ٣، ص ٢٧٨.

٦ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٦١. عقل، صراع الحضارات، ص ٩١

الشعوبية والزندقة تستمدان الوحي من نطاق حضاري خارج نطاق العروبة والإسلام، وأن آرائهما في الأساس آراء وافدة ترى أصولها وولاءها خارج المجتمع العربي الإسلامي، وكما وقف الجاحظ في وجه الشعوبية تصدى أيضاً للزندقة فاضحا آراءها وأهدافها ورجالها. ويمكن القول بأن الجاحظ أدى دوراً بارزاً في مواجهة الزندقة بحسب مجاله فكانت كتاباته لا تفتر تفند حججهم وترد عليهم وتبين جهلهم وخطأهم، وهو دور العالم الذي ينبغي أن يكون في صف أمته مدافعاً عنها بما أوتي من علم وبيان[1].

ثالثاً: الشيعة

الشيعة في اللغة، الأتباع والأنصار قال ابن منظور :" **الشيعة كل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيعة، والجمع شيع**"[2] وعرفها الشهرستاني "**الشيعة هم الذين شايعوا عليا رضي الله عنه على الخصوص. وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية، إما جليا، وإما خفيا. واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده**"[3] ظهرت الشيعة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ رأى البعض أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) هو أحق المسلمين بخلافة الرسول ويجب أن تبقى الخلافة في ذريته من بعده أي أن تكون الخلافة بحسب القرابة من الرسول وراثية[4]. وحجتهم في ذلك قولهم بما أن الرسول لم يكن لديه أولاد ذكور، إذا تنتقل الخلافة إلى أقرب الناس له، وخاصةً أن علي هو زوج ابنة الرسول فاطمة الزهراء[5]، وهو الذي رباه الرسول صلى الله عليه وسلم إضافةً إلى صفات كثيرة يتحلى بها علي بن أبي طالب، كالعلم والشجاعة وأول من أسلم من الصبيان ولم يعبد صنماً قط[6].

تناول الجاحظ موضوع الإمامة في العديد من تراثه، وأثناء حديثه كان يرد على قول الشيعة في وجوب أن تبقى الإمامة في بيت علي، وأنها متى صلحت في الأخوة صلحت في أبناء العم وهكذا دواليك " **والإمامة اليوم لا تصلح في الأخوة ولو صلحت في الأخوة كانت تصلح في ابن**

---

١ ـ الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٥٣- ٥٨. النعمي، موقف الجاحظ، ص ٣٥٣-٢٥٤.

٢ـ لسان العرب، جـ ٨، ص١٨٨.

٣ ـ الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١٤٦

٤ـ ابن العربي، العواصم، ص ١٧١. أبو زهرة، محمد. تاريخ الجدل، ط ٢، دار الفكر العربي، القاهرة:١٩٨٠م، ص١٣٠ (سيشار إليه فيما بعد: أبو زهرة، تاريخ الجدل).

٥ ـ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ ١، ص ١٩٧.

٦ ـ الجاحظ، العثمانية، ص ٢٠. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ ١، ص ١٩٧.

العم، ثمّ إنها دنت من الأرحام بعد ذلك فصارت لا تصلح إلا في الولد"[1]. فكأن الجاحظ يتنبأ بما ستؤول إليه الإمامة عند الشيعة الإمامية بعد موته ببضع سنوات، وتتمثل نبوءة الجاحظ في غياب الإمام الثاني عشر وهو المهدي المنتظر[2].

شرح الجاحظ نظرية الشيعة في الإمامة في رسالة استحقاق الإمامة حيث تناولها من منطلق تأريخي[3]. وقد سعى في الرد عليهم وعلى حججهم " **فطبقة تدعي أن قتل علي لعثمان كان من اكبر طاعاته لله، وهذه الطبقة هم الشيعة**"[4] والمهم في هذه الرواية وغيرها البعد التاريخي الذي يضيفه الجاحظ لنا في موضوع الخلاف بين علي ومعاوية. كما عرض موقف المعتزلة من أراء الشيعة في مسألة الإمامة من خلال رسائله ومنها الإمامة ورسالة التربيع والتدوير بقوله: "**وحتى لو كنت إمام الرافضة لقتلت في طرفة، ولو قتلت في طرفة لهلكت الأمة. لأنك رجل لا عقب لك**"[5]. وفرق الجاحظ بين الشيعة المعتدلين والغلاة منهم، وصب جام غضبه على الفئة الثانية[6].

عارض الجاحظ أستاذه النظام الذي رأى أن أبا موسى الأشعري حمل علياً على القبول به حملا لا خيار له فيه نزولا عند رغبة اليمانية المؤيدين لأبي موسى، لأن ابا موسي لم يكن له أنصار أقوياء يفرضونه فرضا على الخليفة، ولم يكن علي ضعيف الرأي ليقبل أن يمثله في التحكيم عدو مرصد. وإنما قبل علي بالتحكيم تلافيا للشقاق أن يدب في صفوف عسكره بسبب رفع المصاحف "**وقد ادعى معاوية الخلافة زاعما انه اولى الناس بالمطالبة بدم عثمان ومن يطالب بدم الخليفة أحق الناس بالخلافة. وليس هذا سببا كافيا للإمامة. وقد اعتمد معاوية على القوة والبطش للوصول إلى الخلافة، كما استند إلى موقف سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب. واستغل للوصول إلى غايته انتشار جند علي وعدم تماسك جنده؛ ولجأ إلى الترغيب بالمال والمناصب ليستميل الناس اليه. واحتال برفع المصاحف على رؤوس الرماح ليخدع جند علي ويشق صفوفهم، واستفاد من دهاء عمرو بن العاص ومواقف أبي موسى الأشعري في التحكيم او انقلابه على علي**"[7].

كما أن أبا موسى لم يكن غبيا كما يقول الشيعة بل كان عاقلا صحيح التدبير سديد الكيد متفقها في الدين عالما بالقياس والحجج مشهورا بالحلم وكان واليا ناجحا للخلفاء السابقين وقائدا

---

١ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ١٠٢.

٢ - الجوزي، مكانة العقل، ص ٣١٥

٣ - EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JĀHIZ ,p ٨٣

٤- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٥٦

٥- الجاحظ، رسالة التربيع والتدوير، ص ٤٧١

٦- الجاحظ، رسالة في مناقب الترك، ص ٤٧٧. فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٢١

٧ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٥٠.

للفتوح "وكان ما امتحن به عليّ واشتدّت البلوى على أصحابه فيه وعلى أصحاب النبيّ وعلى من معه من أجناده ومن خاصّة أهله، أن صار الحكم الموازي لعمرو بن العاص أبا موسى الأشعري، فكان من خدعه له ومن غدر عمرو به ما قد علمتم"[١].

استخدم الجاحظ المنهج العقلي في معالجة الروايات، يتضح ذلك من خلال رسائله كالنابتة والعثمانية والحكمين، فمثلا يعلن موقفه من الشيعة فينتقدهم، وفي نفس الوقت يؤيد علياً كما في قوله: "قالوا: وكان علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه، يكثر ركوب بغلة عبد الله بن وهب الشهباء، التي غنمها يوم النهروان. هذا من قول الشيعة، وأما غيرهم فينكرون أن يكون علي رضي الله عنه، يرى أن يغنم شيئا من أموال أهل الصلاة، كما لم يغنم في أموال أصحاب الجمل"[٢]. ويجب أن نعلم أن موقف الجاحظ يتخذه من الشيعة التي ادعت بما ليس في علي من شيء[٣]. وكذلك في قوله: "فاعدل الأمور وأنصفها بينكم وبينهم أن تجعلوا الخبر في النصف مما بين إسلامه إلى وفاة النبي - صلى الله عليه "[٤]

رد الجاحظ على شيعة علي التي رأت أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى له بالخلافة من بعده بقوله: "إنك ستقاتل من بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين "[٥] الناكثون حسب ما يرى الشيعة طلحة والزبير وأصحابهما، والقاسطون معاوية وأصحابه، والمارقون عبد الله بن وهب وأصحابه[٦].

وموقف مهم أشار إليه الجاحظ " والناس- حفظك الله وأرشدك- عن تدبير هذا الإمام غافلون، لا الشيعة يعرفونه فيضيفونه إليه ويحتجون به على الخصوم ويوسعون الناس عذرا عند تضايق الأمر عليهم فيه"[٧] وهذا رأي خطير إذا ثبت قلب مقاييس الشيعة رأسا على عقب. فالشيعة ترى أن

---

١ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٥٧.

٢- الجاحظ، البغال، مقدمة التحقيق، ص ١١.

٣ - لقد حاولت أكثر الشخصيات نضجا تجنب إراقة الدماء توصلا لحل سلمي ولكن جهودها ذهبت عبثا واصبح البصريون مرغمين على الانحياز إلى احدى الفرق المواقف الثلاثة التي أملتها الحوادث: الوقوف إلى جانب علي، أو المقاتلة تحت راية عائشة أو التزام حياد الحكم. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٢٥٩.

٤ - الجاحظ، العثمانية، ص ٢٩

٥ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٨٣

٦ - الجاحظ، العثمانية، ص ٢٩

٧ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٧.

علي أولى بالخلافة بسبب القرابة والرواية والقدم والزهد. هذا الرأي قال به الشيعة ورفضه الجاحظ في رسالة استحقاق الإمامة وكتب أخرى[1].

كما إن من معتقداتهم عصمة الأئمة أي أن الإمام لا يخطئ بل كل ما يصدر عنه صواب، ويؤمنون بغيبة الإمام أي أن الإمام لا يموت بل غاب وسيعود يوماً ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن تكون قد مُلِئت ظلماً وجوراً، وهذه هي فكرة المهدي، ويؤمنون أيضا بشفاعة الأئمة أي أن الإمام وسيط بين المؤمن وبين الله، وهذا الإمام يشفع للمؤمن[2].

الجاحظ عندما يريد أن يورد ما يقلل من شأن فرقة ما فإنه لا تعييه الحيلة، فقد أورد رواية عن شيخ أباضي حتى أنه نسي اسمه في سبيل أن يوردها وهذه لم تكن عادة الجاحظ: **"قال الشيخ الإباضي وقد ذهب عني اسمه وكنيته، وجرى يوما شيء من ذكر التشيع والشيعة، فأنكر ذلك واشتد غضبه عليهم، فتوهمت أن ذلك إنما اعتراه للإباضية التي فيه، وقلت: وما علي إن سألته؟ فإنه يقال: إن السائل لا يعدمه أن يسمع في الجواب حجة أو حيلة أو ملحة- فقلت: وما أنكرت من التشيع ومن ذكر الشيعة؟ قال: أنكرت منه مكان الشين التي في أول الكلمة؛ لأني لم أجد الشين في أول كلمة قط إلا وهي مسخوطة مثل: شؤم، وشر، وشيطان، وشغب، وشح، وشمال.. "**[3].

وقد أشار الجاحظ إلى بعض فرق الشيعة. ومنها: الزيدية التي قال عنها:" **اعلم أن الشيعة رجلان: زيدي، ورافضي، وبقيتهم نزر جاء لازماً لهم. وفي الإخبار عنهما غنى عمن سواهما"**[4].

تنسب الزيدية إلى زيد بن علي(زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- ، وهي من الفرق المعتدلة أي من أقرب فرق الشيعة إلى السنة، فقد أجازت واعترفت بخلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان - رضي الله عنهم-، وذلك من باب إن "**إمامة المفضول في وجود الأفضل جائزة**"[5] لأن خلافة ومبايعة الخلفاء الذين سبقوا علي كانت بيعتهم صحيحة مع أنه من الأفضل أن يكون علي هو الخليفة" **وقد يكون الرجل أفضل الناس ويلي عليه من هو دونه في الفضل، حتى يكلفه الله طاعته وتقديمه؛ إما للمصلحة، وإما**

---

١ - في كتابات الجاحظ كثيراً ما يؤكد على هذه النقطة في جل مؤلفاته.

٢- المظفر، محمد رضا. عقائد الإمامية، ط ٨، دار الحوراء، بيروت: ١٩٨٨م، ص١٠٢ (سيشار إليه فيما بعد: المظفر، عقائد الإمامية).

٣ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٣، ص ١٠

٤ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٠٧.

٥- الأمين، عبد الله. دراسات في الفرق والمذاهب القديمة والمعاصرة، دار الحقيقة، بيروت: ١٩٨٦م، ص١٨٤ (سيشار إليه فيما بعد: الأمين، دراسات).

للإشفاق من الفتنة"[1]. وتعد هذه الفرقة من أكثر الفرق التي لفتت انتباه الجاحظ ليس سياسيا وإنما لعقيدتها الفقهية الدينية المعتدلة وارتباطها على الصعيد الكلامي بالمعتزلة[2].

يشير الجاحظ إلى آرائهم السياسية في رسالة استحقاق الإمامة ومن مبادئهم التي أشار الجاحظ إليها" أولها القدم في الإسلام. ثم الزهد في الدنيا. ثم الفقه الذي به يعرف الناس مصالح دنياهم، ومراشد دينهم. ثم المشي بالسيف كفاحاً بالذب عن الإسلام، وتأسيس الدين، وقتل عدوه، وإحياء وليه"[3].

كما يعرض حجج الزيدية، وأسباب اعترافها بحكم أبي بكر وعمر- رضي الله عنهم - ، حيث ترى أنه في حال وقوع الشقاق والخلاف بين الناس فإنه لا ضرر من مبايعة من بيده تستقيم الأمور وتصلح. "وإنما أحكي لك من كل نحلة قول حذاقهم وذوي أحلامهم، لأن فيه دلالة على غيره، وغنىً عما سواه. وقالوا: وقد يكون الرجل أفضل الناس ويلي عليه من هو دونه في الفضل، حتى يكلفه الله طاعته وتقديمه؛ إما للمصلحة، وإما للإشفاق من الفتنة، كما ذكرنا وفسرنا، وإما للتغليظ في المحنة وتشديد البلوى والكلفة، كما قال تعالى للملائكة: " اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى"[4]. والملائكة أفضل من آدم، فقد كلفهم الله أغلظ المحن وأشد البلوى، إذ ليس في الخضوع أشد من السجود على الساجد له"[5]. فهم لا يبنون الإمامة على القرابة والحسب كما هو حال باقي فرق الشيعة وإنما على الفضل والتقدم. ومن ثم يتبدى حرص الجاحظ على مناقشة الشيعة في آرائهم مستخدماً معهم الحجة والإقناع والمنطق[6].

ومن الفرق أيضا الرافضة التي انبثقت بعد أن ترحّم زيد بن علي على الخليفتين أبي بكر وعمر- رضي الله عنهم- ، ولم يبرأ منهم[7]، مما أدى بجماعة من أتباعه إلى رفضه فسموا

---

١ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢١٤.

٢ - عندما اعتزل واصل عن أستاذه بالقول بالمنزلة بين المنزلتين. فسمي هو وأصحابه معتزلة. وقد تتلمذ على يديه زيد بن علي وأخذ الأصول فلذلك صارت الزيدية كلهم معتزلة. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص٢٩. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٩٠.

٣ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٠٤.

٤ - البقرة، الآية ٣٩.

٥ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٣١٧.

٦ - EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JÄHIZ,p ٨٧

٧ - عندما أراد زيد بن علي الخروج لمواجهة الأمويين في الكوفة اجتمعت إليه جماعة من رؤوسهم فسألوه قوله في أبي بكر وعمر، قال: زيد رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت أحدا من أهل بيتي يتبرأ منهما ولا يقول فيهما إلا خيرا، قالوا: فلم تطلب إذا بدم أهل هذا البيت إلا أن وثبا على سلطانكم فنزعاه من أيديكم، فقال لهم زيد إن أشد ما أقول فيما ذكرتم أنا كنا أحق بسلطان رسول الله صلى الله عليه و سلم من الناس أجمعين وإن القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا وقد ولوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة، فقالوا جعفر إمامنا اليوم بعد أبيه وهو أحق بالأمر بعد أبيه ولا نتبع زيد بن علي فليس بإمام، فسماهم زيد الرافضة. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٢٠٤.

رافضة وهم الذين رفضوا بيعته، أما من بايعه فسموا الزيدية[1]. بمرور الزمن أصبح هناك خلط بين الفرق حتى أن فرقة الاثني عشرية أحيانا تدرج ضمن الرافضة وهذا خطأ بسبب اختلاف المبادئ والمعتقد بينهم. وأتباع هذا المذهب يرون أن الإمامة لا تخرج من نسل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وهذا ما أوضحه الجاحظ بقوله **:" من يجعل القرابة سبباً من أسبابها وعللها، لأني قد حكيته في كتاب الرافضة"**[2].

وأشار الجاحظ إلى أن أتباع هذه الفرقة بعد أن افترقوا عن الزيدية غالوا في مبادئهم حتى أنهم لا يتوانوا عن قتل حتى إمامهم" **وحتى لو كنت إمام الرافضة لقتلت في طرفة"**[3]. ويرى الجاحظ أن فرقة الرافضة قد غالت في مبادئها، أكثر من غلو اليهود والنصارى " **فلو كانت دون هذه المنزلة منزلة لما انتهت اليهود دون بلوغها، ولو كانت فوق ما قالت النصارى منزلة لما انتهت دون غايتها. وبذلك السبب صارت الرافضة أشد صبابة وتحرقاً، وأفرط غضباً، وأدوم حقداً"**[4].

كما أن الرافضة ادعت بأنها أعلم بحال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) سواء مولده أم وفاته، بل هم أعلم به حتى من أولاده بعد أن ظهر الخلاف على تاريخ وفاته " **وقالت علماء الرافضة: نحن أعلم به من ولده إلا الأئمة منهم. ولم يقل هذا القول إمام منهم قط، ولكن علي استشهد وهو ابن ثمان وخمسين سنة "**[5].

ويعارض الجاحظ حجج الرافضة في أن الإمامة محصورة في علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وولده من بعده معللاً ذلك بقوله **"فإن زعمت الرافضة ان الله أنزل في علي آيا كثيرا، فكان مما أنزل فيه وفي ولده قوله: {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}**[6]**. فأولي الأمر علي وولده. فلعمري لئن كان أصحاب الأخبار قد أطبقوا على أنها نزلت في علي وولده إن طاعتهم لواجبة، وإن كان هذا شيئا تقوله متقول، أو جاء من وجه ضعيف، فهو مع ضعفه شاذ. وليس في ذلك لكم حجة، لأن الحديث قد يحتمله الرجل الواحد الثقة عن مثله، فيكون شاذا، ما لم يكن مستفيضا شائعا قد نقل عن**

---

١ ـ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٢٩. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٤، ص ٨٢ وما يليها.

٢ ـ انظر: الجاحظ، رسالة في الجد والهزل "مقالة الجاحظ في الزيدية والرافضة". ص ٣٠٩ وما يليها "مقالة الجاحظ في الزيدية والرافضة".

٣ ـ الجاحظ، رسالة في التربيع والتدوير، ص ٤٧١

٤ ـ الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٥٤.

٥ ـ الجاحظ، العثمانية، ص ٤٢.

٦ ـ سورة النساء، الآية ٥٩.

المستفيض الشائع. وقد يكون الحديث يحتمله الرجلان والثلاثة وهم ضعفاء عند أهل الأثر فيكون الحديث ضعيفا لضعف ناقليه"[1]

كما يرفض الجاحظ تأويل الرافضة في القصة التي اختلقوها " تزعم الرافضة أن سائلا دخل المسجد فسأل الناس وعلي زاكع، فلم يعط شيئا، فنزع علي خاتمه فأعطاه، فأنزل الله فيه: {إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون}[2]. وأنت إذا سمعت بتأويل ابن عباس وتأويلهم علمت أن تأويلهم بعيد من لفظ التنزيل[3]، قرب تأويل ابن عباس منه ولو كان الأمر كما قالوا ما كان أحد أعلم به من ابن عباس ولا أشعر به منه"[4].

وخلاصة رأي الجاحظ بالرافضة، أنه يكفرهم صراحة " وقول الرافضة تشبيه مصرح، وكفر مجلح"[5] كما أنه وضعهم في منزلة مع اليهود "وكفى بالتشبيه قبحاً، وهو قول يعم اليهود وإخوانهم من الرافضة"[6].

رابعاً: الخوارج

فرقة سياسية إسلامية، ظهرت في عهد علي بن ابى طالب (رضي الله عنه) وبالتحديد أثناء موقعة صفين[7]، يعرف الخارجي بأنه الشخص الذي يخرج على الإمام المتفق على إمامته

---

١ ـ الجاحظ، العثمانية، ص ١١٥.

٢ ـ سورة المائدة، الآية ٥٥.

٣ ـ إن تفسير الآية الكريمة من خلال القرطبي توضح أنها عامة في كل من يجاهد الكفار إلى قيام الساعة. وقد سئل أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم عن معنى" إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا" هل هو علي بن أبي طالب؟ فقال: علي من المؤمنين، يذهب إلى أن هذا لجميع المؤمنين. أما تفسيرها من خلال الجاحظ فذكر أن النبي ـ صلى الله عليه تلا { ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون } فإن تكن هذه الآية كما قال ابن عباس ومجاهد، فليس لعلي فيها ذكر. وإن يكن الأمر ليس على ما قال ابن عباس فليس تأويل الرافضة بأقرب التأويل. القرطبي، تفسير القرطبي، جـ ٦، ص ٢٢١. الجاحظ، العثمانية، ص ١١٨.

٤ ـ الجاحظ، العثمانية، ص ١١٩.

٥ ـ الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٩٦.

٦ ـ المصدر نفسه، ص ٣٥١.

٧ ـ الطبري، تاريخ، ص ١٠٩-١١٣. البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٧، ٦٠. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ١، ص١١٤-١٢١،

ذهب بلا ان الخوارج أعلنوا التمرد عندما أفلت النصر من أيديهم وهذا غير صحيح تماما بدليل أن الانشقاق لم يحدث إلا بعد حادثة رفع المصاحف، كما أشار لهم أنهم طامعون غايتهم تفريق كلمة المسلمين وهذا لا يتفق وما قاموا به من اعتزال جيش علي بن أبي طالب. الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٩١.

الشرعية خروجاً في أي زمن كان[1] "**كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أم كان بعدهم على التابعين لهم بإحسان والأئمة في كل زمان**"[2]. قال الأشعري: " **والسبب الذي سُموا له خوارج؛ خروجهم على علي بن أبي طالب**"[3]. كما زاد ابن حزم بأن اسم الخارجي يلحق كل من أشبه الخارجين على الإمام علي أو شاركهم في آرائهم في أي زمن. وهو يتفق مع تعريف الشهرستاني[4].

كان سبب خلاف الخوارج مع علي - رضي الله عنه - أن بيعته كانت صحيحة من وجهة نظرهم، باتفاق الأمة، فما كان له أن يلجأ إلى التحكيم بينه وبين معاوية[5]. وهذه المسألة وقف عندها الجاحظ في تفسيره خروج الخوارج على علي "**وقد اتهمه خصومه بأنه ترك القتال إما جبنا وإما طمعا في توبة معاوية وعمرو وإما ندما على ما أراق من دماء. وكل هذا من سوء التدبير والعجز**"[6] ورأوا أنه كان عليه أن يقاتل معاوية قتال المؤمن بحقه، وعابوا عليه أنه احتكم إلى الرجال، ولم يحتكم إلى القرآن الكريم، وزعموا أنه أثار بذلك فتنة بين المسلمين[7]. وقد انبثقت عن الخوارج فرق مختلفة هذه الفرق على مر الزمن بلغت اثنتين وعشرين فرقة، منها: الأزارقة[8]، والنجدات[9].

وقد أعلن الخوارج الثورة على علي ومعاوية وقاموا بثورات كثيرة، وتصاعدت هذه الثورات منذ حربهم ضد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) سنة(٣٨ هـ / ٦٥٨ م)

---

١ - ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٣٠٨

٢ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١١٤

٣ - الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، جـ ١، ص ٢٠٧. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١٣٢. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي(ت: ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م). فتح الباري بشرح صحيح البخاري، شرح عبد العزيز بن عبدالله، دار المعرفة، بيروت: ١٩٦٠م، ص٤٥٩ (سيشار إليه فيما بعد: ابن حجر، فتح الباري).

٤ - ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري(ت: ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م). الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، القاهرة: ٢٠١٠م، جـ ٢، ص ١١٣(سيشار إليه فيما بعد: ابن حزم، الفصل في الملل).

٥ - مقدمة تحقيق رسالة الحكمين، ص ٢٩

٦ - المصدر نفسه، ص ٣١

٧ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١١٨.

٨ - نسبة إلى رئيسهم نافع بن الأزرق الحنفي، كان نافع بن الأزرق من بني حنيفة، ويقال: إنه كان مقيما معهم فنسب إليهم. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص ١٤٣.

٩ - نسبة إلى نجدة بن عامر بن عبد الله بن سيار كان نجدة مع نافع بن الأزرق ففارقه مع قوم لتبرئه من القعد، وصار نجدة إلى اليمامة فنزل بإباض فبايعه خمسون على أنهم إن وجدوا من هو خير لهم منه بايعوه وبايعه معهم. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص ١٧٣.

بالنهروان، حتى تحولت إلى تحرك مسلح ضد بنى أمية. لجأ الخوارج إلى القوة واستخدام السيف في فرض أفكارهم وآرائهم على الناس، وأظهروا في صراعهم ضد الدولة الأموية كثيرًا من ضروب الشجاعة والتضحية والإقدام وكانت الأعداد القليلة منهم تهزم جيوشًا جرارة للدولة، أشار الجاحظ إلى ذلك بقوله: "خرج رسول المامون فقال لهم: نقول لكم متفرقين ومجتمعين: ليكتب كل رجل منكم دعواه وحجته، وليقل أيما أحب إلى كل قائد منكم إذا كان في عدته من صحبه وثقاته: أن يلقى مائة تركي أو مائة خارجي؟ فقال القوم جميعا: لأن نلقى مائة تركي أحب إلينا من أن نلقى مائة خارجي"[1]. كما يضيف "والقوة على كثرة الركض حتى يجاوز في ذلك رجال الأتراك وفرسان الخوارج"[2].

وأوضح الجاحظ سبب موقف الخوارج من علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يتمثل في غفلتهم وعدم فهمهم للإمام وطريقة تفكيره "الخوارج الذين هم عليه ينقمون والمكفرون له من هذه المارقة يعرفون ذلك التدبير، وهم كانوا من خاصة جنده من المحققين وأصحاب البرانس وأصحاب السما دون غيرهم، فيرتدعون عن أكفاره وشتمه وخلعه؛ وقد كان ينبغي لمن خالف عليا مرة- حفظك الله- وهو مستبصر في نفسه ثم تبين أن الحق معه، أن يرتدع عن الاستبصار في أمر آخر فلا يدري لعل السبيل فيه كالسبيل فيما قبله"[3].

كما أشار الجاحظ إلى ضلال الخوارج في قضية التحكيم فقد أخطأ الخوارج في موقفهم من علي، فلم يفهموا تدبيره مرتين: عند ما دعاهم إلى مواصلة القتال فأبوا، وعندما دعاهم إلى استئناف القتال فأبوا " فلو قال لهم بعض نصحائهم: قد علمتم ما كان منا يوم رفع المصاحف من إضلال وجه الرأي ومن خديعة معاوية إيانا ومن إصابة علي وجه الرأي وتنبيهه لنا، فلعل الذي أعطى من نفسه في الحكمين من شكل ذلك التدبير؛ بل قد رأيتم وسمعتم ما كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قضية الحديبية حين ألغى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب اسم النبوة"[4].

أما عن شدة قتال الخوارج وصبرهم على ذلك، فأشار الجاحظ إلى حادثة تولية أسلم بن زرعة[5] على دستبي[1] "وولي دستبى فخرج إليها في أصحابه، فلما شارفها عرضت له الخوارج، وكان

---

١ - الجاحظ، رسالة في مناقب الترك، ص٤٩٣.

٢ - الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ٩٠.

٣ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٧

٤ - المصدر نفسه، ص ٣٧٧

٥ - اسلم بن زرعة الكلابي العامري والي خراسان وكان قبلها على خراج خراسان في ولاية سعيد بن عثمان بن عفان، وشى أسلم لمعاوية بن أبي سفيان على سعيد بن عثمان بأنه يحمل المال وخراج خراسان إلى زياد بن أبيه والي العراق وليس إلى معاوية في الشام، مما أدى إلى عزل سعيد بن عثمان وتولي أسلم بن زرعة ولاية خراسان في عام ٤٣هـ / ٦٦٣م. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ٦١٦. اليعقوبي، البلدان، ص ١٢٩.

أكثر منهم عددا وعدة، فقال: والله لأصافنهم، ولآعيين أصحابي فلعلهم إذا رأوا كثرتهم انصرفوا، ولا أزال بذلك قويا في عملي هذا. فلما رأت الخوارج كثرة القوم نزلوا عن خيولهم فعرقبوها وقطعوا أجفان سيوفهم، ونبذوا كل دقيق كان معهم، وصبوا أسقيتهم. فلما رأى ذلك رأى الموت الأحمر. فأقبل عليهم فقال: عرقبتم دوابكم وقطعتم أجفان سيوفكم، ونبذتم دقيقكم؟ خار الله لنا ولكم، ثم ضرب وجوه أصحابه وانصرف عنهم"[٢].

ولو أن شجاعتهم وبطولاتهم اتجهت في مجال الفتوحات الإسلامية، لكان ذلك أجدى وأنفع.

حاول الجاحظ أن يستخرج قانونا يحكم العلاقة بين التدين والبسالة ويطبقه على الخوارج الذين اشتهروا ببسالتهم في القتال فيقول إن سبب ذلك هو عقيدتهم الدينية التي تدعو إلى الجهاد وبذل الروح للتخلص من الحاكم الظالم. "وقد علم أن سبب استفاضة النجدة في جميع أصناف الخوارج وتقدمهم في ذلك، إنما هو بسبب الديانة، لأنا نجد عبيدهم ومواليهم ونساءهم، يقاتلون مثل قتالهم، .... كلهم في القتال والنجدة، وثبات العزيمة، والشدة في البأس سواء. فاستوت حالاتهم في النجدة"[٣].

وأشار الجاحظ إلى أن الإنسان مهما بلغت همته من علو، فإنها لا تصل إلى مستوى طلب الخلافة، سواء كان بالنسب أو بالدين، لكن حسب ما يرى الجاحظ فإن الخوارج وصلت همتهم إلى طلب الخلافة بسبب الدين وإن تقاصر عنهم النسب " وليس إلى الناس بعد الهمم وقصرها، وإنما تجري الهمم بأهلها إلى الغايات، على قدر ما يعرض لهم من الأسباب. الا ترى أن أبعد الناس همة في نفسه، وأشدهم تلفتا إلى المراتب، لا تنازعه نفسه إلى طلب الخلافة، لأن ذلك يحتاج إلى نسب، أو إلى أمر قد وطئ له بسبب، كسبب طلب أوائل الخوارج الخلافة بالدين وحده دون النسب. فإن صار من الخوارج فقد حدث له سبب إمكان الطلب، أكدى أم نجح"[٤]. حيث يشير الجاحظ إلى أساس اختيار الإمام عند الخوارج وهو الرسوخ في الدين وحده دون النسب والقرابة.

اشتهر عن الخوارج ثباتهم على الكلمة مهما عظم الأمر عليهم، لا يأخذهم في ذلك خوف أو جزع "وقدموا رجلا من الخوارج إلى عبد الملك بن مروان لتضرب عنقه، ودخل على عبد الملك ابن له صغير قد ضربه المعلم، وهو يبكي، فهم عبد الملك بالمعلم، فقال له الخارجي: دعوه يبكي فإنه أفتح لجرمه، وأصح لبصره، وأذهب لصوته. قال له عبد الملك: أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا؟ قال الخارجي: ما ينبغي لمسلم أن يشغله عن قول الحق شيء! فامر بتخلية سبيله"[٥]. وسبب هذه الإشادة أن المعتزلة

---

١ - دستبى: كورة كبيرة كانت مقسومة بين الري وهمذان فقسم منها يسمى دستبى الرازي وهو يقارب التسعين قرية وقسم منها يسمى دستبى همذان وهو عدة قرى. الحموي، معجم البلدان، جـ ٢، ص٤٥٤.

٢ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٥، ص ١٠٤

٣ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٣٢٨

٤ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٢، ص ٣٠٥

٥ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢١٧

والجاحظ منهم يوجبون الخروج على أئمة الجور، بل ويرون نصرة الخارجين عليهم ولذلك فهم يرون نصرة الخوارج على معاوية، لأنهم كانوا .ملتزمين بالدين بينما لم يظهر على معاوية مثل ذلك[1].

ترأس عبدالله بن وهب الراسبي[2] الخوارج " وأرادوا عبد الله بن وهب الراسبي على الكلام **يوم عقدت له الخوارج الرياسة فقال: وما أنا والرأي الفطير، والكلام القضيب، ولما فرغوا من البيعة له قال: دعوا الرأي يغب[3]، فإن غبوبه يكشف لكم عن محضه"[4]**. وكان من شدة ابن وهب الراسبي أن رجلاه قطعتا فظل يقاتل وهو يقول: **" الفحل يحمي شوله معقولا"[5]**.

استأنف الخوارج نشاطهم على نحو أعنف بعد وفاة معاوية سنة ٦٠هـ/٦٧٩م، فأرسل إليهم يزيد بن معاوية حملة بقيادة عبيد الله بن زياد، فتصدى لهم بقوة، ثم ازدادت ثوراتهم بعد وفاة يزيد سنة ٦٤هـ /٦٨٣، مستغلين في ذلك حالة الفوضى التي سادت العراق، ولما استقامت الأمور للأمويين كلف عبد الملك بن مروان المهلب بن أبي صفرة[6] عن طريق وإليه على العراق الحجاج بمواجهة الخوارج، فاستطاع أن يكسر شوكتهم، ويخمد أنفاسهم، وقد أشار الجاحظ في حديثه عن الخوارج والحجاج بقوله: **"وكتب الحجاج إلى المهلب يعجله في حرب الأزارقة"[7]**، فاستكانوا فترة طويلة تزيد على العشرين عامًا (٧٨-١٠٠هـ / ٦٩٧-٧١٨م)، لم تقم لهم ثورة خلالها، ثم عاودوا نشاطهم في عهد عمر بن عبدالعزيز، فاستعمل معهم أسلوب

---

١ - عمارة، محمد. المعتزلة والثورة، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت: ١٩٧٧م، ص٣٧ (سيشار إليه فيما بعد: عمارة، المعتزلة).

٢ - عبد الله بن وهب الراسبي ويلقب بذو الثفنات. اجتمع إليه الخوارج بعد رفضهم التحكيم، إذ خرجوا إلى قرية حروراء وبها سموا، ثم انضم إلى أصحابه عند النهروان. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص٢٦٠-٢٨١. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٠٢-٢٠٥. اليعقوبي، تاريخ، ص١٨٣. الحموي، معجم الأدباء، جـ٤، ص ٤٦٣.

٣ - يريد الأناة في الرأي والتثبت فيه. ابن عبد ربه، العقد الفريد. جـ ١، ص ٦٠.

٤ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٧٩

٥ - المثل لم يعرف قائله. ومن المحتمل أن يكون نثرا. والشول: الإبل شالت ألبانها، أي ارتفعت وأتى عليها من نتاجها سبعة أشهر أو ثمانية. والمعقول: المشدود بالعقال. يضرب في احتمال الحر للعظائم وحمايته لحوزته وإن كان مضطهدا. الجاحظ، الحيوان، جـ ٢، ص ٢٤٩. العسكري، الأوائل، ص ٩١. الميداني، أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم(ت: ٥١٨ هـ / ١١٢٤م). مجمع الأمثال، تحقيق قصي حسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت: ٢٠٠٣م، جـ ٢، ص١٦(سيشار إليه فيما بعد: الميداني، مجمع الأمثال).

٦ - حين هزم المهلب الخوارج أرسل مبشرا إلى الحجاج يخبره عن نصرة الجيش على الخوارج، وأخبره عن بني المهلب فقال: المغيرة فارسهم وسيدهم، وجوادهم وسخيهم: قبيصة. فأخذ يعدد صفات كل واحد منهم، فقال له الحجاج: فأيهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها. ابن السائب الكلبي، جمهرة النسب، ص ٣٦٨. الدينوري، الأخبار الطوال، ٢٧١-٢٧٤. ابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص٢١٨.

٧ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢١٢

الحوار، فاستجابوا له لما أقنعهم بخطأ أفكارهم المتطرفة، ووعدوه بالهدوء، لكنهم هبوا من جديد بعد وفاته سنة ١٠١هـ / ٧١٩م، ولم تهدأ ثوراتهم التي استمرت حتى آخر أيام الدولة الأموية[١]. وبلغت حركة الخوارج أقصى درجات العنف في عهد مروان بن محمد آخر خليفة أموي(١٢٧ - ١٣٢هـ/ ٧٤٤- ٧٤٩م) حيث قامت ثورة شيبان بن عبد العزيز اليشكري[٢].

يشير الجاحظ إلى نشاط الخوارج زمن الحجاج من خلال ذكر شخصيات كان لها موقف أو موقعة معه، من ذلك ما ذكره بقوله: " **ومن بني صريم: الصدي بن الخلق، وفد به الحجاج على الوليد بن عبد الملك، فقال له: ممن أنت؟ قال: من بني صريم. قال له: ما اسمك؟ قال: الصدي بن الخلق. قال: دعا في عنقه! خارجي خبيث! هذا يدل على أن عامة بن صريم كانوا خوارج، وكان منهم البرك الصريمي، واسمه الحجاج، وهو الذي ضرب معاوية بالسيف**"[٣].

لقد عانى أهل العراق من ضربات الأمويين المتتالية، وخاصة تلك التي كان سببها الخوارج. وفي الرواية التالية يوضح الجاحظ ذلك الموقف: "**خرج الحجاج يريد العراق واليا عليها، في أثني عشر راكباً على النجائب، حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار، وقد كان بشر بن مروان بعث المهلب إلى الحرورية، فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله، ثم صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء، فقال: علي بالناس فحسبوه وأصحابه خوارج، فهموا به**"[٤] وهذه الحادثة تدل على موقف أهل العراق من الخوارج، حيث أن النكبات التي أصابت الخوارج منذ الخلاف بين علي ومعاوية جعل العراق مسرحاً لها. مما حدا بأهل العراق إلى هذا الموقف تجاههم.

وأوضح الجاحظ في كتاباته بعضا من الصفات التي أعطت موقفهم صلابة رغم قلة عددهم، والتي من أهمها: الإقدام والاندفاع للقتال، وهو ما عبر عنه بالدفعة التي يبلغوا بها ما أرادوا، وينالون الذي أملوا. والصفة الثانية: الصبر على الخبب[٥] وعلى طول السرى[٦]، حتى يصبح القوم الذين مرقوا بهم غارين فيهجموا عليهم وهم بسوء، ولحم على وضم، يتعجلونهم عن الروية، وعن رد النفس عن النزوة والجولة؛ لا يظنون أن أحدا يقطع في ذلك المقدار من

---

١ - البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٨، ص ٢٠٩

٢ - شيبان بن عبد العزيز اليشكري(ت: ١٣٤هـ/٧٥١م) من أمراء(الحرورية) وقادتهم، تولى إمارتهم سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٥م، فقاتل مروان بن محمد ومعه أربعون ألفا. ثم انصرف إلى الموصل، وانضم إليه أهلها. وتبعه مروان، فتراجع الحرورية إلى البصرة بعد معارك. ثم خرج إلى عمان فقتل هناك. الطبري، تاريخ، جـ ٩، ص١٠٢. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٢٠٨-٢١٠. المقريزي، المواعظ، جـ ١، ص ٣٥٥.

٣ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ١٤٤

٤ - المصدر نفسه، جـ ١، ص ٢١٠

٥ - الخبب: العدو. لسان العرب، جـ ١، ص٣٤١،

٦ - السرى: السير ليلا، لسان العرب، جـ ٤، ص ٣٨٩.

الزمان ذلك المقدار من البلاد. والصفة الثالثة: أن الخارجي موصوف عند الناس بأنه إن طلب أدرك، وإن طُلب فات[1]. ودليل ذلك الرواية التي ذكرها الجاحظ :

إن الحرورية الحرى إذا ركبوا ... لا يستطيع لها أمثالك الطلبا

إن يركبوا فرسا لا تركبي فرسا ... ولا تطيقي مع الرجالة الخببا[2]

والصفة الرابعة: خفة أحمالهم، فهم قوم حين خرجوا لم يخلفوا الأموال الكثيرة، والجنان الملتفة، والدور المشيدة، ولا ضياعا ولا مستغلات، ولا جواري مطهمات، وأنهم لا سلب لهم ولا مال معهم فيرغب الجند في لقائهم، وإنما هم كالطير لا تدخر ولا تهتم لغد، ولها في كل أرض من المياه والأقوات ما تتبلغ به، وإن لم تجد ذلك في بعض البلاد فأجنحتها تقرب لها البعيد، وتسهل لها الحزون[3].

والصفة الخامسة: أنه وعلى الرغم من قلة عددهم إلا أن الخارجي قادر على أن يقاتل بحرية أكثر، فهم لم يكونوا يعرفون لا بشارات ولا بلباس، فأعطاهم ذلك سرعة الحركة والهجوم والاختفاء. أن الملوك إن أرسلوا إليهم أعدادهم ليكونوا في خفة أوزارهم وأثقالهم، وليقووا على التنقل كقوتهم، لم يقووا عليهم؛ لأن مائة من الجند لا يقومون لمائة من الخوارج؛ وإن كثفوا الجيش بالجيش، وضاعفوا العدد بالعدد ثقلوا عن طلبهم، وعن الفوت إن طلبهم عدوهم[4]. **"متى شاء الخارجي أن يقرب منهم ليتطرفهم أو ليصيب الغرة منهم، أو ليسلبهم، فعل ذلك ثقة بأنه يغنم عند الفرصة ورؤية العورة، ويمكنه الهرب عند الخوف. وإن شاء كبسهم ليقطع نظامهم، أو ليقتطع القطعة منهم. فهذه هي مفاخرهم وخصالهم، التي لها كره القواد لقاءهم"**[5].

وخصلة سادسة تمثلت بالرعب الذي دب بقلوب أعدائهم حتى ضربت الأمثال بقوتهم، كقول الشاعر:

إذا ما البخيل والمحاذر للقرى ... رأى الضيف مثل الأزرقي المجفف[6]

---

١ - الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص٤٩٤

٢ - الجاحظ، البرصان والعرجان، ص ٢٧١

٣ - الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص٤٩٤

٤ - المصدر نفسه، ص٤٩٤

٥ - المصدر نفسه، ص٤٩٤

٦ - المصدر نفسه، ص٤٩٤

ذكر الجاحظ من رؤسائهم عمران بن حطان "ومن خطباء الخوارج وعلمائهم ورؤسائهم عمران بن حطان"[1]. ومن علمائهم وشعرائهم وخطبائهم" حبيب بن خدرة الهلالي، وعداده في بني شيبان"[2].

وأشار الجاحظ في مصنفاته إلى عدد من خطباء الخوارج، منهم قطري بن الفجاءة . فقد أوضح الجاحظ أنه خرج زمن مصعب بن الزبير وظل عشرين سنة يناوئ الدولة الأموية[3]، وله خطبة طويلة مشهورة، وكلام كثير محفوظ، وكانت له كنيتان: كنية في السلم، وهي أبو محمد، وكنية في الحرب، وهي أبو نعامة. ومن مطلع خطبته " أما بعد فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة، حفت بالشهوات، وراقت بالقليل، وتحببت بالعاجلة وحليت بالآمال"[4] .

ومن خطباء الخوارج أيضا القاسم بن عبد الرحمن بن صديقة[5]، وكان صفريا، وكان خطيبا ناسبا، ويشوب ذلك ببعض الظرف والهزل[6]. ومن خطبائهم: شبيل بن عزرة الضبعي[7]، صاحب الغريب. وكان راوية خطيبا، وشاعرا ناسبا، وكان سبعين سنة رافضيا ثم انتقل خارجيا صفريا. والضحاك بن قيس الشيباني[8]، ويكنى أبا سعيد، وهو الذي ملك العراق، وسار في خمسين ألفا، وبايعه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وسليمان بن هشام، وصليا خلفه[9]، وقال شاعرهم:

الم تر أن الله اظهر دينه ... وصلت قريش خلف بكر بن وائل[10]

ومنهم ابن عطاء الليثي الذي كان يسامر الرشيد، وكان صاحب أخبار وأسمار وعلم بالأنساب، ومنهم عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن كريز، راوية ناسبا، وعالما بالعربية فصيحا[1].

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٨٠

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٨٠

٣ - المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٨٦.

٤ - المصدر نفسه، جـ ١، ص ٢٧٧.

٥ - من بني ضبة وكان عالما بالقضاء. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ١١، ص ٣٨٥.

٦ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٧٧.

٧ - المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

٨ - المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

٩ - المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

١٠ - المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

خامساً: المعتزلة

فرقة كلامية يسمون أهل العدل والتوحيد[٢] يخالفون أهل السنة في بعض المعتقدات، على رأسهم واصل بن عطاء[٣] الذي اعتزل بأصحابه حلقة الحسن البصري والواحد يسمى معتزلي[٤]. ظهرت المعتزلة في أواخر العصر الأموي. ويرى المسعودي أن الخليفة يزيد بن الوليد كان يذهب إلى قول المعتزلة في الأصول الخمسة[٥].

اختلف المؤرخون في بواعث ظهور مذهب المعتزلة، واتجهت رؤيتهم إلى العامل الديني حيث إن الاعتزال حدث بعد اختلاف في بعض الأحكام كالحكم على مرتكب الكبيرة[٦]. بعد اعتزال واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري في الحكم على مرتكب الكبيرة، وكان الحكم أنه ليس بكافر[٧]. وتقول الرواية أن واصل بن عطاء لم ترقه هذه العبارة وقال هو في(منزلة بين منزلتين)، أي لا مؤمن ولا كافر .وبسبب هذه الإجابة اعتزل مجلس الحسن البصري وكون لنفسه حلقة دراسية وفق ما يفهم ويقال حين ذاك أن الحسن البصري أطلق عبارة اعْتزِلنا واصل[٨].

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٧٨

٢ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٢، ص٤٣

٣ - كان لواصل بن عطاء الكثير من الكتب والمؤلفات التي ضاع أكثرها ولم تصل إلا في سطور الكتب القديمة ومن هذه المؤلفات كتاب المرجئة، وكتاب المنزلة بين المنزلتين، وكتاب معاني القران، وكتاب الخطب في التوحيد والعزل. الأشعري، مقالات الإسلاميين، جـ ١، ص ٤٨

٤ - لسان العرب، جـ ١١، ص ٤٤٠.

٥ - المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص ٤٤٤-٤٤٦. ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، تحقيق الدكتور علي سامي النشار وعصام الدين محمد علي، دار المطبوعات الجامعية ، القاهرة: ١٩٧٢م، ص١٢٠. EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JÄHIZ ,p٨٩.

٦ - ذكر الإمام البغدادي أن واصلاً كان من تلاميذ الحسن البصري وكان الناس يومئذ مختلفين في أصحاب الذنوب من أمة الإسلام على فرق، فرقة تزعم أنه كافر، وأخرى يرجئون أصحاب الكبائر لاعتقادهم أنه لا يضر مع الإيمان ذنب. عبد الحميد، عرفان. دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية. بغداد: ١٩٧٧م، ص٢٣ (سيشار إليه فيما بعد: عرفان، دراسات).

٧ - الحموي، ثمرات الأوراق، ص٤

٨ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٨

وقيل إنهم سموا معتزلة؛ لأنهم كانوا رجالاً أتقياء متقشفين معرضين عن ملاذ الحياة الدنيا، وكلمة معتزلة تدل على أن المتصفين بها زاهدون في الدنيا. وقيل إنهم سموا بذلك؛ لاعتزالهم السياسة وانصرافهم إلى دراسة العقائد. انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٥٤. الهمذاني، القاضي عبد الجبار. شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار. تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة: ١٩٦٥م، ص٧٧٢-٧٧٣ (سيشار إليه فيما بعد: الهمذاني، شرح الأصول الخمسة).

كانت هناك ظروف سياسة وراء ظهور حركة الاعتزال في هذه المرحلة التاريخية والمتمثلة بالفتوحات الإسلامية على الجبهة الشرقي خاصة، ودخول أمم عديدة وشعوب كثيرة في الإسلام أدخلت معها ثقافات مختلفة، ولم يعد المنهج التقليدي يفي حاجات المسلمين العقلية في جدالهم، فرأت السلطة العباسية في منهج المعتزلة العقلي أفضل منهج لمواجهة الخصوم السياسيين والانفتاح على الثقافات الأخرى وخاصة اليونانية[١].

واستمر مذهب الاعتزال ينمو إلى أيام الرشيد حتى أصبح المذهب الرسمي في خلافة المأمون[٢]. فقد عرف عن المأمون تقريبه لأئمة المعتزلة وتودده إليهم وإكرامه لهم فتأثر بهم وبمذهبهم[٣]. حتى أن الدولة كانت تدفع للجاحظ راتبا أيام عز المعتزلة وسيطرتهم على زمام السلطة، فلما دالت دولتهم منذ عهد المتوكل قطعت عنه[٤]. ويضحى الجاحظ واحدا من المعتزلة كأستاذه النظام أحد أئمة المفكرين، وشيخا للمعتزلة في ذاك العصر. كانت مدة ازدهار الاعتزال قصيرة ولمّا لم يعد مذهب الخلفاء والأمراء الرسمي وفقد الحماية الرسمية خسر مكانته بسرعة كما تعرض أصحابه للمضايقات[٥]، وأغلب تراث المعتزلة تم تدميره[٦].

بدأت المعتزلة بفكرة أو بعقيدة واحدة، ثم تطور خلافها فيما بعد، ولم يقف عند حدود تلك المسألة، بل تجاوزها ليشكل منظومة من العقائد والأفكار، والتي في مقدمتها الأصول الخمسة الشهيرة التي لا يعد معتزلياً من لم يقل بها[٧]، ونبتدئ بذكر الأصول الخمسة: التوحيد : ويعنون به إثبات وحدانية الله ونفي المثل عنه، وقالوا أن صفاته هي عين ذاته فهو عالم بذاته قادر بذاته لا بصفات زائدة عن الذات، وقد درج مخالفوهم من المغرضين على تفسير ذلك بأنهم ينفون الصفات عن الله[٨].

---

١ - ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، تحقيق الدكتور علي سامي النشار وعصام الدين محمد علي، ص ٤.

٢ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. الحموي، ثمرات الأوراق، ص ٤. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩١. نوري، الجاحظ، ص ٣.

٣ - الحموي، ثمرات الأوراق، ص ٤. الزويري، الإمامة، ص ٢٩. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١

٤ - جبر، الجاحظ ، ص ٢٢. EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JÄHIZ ,p ٣٤٤

٥ - الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٤٠٦.

٦ - للتفصيل حول موقف الخلفاء العباسيين من مذهب المعتزلة يمكن الرجوع إلى الفصل الأول تحت عنوان ميول الجاحظ السياسية.

٧ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص٨٥

٨ - المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص ٤٤٤

العدل ويعنون به قياس أحكام الله على ما يقتضيه العقل والحكمة، وبناء على ذلك نفوا أن يكون الله خالقا لأفعال عباده، وقالوا: إن العباد هم الخالقون لأفعال أنفسهم إن خيرا وإن شرا، قالت المعتزلة: " **إن جميع أفعال العباد من حركاتهم وسكونهم في أقوالهم وأفعالهم وعقودهم لم يخلقها الله عز وجل**"[1]. وأوجبوا على الخالق فعل الأصلح لعباده، قال الشهرستاني :"**اتفقوا - أي المعتزلة - على أن الله لا يفعل إلا الصلاح والخير، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد وأما الأصلح واللطف ففي وجوبه عندهم خلاف وسموا هذا النمط عدلا** "[2]، وقالوا أيضا بأن العقل مستقل بالتحسين والتقبيح، فما حسنه العقل كان حسنا، وما قبحه كان قبيحا، وأوجبوا الثواب على فعل ما استحسنه العقل، والعقاب على فعل ما استقبحه[3].

المنزلة بين المنزلتين وهذا الأصل يوضح حكم الفاسق في الدنيا عند المعتزلة، وهي المسألة التي اختلف فيها واصل بن عطاء مع الحسن البصري[4]، إذ يعتقد المعتزلة أن الفاسق في الدنيا لا يسمى مؤمنا بوجه من الوجوه، ولا يسمى كافرا بل هو في منزلة بين هاتين المنزلتين، فإن تاب رجع إلى إيمانه، وإن مات مصرا على فسقه كان من المخلدين في عذاب جهنم[5].

الوعد والوعيد[6] مقصود به إنفاذ الوعيد في الآخرة على أصحاب الكبائر وأن الله لا يقبل فيهم شفاعة، ولا يخرج أحدا منهم من النار، فهم كفار خارجون عن الملة مخلدون في نار جهنم، قال الشهرستاني:" **واتفقوا - أي المعتزلة - على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض. وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار وسموا هذا النمط وعدا ووعيدا**"[7].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا الأصل يوضح موقف المعتزلة من أصحاب الكبائر سواء أكانوا حكاما أم محكومين، قال الإمام الأشعري في المقالات :" **وأجمعت المعتزلة إلا على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الإمكان والقدرة باللسان واليد والسيف كيف قدروا على**

---

١ - ابن حزم، الفصل في الملل، جـ ٤، ص ١٤٦.

٢ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٤٥

٣ - المسعودي، مروج الذهب، ١، ص ٤٤٤

٤ - المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٥، ص ١٤٢. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٢٨، ٤٦، ٤٨. أبو الفداء، المختصر، ص ١٤٥. الحموي، ثمرات الأوراق، ص ٤

٥ - المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص ٤٤٤

٦ - المصدر نفسه، ص ٤٤٤

٧ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٤٥

ذلك"[1] فهم يرون قتال أئمة الجور لمجرد فسقهم، ووجوب الخروج عليهم عند القدرة على ذلك وغلبة الظن بحصول الغلبة وإزالة المنكر[2].

واشتهرت المعتزلة بعلم الكلام الذي يقصد به الجدل الديني في الأمور العقيدية ويسمى المشتغلون به المتكلمون، وتعد المعتزلة من أشهر فرقهم حيث دخلوا في محاورات ومجادلات مع غيرهم من المرجئة والرافضة والشيعة، والنصارى، واليهود، والمانويين. وترفع المعتزلة من فضيلة الكلام ويقول الجاحظ في هذا الجانب :" **والشكر لا يكون إلا بالكلام ثم إن الكلام آلة الشكر على النعمة. وقد أوجب الله الشكر وقال لئِنْ شكرْتُمْ لأزِيدنكُمْ، وأعظم دليل على فضيلة الكلام، هو الحاجة إليه لإثبات وجود الله وتصديق رسالة النبي، ومعرفة حقائق الأديان، والتمييز بين الحجة والشبهة، ودعم مبادئ المعتزلة في التعديل والتوحيد والاختيار**"[3]

يستعمل الجاحظ اللفظ - علم الكلام- لإثبات وجود الله وتصديق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ومعرفة حقائق الأديان، والتمييز بين الحجة والشبهة، ودعم مبادئ المعتزلة في التعديل والتوحيد والاختيار وذلك في رسالة تفضيل النطق على الصمت وقد يتبادر إلى الذهن أن الجاحظ يناقض نفسه ويقول الشيء وضده[4]. لكن الحقيقة أن الجاحظ في هذه الرسالة يذم الصمت ويمدح الكلام من ذلك قوله "**إني وجدت فضيلة الكلام باهرة، ومنقبة المنطق ظاهرة، في خلال كثيرة، وخصال معروفة، ولم أجد للصمت فضلاً على الكلام مما يحتمله القياس، لأنك تصف الصمت بالكلام، ولا تصف الكلام به** "[5].

ويظهر أسلوب الجاحظ المعتزلي في ناحية أخرى من خلال رسالة كتمان السر وحفظ اللسان التي يدعو فيها إلى تقييد اللسان ويحث على السكوت. والواقع أن الجاحظ لا يقع في التناقض وإنما يسوق في رسالة كتمان السر وحفظ اللسان أقوالا لبعض الحكماء تدعو إلى إخضاع الكلام للعقل لكي لا يأتي لغوا، يقول الجاحظ: " **فانظر بأي الأمرين قطعت عمرك؟ أبالحكمة أم باللغو؟ وانظر كيف وصف الله تعالى من أثنى عليه بخير من عباده فقال: " والذين هم عن اللغو مُعْرِضون "، وقال: " وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه "، وقال: " وإذا مروا باللغو مروا كراماً ". وصان عنه أسماع أهل الجنة وألسنتهم فقال: " لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً. إلا قيلاً سلاماً سلاما ". وقال رسول الله صلى**

---

١ - الأشعري، مقالات الإسلاميين، جـ ١، ص ٤٤

٢ - المسعودي، مروج الذهب، ١، ص ٤٤٤

٣ - الجاحظ، رسالة تفضيل النطق على الصمت، ص ٥٦

٤ - المصدر نفسه، ص ٢٣٣

٥ - المصدر نفسه، ص٣٠١

الله عليه وسلم: **" العبادة عشرة أجزاء، تسعةٌ منها في الصمت ". وقال علي بن أبي طالب: " أفضل العبادة الصبر وانتظار الفرج "**[1].

وحاول الجاحظ بيان دور المعتزلة في خدمة الاسلام في أنها جادلت الثنوية[2] وردت مقالاتهم ووطأت لأهل السنة الطريق إلى إثبات عقيدتهم عند مجادلتهم للثنوية ولغيرها من الفرق وفي ذلك يقول **" إنه لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل. فإن لم أقل، ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة، فإني أقول: إنه قد أنهج لهم سبلا، وفتق لهم أمورا، واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة، وشملتهم بها النعمة. واسترقت، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون"**[3].

كانت المعتزلة تؤمن بالعقل، كما كان علم الكلام والجدل موضوع كل مجلس وكل منتدى، فنزع الجاحظ نزعة اعتزالية، وإذا كان أساتذة عصره قد طبّعوا الجاحظ بميزات فكرية وأدبية ولغوية وعلمية فريدة، فإن المعتزلة تركت آثارها العقلية عميقة في كتاباته، وطرائق تفكيره وتأليفه. وبات له نمط واضح ثابت، يستدلّ عليه من كتبه. الجاحظ يُعَدُّ صاحب رسالة في الإصلاح الاجتماعي عليه أن يؤديها دون تقية أو خوف عملا بمبدأ المعتزلة الداعي إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[4] **"كل امرئٍ فحسيب نفسه، غير مأخوذ بغيره، وهو الوحيد دون الأهل والولد والقرابة. وقال الله جل ثناؤه - وقوله الحق - " كل امرئٍ بما كسب رهينٌ "[5]. وقال: " يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم "[6]. وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا مع السيف والسوط "**[7].

ومن منطلق اعتزاله، حاول إظهار وسطية المعتزلة ويظهر ذلك جلياً من إبرازه لمبدأ المنزلة بين المنزلتين، أي التوسط في الأحكام بين الإفراط والتفريط، وبين الإيمان والكفر في حق مرتكب الكبيرة. فالمعتزلة لا يغلون كالخوارج فيكفرون عليا، ولا يقصرون كالمرجئة فيعلقون الحكم ويتركون الأمر لله، وإنما يقتصدون ويتوسطون وهذا الاشتقاق، التوسط

١ - الجاحظ، رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ص١٠٨.

٢ - الثنوية أصحاب المقنع، سموا بذلك لتبييضهم ثيابهم خلافا للمسودة من أصحاب الدولة العباسية. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ١، ص١٤٢-١٤٣. لسان العرب، جـ ١٠، ص١٤٧.

٣- الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٣٦٠

٤ - الجاحظ، مقدمة كتاب البخلاء، ص ٦

٥ - سورة الطور، الآية ٢١.

٦ - سورة المائدة، الآية ١٠٥.

٧ - الجاحظ، رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ص ١٦٣.

والاقتصاد هو الاعتزال لغلو من غلا وتقصير من قصر" أن نقضي بأنه كفر إلا بعد أن نجد من ذلك بدا فيكون الحق أحق ما قضي به وصبر عليه. فمن كانت- حفظك الله- هذه سيرته وطريقته في أدنى أوليائه، فكيف تظنه في ارفع أوليائه؟ فهذا ما لا يحل لي أن أظنه بعلي بن أبي طالب، فإن كان عندك برهان واضح ودليل بين يكشف لنا عن الحال حتى يتبين به انه كان سببا في إراقة دمه، فعلينا السمع واليقين والإقرار، وعليك البيان والإفهام بالدليل والحرص"[1] لقد أوضح الجاحظ في هذه الرواية طريقة المعتزلة في الحكم على الناس بمن فيهم علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) . وهي طريقة تتسم بالاعتدال وتتجنب الغلو والتقصيّر، وتضع درجات في سلم الأعمال تتوسط بين الكفر والإيمان وهذه الدرجات هي الصواب والخطأ والخطيئة والإثم والضلال. ثم تلتزم بعدم إصدار الحكم إلا بعد توافر الأدلة التي تفضي إلى اليقين. وبسبب قدرتهم الكبيرة علي الجدال والإقناع يحسب لهم محاربتهم لظاهرة الزندقة التي انتشرت بين كثير من الناس في ذلك العصر ورجع كثير من هؤلاء إلى الإسلام[2].

وأبرز الجاحظ رأي المعتزلة لمسألة الإمامة، فقد أكد على أن المعتزلة تذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأمة، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ولا اجتمع المسلمون عندهم على رجل بعينه[3]، وأن اختيار ذلك مفوضُ إلى الأمة تختار رجلاً منها ينفذُ فيها أحكامه، سواء كان قرشياً أم غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان، ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره، وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك وإلى هذا المعنى يشير الجاحظ بقوله: " وأن الناس إن تركوا أن يقيموا إماماً واحداً جاز لهم ذلك، ولم يكونوا بتركه ضالين ولا عاصين ولا كافرين؛ فإن أقاموه كان ذلك رأياً رأوه، وغير مضيق عليهم تركه. ولهم أن يقيموا اثنين، وجائز لهم أن يقيموا أكثر من ذلك، ولا بأس أن يكونوا عجما وموالي، ولكن لابد من حاكم، واحداً كان أو أكثر على حال"[4].

وبناء على هذه القاعدة لا يجد الجاحظ دليلا كافيا يتبين منه أن عليا كان سببا في إراقة دم عثمان - رضي الله عنه - من أجل الإمامة، فيصدر عليه حكما بالكفر. أما معاوية فلا يستحق الإمامة لعدم توافر أسبابها فيه، وقد اغتصبها بالقوة والخديعة ومختلف الوسائل التي توافق الكتاب والسنة وتخالفهما على عكس علي الذي كان يلتزم الكتاب والسنة ولا يلجأ إلى المكائد.

---

١ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٨١.

٢ - خليفة، تيار الشعوبية، ص ٦٠

٣ - المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص ٤٤٤

٤ - الجاحظ، رسالة في جوابات الإمامة، جـ ٤، ص ٢٨٥.

ولكن هذه الخصال كما يرى الجاحظ لا تكفي وحدها لاستحقاق الإمامة. فالإمامة لا تستوجب إلا بالتقدم في الفضل والسوابق، على أن يكون ذلك الفضل ظاهرا ومشهورا عند الناس، أو بالشورى، أو بالميراث، أو بالوصية، أو باجتماع القرابة وحرمة العترة بالإضافة إلى الخصال الكريمة[١].

هذه الوجوه الخمسة لاستحقاق الإمامة عددها الجاحظ لأنها تمثل آراء أهم الفرق في عصره[٢]. فالمعتزلة قالوا بالوجه الأول وقد عرضه الجاحظ في رسالة العثمانية "**فلما كان أبو بكر وعلي بن أبي طالب على ما وصفنا وذكرنا، علمنا أن أفقههما أفضل فضلا وأولى بالإمامة** "[٣]، والعباسيون قالوا بالوجه الثاني المتمثل في تعيين عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - الستة الذين جعلهم شورى وقد بسطه الجاحظ في رسالة العباسية " **إنهما لم يجحدا التنزيل ولم ينكرا النصوص، ولكنهما بعد إقرارهما بحكم الميراث وما عليه الظاهر من الشريعة، ادعيا رواية وتحدثا بحديث لم يكن محالا كونه ولا ممتنعا في حجج العقول مجيئه، وشهد لهما عليه من علته مثل علتهما فيه**" [٤]، والشيعة الإمامية قالوا بالوجه الرابع " **أو يكون ذلك نتيجة خصال كريمة لاقت القرابة وحرمة العترة، فبلغ صاحبها باجتماع الخصلتين ما لا يبلغه صاحب الواحدة ويكون مقنعا للإلف لأنه أمس بالمعدن وأقرب من صاحب المقام وأحرى أن لا يخفى مكانة على بعيد**"[٥] .

أما الزيدية فقالوا بالوجه الخامس " **اللهم إلا بما أخص به العترة بسبب القرابة** "[٦]. لكن معاوية كما يرى الجاحظ لا يستحق الإمامة تحت أي وجه من الوجوه التي عرضها.

١- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٢٩.

٢ - EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JÄHIZ,p ٣١

٣- الجاحظ، العثمانية، ص ٦٠

٤- الجاحظ، رسالة العباسية، ٤٦٨

٥- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٤٤.

٦- المصدر نفسه، ص ٣٦٩.

الخاتمة

أوضحت الدراسة أن الجاحظ على الرغم من أصله غير العربي (كان من موالي بني كنانة)، ومع ذلك فقد ظهر جليا دفاعه عن الإسلام والعرب تجاه مناهضيهم، وهو يعبر عن حاله في هذا العصر حيث تغيرت فيه معايير الانتماء للعروبة فلم يعد النسب هو الأساس بل غدت الثقافة والفكر والولاء معايير في هذا المجال.

كما عرضت الدراسة دور الواقع السياسي والفكري الذي عاشه الجاحظ في تبلور شخصيته الموسوعية، إذ إن حياته في البصرة متنقلا بين أسواقها وحوانيتها مستمعا للمناظرات الشعرية والمجادلات الفكرية أسهمت في تبلور شخصيته، بعد تتلمذه على كبار رجال المعتزلة أمثال: أبي الهذيل العلاف والنظام، فتأثر الجاحظ بمنهج المعتزلة القائم على تحكيم العقل، وقد لمع الجاحظ في الاعتزال حتى غدا من كبار رجاله. وكان هذا سببا في التقارب بينه وبين السلطة في عهد الخليفة المأمون الذي اتخذ الاعتزال مذهبا لدولته.

كذلك كشفت الدراسة حجم نفوذ الفرس في مختلف مفاصل الدولة العباسية، فعلى الرغم من طموح الجاحظ في القرب من السلطة العباسية التي ولته أرفع دواوينها شأنا (ديوان الرسائل في عهد الخليفة المأمون) إلا أنه اضطر إلى ترك العمل بعد يومين حين أدرك مدى حجم النفوذ الفارسي في دواوين الدولة، ودورهم في تحريك وتأجيج تيار الحركة الشعوبية.

وتمثل موقف الجاحظ المناوئ لحركتي الشعوبية والزندقة من خلال ما كتبه وصنفه في الرد على أفكارها المنحرفة. ولما كانت أنساب العرب وأخلاقهم بغية الشعوبية وهدفها فإن الجاحظ صنف في الدفاع عنها، وبيان شرف النسب العربي، وكريم أخلاقهم، وتأكيدا على ذلك فقد جعل -في الوقت نفسه- أبطال قصصه في كتاب البخلاء من العجم. وقد كان للدور الذي لعبه الجاحظ في هذا المجال سبب في حفظ تراثه، مقارنة بتراث المعتزلة الذي تعرض في معظمه إلى التلف في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

أيضا حددت الدراسة بعض ملامح منهج الجاحظ في الكتابة (التاريخية) والتي من أبرزها تقديم العقل على النص، وعدم اهتمامه بالإسناد، أما منهجه في الروايات فلا يأخذ نسقا واحدا من حيث الطول والقصر اعتمادا على طبيعة الموضوع الذي يعالجه. ويعد الاستطراد سمة غالبة على منهج الجاحظ معللا ذلك برغبته في إبعاد السأم والضجر عن القارئ.

كما أكدت الدراسة أن مبدأ الحياد الذي نادى به الجاحظ في أكثر من موضع لم يلتزم به في تناوله بعض الروايات التاريخية، وخاصة تلك المتعلقة بتاريخ بني أمية السياسي، فنجد

كتاباته خلال الفترة من عام ١٩٨هـ / ٨١٣م. تاريخ التحاقه بخدمة المأمون الذي كان قد أعجب بفكره بعد اطلاعه على رسالته في (وجوب الإمامة) فقربه وجعله منبرا إعلاميا للدفاع عن الدولة العباسية، فكانت كتاباته حول بني أمية -بشكل عام- خلال هذه المرحلة تتسم بالتنقيص والتشنيع والطعن، وقد استمرت هذه الحالة حتى الانقلاب السياسي الذي حدث في عهد الخليفة المتوكل عام ٢٣٢هـ /٨٤٦م والذي كان من أبرز إجراءاته إبطال القول بخلق القرآن، وإبعاد المعتزلة عن السلطة والنفوذ، إضافة إلى اتباعه سياسة تعتمد على الكتاب والسنة. لقد كان لذلك أثره في موقف الجاحظ وتوجهاته الفكرية، فقد شعر بعدم الحاجة إليه فعاد ليستقر بالبصرة، متحررا من التزاماته السياسية تجاه الدولة العباسية. فقد تغيرت فيه كتاباته نحو الأمويين بسبب تغير التوجه السياسي فخلت كتاباته من التشنيع على بني أمية، كما خلت عباراته من مديح مذهب المعتزلة، ومدح بني العباس إلا ما ندر.

وأظهرت الدراسة أن ميل الجاحظ السياسي نحو العباسيين أوقعه في تناقض مع كثير من مبادئ مذهبه المعتزلي، وخاصة قضية التوريث فعلى الرغم أنه قد عابها على بني أمية، وانتقد ما فعله معاوية من توريث ابنه يزيد إلا أنه جوز ذلك لبني العباس "من باب مصلحة الأمة".

وختاما فإن الباحث سعى في هذه الدراسة الكشف إلى عن شخصية الجاحظ وفكره وميوله السياسية وأثرها في كتاباته ومواقفه من التطورات السياسية والتيارات الفكرية في العصر العباسي. وتُوصي الدراسة بالتركيز في الدراسات المستقبلية على تناول الجوانب الاقتصادية والاجتماعية خلال العصر العباسي من خلال مدونات الجاحظ وخاصة التي ما زالت مخطوطة أو نشرت حديثا.. والله اسأل التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأساسية

١. القرآن الكريم.

ثانياً: الكتب المطبوعة

أ. المصادر

١. ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي(ت: ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م). إعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشتر، ط١، مجمع اللغة العربية، دمشق: ١٩٦١م.

٢. الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد بن أبي الفتح(ت:٨٥٠هـ / ١٤٤٦م). المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق مفيد محمد قميحه، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٣م.

٣. ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني(ت: ٦٣٠هـ/ ١١٦٠م). الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت: ١٩٨٢م.

٤. الأسفراييني، أبو المظفر طاهر بن محمد (ت: ٤٧١هـ/١٠٧٨م). التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تحقيق كمال يوسف الحوت، ط١، عالم الكتب، لبنان: ١٩٨٣م.

٥. الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة(ت: ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م). مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق نعيم زرزور، ط١، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٥م.

٦. الأصفهاني، أبو الفرج (ت: ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م). الأغاني، تحقيق يوس البقاعي، ط ١، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت: ٢٠٠٠م.

٧. ابن أعثم الكوفي، أبي محمد أحمد (ت: ٣١٤هـ / ٩٢٦م). الفتوح، تحقيق علي شيري، ط١، دار الأضواء، لبنان: ١٩٩١م.

٨. الأنباري، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد(ت: ٥١٣هـ / ١١١٩م). نزهة الألباب في طبقات الأدباء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٣م ٢٠٠٣م.

٩. ابن بسام الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام(ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧م). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت: ١٩٩٩م.

١٠. البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي(ت٤٢٩هـ / ١٠٢٧م). الفرق بين الفرق، تحقيق البير نصري نادر، ط ٢، دار المشرق، بيروت: ١٩٨٣م.

١١. البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت:٤٨٧هـ/١٠٩٤م). معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت: ٢٠٠٣م.

١٢. البلاذري، أحمد بن يحيى(ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢ م). أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار، ط١، دار الفكر، بيروت: ١٩٩١م.

١٣. التميمي، سيف بن عمر(ت:٢٠٠هـ / ٨١٥م). الفتنة ووقعة الجمل، تحقيق أحمد راتب عرموش، ط٧، دار النفائس، بيروت: ١٩٩٣م.

١٤. التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس(ت ٤٠١هـ/ ١٠١٠م) . البصائر والذخائر، تحقيق وداد القاضي، ط ٥، دار صادر، بيروت: ٢٠١٠م.

١٥. الثعالبي، عبدالملك بن محمد إسماعيل(ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧).ثمار القلوب في المضاف و المنسوب، دار المعارف، القاهرة: ١٩٨٥م.

١٦. ـــــــــ. تحسين القبيح وتقبيح الحسن، تحقيق شاكر العاشور، دمشق: ٢٠١٢م.

١٧. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت٢٥٥هـ/ ٨٦٩م). الحيوان، تحقيق يحيى الشامي، دار ومكتبة الهلال، بيروت: ٢٠١٠م.

١٨. ـــــــــ. البخلاء، تقديم وشرح عباس عبد الستار، دار ومكتبة الهلال، بيروت: ١٩٩٣م.

١٩. ـــــــــ. البيان والتبيين، قدم له وشرحه علي أبو ملحم، ط ٢، دار ومكتبة الهلال، بيروت: ١٩٩٢م.

٢٠. ـــــــــ. البغال، ، دار ومكتبة الهلال، بيروت: ١٩٩٧م.

٢١. ـــــــــ. رسالة في مناقب بني العباس. تحقيق محمد محمود الدروبي، جامعة آل البيت، الأردن: ٢٠٠٣م.

٢٢. ـــــــــ. الرسائل السياسية: رسالة المعاش والمعاد- كتاب الأوطان والبلدان- رسالة العثمانية – رسالة الحكمين – رسالة فضل هاشم على عبد شمس - رسالة العباسية – رسالة مناقب الترك – رسالة فخر السودان على البيضان – كتاب الحجاب –

كتاب ذم أخلاق الكتاب، قدم لها وبوبها علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت: ٢٠٠٤م.
٢٣. ـــــــــــــ. الرسائل الكلامية: كتاب صناعة القواد – كتاب القيان – كتاب النساء – كتاب المسائل والجوابات في المعرفة – كتاب حجج النبوة – كتاب خلق القرآن – كتاب استحقاق الإمامة – كتاب نفي التشبية والرد على المشبهة – كتاب النابتة – كتاب الرد على النصارى، قدم لها وبوبها علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت: ٢٠٠٤م.
٢٤. ـــــــــــــ. الرسائل الأدبية: رسالة كتمان السر وحفظ اللسان – رسالة الحاسد والمحسود – النبل والتنبل وذم الكبر – مفاخرة الجواري والغلمان – تفضيل البطن على الظهر – كتاب المعلمين – طبقات المغنين - طبقات الوكلاء – مدح التجار وذم عمل السلطان – رسالة الفتيا – مدح النبيذ وصفة أصحابه – الشارب والمشروب – البلاغة والإيجاز – تفضيل النطق على الصمت – رسالة في صناعة القواد – رسالة الجد والهزل – فصل مابين العداوة والحسد – رسالة في استنجاز الوعد – رسالة إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب – رسالة في المودة والخلطة – رسالة التربيع والتدوير، قدم لها وبوبها علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت: ٢٠٠٤م.
٢٥. ـــــــــــــ. تهذيب الأخلاق، درا الصحابة للتراث، طنطا: ١٩٨٩م.
٢٦. التاج في أخلاق الملوك (منسوب للجاحظ)، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الفكر، بيروت: ١٩٥٥م.
٢٧. الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن(٤٧١هـ / ١٠٧٨م). أسرار البلاغة، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٥م.
٢٨. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(ت: ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م). مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، ط ٢، دار هجر، الرياض: ١٩٨٨م.
٢٩. ـــــــــــــ. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد الوهاب، مطبعة الأمانة، القاهرة: ١٩٨٥م.
٣٠. ـــــــــــــ. مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، تقديم سعيد اللحام، مكتبة الهلال، بيروت: ٢٠٠٣م.
٣١. الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت: ٣٣١هـ / ٩٤٢م). الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، ط ٢، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة: ١٩٨٠م.
٣٢. . ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي(ت: ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م). تهذيب التهذيب، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد: ١٩٠٧م.

٣٣. ــــــــــــــ. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، شرح عبد العزيز بن عبدالله، دار المعرفة، بيروت: ١٩٦٠م.
٣٤. ــــــــــــــ. لسان الميزان، ط١، دار الفكر، بيروت: ١٩٨٨م.
٣٥. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري(ت: ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م). الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، القاهرة: ٢٠١٠م.
٣٦. ــــــــــــــ. جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة: ١٩٦٢م.
٣٧. الحموي، تقي الدين أبو بكر بن محمد بن حجة(ت:٨٣٧هـ / ١٤٣٣م). ثمرات الأوراق، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، المكتبة العصرية، مصر: ٢٠٠٥م.
٣٨. الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله(ت:٦٢٦هـ/١٢٢٨م). معجم الأدباء، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٨٨م.
٣٩. ــــــــــــــ. معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٧٩م.
٤٠. الحميري، محمد عبدالمنعم(ت: ق ٨ / ق١٤م). الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط١، مكتبة لبنان، بيروت: ١٩٨٤م.
٤١. ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت: ٢٧٢هـ/٨٨٥م). المسالك والممالك، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٨٨م.
٤٢. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت(ت ٤٦٣هـ / ١٠٧١م). تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧١م.
٤٣. ــــــــــــــ. تقييد العلم، تحقيق يوسف العش، ط٢، دار إحياء السنة النبوية، القاهرة: ١٩٧٤م.
٤٤. ابن خلدون، عبد الرحمن(ت: ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م). المقدمة، شرح وتقديم محمد الاسكندراني، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت: ٢٠٠٥م.
٤٥. ــــــــــــــ. المقدمة، تحقيق حجر عاصي، دار الهلال، بيروت: ١٩٨٣م.
٤٦. ــــــــــــــ. تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط ١، دار الكتاب العلمية، بيروت: ١٩٩٢م.
٤٧. ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر(ت: ٦٨١هـ / ١٢٨٢م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، منشورات الثقافة، بيروت: ١٩٦٩م.

٤٨. ابن خياط، أبي عمر خليفة بن خياط بن أبي هريرة(ت: ٢٤٠هـ / ٨٥٤م). تاريخ خليفة بن خياط، مراجعه مصطفى فواز وآخرون، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٥م.
٤٩. ــــــــــــ. طبقات خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط٢، دار طيبة، الرياض: ١٩٨٢م.
٥٠. الدار قطني، علي بن عمر(ت: ٣٨٥هـ / ٩٩٥م). المؤتلف والمختلف، تحقيق موفق بن عبد الله، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت: ١٩٨٦م.
٥١. ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان(ت: ٢٨١هـ / ٨٩٤م). حلم معاوية، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، بيروت: ٢٠٠٣م.
٥٢. الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داوْد(ت٢٨٢هـ / ٨٩٥م). الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مكتبة المثنى، بغداد: ١٩٩٧م.
٥٣. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز(ت: ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م). سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة، القاهرة: ١٩٨٥م.
٥٤. ــــــــــــ. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد معروف، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت: ٢٠١٠م.
٥٥. ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد (ت: ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م). ذيل طبقات الحنابلة، دار المعرفة، بيروت: ١٩٥٢م.
٥٦. ابن رشيق القيرواني، الحسن(ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م). العمدة في محاسن الشعر وآدابه و نقده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٧م.
٥٧. الزبيدي، محمد مرتضى(ت: ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م). تاج العروس من جواهر القاموس، ب ط، دار صادر، بيروت: ٢٠١١م.
٥٨. ابن السائب الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب(ت:٢٠٤هـ/ ٨١٩م). جمهرة النسب، تحقيق ناجي حسن، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة:٢٠١٠م.
٥٩. ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري(ت: ٢٣٠هـ / ٨٤٤م). الطبقات الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٧م.
٦٠. السمعاني، أبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور الخراساني المروزي التميمي(ت:٥٢٦هـ / ١١٤١م). الأنساب، تقديم محمد أحمد حلاق، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٨٨م.

٦١. السهيلي. عبد الرحمن بن عبد الله(ت: ٥٨١هـ / ١١٨٥م). روض الأنف، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٩١م.

٦٢. السيد المرتضى، أبي القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين (ت: ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م). الأمالي، تحقيق محمد بدر، ط ١، مطبعة السعادة، مصر: ١٩٠٧م.

٦٣. السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر(ت: ٩١١هـ /١٥٠٥م). تاريخ الخلفاء، تحقيق سعيد محمود عقيل، ط١، دار الجيل، بيروت: ٢٠٠٣م.

٦٤. الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م). الملل والنحل، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٧م.

٦٥. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت: ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢م). الوافي بالوفيات، باعتناء هلموت ريتر، وآخرون، ط ١، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت: ٢٠٠٩م.

٦٦. صفي الدين، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت: ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م). مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت: ١٩٩١م.

٦٧. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت:٣١٠هـ / ٩٢٢م). تاريخ الطبري، مراجعه وتقديم نواف الجراح، دار صادر، بيروت: ٢٠٠٣م.

٦٨. ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت: ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م). الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت: ١٩٩٧م.

٦٩. أبو العباس، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي (ت:٢٩٦هـ/ ٩٠٨م). البديع في البديع، ط١، دار الجيل، بيروت: ١٩٩٠م.

٧٠. ابن عبد ربه، أحمد بن محمد(ت: ٣٨٢ هـ / ٩٩٢م). العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحه، المكتبة العصرية، بيروت: ١٩٨٣م.

٧١. ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي (ت: ٦٦٠هـ / ١٢٦١م). بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، مطابع البعث، دمشق: ١٩٨٨م.

٧٢. ابن العربي، محمد بن علي(٥٤٣هـ / ١١٤٨م). العواصم من القواصم، تحقيق عمر طالبي، ط ١، دار الثقافة، الدوحة: ١٩٩٢م.

٧٣. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن(ت: ٥٧١هـ / ١١٧٦م). تاريخ مدينة دمشق حماها الله و ذكر فضلها و تسمية من حلها من الاماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها واهلها، تحقيق سكينة الشهابي، ط ١، دار الفكر العربي، دمشق: ١٩٨٢م.

٧٤. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله(ت: ٣٩٦هـ / ١٠٠٥م). الأوائل، تحقيق محمد السيد الوكيل، ط٢، دار البشير، المنصورة: ١٩٨٧م.

٧٥. ———. الصناعتين(الكتابة والشعر)، تحقيق محمد علي البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٦م.

٧٦. ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد(ت: ٥٨٠هـ / ١١٨٤م). الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، ط١، دار الآفاق العربية، القاهرة: ٢٠٠١م.

٧٧. العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى(ت: ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م). مسالك الأبصار في ممالك الأبصار، جامعة فرانكفورت، ألمانيا: ١٩٨٨م.

٧٨. الغزالي، محمد بن محمد(ت: ٥٠٥هـ / ١١١١م). التفرقة بين الإسلام والزندقة، تحقيق سميح دغيم، دار الفكر اللبناني، بيروت: ١٩٩٣م.

٧٩. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب(ت: ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م). المختصر في أخبار البشر، تحقيق محمود رضوان ديوب، ط ١، دار الكتب العلمية، مصر: ١٩٩٣م.

٨٠. الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب(ت: ٧٢٩هـ / ١٤١٥م). البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق محمد المصري، ط ١، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت: ١٩٨٦م.

٨١. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري(ت: ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م). الشعر والشعراء، تحقيق عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت: ١٩٩٧م.

٨٢. ———. عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٩م.

٨٣. ———. أدب الكاتب، مراجعه درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٩م.

٨٤. ———. الإمامة والسياسة (منسوب لابن قتيبة)، ط ٣، دار الكتب العلمية: بيروت، ٢٠٠٩م.

٨٥. ———. المعارف، ب ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ١٩٩٢م.

٨٦. القرطبي، محمد بن أحمد(ت: ٦٧١هـ / ١٢٧٣م). تفسير القرطبي، دار الشعب، القاهرة: ١٩٦٤م.

٨٧. القزويني، زكريا محمود محمود(ت:٦٨٢هـ/١٢٨٣م). آثار البلاد وأخبار العباد، ط١، دار بيروت، بيروت: ١٩٨٤م.

٨٨. القلقشندي، أحمد بن علي(ت:٨٢١هـ/١٤١٨م). صبح الأعشى في صناعة الانشا، شرح وتعليق محمد حسن شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٧م.

٨٩. الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر(ت: ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م). فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، ط ١، دار صادر، بيروت: ١٩٧٣م.

٩٠. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري(ت:٧٧٤هـ / ١٣٧٢م). البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، ط ١، دار إحياء التراث العربي، مصر: ٢٠٠٩ م.

٩١. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت: ٢٨٥هـ / ٨٩٨م). الكامل في اللغة، تعليق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٨م.

٩٢. ابن المرتضى، أحمد بن يحيى المهدي لدين الله(ت: ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦م). طبقات المعتزلة، تحقيق سوسنة ديفلد، دار مكتبة الحياة، بيروت: ١٩٦١م.

٩٣. ـــــــــــــ. تحقيق الدكتور علي سامي النشار وعصام الدين محمد علي، دار المطبوعات الجامعية ، القاهرة: ١٩٧٢م.

٩٤. المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران(ت: ٣٨٤هـ / ٩٩٤م). نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء (اختصار أبي المحاسن اليغموري)، تحقيق رودولف زلهايم، بفيسبادن، ألمانيا ، ١٩٦٤م.

٩٥. ابن مزاحم، نصر بن مزاحم المنقري(ت: ٢١٢هـ / ٨٢٧ م). وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت: ١٩٩٠م.

٩٦. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي(ت٣٤٦هـ/٩٥٧م). مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ط٦، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت: ١٩٨٤م.

٩٧. ـــــــــــــ. التنبيه والإشراف، دار ومكتبة الهلال، بيروت:١٩٨١م.

٩٨. ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد(ت:٤٢١هـ / ١٠٣٠م). تجارب الأمم، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة: ١٩١٤م.

٩٩. ابن المعتز، عبد الله بن المعتز العباسي(ت: ٢٩٦هـ / ٩٠٨م). طبقات الشعراء، تقديم صلاح الدين الهواري، ط١، مكتبة الهلال، بيروت: ٢٠٠٢م.

١٠٠. ابن معصوم، علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسني الحسيني(ت: ١١١٩هـ / ١٧٠٧م). أنوار الربيع في أنوار البديع، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف: ١٩٨٦م.

١٠١. المقدسي، المطهر بن طاهر(ت: ٣٥٥هـ/ ٩٦٥م). البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد: ب ت.

١٠٢. المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر(ت: ٨٤٥هـ / ١٤٤١م). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

١٠٣. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم(ت ٧١١هـ / ١٣١١م). لسان العرب، ط ٦، دار صادر، بيروت: ١٩٩٧م.

١٠٤. مؤلف مجهول(القرن الثالث الهجري). أخبار العباس وولده(أخبار الدولة العباسية)، تحقيق عبد العزيز الدوري، ط٢، دار الطليعة، بيروت: ١٩٩٧م.

١٠٥. مؤلف مجهول. العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، ط٢، دار الطليعة، بيروت: ١٩٩٧م.

١٠٦. الميداني، أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم(ت: ٥١٨ هـ / ١١٢٤م). مجمع الأمثال، تحقيق قصي حسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت: ٢٠٠٣م.

١٠٧. ابن النديم، محمد بن إسحاق(ت: ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م). الفهرست، ط ١، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة: ١٩٨٥م.

١٠٨. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(ت: ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م). نهاية الأرب في فنون الأدب، ط١، دار الفكر، دمشق: ١٩٨٧م.

١٠٩. الهمذاني، القاضي عبد الجبار. شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار. تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة: ١٩٦٥م.

١١٠. الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي(ت: ٢٠٧ هـ / ٨٢٣ م). المغازي، ط ٣، مؤسسة الأعلمي، بيروت: ١٩٦٦م.

١١١. ابن الوردي، عمر بن مظفر(ت: ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م). تاريخ ابن الوردي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٦م.

١١٢. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب(ت:٢٨٤هـ/٨٩٧م). تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت: ١٩٦٩م.

١١٣. ـــــــــــ. البلدان، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٨٨م.

ثالثاً: المراجع العربية والمعربة

١. أحمد، عزت السيد. فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، منشورات أتحاد الكتاب العرب، دمشق: ٢٠٠٥م.

٢. أمين، أحمد. ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: ٢٠٠٥م.

٣. الأمين، عبد الله. دراسات في الفرق والمذاهب القديمة والمعاصرة، دار الحقيقة، بيروت: ١٩٨٦م.
٤. باحشوان، خلود. نظام ولاية العهد في الدولة الأموية (٤١ - ١٣٢هـ / ٦٦١ – ٧٥٠م)، تقديم فاروق عمر فوزي، ط ١، دار مجدلاوي، الأردن: ٢٠١٣م.
٥. بدوي، عبد المجيد. التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في الشرق الإسلامي من القرن الخامس حتى سقوط بغداد، دار الوفاء، القاهرة: ١٩٨٨م.
٦. بروكلمان، كارل. تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت: ١٩٦٠م.
٧. ـــــــــ. تاريخ الأدب، ترجمة عبد الحليم النجار، ط٥، دار المعارف، القاهرة: ب ت.
٨. البستاني، بطرس. أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار الجيل: بيروت: ١٩٩٧م.
٩. بلا، شارل. الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة إبراهيم الكيلاني، ط ١، دار الفكر، دمشق: ١٩٨٥م.
١٠. جبر، جميل. الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد، دار صادر، بيروت: ب ت.
١١. جبري، شفيق. الجاحظ معلم العقل والأدب، دار المعارف، مصر: ١٩٨٤م.
١٢. ـــــــــ. عصر الجاحظ الزندقة، ط ١، دمشق: ١٩٣١م.
١٣. الحاجري، طه محمد. الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، القاهرة: ١٩٦٢م.
١٤. ـــــــــ. مجموع رسائل الجاحظ، دار النهضة العربية، بيروت: ١٩٨٢م.
١٥. حجاب، محمد نبيه. مظاهر الشعوبية في الأدب العربي، مطبعة الرسالة، القاهرة: ١٩٦١م.
١٦. حسن، إبراهيم حسن. الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط ٧، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة: ١٩٦٤م.
١٧. خريسات، محمد عبد القادر. الدولة الأموية من النهوض إلى السقوط (٤١-١٣٢هـ)، مؤسسة حمادة، الأردن: ٢٠٠٥م.
١٨. خفاجي، محمد عبد المنعم. أبو عثمان الجاحظ، دار الكتاب اللبناني، بيروت: ١٩٨٢م.
١٩. خليفة، علي محمد السيد. تيار الشعوبية في أدب الجاحظ، ط١، دار الوفاء، الإسكندرية: ٢٠١١م.

٢٠. الدجيلي، عبد الصاحب. الشعوبية، ط٢، مطبعة القضاء، النجف: ١٩٦٠م.
٢١. الدوري، عبد العزيز. الجذور التاريخية للشعوبية، ط ٣، دار الطليعة، بيروت: ١٩٨١م.
٢٢. ـــــــ. مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: ٢٠٠٥م.
٢٣. دي بوير، ت ج. تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة علي محمد عبدالهادي، ط ٥، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: ١٩٨٠م.
٢٤. أبو زهرة، محمد. تاريخ الجدل، ط ٢، دار الفكر العربي، القاهرة:١٩٨٠م.
٢٥. سالم، السيد عبد العزيز. دراسات في تاريخ العرب (العصر العباسي الأول)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية: ١٩٩٥م.
٢٦. ـــــــ . تاريخ الدولة العربية، دار النهضة العربية، بيروت: ١٩٧١م.
٢٧. السامرائي، عبدالله سلوم. الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية، المكتبة الوطنية، بغداد: ١٩٨٤م.
٢٨. السندوبي، حسن. تحقيق بعض رسائل الجاحظ، المطبعة الرحمانية، مصر: ١٩٣١م.
٢٩. ـــــــ . أدب الجاحظ، المطبعة الرحمانية، مصر: ١٩٣٥م.
٣٠. ـــــــ. مقدمة رسائل الجاحظ الكلامية، المطبعة الرحمانية، القاهرة: ١٩٣٣م.
٣١. السيد، محمود. تاريخ الدولة الأموية، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة: ٢٠٠٢م.
٣٢. شاكر، محمود. التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٩٨٧م.
٣٣. الشذر، طيبة صالح. ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ، دار قباء للطباعة والنشر، مصر: ١٩٩٨م.
٣٤. صفوت، أحمد زكي. جمهرة خطب العرب، دار الحداثة، بيروت: ١٩٨٥م.
٣٥. ضيف، شوقي. العصر العباسي الثاني، ط ١٥، دار المعارف، القاهرة: ٢٠١١م.
٣٦. العاكوب، عيسى علي. التفكير النقدي عند العرب، ط ٥، دار الفكر المعاصر، بيروت: ٢٠٠٦م.
٣٧. عبد الحميد، عرفان. دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية. بغداد: ١٩٧٧م.
٣٨. عبد الغني، جلال. الجاحظ، دار الأمين، جامعة حيفا: ١٩٨٦م.
٣٩. العش، يوسف. الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها، ط٢، دار الفكر، دمشق: ١٩٨٥م.

٤٠. علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط ٢، جامعة بغداد، بغداد: ١٩٩٣م.
٤١. علي. محمد كرد، أمراء البيان، ط ٢، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة: ١٩٤٨م.
٤٢. عمارة، محمد. المعتزلة والثورة، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت: ١٩٧٧م.
٤٣. العوا، عادل. المذاهب الفلسفية، مطبعة ابن حيان، دمشق: ١٩٦٤م.
٤٤. الفاخوري، حنا. تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت: ١٩٩٦م.
٤٥. فوزي. فاروق عمر. دراسات في التاريخ الإسلامي، ط ١، مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن: ٢٠٠٦م.
٤٦. ــــــــــــ. الجيش والسياسة في العصر الأموي ومطلع العصر العباسي(٤١-٣٣٤هـ / ٦٦١-٩٥٦م)، ط١، دار مجدلاوي، الأردن: ٢٠٠٥م.
٤٧. ــــــــــــ. الخلافة الأموية، ط١، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان: ٢٠٠٥م.
٤٨. ــــــــــــ. الخلافة العباسية، دار الشروق، الأردن: ٢٠٠٣م.
٤٩. ــــــــــــ. العباسيون الأوائل(١٣٢- ٢٤٧ هـ/ ٧٤٩- ٨٦١م)، دار مجدلاوي، الأردن: ٢٠٠٦م.
٥٠. ــــــــــــ. تاريخ الدولة الأموية (دراسة حولية حسب عَهود الخلفاء ٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠م)، دار مجدلاوي، الأردن: ٢٠١٣م.
٥١. ــــــــــــ. مباحث في الحركة الشعوبية مفهومها ابعادها اهدافها، مطبعة المربد، بغداد: ١٩٨٦م.
٥٢. الفياض، عبدالله. تاريخ البرامكة، مطبعة الرشيد، بغداد: ١٩٨٤م.
٥٣. كتابجي، زكريا. الترك في مؤلفات الجاحظ، دار الثقافة، بيروت: ١٩٧٢م.
٥٤. كحالة، عمر رضا(ت: ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م). معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت:١٩٥٧م.
٥٥. اللقاني، رشيدة عبد الحميد. ألفاظ الحياة الاجتماعية في أدب الجاحظ، ط ١، جامعة الملك سعود، الرياض: ١٩٩٣م.
٥٦. ماجد، عبد المنعم. التاريخ السياسي للدولة العربية (عصر الخلفاء الأمويين)، ط ٨، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة: ١٩٩٨م.
٥٧. ــــــــــــ . العصر العباسي الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة: ١٩٧٦م.
٥٨. مردم، خليل. الجاحظ، مكتبة عرفة، دمشق: ١٩٣٠م.

٥٩. المظفر، محمد رضا. عقائد الإمامية، ط ٨، دار الحوراء، بيروت: ١٩٨٨م.
٦٠. النجم، وديعة طه. الجاحظ والحاضرة العباسية، مطبعة الإرشاد، بغداد: ١٩٦٥م.
٦١. الهاشمي. أحمد بن إبراهيم بن مصطفى(ت: ١٣٦٣هـ / ١٩٤٣م). جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة الأعلمي، بيروت: ٢٠٠٨م.

رابعاً: الرسائل الجامعية

١. بجة، زكية. النقد التطبيقي عند الجاحظ (كتاب الحيوان نموذجاً) دراسة تاريخية وصفية، رسالة ماجستير، جامعة الحاج خضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر: ٢٠٠٤م.
٢. الجوزي، عبد المجيد. مكانة العقل في فلسفة الجاحظ، رسالة ماجستير في الفلسفة غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر: ٢٠٠٤م.
٣. الدروبي، محمد محمود. آثار الجاحظ، دراسة توثيقية، رسالة ماجستير في اللغة العربية غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان: ١٩٩٤م.
٤. الزويري، محجوب أحمد سليمان. الإمامة عند الجاحظ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان: ١٩٩٥م.
٥. العطار، جمال فؤاد. أراء الجاحظ في مناقب الأمم ومثالبها، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأمريكية في بيروت، بيروت: ١٩٨٩م.
٦. عقل، أحمد عبد القادر. صراع الحضارات وأثره في الشعر العربي في العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين: ٢٠٠٣م.
٧. هياجنة، إيمان عبد الرحمن. الجاحظ مؤرخاً(١٦٠هـ - ٧٧٦م / ٢٥٥هـ - ٨٦٩م)، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية: ١٩٩٦م.
٨. JAMAL F. EL-'ATTAR, THE POLITICAL THOUGHT OF AL-JÄHIZ WITH SPECIAL REFERENCE TO THE QUESTION OF KHILAFA "IMAMATE", THE DEGREE OF DOCTOR OF PHILOSOPHY, UNIVERSITY OF EDINBURGH ,١٩٩٦.

خامساً: الدوريات

١. البطاينة، محمد. وصول بني أمية إلى منصب الخلافة. مجلة الجامعة الإسلامية ، العدد ٨٣، المدينة المنورة: د ت.
٢. بلا، شارل. محاولة كشف نتاج الجاحظ، مجلة أربيكا، العدد ٣، فرنسا: ١٩٩٣م.
٣. حسن، زاجيه عبد الرزاق. البصرة في حياة الجاحظ، مجلة كلية الآداب، العدد ٢٥، جامعة البصرة، العراق: ٢٠١٢م.
٤. حمزة، يوسف. التعمية الأسلوبية في كتاب الحيوان للجاحظ، مجلة البعث، العدد ٢٨، دمشق: ١٩٨٢م.
٥. حموده، عبد الوهاب. أسلوب الجاحظ، مجلة نور الأدب، العدد ٦، لبنان: ١٩٩٥م.
٦. الخرشة، أحمد غالب ورغدة علي. رسالة مناقب الترك(دراسة تحليلية نصية)، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد ٨، العدد ٤، الأردن: ٢٠١٢م.
٧. الدروبي، محمد محمود. التهم الموجهة إلى الجاحظ، مجلة عالم الفكر، المجلد٣٥، الكويت: ٢٠٠٧م.
٨. ـــــــــــ. موقف الجاحظ من الثقافات الأجنبية، مجلة عالم الفكر، المجلد ٣٧، الكويت: ٢٠٠٨م.
٩. ـــــــــــ. رسالة جديدة للجاحظ في مناقب خلفاء بني العباس، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، حولية رقم ٢٣، قسم اللغة العربية، جامعة آل البيت، الأردن: ٢٠٠٣م.
١٠. ـــــــــــ. مرض الجاحظ ووفاته. مجلة المنارة، المجلد ١٠، العدد ٣، جامعة آل البيت، الأردن: ٢٠٠٤م.
١١. الدروبي، سمير محمود ومحمد محمود. رسالة جديدة للجاحظ في مدح آل دؤاد، المجلد الثاني عشر، العدد ٢، مؤتة للدراسات والبحوث، جامعة آل البيت: ١٩٩٧م.
١٢. سرحان، هيثم. الحِجاج عند الجاحظ. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد١١٥، جامعة الكويت، الكويت: ٢٠١١م.
١٣. السيد، علاء الدين رمضان. صورة المجتمع العباسي في كتاب البخلاء للجاحظ، مجلة جذور التراث، العدد ١٤، نادي جدة الأدبي، جدة: ٢٠٠٣م.
١٤. الصرايرة، سليمان سالم. التكوين الثقافي لعبد الملك بن مروان وولديه الوليد وسليمان(٦٥هـ - ٩٩هـ)، مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد ٢٥، العدد ٥، سلسلة البحوث الإنسانية والاجتماعية، الأردن: ٢٠١٠م.

١٥. الطاهري، علي. الجاحظ والاستطراد، مجلة اللغة العربية وآدابها، العدد ١٤، المجلد ١، كلية الآداب، جامعة الكوفة: ٢٠١٢م.
١٦. عطبة، عبد الرحمن. الشك المنهجي عند الجاحظ من خلال كتاب الحيوان، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ٤، جامعة قطر: ١٩٩٢م.
١٧. غيوه، يوسف. حرائر البلاط العباسي في كتابات الجاحظ، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ١١، جامعة منتوري، الجزائر: ١٩٩٩م.
١٨. ______. المرأة الجارية ودورها الاجتماعي والثقافي في المجتمع العربي الإسلامي من خلال كتابات الجاحظ، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ١٥، جامعة منتوري، الجزائر: ٢٠٠١م.
١٩. فوزي، فاروق عمر. الجاحظ مؤرخا(ملاحظات نقدية حول معالجة الجاحظ للتاريخين الأموي والعباسي)، مجلة كلية الآداب، العدد ٢٩، جامعة بغداد: ١٩٨٠م.
٢٠. ________. طبيعة الحركة الشعوبية، مجلة أفاق عربية، العدد ٦، بغداد: ١٩٧٧م.
٢١. القارصي، محمد علي. الرمز والمطلق في رد الجاحظ على الشعوبية، مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد ٥١، الجامعة التونسية، تونس: ٢٠٠٦م.
٢٢. كريم، سامح. الحيوان بين أرسطو والجاحظ، مجلة العربي، العدد٥٣٦، الكويت، ٢٠٠٣م.
٢٣. المجالي، رابعة. صورة الأقوام الغير عربية في حيوان للجاحظ، حولية أداب عين شمس، المجلد ٤٠، مصر: ٢٠١٢م.
٢٤. النجم، وديعه طه. الجاحظ والنقد الأدبي، حوليات كلية الآداب، الحولية العاشرة، جامعة الكويت: ١٩٨٨م.
٢٥. النعمي، حسن أحمد. موقف الجاحظ من الشعوبية، مجلة الجمعية العلمية السعودية للغة العربية، العدد ٤، الرياض: ٢٠٠٨م.
٢٦. نوري، موفق سالم. الجاحظ بين الدعاية السياسية للسلطة ومعتقده الاعتزالي (دراسة نقدية)، مجلة التاريخ العربي، العدد ١٩، الموصل: ٢٠٠١م.